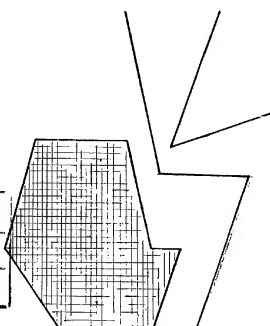


اهداءات ٢٠٠١

اد. محمد طيار

جراح بالمستشفى الملكي المصري

الإسلام والحديثة عبد التاريخ



المجلد ١٠٠٠ رقم ١٠٠٠
العدد ١٠٠٠
رقم التسجيل ١٠٠٠/١٠٠٠

مهندس

فتحي غيث



American University of Beirut (AUB)
Beirut, Lebanon

وفاء :

دين في عنق - أوفيه للمسلمين
في الحبشة والإرتيريا وشرق افريقية

وإهداء :

إلى زوجتي التي طافت معي
وشاركتني مصاعب الحياة . ومعها
أولادنا أحمد وسهير
شم طاهر - الذي ولد هناك
في أديس أبابا

محتويات

صفحة	
١	استهلال
٥	<u>الفصل الأول</u> موجز جغرافي
	منشأ الإسم - تعدد المناطق - طبيعة البلاد - الأنهار - خيرات الأرض .
٩٩	<u>الفصل الثاني</u> العناصر الأساسية لسكان الحبشة
	الحاميين - قبائل البجة - الجالا والصومال - العرب
٢٩	<u>الفصل الثالث</u> موجز التاريخ القديم للحبشة
	تأثير قدماء المصريين - تأثير قدماء العرب - تأثير اليهود الأوائل - أسطورة سليمان وملكة سبأ - دخول المسيحية إلى الحبشة - الرواية الإسلامية للحملة الحبشية على اليمن .
٤٦	<u>الفصل الرابع</u> تاريخ الحبشة في عصور الإسلام الأولى
	اتصال الإسلام بالحبشة - تحليل الخلافات بين المؤرخين في هجرة المسلمين إلى الحبشة ، - ابتداء دخول الإسلام عزلة الحبشة وقبائل البجة - عزلة الحبشة وقبائل الأجاو ومتاعب الدولة المسيحية ، انتشار الإسلام - مجهودات الكنيسة الحبشية ، عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي حكم الأجوريين للحبشة .

صفحة

- ٦٨ الفصل الخامس تفصيل للممالك الاسلامية
حتى نهاية القرن الثالث عشر
- هجرة المسلمين إلى الحبشة - الاسلام في شمال الحبشة
وقبائل البجة - مملكة شوا الاسلامية - الممالك
الاسلامية في شرق الحبشة .
- ٩١ الفصل السادس الحروب الصليبية والحبشة
- التسامح الديني في الإسلام وحوادث الاضطهاد
الحروب الصليبية وأسبابها المباشرة - نتائج الحروب
الصليبية وآثارها - علاقة الحبشة بالحروب الصليبية .
- ١٠٦ الفصل السابع الإسرة السلجمانية والصراع مع الإسلام
(من القرن ١٣ إلى القرن ١٦)
- السلطات الاسلامية - المناطق الاسلامية داخل
المملكة المسيحية - علاقة سلاطين مصر بالحبشة -
بداية الصراع العنيف - عهد عمدا سيون الأول - عهد
أرعد - زره يعقوب ..
- ١٣٢ الفصل الثامن صراع الاسلام في أوروبا
- المسلمون في إسبانيا - المسلمون في صقلية وإيطاليا -
الاسلام في أوروبا وأثره في الحروب الصليبية -
غارات التتار - ظهور الامبراطورية العثمانية - دور
البرتغال .

صفحة

١٤٨ الفصل التاسع الغزو الاسلامي في الحبشة (القرن ١٦)

الغزو العظيم - الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول - تدخل البرتغال - نتائج الغزو العظيم على المسيحيين والمسلمين ، صحوة مؤقته .

١٦٢ الفاصل العاشر قبائل الجالا

الاسلام بين قبائل الجالا - الهجرة الكبيرة لقبائل الجالا
العلاقة بين الديانتين (في القرن ١٧ ، ١٨) ١٧١

الدعوة الكاثوليكية ومقاومتها - التحالف مع المسلمين - عودة الاسلام إلى الانتشار - العودة إلى الخلاف مع المسلمين - الانقسامات الاقليمية ، تفكك الامبراطورية وسيطرة الجالا على العرش ، تقدم الاسلام أثناء الانقسامات الاقليمية .

١٨٧ الفصل الثاني عشر الامبراطور تيورور والحملة الانجليزية

العلاقة مع بريطانيا - طغيان تيورور - حملة نايبير ، هدية الاسلحة الانجليزية للامبراطور يوحنا - مزيد من الاسلحة من روسيا .

٢٠٣ الفصل الثالث عشر عهد الامبراطور يوحنا الرابع

صراع يوحنا مع الاسلام .

٢٠٩ الفصل الرابع عشر الحملات المصرية على الحبشة :

الخلاف بين تيورور وسعيد باشا - مهد إسماعيل فتح هرر - فتح الصومال - الحرب بين مصر والحبشة مع المهديين - كلمة ختامية عن الحملة المصرية .

صفحة

٢٤٠ الفصل الخامس عشر عهد منليك

اسباب انتصارات منليك - حرب منليك مع
إيطاليا - معاهدة اوشيانلى - اتفاق الدول
الأوروبية الثلاثة .

٣٥٣ الفصل السادس عشر ليج ياسو - الامبراطور المسلم

٣٦٠ الفصل السابع عشر العهد الأول للامبراطور هيلاسلاسى

موقفه أمام عصبة الأمم - نشاط هيلاسلاسى ،
حالة المسلمين في عهده الأول .

٣٦٧ الفصل الثامن عشر الاحتلال الإيطالى

موقف الدول الكبرى - الغزو الإيطالى - تأثير
الاحتلال الإيطالى - سياسة الإيطاليين مع
الكنيسة الحثيثة - سياسة الإيطاليين مع المسلمين ،
القضاء على إيطاليا في شرق افريقية .

٢٨٨ الفصل التاسع عشر العهد الثانى للإمبراطور هيلاسلاسى

الخلافات مع إنجلترا - أعباء الدولة الجديدة ، حالة
المسلمين في العهد الثانى لهيلاسلاسى ، الحالة الداخلية ،
محاولة انقلاب

٣١٥ الفصل العشرون الإريتريا

انتشار الاسلام بالإريتريا - أهمية الإريتريا
الحكم الإيطالى - تقرير مصير الإريتريا - الموقف
بعد الاتحاد ،

صفحة

٣٣٥

السكان

الفصل الحادى والعشرين

تقدير السكان - نسبة المسلمين - كيف سيطرت
الحكومة المسيحية (الأقلية) على البلاد .

٣٥٦

عدل

الفصل الثانى والعشرين

حقوق الانسان - آمالنا .

الملاحق

٣٦٣

ملحق رقم ١ التقويم التاريخى .

٣٧٤

ملحق رقم ٢ جدول عناصر الحبشة وأديانها .

(مترجم عن كتاب الاسلام فى اثيوبيا
لترمنجام) .

٣٧٥

ملحق رقم ٣ التقديرات المختلفة لتعداد سكان الحبشة

٣٧٩

ملحق رقم ٤ مراجع عربية

٣٨١

ملحق رقم ٥ مراجع أجنبية

الخرائط

أمام ص - ٥

١ - خريطة الحبشة (اثيوبيا)

ص - ١٢٥

٢ - المقاطعات الاسلامية فى عهد عمداسيون

أمام ص - ٣٥٢

٣ - خريطة (أديان الحبشة)

٣٨٢

فهرست الأعلام والأماكن

تصويب

استهلال

عندما تقرر إيفادى فى مهمة إلى الحبشة فى عام ١٩٤٣ ، عكفت قبل سفرى على الاطلاع على ماوصلت إليه يدى من مراجع عن تلك البلاد ، وكانت أغلبها أما قديمة العهد وأما سطحية ، شأنها شأن كتب الرحلات التى يكتبها بعض المغامرين ، ووجدتها فى جملتها يغلب عليها طابع التواتر الذى يعتمد على إيراد الأخبار منقولة من شخص إلى آخره فلم أكد أصل إلى أديس أبابا وبطول مقامى بها حتى تبينت فقرت تلك المراجع وعجزها عن إعطاء الصورة الحقيقية لتلك البلاد ، وكلما تجولت فى أبحاثها واختلطت بمختلف أجناسها وعشائرها وطوائفها كلما تفتحت أمامى آفاق جديدة من المعرفة بها .

ومنذ أن غادرت الحبشة بعد إقامتى بها قرابة عامين ، وكان ذلك منذ عشرين عاما ، ظل اهتمامى بها متصلا ومتقدما طوال هذه السنين ، وحرصت خلالها على الاطلاع بتطوراتها وبكل جديد مما ينشر عنها ، ومن حسن الحظ وجدت أن بعضها قد بدأ معالجة أمور الحبشة وشرحها على جانب لا بأس به من العمق والناية وبدأت كثير من الحقائق الخافية تظهر بين السطور ، وكان لا بد لها أن تظهر مع الطفرة الهائلة فى وسائل الاعلام والمواصلات التى شملت جميع أنحاء المعمورة ، فأصبحت المجال معلما واندمجت البلاد المنزلة مع المجتمع العالمى الكبير .

وكانت المعلومات عن الاسلام فى الحبشة التى صادقتها فى أغلب المراجع أما خاطئه أو مسموخته أو مبتوره بقصد أو بغير قصد ، الأمر الذى حفزنى على الاهتمام بهذا الموضوع ودفعنى إلى القيام بزيارات متعددة إلى مختلف المناطق متحررا عن الحقيقة ، ولم يكن هذا بالعمل الهين ، ولكن بعد مشاهداتى

(١ - الحبشة)

على الطبيعة واطلاعى على ماأخذ يظهر من مؤلفات وأبحاث ورجوعى إلى ماكتب بين ثنايا مراجع التاريخ ، أصبح من الميسور على وضع كتاب بصور الحقيقة عن الاسلام وأحوال الحبشة قديما وحديثا ، على قدر يرضى الباحث المنصف من حيث الدقة وتحرى الحقيقة الخالصة .

ولكى نكتب عن الاسلام فى الحبشة لابد وأن نهد بالكلام عن تاريخ الحبشة منذ برزت إلى التاريخ ، وكيف تدرجت مع العصور ومرت بها العقائد من وثنيه إلى يهوديه إلى مسيحية ، وكيف دخلها الاسلام وثبت أقدامه بها حتى أصبحت البلاد على ماهى عليه اليوم . نخطا من كل ذلك . ولا يمكن أن نستمرسل فى تاريخ الإسلام فى الحبشة دون أن نمنع فى ذكر تاريخ الحبشة نفسها ، حيث تفاعل أحدهما مع الآخر وأصبحت سلسلة واحدة متصلة الحلقات .

ولا بد أيضا أن نتعرض فى البحث لجغرافية الحبشة وطبيعتها ، فإن كانت طبيعة البلدان ذات أثر كبير فى تاريخها وحضارتها فإنها فى الحبشة أشد أثرا ، مما جعلها متحفا كبيرا للاجناس واللغات والعادات والأديان .

وبالرغم مما عرف عن هذه البلاد من طابع العزلة الذى ظل يغيبا عليها مايقرب من ألف عام ، إلا أننا لمسنا بعد امعان الدرس أن الظروف العالمية الكبرى كان لها أكبر الأثر فى تاريخ الحبشة وإحداثها بالرغم من تلك العزلة ولذلك نهجنا فى هذا الكتاب نهجا خاصا ، وهو كتابة تاريخ الاسلام والحبشة على أساس صلته بالأحداث العالمية الهامة ومدى تأثره بها .

وليس من المعقول أن نغطى فترة ألف سنة من تاريخ مثل هذه البلاد الحافلة بالأحداث والتيارات ، بتفصيل كل صغيرة وكبيرة ، فى مثل الحجم المرتقب لهذا الكتاب لذلك عمدنا إلى الاقتصار على المراحل والعوامل الهامة التى تشكل فى تسلسلها عرضا متصلا وافيا للتاريخ ، مبرزين فى كل

مرحلة وفي كل مناسبة كل ما يتعلق بالاسلام ، وهو الغرض الاصلى من وضع هذا الكتاب .

واتماما للفائدة أرفقنا في نهاية الكتاب ملحقاها ماعبارة عن تقويم تاريخى كامل للحبشة ابتداء من القرن الرابع الميلادى إلى الوقت الحاضر . مبيدين فيه توافق الاحداث الهامة في تاريخ الحبشة مع المراحل التاريخية الهامة في العالم الاسلامى والشرقى ، وكذلك في العالم المسيحى والغربى - في كل قرن من القرون .

أما لماذا رأينا أن نسمى هذا الكتاب « الاسلام والحبشة عبر التاريخ » فاننا فضلا عن ميلنا إلى استعمال الاسم العربى الذى عرفت به هذه البلاد على مر العصور وفي جميع اللغات ، فإن أكثر ما سنعرض له بالبحث يعود إلى تلك العصور التى كان هذا الاسم شائعا عنها ، لذلك رأينا استعماله امتدادا للراجع العربية والتاريخ الاسلامى .

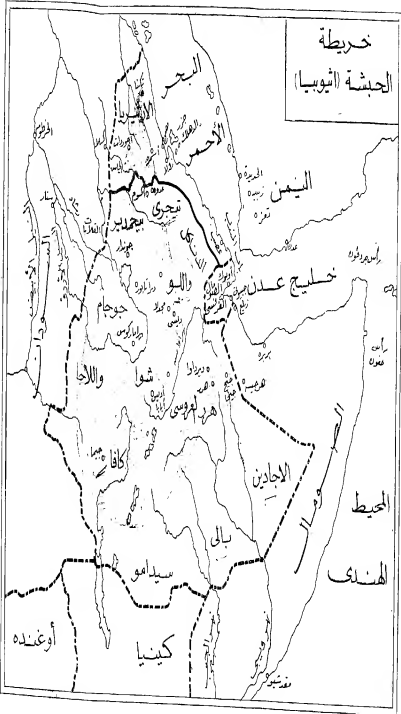
وعندما بدأت الكتابة ، كان ذهنى مليئا بالحوادث التاريخية الكبرى التى غمرت العالم عبر العصور . ووجدتها تشد بعضها البعض وتتبع كل منها من سابقتها ، وظهر كل ذلك واضحا لالبس فيه ولاغموض فى مجربات الأمور فى الحبشة وصلتها الوثيقة بأحداث العالم الخارجى ، بينما جاهد كثير من الكتاب فى حرص وإصرار إلى إثبات عزلة الحبشة بعدها عن تلك المؤثرات .

تركت نفسى على سجيبتها فى الكتابة ملتزما بالنهج الذى اقتنعت به وهو الصلة الوثيقة بين تاريخ الحبشة وتاريخ العالم فى أغلب العصور التى مرت بها فجاه الحديث عن بعض أدوار التاريخ الهامة مثل الحروب الصليبية ، وصراع الاسلام فى أوروبا مطولا ، ورأى أصدقاى أنه رغمنا عن أهمية ما كتبتنه فى هذا الشأن إلا أنه تجاوز الشكل الذى يتناسب مع الغرض الاسامى من الكتاب ، وأجمعوا على ضرورة اختصار تلك الفصول وحذف الكثير منها،

وأن تترك للقارىء فرصة الاستزادة والاطلاع على ما يشاء من التفاصيل في المراجع الأخرى ، وهي لحسن الحظ متوفرة وميسورة .

ولم يقتصر فضل هؤلاء الأصدقاء على هذا الأمر فحسب ، بل امتد إلى جميع صفحات الكتاب وموضوعاته بالتعليق والتصحيح والنصح ، ولأنى إذا أقدمه للقارىء الكريم على هذه الصورة أتقدم بالشكر إلى هؤلاء الأصدقاء الذين أعتز بفضلهم وهم الأساتذة - عبد العزيز حسين وعبد المجيد مصطفى وحسن الدباغ وأمين يوسف غراب وصهرى مصطفى بدر .

خريطة
الجبشة (ثيوبيا)



الفصل الأول

موجز جغرافي

منشأ الاسم :

تدل أبحاث الدراسات على أن الاسم العربي (حبشة) أو (حبشات) الذي يعنى (الخليط) أو الأجناس المختلطة ، قد بدأ يطلق على تلك البلاد منذ أن بدأت تيارات الهجرة إليها من الجزيرة العربية عامة ومن اليمن والجنوب العربي خاصة في القرن السابع قبل الميلاد ، وفي أول الأمر أطلق هذا الاسم على طوائف هؤلاء المهاجرين . ولكن نظرا لكثرتهم وازدياد أهميتهم وتفوقهم على سكان البلاد الأصليين وكذلك لتغلب لغات هؤلاء المهاجرين على اللغة الأصلية في البلاد أصبح الاسم (حبشة) يطلق على جميع المنطقة ، فاختلط المهاجرون الذي ينتمون إلى الجنس السامي (Samitic) مع أهل البلاد الأصليين الذين ينتمون إلى الجنس الهامي (Hamitic) وكان يطلق عليهم عندهم قبائل كوش (Kush) ويسكنون فوق الهضبة العالية التي تتوسط البلاد لاعتدال جوها وغزارها وأمطارها وكثرة العشب ، التي جعلت منها مساحات شاسعة من المراعى المثالية .

أما لفظ (أيوبيا) فهو اسم قديم ، جاء ذكره في كثير من الكتابات الاغريقية القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة . ومعناها الاغريقي هو (الوجه المحروق) ولقد أطلقتها بعض تلك المراجع القديمة وعلى رأسها (العهد القديم) على الممالك النوبية التي تأثرت بالحضارة المصرية

القديمة وامتد بعضهم في اطلاقها إلى جميع سكان القارة الافريقية جنوب الصحراء وأعلى النيل .

وعندما كتب سيريدج (Bugdo) كتابه عن « تاريخ أثيوبيا » بدأ الكلام عن تاريخ منسكة النوبة على أساس أنها جزء من أثيوبيا . ولقد اعتمد في هذا الاتجاه على جميع المراجع القديمة منذ كتاب الاغريق القديما . هومير ، وهيرودوت وغيرهم ، الذين اعتبروا أن بلاداثيوبيا تبدأ من حدود مصر الجنوبية . بينما ذهب العالم الجغرافي سترابو إلى أن بلاد أثيوبيا كانت جزءا من مصر وامتداداً لها وتقع إلى الجنوب منها .

ولقد تعددت الكتابات القديمة وتنوعت بحيث رسخ في ذهن بعضهم أن اسم أثيوبيا يشمل مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وبلاد الهند . وعلى الأخص تلك الشعوب التي تسكن وادي النيل شماله وجنوبه .

ولما كان الاسم في أصله اليوناني معناه (الوجه المحروق) فإن المؤرخين أطلقوه على جميع الشعوب التي يتدرج لونها من السمرة إلى السواد بما فيهم الزوج . وأن البلاد التي تسكنها جميع هذه الشعوب تدعى أثيوبيا . وعلى ذلك لم تنفق المصادر القديمة على حدود معلومة للبلاد التي يطلق عليها هذا الاسم ، بل ظل مشاعا دون تحديد جغرافي . وارتبط هذا الاسم باسم آخر معاصر له وهو كوش (Kusun) الذي يعني نفس الشعوب ونفس المناطق .

ومن دلائل الاضطراب في تحديد المناطق التي كان يشملها هذا الاسم القديم « أثيوبيا » تلك الغزوة التي قام بها ملك النوبة على مصر ، وحكت أسرته النوبية مصر من عام ٧١٢ إلى ٦٦٣ قبل الميلاد وهي الأسرة الخامسة والعشرين ، والتي يسميها المؤرخون بالأسرة الأثيوبية ، مع أنها جاءت من بلاد النوبة ، مما يدل على أن المؤرخين القدامى كانوا يقصدون باسم

اثيوبيا مملكة النوبة ومروى أكثر مما يقصدون غيرها وكانوا يحددون عاصمتها الأولى نباتا (Napata) وعاصمتها الثانية مروى (Merow) وكنائهما في شمال السودان .

ولكن الكتاب في العصور الوسطى والحديثة ، وقد وجدوا أجزاء هامة من هذه المنطقة قد اتخذت لها أسماء محدودة منذ الأزمنة القديمة مثل مصر والسودان ، اختصوا ماعداها بهذا الاسم ومن بينها الحبشة ، ومن هنا نشأت الرغبة الحديثة لدى الحبشة بالانفراد به لرغبتهم في التخلي عن الاسم القديم الشائع عنها والذي يوحى بتعدد الأجناس وتفككها وافتقارها إلى أهم عامل من عوامل تكوين الدول وهو الوحدة العنصرية .

ولقد ظل هذا الاسم محضيا لفترة طويلة من الزمن إلى أن عاد إلى الظهور ثانية في العصر الحاضر^(١) .

وأرجح ما نراه في تحديد هذه الأسماء هو ما يعنيه التقسيم الحالي للدول التي يتألف منها هذا الجزء من القارة الذي يسمى (قرن أفريقيا) . بحيث يطلق أسم (الحبشة) على الهضبة المرتفعة التي كانت تتكون منها الدولة القديمة ويطلق أسم اثيوبيا على الدولة الحالية التي تضم في الوقت الحاضر السهول التي تحيط بتلك الهضبة من شرقها وجنوبها والتي كانت إلى عهد قريب مجموعة من الممالك والسلطنات المستقلة ، أما ما يتأخم البحار فتتكون منه جمهورية الصومال الحالية ، وكذلك الاريتريا في الشمال التي دخلت مع اثيوبيا في اتحاد فيدرالى بعد الحرب الكبرى الثانية .

(١) مراجع في ٢ - ٥ ، ٣٥ تاريخ اثيوبيا لسير بدرج Budge

وكذلك دائرة المعارف البريطانية ج ٨ ص ٧٩٠ (١٩٦٤)

وكذلك ص ١٠ من كتاب Ethiopia to day by luther

وكذلك ص ٢ The Ethiopia by Ullendorff

تعدد المناطق :

وبهذه المناسبة نود أن نلفت النظر إلى أن تعدد الاجناس واللغات والممالك والعصبيات التي من أجلها أكتسبت البلاد أسم الحبشة ، لازالت قائمة إلى اليوم ، فالبلاد ظلت مقسمة في داخلها إلى عديد من المناطق التي تباين فيها العصبية وتعدد فيها اللغات والأديان ، وتشتد بين طوائف الحزازات ومظاهر التنافس ، التي كثيراً مما تتعدى الحدود المألوفة بين طوائفها الدول مما يجعل أسم « الحبشة » أكثر أنطباقاً عليها إلى الآن .

* * *

وزجوا أن يكون واضحاً في ذهن القارىء طوال الفصول القادمة من الكتاب أننا باستعمالنا تسمية الحبشة إنما نقصد الاستمرار في أن نعني بها مملكة الحبشة القديمة التي تسكن مرتفعات الهضبة . وعندما يمتد بنا الحديث إلى غير ذلك من المناطق فأننا سنحاول أن نكون من الوضوح بحيث يتيسر على القارىء معرفة ما نقصده بالضبط .

ومن الصعب معرفة الحدود الحقيقية التي تشمل مملكة الحبشة القديمة ولكن التقدير المعقول هو أن مملكة أكسوم لم تكن تشمل إلا تلك المنطقة الواقعة في شمال الحبشة الحالية ومنتصفها - فوق المرتفعات . وتشمل بناء على ذلك الجزء الجبلي المرتفع في الاريتريا الحالية الذي يشكل امتداداً طبيعياً لمقاطعة التيجرى^(١) .

أما ما بعد العصور القديمة - وإلى عهد قريب - فإن الحبشة التي تقع أيضاً فوق مرتفعات الهضبة حيث تتركز المملكة المسيحية فإنها تشمل مساحة أكبر مما سبق لمملكة أكسوم أن شملته ، فأصبحت تتكون من أربعة ممالك بارزة (حسب ما جاء عن بروس Bruce) وهي مقاطعات (تيجرى - امبرا

شوا - جوجام) . بينما يذهب (سولت Salt) إلى تقسيمها إلى ثلاث مناطق في نفس المواقع باعتبار جوجام جزءا من أميرا^(١) .

تلك هي حدود الحبشة القديمة التي تعنيها ، وأماما هذا ذلك - فمقاطعات منفصلة في أوصافها وظروفها ، مستقلة في أغلب أوقاتها ، تتناوب عليها ظروف متعددة خلال القرون الطويلة . وسنغني بذلك اسم كل منها أثناء الشرح حتى تكون العلاقة بينها وبين الحبشة القديمة واضحة .

وفي تلك المقاطعات الأربع القديمة المذكورة ، تنقل الملك من مقاطعة إلى أخرى وعاصمتها أكسوم في شمال الحبشة إلى أمهرة في وسط الحبشة وعاصمتها جوندرا ، واستمرت كل منهما مركزا للسلطة عدة قرون إلى أن انتقلت في العصور الأخيرة إلى شوا في عهد منبلك الذي أسس مدينة أديس أبابا وجعلها عاصمته إلى الآن .

* * *

ولم تحظ الحبشة في تاريخها الطويل بعمود استقرار كثيرة ، وبدل التاريخ الحبشي من عهد « يكونو أملاك » إلى الآن - ١٩٢٨ وهو تاريخ تسجيل هذه الفقرة في كتاب السير بدج - أنه لم يحاول أي من ملوكهم - ملك الملوك - أن ينشئ دولة مستقرة متصلة ، بل كانت تصرفات كل ملك تملأها الظروف السائدة في عصره ، وكذلك تتحكم فيها رغباته الخاصة ، وكان رائد حكام المناطق وزعمائها أغارة كل منهم على الآخر ، ولم يكونوا يخضعون لسلطة الملك إلا إذا تصادف وكان ذلك الملك قويا وله جيش قوى ، أي أن القوة هي التي كانت توجههم - لذلك لم يحدث أن استقرت الأمور بالصورة التي تسود فيها الأنظمة المستقرة للإدارة والضرائب ، ولم يكن

(١) من ١٧٣ السير بدج A History of Ethiopia by Sir E. A. Wallis Budge. (1928) (١٩٢٨)

هناك توجيه لشئون التجارة والزراعة ، وبالتالي لم يحظ التعليم برعاية الملك واهتمامهم .

و أما من جهة الدين - فان المسيحية كانت مركزه في تلك الممالك الأربع . وكان ملوك الحبشة حريصين على تأييد الكنيسة الوطنية ورعايتها - إلى الحد الذي جعلها قرابة ستة عشر قرناً رغم حروبها مع العرب والعثمانيين والزنج محافظاً على مسيحيتها بدرجة تدعو إلى الإعجاب^(١) .

طبيعة البلاد :

تقع الحبشة الحالية في المنطقة الحارة إلى الجنوب من خط عرض ١٥ وتسكاد في نهايتها تمس خط الاستواء ، وتمتلك القسم الأكبر من (القرن الأفريقي Horn of Africa) ولكنها لا تطل على البحار إلى عن طريق حاضيته إليها من أراضي الأريتريا أخيراً ، وبذلك أصبح لها منافذ خاصة بها في مينائي صوع وعصب ولكنها في أقصى الشمال ، مما يجعل جانبها كبيراً من تجارتها مركزاً على ميناء جيبوتي في الصومال للفرنسي كما كان في السابق .

وتندرج البلاد من سواحل البحار شرقاً ومن السودان وأواسط أفريقيا غرباً في الارتفاع التدريجي ، حتى تصل إلى الهضبة الحبشية التي يتراوح متوسط ارتفاعها بين ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وفيها من المرتفعات والجبال ما يصل إلى ١٤٠٠٠ قدم ، وتبدو تلك الهضبة كأنما تستند من جانبيها على جدارين هائلين جعلت منهما الطبيعة سدين هائلين يحميان في وسطهما أراض غاية في الخصب واعتدال الجو . وتتناوب فيها السهول الخصبة مع الوديان السحيقة والجبال الشاهقة فتجعل منها بلاداً شديدة الوعورة تصادف

(١) ص ١٢٢ سيريدج Budge (١٩٢٨) .

أثناء سفرك خلالها عددا لا حصر له من المواقع التي توحى بالمناعة والقسوة ،
وتلمس منذ اللحظة الأولى السبب الذي جعل هذه البلاد في عزله عن العالم
فبالرغم من تفوذ الديانات إليها وماحلته معها من معاني الحضارة ، فانها
بقيت ذات طابع خاص بها ، حتى أن الانسان يشعر بعد أن يتعد بضعة
كيلو مترات عن أديس أبابا أو أية مدينة أخرى كأنما قد دخل إلى عصور
التاريخ القديمة بكل ما كان سائدا فيها من شدة وفطره .

واقسى تلك الحوائط وعوره ذلك الجرف الهائل الذي يقع إلى الغرب
من بحيرة تسانا ويفصل بين الحبشة والسودان ، وهو الذي يدور من حوله
النيل الأزرق في انحداره من هضبة الحبشة إلى أن يدخل أراضي
السودان .

ولقد درج الكثيرون على تشبيه الحبشة بسويسرا ، وأن كان هذا التشبيه
جائزا لكثرة الجبال والوديان ، فإن الفرق بينهما كبير يجعل من أحدهما
وضعا معكوسا للأخرى . فبينما تملأ الثلوج القمم والمرتفعات السويسرية
وتجعلها قاحلة خالية من السكان الذين يندفعون إلى المعيشة في الوديان
والأراضي المنخفضة حيث يعتدل الجو وتخط بهم الجبال من كل جانب ،
يجد أن الأحباش يعيشون على أقصى المرتفعات والقمم والسهول المرتفعة
هاربين من الوديان حيث تشتد حرارة الجو . وبذلك يطل الحبشي من
مرتفعاته على وديان ومناظر غاية في الروعة والجمال ، ولكنهم بهذا قد
اختراروا لأقامتهم تلك الأماكن والمناطق التي جعلت المواصلات بينها عبر
الوديان في غاية الصعوبة والشدة ^(١) .

• • •

وفي أشهر الصيف عندما تزداد الحرارة على المحيط الهندي وتوجه السحب إلى الهضبة الجبلية تسقط الأمطار الغزيرة من منتصف يونية إلى منتصف سبتمبر وللأمطار فترة أخرى تدعى فترة الأمطار الصغيرة وتقع خلال شهور مارس وأبريل ومايو . وتنظم هاتان الفترتان انتظاما دقيقا عاما بعد عام ، وتترتب عليهما مواعيت الزراعة والحصاد في دورات رتيبة ، وتكفي فترة الأمطار الصغيرة احتياجات الزراعة والري في البلاد ، أما فترة الأمطار الغزيرة فاتها تفيض عن حاجات الهضبة بكميات هائلة تندفق إلى الأنهار العظيمة التي تنبع منها .

وتتميز الهضبة الجبلية باعتدال الجو على مدار السنة في جميع أنحاء الهضبة ، وهو أمر تتميز به تلك المناطق مما جعلها خلال العصور موطئا للمهاجرين لتوفر اعتدال الجو مع خصوبة الأرض وقرارة الأمطار .

• • •

الأنهار :

وأهم الأنهار التي بالجيشة هو النيل الأزرق (Abbay أبابى الكبير) الذي يبدأ من بحيرة تسانا .

وتبلغ مساحة هذه البحيرة ٣٦٣٠ كيلو متر مربع ويتضاعف حجمها أثناء موسم الأمطار وذلك لقرب منسوب البحيرة من منسوب الأرض المحيطة بها ، إذ أنها أشبه بطبق كبير مفرطح الجوانب ، تنوسط سهلا واسعاً من الأراضي الخصبة المعتدلة الجو ، وفي موسم الأمطار يقع عليها حوالي ١٢٥ سنتيمترا من الأمطار وينحدر إليها من السهول المحيطة بها بواسطة عديد من القنوات الصغيرة (واحدة منها أبابى الصغير Little Abbey) كمية أخرى من المياه تمتد بشواطئ البحيرة إلى ما يجعلها ضعف مساحتها الأصلية .

تندفق هذه المياه الزائدة إلى النيل الأزرق عند بدايته بجوار بلدة وجرداره ولقد تضاربت أقوال وحسابات البعثات التي أوفدت لتقدير كمية المياه التي تنحدر من هذه البحيرة حتى أثبتت بعثة هوايت (عام ١٩٣٠) أن تصرف البحيرة في المتوسط هو ٣٨٨ ، مليار من الأمطار المكعبة في السنة ، بينما يبلغ تصرف النيل الأزرق في المتوسط حوالي الخمسين ملياراً . مما بين أن إيراد النيل الأزرق من المياه يأتيه ما ينحدر إليه من شاطئيه بواسطة الأخاديد العديدة التي تصب مياهها فيه خلال موسم الأمطار على هيئة شلالات لاحصر لها .

والنيل الأزرق طبيعة خاصة إذ أنه منذ أن يغادر البحيرة عند (جردار) ينحدر في عنف إلى ذلك الأخدود العميق الذي نحره في الهضبة ، بحيث يصل في انخفاض منسوب مياهه عن سطح الهضبة ما يقرب من ١٨٠٠ متر في بعض الأماكن ، ويبدو من فوق الهضبة كأنه شريط رفيع من القضة .

• • •

ويلى النيل الأزرق في الأهمية ، نهر العطبرة ومصادره المختلفة وأهمها نهر تكازى (Takkaze) الذي ينبع من أواسط الهضبة ثم يصب في العطبرة الذي يدخل بعدئذ إلى السودان .

ويبدأ من شمال الهضبة نهر مارب (Mareb) ويمر بأكمله في الإريتريا حتى يصل إلى حدود السودان ومن هناك يسمى جاش (Gash) حيث يمتد خلال الرمال مارا بمدينة كسلا وينتهي بعدها بقليل .

أما الأنهار الأخرى في الحبشة فهي نهر الجب أو جوبا (Juba) ونهر ويبى شيبلى (Webi Shebli) وهما ينحدران إلى السهل الشرقى الكبير ويتهيان في الصومال .

وبليها نهر بركة (Baraka) الذى يبدأ من مرتفعات أرتيريا ويتجه شمالا إلى البحر الأحمر بالقرب من طوكر .

أمانهر أوأش (Awash) فإنه فى وادى الشق الكبير الموجود فى منتصف الهضبة فى مقاطعة شوا إلى الجنوب من أديس أبابا ، ويتجه شمالا بشرق فى بلاد الدناكل وقبل أن يصل إلى حدود الصومال الفرنسى يتجه جنوبا فى اتجاه جمهورية الصومال حيث يغيب نهائيا فى الرمال قبل أن يصل إلى شاطئ البحر .

* * *

تلك هى الأنهار الأساسية فى الحبشة ولكن البلاد مليئة بعدد لا حصر له من القنوات والأخوار ، التى تمتلئ بالمياه أثناء نزول الأمطار وتندفع فيها بسرعة حاملة معها كميات كبيرة من الطمى الذى يجعل لونها أكثر كثافة وأدكن لونا من مياه النيل فى موسم الفيضان ، ومرعان ماتخفى المياه بعد وقوف المطر ، وتجف هذه القنوات حيث تكون قد تخلصت من مياهها بتجمعها فى قنوات أكبر ، ومنها إلى تلك الأنهار الكبرى التى سبق ذكرها مثل النيل الأزرق ، ومن الظواهر المعهودة أن تعترض مثل هذه القنوات طريق المسافرين (فى الطرق غير المرصوفة) ، وماعلى المسافر إلا أن ينتظر قليلا حتى تجف المياه ويتمكن عبور القنوات وعباود السفر .

* * *

خيرات الأرض :

سبق أن أشرنا إلى خصوبة الأرض فى أغلب أرجاء الحبشة ، ولقد قدر بعضهم مساحة الأراضى الخصبه التى يمكن زراعتها بحوالى ثمانين مليون

فدان^(١) ، وتتكون التربة الحشبية إلى عمق كبير من ذلك الطمي النادر الذي يصل قليلة إلى مصر مع فيضان النيل فيكون تلك القشرة التي تجعل أرض مصر من أخصب بلاد العالم ، فما بالك بالبلاد التي هي مصدر ذلك الطمي النفيس ، وتعاون تلك الخصوبة مع الجو المناسب والأمطار وتعمل من سرعة الانبات وقوته ظاهره نادره الوجود .

وفي مواسم الأمطار تمتلئ البلاد بطبقة كثيفة من الحشائش وتزدهر المراعى ، وللثروة الحيوانية شأن عظيم في هذه البلاد حيث تصبح أمان الأبقار والأغنام زهيدة جدا ، وتتكون منها الغذاء الرئيسى للشعب ، ولو تحسنت وسائل المواصلات لأصبح في الامكان تصدير اللحوم من الحبشة بمقادير كبيرة .

وبالحبشة كثير من الغابات وأهمها تلك التي تقع على الجزء الأوسط من النيل الأزرق على ضفتيه ، وكذلك تلك التي تقع في منتصف الطريق بين أديس أبابا وديسى ، وتنبت فيها كثير من أنواع الاشجار الحشبية وأهمها أشجار الصنوبر، وهي تشكل ثروة كبيرة كامنة في البلاد سوف يكون لها شأن عندما تتحسن وسائل المواصلات وتقل تكاليف نقل الأخشاب من الغابات .

أما الزراعة فان الجزء المستغل من تلك المساحات الواسعة لازال ضئيلا وخصوصا فوق هضبة الحبشة، إذ أن ساكن تلك المنطقة يكتفى بفلاحة ما يزرعه من قطعة الأرض التي تحافظ بكوخه أو قريبا منه ولا يتعدى المزيد فهو في غالب الأمر يفلح الأرض بيديه وقليل منهم يستعمل المهرات ، وتكاد البلاد تكون محرومة من وسائل الري الحديثة ، وبالرغم من كل

(١) هذا التقدير يشمل الأراضي الزراعية والمراعى الجيدة وسيأتى تفصيلا للملك النصل الحادى والعمرين .

هذا التأخر في الزراعة . فقد تمكنت الحبشة من تصدير كميات كبيرة من الحبوب كل عام ، ولقد كانت الحبشة مصدرا هاما من مصادر الحصول على القمح أبان الحرب العالمية الثانية لسد العجز في المناطق المجاورة ولذلك جعلت بريطانيا عليها إشرافا خاصا تحت اسم (الشركة التجارية للملكة المتحدة Ukcc) .

وأهم صادرات الحبشة هو البن ، الذي يعتبر أجود أنواع البن في العالم وخصوصا ذلك الذي ينتج من إقليم هرر ، وهناك إقليم آخر تكثر فيه زراعة البن الجيد وهو لإقليم (جيبا Jimma) حيث توجد مدينة (كافا Kaffa) التي يشتق منها اسم القهوة في جميع اللغات ، ويبلغ ما تصدره الحبشة من البن حوالي ٢٠ مليون جنيه سنويا .

وتبذل الحكومة الحالية قصارى جهدها لتشجيع الزراعة واستغلال الأراضي الشاسعة ، وإدخال الأساليب الحديثة في الزراعة والرى مما يشر بتغيير كبير في اقتصاديات البلاد ، كأنها جعلت تحسين وسائل المواصلات في مقدمة مشروعاتها حتى تجعل من خيراتها المدفونة مصدرا هاما من مصادر الثروة .

وقد قامت إيطاليا بعمل الدراسات المستفيضة عن الحبشة منذ عام ١٨٨٥ وخصوصا في منطقة جوندار بالقرب من بحيرة تسانا . وعندما اجتاحت الحبشة في عام ١٩٣٦ كان لديها تنظيم كامل لاستعمار البلاد ونشر الزراعة الحديثة في جميع أرجائها ، وكانت على علم تام بأنها سوف تكون لها من وراء هذه المغامرة امبراطورية تضارع الامبراطورية البريطانية في الثروة والغنى .

وسرعان ما وضعت ثلاثة مشروعات ، فترة كل منها خمس أعوام بحيث يتم استثمار الأراضي على الوجه الاكمل في مدة ١٥ سنة ، ولقد أتمت الخطة

الثانية الأولى ، ورأينا منها كيف أقامت عددا لا يحصى من المستعمرات الزراعية في المناطق السهلة ، تتراوح مساحة المزرعة الواحدة بين ٥٠٠ ، ٥٠٠٠ فدان ورأينا لإحداها وهي تبلغ ٦٠.٠٠٠ فدان وشاهدنا فيها آثار تسوية الأرض وإزالة الشوائب وحفر القنوات ومساكن العمال والموظفين ومحطات توليد الكهرباء وورش إصلاح الجرارات وآلات الزراعة ومحطات المضخات وأجهزة الاتصال اللاسلكي . وهناك بيان كامل بهذه المزارع في كتاب .

Gli Annale Dell Africa Italiana .

ولقد اقتص الايطاليون منطقة بحيرة تسانا بالعناية في الدراسة ، مركزين على منطقة حول جوندرا وجدوا بينهما وبين دلتا مصر تشابها كبيرا في التربة والمناخ وتعادلها في المساحة (حوالي أربعة ملايين فدان) وكانوا على أهبه استغلالها في زراعة القطن (الطويل التيلة) والحبوب والفواكه ولهم في ذلك كتاب هام يمكن الرجوع إليه (أرض بحيرة تسانا تأليف رافيلي دي لاورو)

Le Terre Del Lago Tsana- Raffele Di Lauro. -

وبالحجشة كثير من المعادن التي لا محل لذكرها هنا ، سوى أن نشير إلى كثرة وجود الذهب في منطقة (ليكمتي Lechemti) في جنوب البلاد وكذلك في بعض مناطق الاريتريا ، أما البترول فلا زالت الشركات العالمية تنقب ولم تصل إليه بعد .

* * *

وتنقسم الحجشة الحالية إلى عدة مقاطعات يبينها كالآتي :

(٢ - الحيفة)

Tigre	تیجری .	Eritrea	الاریتریا .
Wallo	واللو .	Bagemder	باجدیر .
Shoa	شاوا .	Gojam	جوجام .
Harar	هرر .	Wallega	واللاجا .
Bale	بالی .	Hrsi	عروسی .
Kaffa (Gimma)	کافا (جیما) .	Inbabor	ایلیو بابور
Sidamo	سیدامو .	Gomo- Gofa	جاموجوفا

الفصل الثاني

العناصر الأساسية لسكان الحبشة

وزرى لزاماً علينا حتى نوفي هذا البحث حقه أن نقدم للقارىء تفصيلاً واضحاً عن العناصر الأساسية التي يتكون منها سكان الحبشة ، إذ أن هذه البلاد من أكثر دول العالم تعرضاً للهجرات الجماعية ، التي وفدت عليها خلال تاريخها الطويل ، فأصبحت خليطاً من أجناس متباينة في الشكل والعادات والمستوى الحضارى ، ولم تدخل تلك العناصر إلى أرض الحبشة في وقت واحد ، بقى جانب من كل طائفة ممنعزلاً ومحتفظاً بلبثته وعقائمه ، بينما اختلطت فروع أخرى من هذه الطوائف والعناصر مع بعضها - وتنجت من ذلك أنواع متعددة من الأجناس .

ولم تنصر تلك الأجناس مع بعضها انصهاراً تاماً إلا في القليل النادر وبذلك بقيت الحبشة إلى يومنا هذا متحفاً للأجناس والعناصر ، فالدولة لا تنقسم إلى مناطق جغرافية بقدر ما تنقسم إلى مناطق عنصرية . تتحكم فيها النزعات القبلية والروابط العنصرية ، وتتعدد فيها اللغات واللهجات المحلية بما يتجاوز الأربعين .

ولكى لا يختلط الأمر على القارىء فيما سوف نمر عليه من أبناء وأحداث رأينا أن نوضح هنا أهم تلك العناصر الأساسية الكبرى لسكان البلاد ، على أن نعود إلى ذكرها في مواضعها من تاريخ البلاد بالقدر الذى يستدعيه شرح الأحداث وما يتطلبه من تفصيل .

١ - الأحباش الأوائل

الحاميين : Hamitis

وبالرغم من ندرة المعلومات عن الأصل القديم للأحباش الأوائل ، فإن الشواهد تدل على أن سكان الحبشة الأوائل كانوا من القبائل الحامية التي نزحت إلى تلك البلاد من القوقاز عن طريق مصر والنيل ، وقد يكون بعضها قدم عن طريق الجزيرة العربية ، ويبدو أن هؤلاء الحاميين قد وصلوا إلى تلك البلاد في موجات ومجموعات متعاقبة ، اختلطت على مرور الأيام مع زنوج أفريقيا ، ونشأ عنهم ذلك العنصر السائد في هذه المنطقة ولكن ذلك الاختلاط لم يكن على درجة واحدة في مختلف المناطق وبين مختلف القبائل التي تسكنها ، فإن الأصل الحامي يبدو أكثر صفاء ونقاوة وأشد وضوحاً في قبائل البيجا في الشمال^(١) كما أنه يبدو غالباً في قبائل الأجاو التي تسكن قلب الهضبة . وكذلك في المناطق الجنوبية التي تحوى قبائل السيداما .

وبالرغم مما تعرضت له هذه المناطق من الاختلاط بالساميين الذين غزوا البلاد فيما بعد واستولوا على الهضبة حيث يتكثرت الحاميون ، فإن الأصل الحامي بقي غالباً واضحاً بين قبائل التيجرى والأمهرا وفي مقاطعات جوجام وشوا (وهي المناطق التي تتركز فيها الديانة المسيحية في الوقت الحاضر) . وكذلك اختلطت قبائل الأجاو في عصور متأخرة بسكان الشمال للمطعمين بالدم السامى ، ولكنهم كانوا أكثر حفاظاً على عنصرهم ولغتهم وعاداتهم ومعتقداتهم .

وكما انحدرنا من أطالي الهضبة إلى السهول الممتدة في الجنوب والجنوب الغربي كلما أصبح الدم الزنجي غالباً وأكثر وضوحاً . حتى مناطق أطالي النيل .

(١) يذهب بعض الكتاب إلى أن قبائل البيجا من الساميين الذين اختلطوا مع الحاميين .

بل يمتد عنصرهم إلى مناطق النيل الوسطى عن طريق هجرتهم إلى الشمال ويلقبهم الأجباش بالشناقلة أو بني شتقول . ويطلق على تلك القبائل الحامية الأولى اسم (كوش Kush) أو (الكوشيين Kushites) وهي التي اختلط فيها دم الحاميين بالعناصر الزنجية .

• • •

أما العنصر السامى فإنه نزل بالبلاد فيما بين عام ١٠٠٠ ، ٤٠٠ قبل الميلاد بالهجرة من جنوب الجزيرة العربية ، جالبا معه من المدنية ما أحدث بالحبشة تغييرا كبيرا ، ورفع مستواهم الحضرى ، الأمر الذى تميزت به المناطق التي انتشر فيها الساميون في أعلى الهضبة ، وهي المناطق التي أصبحت غالبية على مملكة الحبشة الأولى (تيجرى - أمرا - جوجام - شوا) ومنذ ذلك الحين وأرض الحبشة تنقسم إلى أقسام واضحة الخلاف في العنصر بين حامى وزنجى ثم خليط منهما ، وبين خليط آخر من الساميين والحاميين ، وكذلك تعددت اللغات ، فشكل جنس من هذه الاجناس لغته الخاصة ، حتى أن الجنس المتميز من خليط الساميين مع الحاميين يتكلم لغتين مختلفتين هما اللغة التيجرية واللغة الأمهرية .

وبما تجدر الإشارة إليه بصفة خاصة ، أن تأثير الساميين على الحبشة كان واضحا بين القبائل التي اختلط بها ، وأوجد بينها رابطة جديدة ، غلبت في كثير من الأحيان على الخلافات القبلية القديمة ، وإن احتفظت كل منطقة بالرغم من ذلك بعصبيتها ولغتها .

ومنذ العصور القديمة ، تميزت تلك المقاطعات الأربع التي سبق ذكرها وتركزت سلطتها في شمال الهضبة وتكونت منها مملكة الحبشة الأولى وشملت جانبا من الاريتريا الحالية حيث تمتد قبيلة التيجرى التي تسكن الطرف

الشمالي من الهضبة الذي يحترق الاريتريا . وكانت عاصمة هذه المملكة القديمة مدينة أكسوم . ولما كان لكل مقاطعة من تلك المقاطعات الأربع استقلال ذاتي ولها ملك . فإن ملك أكسوم كان يدعى «ملك الملوك» .

• • •

استمرت الأوضاع على تلك الصورة فترة طويلة من الزمن إلى أن اجتاحت قبائل البيجا شمال الحبشة وامتدت من شواطئ النيل إلى شواطئ البحر الأحمر واستولت في طريقها على الاريتريا ، فأنكشت دولة الحبشة القديمة ، مما اضطرها إلى الامتداد إلى الجنوب حيث توجد قبائل (الاجاوا Agaw) ومن "بينها قبيلة (الزاجوى Zagwe) - وهي كما قدمنا نتاج اختلاط الحاميين الأوائل إمع الزنوج ، ولم يكن قد امتد إليها اختلاط الساميين كما حدث في الشمال ، ولذلك حافظت على عنصرها الحامى أكثر من القبائل الشمالية . وهي قبائل كثيرة العدد شديدة المراس ، لاقت منها مملكة الحبشة عندما اضطرت إلى الامتداد جنوبا في أراضيها كثيرا من الصعوبات ، ونشأت بينهما القلاقل والحروب ، ولم يكن من السهل ترويضها ثم نشر المسيحية بها وإخضاعها لحكم ملوك الحبشة . واستمرت بينهما المنازعات حتى استولت إحدى قبائل الاجاوا (أسرة زاجوى) على حكم مملكة الحبشة كلها مدة قرنين من الزمان . كما سيأتى تفصيله فيما بعد .

وأنه وإن كانت قبائل الأجووين تتشابه مع القبائل الحبشية القديمة وتحد في العنصر الأصلي ، إلا أنها لم تتعرض للاختلاط بالقبائل السامية بالقدر الذى تعرضت له الأقاليم الشمالية ، مما جعل لها طابعا خاصا مستقلا عن باقي قبائل الهضبة ، حتى بعد دخولها في الدين المسيحى فإنها حافظت على كثير من عاداتها الوثنية الأولى ولم تندمج مع باقي مناطق المملكة وتحد معها ، بل بقيت تشكل عنصرا قائما بذاته يعزى بلغته وتقاليد وشخصيته ، وتستمد هذه القبائل قوتها من كثرة عددها وشدقة مرامها مما يجعل لها أهميتها الخاصة في المملكة الحبشية .

(ب) قبائل البجة (البيجا) Beja

ويقال لها البجة أو البجاه - وإن كان الاسم المتداول حالياً هو البجة (بكر الباء) ومنه غلبت التسمية الأوروبية (بيجا Beja) .

ويميل علماء الأجناس إلى الربط بين البجة - وقدماء المصريين في أقدم عصور التاريخ، مما يستدل منه على وجود قبائل البجة بشكلها المستقل ومناطقها المحددة منذ القدم . إلا أن المراجع التي تفصل تاريخ هذه القبائل وأحوالها في تلك العصور السحيقة نادرة، مما يدعو إلى الاعتماد على الاستنتاج والاجتهاد لمعرفة تاريخها .

ويبدو أن أرجح المعلومات هي أن التكتل الأول لهذه القبائل كان في المنطقة الشرقية من نهر النيل التي تشمل وادي العظيرة وجانبا من وادي النيل الأزرق حتى حدود الحبشة عند كسلا . وكانت تتأخم حدود مصر من الشمال وتمتد إلى البحر الأحمر عند طوكر وسواكن .

ويرجع نسب البجة إلى تلك القبائل التي نزلت^(١) في مبدأ الأمر من جزيرة العرب، ثم اتصلت مع المصريين القدماء ومن هنا كانت الروابط والعلاقات بينهما منذ القدم . ولكن اختلاف الطبيعة، وكثرة الأمطار في مناطق البجة جعل منهم بدواً رحلاً، ورعاة للأبقار، وغلبت هذه الطبيعة على طبائعهم وأصبحت لهم صفات البداوة المشهورة . وإن كانت صلاحهم قد قويت مع المدن الكبيرة المستقرة على شاطئ النيل مثل مروى ودنقلة حيث تركزت سلطة المملكة - مملكة النوبة - أو مملكة مروى . التي اعتنقت الديانة المسيحية عن طريق مصر منذ عهد المسيحية الأولى - ولقد

(١) يميل بعض الكتاب إلى أن قبائل البيجا من الحاميين الذين اختلطوا بالساميين (كاسين ذكره) .

انتشر هناك مذهبان مسيحيان مختلفان - أكبرهما تابع لبطريركية الاسكندرية شأنها في ذلك شأن الحبشة - وكان هو المذهب الغالب في شمال السودان - أما قبائل البجة البدوية فلم تتأثر بالمسيحية وبقيت على وثليتها قرونا طويلة .

وبالرغم من الطبيعة البدوية لقبائل البجة فإن اتصالهم بحيرانهم وخصوصا مع المصريين كان كبيرا . حيث تبادلوا التجارة معهم ، واكتسبوا منهم كثيرا من المعلومات عن الزراعة وتربية الماشية - وتقول المراجع التاريخية أن من أهم مناطق الاتصال بينهما وادى العلاقي ومايليه من جهة الجنوب ؛ حيث توجد مناجم الذهب^(١) التي كان المصريون يقبلون على استغلالها .

ويبدو أن البلاد التي كانت تعيش فيها قبائل البجة ومملكة النوبة ، كانت أغزر مطرا وأكثر نباتا في العصور القديمة . ولكنها بدأت تجف بعد ذلك مما دفع قبائل البجة إلى الهجرة إلى الجهات الأوفر ماء ، فنزحت إلى الشرق في أعداد وأفواج كبيرة ، وملأت السهول والوديان والمرتفعات الجبلية من شرق السودان إلى البحر الأحمر مكنتسحه أمامها بلاد البوغوص (الاريتريا) وشمال الحبشة .

ويبدو أيضا أن جفاف الأرض واشتداد صعوبة الحياة على قبائل البجة جعل من هذه القبائل مصدرا للقبائل والمشاكل لمملكة النوبة التي طاردتهم وعاونت بذلك على ازدياد موجات الهجرة . وما أن جاء القرنان السابع والثامن الذي دخل فهما الإسلام إلى مصر وتوطدت أقدامه فيها وبدأت مناوشاته مع مملكة النوبة المسيحية حتى كانت هجرة البجة إلى الشرق قد بلغت أوجها ، وأصبحت حاجزا منيعا في شمال الحبشة يجعل اتصالها مع العالم الخارجي متعذرا عن هذا الطريق عدة قرون ، وأصبحت عاملا من العوامل الهامة التي عاونت على عزلة الحبشة خلال تلك القرون .

• • •

كانت قبائل البجة وتعدادها الوفير ، مصدرأ من مصادر القوى العاملة التي استعان بها المصريون القدامى ثم العرب فيما بعد ، للعمل في المناجم الموجودة في شمال السودان وبلاد البوغوص وأهمها مناجم الذهب ، وكان لاستقرارهم حول هذه المناجم أثر كبير على عقائدهم ، إذ أنه عندما أفل نجم الدولة المصرية القديمة ، وحلت محلها الدولة الإسلامية أخذ العرب يحلون محل المصريين في استثمار تلك المناجم ، فاختلفوا بالبجة وتزوجوا معهم ، كما زادت روايتهم في كثير من المناطق الأخرى وأهمها الموانىء ، فانتشر الإسلام بين البجة واستمر انتشاره حتى أصبحت جميع البجة في القرن العاشر وما بعده قد اعتنقت الإسلام .

وكما سيأتى في سياق الحديث ، لم يقتصر أثر العرب والمسلمين على ذلك فإن نشاط العرب في التجارة وكثرة العاملين بها في السودان منذ القدم وازدياد عددهم بعد الإسلام ، أوجد جاليات عربية في شمال السودان ، ازدادت عددا وقوة بعد الإسلام عندما هاجر إليها عدد من الأسر العربية العريقة عندما استولى الأمويون على الحكم — ثم بعد ذلك عندما استولى العباسيون على الخلافة .

ومن البديهي أن تكون قبائل البجة التي انتشرت في شمال الحبشة والاريتريا امتدادا لقبائل السودان ومن أهمها قبائل بنى عامر والأمرار والبشارية والمهندودة والحدارب .

* * *

(ج) الجالا GALLA

والصومال

عبرت خليج عدن وبوغاز باب المنذب في العصور القديمة أيضا جحافل من المهاجرين إلى الشاطئ الأفريقي ، ينتمون إلى العنصر الحامى ، واستقروا

في مبدأ أمرهم في بلاد الصومال بين وادي نهر وبى وخليج عدن . وأخذوا أثناء امتدادهم مختلطون وبترأوجون مع الزنوج ، وانقسموا في هذه العملية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، أولها - هؤلاء الذين هاجروا شمالاً إلى سهل الدناكل والمناطق الساحلية على البحر الأحمر . ويعرفون باسم قبائل « عفرساهو Afar-Saho » ، والقسم الثانى هم الصوماليون الذين بقوا في أماكنهم وانتشروا انتشاراً طبيعياً فيها حولهم من أراضي وامتدوا حتى وصلوا إلى وادي نهر (وبى شيبيله Wobi Shebeli) أما القسم الثالث فهو الأكثر عدداً والذي اضطر إلى الهجرة شمالاً وغرباً وشرقاً .

انتشرت قبائل عفر وقبائل الصومال في أماكن هامة من شرق أفريقيا ، وقدنت إلى مساحات كبيرة من أرض الحبشة وانفردت بها ، أما قبائل الجالا قد فاقت أبناء عمومتهما عدداً وقوة ، وعندما اضطرت للهجرة زحمت على الحبشة زحفاً ، وملأت جنوب الحبشة ومناطق العروسي وهرر في الشرق ، وفي الغرب إلى نهر (ديديسا Diddessa) وامتدزحفهم إلى أعلى الهضبة الحصينة فغمرها مقاطعة شوا ومقاطعة الالو حيث استقروا بين السكان المسيحيين على الهضبة . وسرعان ما استقر هؤلاء الجالا فوق الهضبة وأصبح شأنهم كبيراً في مقاطعات (واللو ، شوا ، جيا ، هرر) وصاروا يعملون في الزراعة والمراعى . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الجالا نصف سكان الحبشة .

وبالرغم مما تعرض له الجالا من تأثير الساميين فإنهم ظلوا محافظين على صفاتهم الحموية - شأنهم في ذلك شأن قبائل الأجاو التي سبق الكلام عنها . ولكن قبائل الجالا مع مرور الزمن تنوعت في صفاتها وأحوالها ، فإن تلك الفروع التي استقرت فوق الهضبة نبتت هناك وأصبحت لها القرى والمنازل الثابتة وعملت في الزراعة والمراعى ، أما هؤلاء الذين بقوا في السهول المنخفضة فقد ظلوا على حالتهم البدوية يتنقلون من مرعى

إلى آخر ، وبين هذين الفريقين تتدرج فروع الجالا بين درجات الاستقرار والبدواة .

إن قبائل الصومال وعفر والجالا - هي التي انتشر فيها الإسلام تدريجيا . حتى اعتنقته جميع قبائل الصومال وعفر أولا - ثم أخذ يتغلغل بين قبائل الجالا خلال العصور حتى أصبحت غالبيتها الكبرى تعتنقه منذ أواخر القرن التاسع عشر .

* * *

ولقد بدأت هجرة الجالا إلى إقليم الحبشة بطيئة ضئيلة في أول الأمر ولكنهم ظهروا فجأة على مسرح الحوادث في القرن السادس عشر عندما زحفوا على الحبشة في أفواج هائلة ملأت كل فراغ واستقرت في كل مكان وبلغت من الكثرة والقوة بحيث لم يعد في الإمكان صدّهم ، بل أصبحوا جزءاً أساسياً من الدولة يبلغ نصف مجموع سكانها ، ولم تعد القبائل الأممية والتجيرية تدعى وتتنافس في كثرة العدد واتساع الرقعة إذ أصبحت الجالا تفوقهم مجتمعين ، مساحة وعددا . كل ما هنالك أن قبائل النيجري وكذلك قبائل الأممية كل منها متسكنة في منطقتها ، بينما الجالا الذين يفوقونهم عددا منتشرون على مساحات شاسعة من البلاد ، وليس من الميسور إيجاد ذلك النوع من التكتل بينهم لصعوبة المواصلات وبعد المسافات ، والاختلاف في طبيعة المعيشة التي طرأت على فروعها المختلفة . ولكننا أننا أتاحت لها ظروف التكتل والاستقرار كما حدث في مقاطعة والالو في قلب الهضبة أصبحوا خطراً كبيراً ونازعوا قبائل الأممية والتجري السلطان .

* * *

(د) العرب

وأخيراً وليس آخراً - قبائل العرب من جنوب الجزيرة العربية ومن الحجاز ومن شواطئ الخليج العربي . استمرت تزح عبر البحر الأحمر

وخليج عدن على طول العصور القديمة والحديثة . للتجارة والإقامة . وهم على قلة عددهم بالنسبة للعناصر الثلاثة التي سبق ذكرها ، إلا أنها كانت أبلغها أثرا في تاريخ الحبشة ، إذ أنها حملت معها المدنية والثقافة والحضارة والدين الإسلامي ، وكانوا في هذا أول من ربط الأحباش بالعالم واستمروا قرونا طويلة واسطة الاتصال ومنبع الاشعاع . ولم يمر عصر من العصور لم يكن للعرب على الحبشة تأثير من نوع آخر .

وسنوضح هذا ونعرف الدور الكبير الذي لعبه العرب في تاريخ الحبشة عندما نأتي إلى ذكر مختلف المراحل التي سنمر عليها في تسلسل الأحداث .

* * *

الفصل الثالث

موجز التاريخ القديم للحبشة

تأثير قدماء المصريين :

يبدو أن المصريين كانوا أول الأجانب الذين اتصلوا بهذه البلاد التي اعتبروها في ذلك الوقت جزءاً من بلاد النوبة ، والأرجح أن المصريين وصلوا إليها عن طريق الغرب متبعين مجرى النيل ، كما وصلوا أيضاً عن طريق البحر بعد وصولهم إلى مكان ماعلى الشاطئ الصومالي بحثنا عن التوابل والعاج والذهب ، التي كانت تشتهر بها عندئذ بلاد (قرن أفريقية) . ويحدثنا التاريخ عن حدوث هذه الرحلة في عهد بيبي الثاني (Pepi II) فرعون مصر خلال الألف سنة الثالثة قبل الميلاد^(١) وتكررت هذه الرحلات حتى جاء ذكرها في تاريخ الملكة حتشبسوت في منتصف الألف سنة الثانية قبل الميلاد ، مسجلاً في معبد الدير البحرى في طيبة .

ويذكر المؤرخون أن الحبشة ليست لها حضارة خاصة بها ، وبين (السير بدج) ذلك بوضوح في مقدمة كتابه حيث يقول إن الكنائس العجيبة المنحوتة داخل الصخور في لاليللا- لم تكن من عمل الأجاش ، بل من عمل الصناع المصريين والسوريين من مصر وبيت المقدس ، والجسر التاريخى فوق النيل الأبيض عند (أجام ديدلى Agam Dedli) - أقامه البرتغاليون ، وكذلك عدد كبير من القلاع والكنائس والقصور الموجودة في مختلف المناطق،^(٢)

(١) من ٤٧ The Ethiopians by Ullendorff.

(٢) مقدمة - كتاب السير بدج . Budge .

وذكر أيضا أن البلاد ليس لها أعمال أدبية ، فجميع ما لديها مترجم
عن العربية أو القبطية^(١)

تأثير قدماء العرب :

ويوحى وضع (القرن الأفريقي) محيطا بجنوب بلاد العرب ، بضرورة
وجود صلة بين الجانبين ، ولقد انضح أن هذه الصلة كانت ذات أثر فعال في
الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، كما وضح أن هذه الصلة كانت طوال تلك
الفترة عبارة عن حركة في اتجاه واحد من الشرق إلى الغرب - عبر بوزان
باب المنذب - وأن هذه الهجرة كانت السبيل الذي دخلت عن طريقه القبائل
السامية من جنوب الجزيرة العربية إلى الشاطئ الإفريقي .

ومنذ اللحظة الأولى لوصول هذه الموجات السامية من المهاجرين ،
وضع تفوقهم على أهالي البلاد في وسط الهضبة وشمالها ، وكان تأثيرهم عليهم
كبيرا ، ومنذ تلك العهود السحيقة وهذه القبائل المهاجرة تسيطر على نواحي
النشاط المختلفة وأهمها التجارة ، وأخذ نفوذ العرب ونشاطهم التجارى
يزدهر ، في الوقت الذى أخذ النفوذ المصرى القديم في الاضمحلال .

وكلما توغل تجار العرب في داخل البلاد الخبيثة كلما صادفوا مزيدا
من الخصب واعتدالا في الجو يرغبهم في الاستقرار بتلك البلاد ، ولا زالت
كثير من المواقع القريبة من مصوع تحمل من الأسماء ما يؤكد تغلغل هؤلاء
المهاجرين والتجار العرب داخل الأراضى الأفريقية^(٢) .

وسرعان ما استقر هؤلاء المهاجرون واختلطوا بأهالى البلاد وأدخلوا
إليها تلك الأنظمة التى الفوها في بلاد العرب في شئون المجتمع والسياسة

(١) المرجع السابق .

Storia d'Ethiopia by conti Rossini .

(٢) صفحة ١٠٣

The Ethiopians by Ullendorff.

وصفحة ١٩

والثقافة ، وعلى وجه الخصوص كان لهم أثر كبير في تطوير البلاد الحبشية بإدخال وسائل الري وتطبيق قوانين الملكية وتهذيب أساليب البناء ، وتنظيم عملية تربية الحيوانات وما إلى ذلك من وسائل التقدم وال عمران .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح هؤلاء المهاجرون جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة (وكان أغلبهم أصلاً من اليمز - وحضرموت) وبمرور السنين ضعف شأن البلاد الأصلية في جنوب الجزيرة العربية - وقويت شوكة الدولة الجديدة - التي كانت حاصمتها في ذلك الوقت مدينة أكسوم . الواقعة في شمال الهضبة الحبشية .

وفي القرن السادس الميلادي أخذت جيوش مملكة أكسوم وأغلب رجالها تجرى في عروقه دماء المهاجرين العرب الأوائل - يعبرون البحر في الاتجاه المضاد ويرفعون لواء مملكة أكسوم على جنوب الجزيرة العربية^(١) .

* * *

تأثير اليهود الأوائل :

وخلال تلك العصور التي تناولها بالبحث الآن كانت الديانة اليهودية قد بدأت في الانتشار في كثير من أنحاء الشرق الأوسط ، فهناك بعض المقاطع المتناثرة في (العهد القديم) التي تشير إلى اليهود الذين استقروا في مصر ، وإلى بعض من وصل منهم إلى مناطق كوش . وبلاد النوبة ، ولكن بالرغم من جميع ما ذكر عن هذا الأمر في العهد القديم وفي أوراق (بردى - اليفانتين) فإن الأرجح أن عدد من تسربوا إلى هذا المناطق كان ضئيلاً ، مما يدعو إلى الظن بأنه لم تحدث أية هجرة ذات شأن لليهود إلى الحبشة عن طريق مصر والنيل . هذا بالرغم من أن اليهود الباقين بالحبشة الآن يدعون أنهم من نسل أتباع منليك الأول كاسيأتي ذكره - وكذلك من أتباع اليهود

الذين هاجروا من مصر عام ٥٨١ ق . م ^(١) .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لبلاد العرب ، فالوثائق التاريخية متعددة عن دخول الدين اليهودى إلى جزيرة العرب قبل الميلاد ، واستقرار اليهود فى كثير من ربوعها وعلى الأخص فى جنوب الجزيرة ، وإن كان شأنهم قد بدأ يتضح بقوة عند دخول الإسلام ، فى يثرب وخيبر ، ومن هنا جاءت هجرة بعض اليهود مع بقية المهاجرين العرب إلى الحبشة قبل الميلاد ، ويبدو أنهم لم يهاجروا على هيئة جماعات متكئة ولكنهم انضموا إلى مواكب المهاجرين كأفراد ، وبعد وصولهم تجمعوا وكونوا جالية قائمة بذاتها ، وبدأ أثرهم يظهر فى ثقافة البلاد وحضارتها بصورة مستقلة ، وليس أدل على ذلك من اعتناق فريق من أحباش ذلك العهد للديانة اليهودية .

وفى نفس تلك الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، وتذكر بعض المصادر وصول بعض سفنهم إلى موانئ البحر الأحمر بحثا عن الذهب وربما كان هذا النشاط اليهودى عاملا من عوامل تعزيز الديانة اليهودية فى بلاد الحبشة .

• • •

أسطورة سليمان وملسكة سبأ :

وما دمتنا بصدد الكلام عن اليهود وصلتهم بالحبشة ، أصبح لزاما علينا أن نتكلم عن الأسطورة الشائعة التى تربط بين ملوك الحبشة والنبي سليمان ، فإن تاريخها يعود إلى العهد الذى نبحثه فى هذه المرحلة من جهة ، ولشدة ارتباطها وأهميتها للتاريخ الحبشى القديم والحديث على حد سواء — من جهة أخرى .

يعلق الأبحاث أهمية كبرى على قصة سيدنا سليمان مع بلقيس ويعملون
هنا أساسا هاما من تاريخ دولتهم بصفة عامة وتاريخ الأسره المالكه بصفة
خاصة ، وحذا حذوهم كثير من الكتاب فأخذوا يتقنون في أسفار (العهد
القديم والعهد الجديد) ثم بعد ذلك من المراجع القديمة ، يجمعون ما تناثر
هنا وهناك من إشارات يمكن الربط بينها لمعرفة حقيقة هذه الأسطورة ،
وبالرغم من كل ذلك لم يتيسر لهم إلى الآن برهان تاريخي قاطع يربط بين
ما يتواتر عن علاقة هذه القصة بتاريخ الحبشة وملوكها ، ولكن هذا لم يمنع
الأبحاث من التمسك بها .

ونص الأسطورة التي يتمسكون بها يدور حول ملكة لهم تدعى
(ما كيدا) وكانت ملكة على سبأ يقولون بأنها كانت بأرض الحبشة في
المكان المعروف الآن بالاريتريا ، ويعتبرها الأبحاث أنها هي الملكة التي
أطلق عليها العرب اسم بلقيس ، ثم بمعنى القصة في مثل ما تمضى فيه باقى
المصادر حتى تنتهى بزيارتها لسليمان في بيت المقدس - حوالي عام
١٠٠٠ ق م .

وقد ذكرت كثير من المراجع القديمة ما حدث بين بلقيس وسليمان من
مناورات انتهت بزواجهما ، وهنا تستمر بعض المصادر في تمكلة القصة بأن
جعلت نتيجة لهذا الزواج ولدا اسمه منليك ، وعندما بلغ أشده أرسلته
(ما كيدا) إلى والده الذي فرح به وجعل منه ملكا على الحبشة ، وفي أكثر
الروايات زواجا ، أنه عاد إلى الحبشة ومعه نفر من شباب بني إسرائيل ،
فرحت بهم الملكة وتوجت ابنا وتنازلت له عن العرش ، وجاء في نفس
الأسطورة أن منليك عند مغادرته لبيت المقدس تمسك بمجاوثة رجاله أن
يسرق (تابوت العهد) من أبيه وحمله معه وحفظه في عاصته أكسوم التي
أطلق عليها (أرض صهيون الجديدة) .

• • •

ويذهب (أولندورف Ullendorff) في صفحات ١٤٣ ، ١٤٤ من كتابه عن (الاثيوبيين) أنه بما زاد في هذه القصة رسوخاً حتى أصبحت جزءاً من حياة الأقباش ومعتقداتهم ، تسجيلها على هيئتها تلك في كتاب (مجد الملوك - Glory of Kings - Nebra Kogast) الذي يقسده الاثيوبيون ، ولقد عمد واضع هذا الكتاب إلى الاعتماد على ما جاء ذكره من إشارات في أسفار العهد القديم والعهد الجديد . ويمضى أولندورف يقول (وفي الحقيقة لا بد وأن تلك الأسطورة كانت خلال العصور الطويلة محلاً للبالغات والإضافات الخيالية في الحبشة وغير الحبشة ولا بد أيضاً أن تكون مختلف الفصص والأساطير قد انصهرت مع بعضها على تلك الصورة المتواترة ، وعندما جاء وقت كتابتها في القرن الثالث عشر ، غلبت على الكتاب رغبته في تأييد دعوة الأسرة السلمانية الحديثة العهد بالسلطة في الحبشة ، والتسكين لها فيما تطمح فيه من قوة ومنعة ، وكانت مهمة المؤلف تيبورا أم يشاق Nebura Ed. Yeshaq ، أقرب إلى تسجيل أساطير متواترة منذ أمد طويل ، لم ينسأ لها إلى ذلك الحين من يتفرغ على تنظيمها أو تحليلها أو إمعان العقل والتفكير فيها للوصول إلى حقيقتها) .

* * *

والاعتقاد المنطقي أن هذه القصة إنما نشأت في القرن الثالث عشر لتثبيت أقدام الأسر المالكة السلمانية على العرش ، وكان القصد إضفاء صبغة القداسة على الأسرة الحاكمة الجديدة حتى لا يحاول أحد الانتقاص عليها (١) . واعتمد واضع هذه الأسطورة على شدة تعلق أفراد الشعب الحبشي بأمثال هذه القصص .

* * *

ويقول السير بدج أن القديس « تكلا هيانوت » الذي تبنى هذه الأسطورة، هو الذي وضع قائمة الأسرة السلجانية وتسلسلها حتى (سليمان الحكيم)^(١) وذلك لكي يتمكن للملك « يكونوا أملاك » من العرش وهو الذي أطلق عليه هذا الاسم ومعناه (سوف يكون ملكا) بعد أن كان اسمه الحقيقي (تسفا ياسس) .

ويعود بدج فيقول عن سجل الملوك ، أو مجد الملوك - Kebra Megast - Glory of Kings أنه سجل لا قيمة له ، إذ أن التضارب فيه واضح ، وأنه وضع بقصد مثل الخانات في تسلسل الملوك من آدم إلى سليمان^(٢) حتى أن الاختلاف أصبح واضحا من مقارنة الجداول التي أوردها (بروس Bruce) و (سولت Salt) مما يدعو إلى الشك في صحة السجل^(٣) .

ومراجعة سجل الملوك المذكور تتضح حقيقة بالغة الأهمية في تاريخ الحبشة ، وهي أنه لم يتمكن أي ملك وطني أو (رأس) قبل الإمبراطور (يكونوا أملاك) من أن يطلق على نفسه لقب « ملك ملوك الحبشة »^(٤) . وذلك يزيد في اليقين بأن السجل قد وضع في ذلك الوقت (القرن الثالث عشر) ليخدم الهدف الذي سبق ذكره وهو نشر هالة من القداسة حول الملوك ، لتوطيد حكمهم على جميع أرجاء البلاد بدون منازع ، حيث لا يمكن لأي شخص مهما كبر مقامه أن يدعى نسبا أعلى من هذا النسب ، وعلى ذلك فلا يجوز له أن يتطلع إلى الملك .

ولذلك كان كل من يتمكن من الاستيلاء على العرش ، يسارع إلى ربط نسبه بتلك الأسرة حق ولو من قبيل الادعاء والاختراع .

• • •

(١) مقدمة كتاب - سير بدج - Budge

(٢) ص ١٨ نفس المرجع

(٣) ص ١٠٥ وما بعدها نفس المرجع

(٤) المقدمة - نفس المرجع

بوليس من المقبول بالنسبة لما جاء عن هذه القصة في القرآن الكريم ،
أن نمر على هيئة الإسطورة الحبشية دونما تحليل أو تلميح ، فقد أجمعت
أكثر كتب التاريخ الآثار على أن مملكة سبا كانت تقع في جنوب الجزيرة
الغربية في بلاد اليمن ، ولها تاريخ متسلسل مترابط تؤيده الآثار ، والقوش
ويريد في تأييدها ما أجمعت عليه المصادر من أن العرب في هجرتهم إلى أرض
الحبشة في تلك العصور حلوا معهم حضارة متقدمة لم تعدها بلاد الحبشة .

وعن ألتشك في أن مملكة سبا كانت في اليمن وأن مملكتها كانت تدعى
بلفيس ولكن ليس هناك ما يمنع من أن تكون تكون تلك المملكة الشهيرة
قد ضمت بلاد الحبشة تحت سلطتها في ذلك العهد وهذا أقرب إلى الصواب وأكثر
اتفاقا مع تاريخ هذه الفترة .

° ° °

أما باقي الأسطورة فليس هناك أيضا ما يمنع من احتمال صحة ما جاء عن
منليك ، وعندئذ لاستبعد أن يقوم سليمان بتنصيبه ملكا على ذلك الجزء
للبيد من أملاك والدته الذي يقع في الجانب الغربي من البحر الأحمر والذي
يطلق عليه الحبشة .

وهناك تحليل آخر لهذه الأسطورة ونصيبها من الصحة ، فإن الأحياش
كانوا ولا يزالون يعانون من عقدة نفسية تأصلت لديهم خلال العصور ،
تجلبت عندهم تخاسية شديدة لكل ما يتعلق بتاريخهم ونشأتهم وكرهتهم
لكلمة (الحبشة) كذا فهموا معناها العربي ، وهو النسب في الإصرار على
تغييرها في السنوات الأخيرة . وهذا يفسر ما يتصف به الأحياش من التغالي
في الاعتزاز بالنفس والكبرياء والعزلة .

فقد كان الأحياش يعيشون على هضبتهم في هيئة بدائية - لازالت سائدة
إلى يومنا هذا - ينبتا فقد إليهم طوائف المهاجرين على مر العصور ، من

مصريين ويهود وعرب ، تتميز كل منها بالتفوق الحضري والعلم والمعرفة ، فعمل الأبحاث على أن يجدوا لأنفسهم نسبا كريما ينتسبون إليه ، ومن هنا جاءت أسطورة نسبهم إلى القبائل الأولى من اليهود التي رافقت منليك بن سليمان الذي تنسب إليه أيضاً العائلة المالكة .

ولو أن ملوك الحبشة في تلك الأزمان القديمة كانوا يعلمون ويؤمنون بأنهم أحفاد سليمان حقيقة لرسخ إيمانهم بالدين اليهودى وتعصبوا له ، ولما كان من السهل اعتناقهم للدين المسيحى بتلك الاستجابة السريعة التى حدثت عندما جاءهم البشير بهذا الدين .

ولا يدفناً إلى هذا الشك إلا ضعف المراجع والمصادر التى يستندون إليها وبعدها عن المنطق السلم ، وتعارضها مع باقى القصص التى وردت فى المراجع المعتمدة - وعلى رأسها الكتب المقدسة .

أما ما يمكن الاعتماد عليه فهو أن اليهودية دخلت إلى الحبشة بالطريق المعتاد باستقرار بعض التجار الذين وفدوا إليها ، إما من فلسطين مباشرة وإما من مهاجرى جزيرة العرب وكذلك بعض من جاءوا من مصر ، وعندما استقروا فى الحبشة تكلموا فى جماعات وتكونت منهم الجالية اليهودية ، ومن نسلهم قبائل « الفلاشة Falasha » الموجودين حالياً فى الحبشة ويبلغ عددهم حوالى ٦٠٠٠٠ نفس . وكلمة فلاشة باللغة الحبشية معناها (المهاجرون أو الأعراب) ولعل فى شيوخ هذه التسمية على اليهود خلال العصور الطويلة المتعاقبة ما يؤيد استنتاجنا بعدم وجود أية علاقة قوية مع أهالى البلاد ، ولو كانت العائلة المالكة تنحدر حقيقة من نسل سليمان لما استمر اليهود يحملون اسم الأعراب (الفلاشة) ولما بقى اليهود يعيشون فى الحبشة فى شبه عزلة عن باقى أجناسها .

ومن العجيب فى الحبشة الآن شدة تمسك المسيحيين بعلاقتهم القديمة

مع اليهود وتفاخرهم بها ، والاحتفاظ بنجمة داود المثلثة ، رمز لهم .
وهو أمر لم نعهده في أى وسط مسيحي آخر .

وعلى أى حال فلا يوجد بين المراجع المعتبرة ما يؤيد اعتماد العائلة
المالكة الحبشية من نسل سليمان عليه السلام ، اللهم إلا ما جاء على لسان
العائلة المالكة نفسها .

بل وليس هناك أى مرجع معتمد يؤيد شخصية منليك ، وعلى ذلك
فإن الأرجح أن القصة موضوعة ، حتى تجعل للأسرة المالكة حقاً لامنازع
فيه في ملك الحبشة ، وتعمل من قداسة الملوك مانعاً من أية محاولة للثورة
عليهم ، إذ أن أية محاولة من هذا القبيل تصبح نوطاً من الكفر وتحدياً
لقدسية الله .

وبالرغم من ضعف هذه القصة فإنها تغلغلت في نفوس الشعب وأصبحت
جزءاً هاماً من كيانه ومعتقداته ، وكما حاول جميع الملوك الذين استولوا على
العرش إثبات نسبهم إلى الأسرة السلطانية ، فإن قبائل بأجمعها مثل قبيلة
التيجرى لم ترض بأن ينفرد الأمهريون بهذا الشرف العظيم ، ولكي يعزوا
حقهم في الملك الذي استمر في قبيلتهم زمناً طويلاً ، فإنهم أذاعوا نفس
الأسطورة في رواية أخرى تتفق في الجوهر الأصلي ولكنها تختلف في
بعض التفاصيل التي تجعل هذا الشرف مقصوراً على قبائل التيجرى .

دخول المسيحية إلى الحبشة

في بداية القرن الرابع الميلادي كانت مملكة أكسوم قد وصلت إلى غاية
قوتها في عهد ملكها (إزانا Ezana) الذي ترك لحسن الحظ طائفة من
المخطوطات التي تلتقي بعض الضوء على علاقاته مع جيرانه وكيف تخلصت
في عهده مملكة أكسوم من سيطرة اليمن ، وكذلك دلت تلك المخطوطات

على علاقة قائمة مع الإغريق حيث كتبت بعض تلك المخطوطات باللغة الإغريقية .

ودخلت المسيحية إلى الحبشة في حوالي عام ٣٥٠ الميلادي ، ويقال في ذلك أن الشقيقين (فرومنتوس وأيديسيوس Frumentius & Edesius) أوفدتهما كنيسة صور إلى بلاط ملك أكسوم ، ويقال أيضا أنهما كانا هارين وفي طريقهما عرج أولهما على مدينة الاسكندرية حيث رسمه البطريرك الإسكندري مطرانا على أكسوم .

وفي رواية أخرى أكثر تفصيلا^(١) وأقرب إلى الفهم ، تلك التي كتبها السكان (ريفينوس Rufinus) الذي توفي سنة ٤١٠ ميلادية ، وذكر أنه سمعها من أوديسيوس شخصا .

وتتلخص تلك الرواية في أن مجموعة من تجار مدينة صور قاموا في رحلة تجارية في طريقهم إلى الهند وفي صحبتهم شابان صغيران بينهما قرابة . وأكبرهما فرومنتوس وأصغرهما أوديسيوس ، وفي أثناء الرحلة وقفت سفينتهم بأحد الموانئ على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر للتزود بالمياه ، وكان أهل هذه الميناء قد لحقتهم أضرار من بحارة سفينة تجارية سابقة مما أدى إلى توتر العلاقات مع الدولة البيزنطية ، فاعتدوا على السفينة وأغرقوا من فيها ولم يتنج إلا هذان الشابان . فباعهما الإهالي إلى الملك الذي سر بهما ومنحما ثقتهم وجعل أكبرهما أمينا على حساباته ورسائله وجعل الثاني ساقية الخاص ، وعندما واتته الثقة بقيا بجانب الملك لرعاية أمور الدولة إلى أن بلغ الملك الصنير (أزانان) أشده ؛ واستمر في خدمته .

عن هذا الطريق تمكن فرومنتوس من التأثير على الملك أزانان حتى جعله يعتنق الدين المسيحي . ولكن يبدو أن أوديسيوس . وكاتب القصة ،

(١) ص ٣٨ ، ٣٩ | Islamlia, Ethiopia by Trimmingham

أرادوا أن يجعلوا منها أسطورة ومعجزة دينية ، فجاه في الكتاب المذكور أنه أثناء إقامة فرمنتوس في أكسوم دفعته الهيئة للبحث عن التجار اليونانيين الذين أخذوا يتكاثرون في الحبشة لكي يمنحهم الحق في إقامة الشعائر الدينية المسيحية ، ويحتم على بناء الكنائس ، ويتخذ في نفس الوقت من الوسائل ما يهد للدين المسيحي من النمو والانتشار .

غاد أوديسيوس إلى صور وأصبح زاعيا لكنيستها ، حيث أتيح له أن يعص قصته على روفينوس ، أما فرمنتوس فقد ذهب إلى الإسكندرية حيث اجتمع بالبطريرك أثناسيوس وحثه على إرسال مطران إلى أكسوم لرعاية شؤون المسيحية والمسيحيين في تلك البلاد ، فوجد فيه البطريرك خير من يقوم بهذه المهمة فعينه مطرانا على الحبشة .

وأثناء حياة فرمنتوس والامبراطور إزانا أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة تمثلها الكنيسة الحبشة التي تتبع الكنيسة المصرية . يرسم بطارقة مصر ، المطارنة الذين يرأسون الكنيسة الحبشية واحدا بعد الآخر ، ولم يكن اعتناق الشعب للدين المسيحي في عهد الملك إزانا إلا بين فئة قليلة من أتباعه ، إذ أن القبائل الوثنية ظلت مستعصية تتسرب إليها المسيحية في ببطء شديد خلال قرنين من الزمان ، لم يسمح الحبشة أثناءهما بأي نشاط ، إلى أن جاء عام ٥٢٤ الميلادي حين اتصلت بهم الامبراطورية البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) تطلب منهم حماية المسيحيين الذين يعيشون في جنوب الجزيرة العربية بالقرب من الحبشة .

وكان الملك ذونواس - آخر ملوك حمير قد اعتنق الدين اليهودي وأخذ في القضاء على المسيحيين ، وبناء على طلب امبراطور بيزنطية ، قام النجاشي (كالب Kaleb) أو (أبلأ أصبحه Ela Asbeba) بإرسال جيوشه تحت قيادة «إرياط ، لفرزوين ، قام ذونواس اليهودي أثناء المواقع الحربية بالقضاء على مسيحي نجران واسكن الحرب انتهت بانتصار إرياط وموت ذى نواس ، وانتهى بذلك عهد الجنوب العربي بالاستقلال .

وقام الجيش الحبشي في جنوب الجزيرة العربية بتنصيب أبرهة ملكاً على هذه البلاد الجديدة ، ومنذ ذلك الحين أخذ يستقل بملكه ، مقتصرًا على دفع الجزية لامبراطور الحبشة ، وتسجل تاريخ هذه الحقبة كتابات مستفيضة منقوشة على سد مأرب وفي مكان آخر قريب العهد بالكشف عند مريقان ، ويستفاد من هذه الكتابات أن أبرهة قد أحرز انتصاراً على إحدى قبائل شمال الجزيرة العربية .

أما باقي تاريخ أبرهة فهو معلوم بالتفصيل من المصادر الإسلامية حيث سجلت بناءه لكاتدرائية عظيمة في صنعاء يقال لها القليس ، وكان يهدف من بنائها أن يناقش بها الكعبة ، ويحول إليها طواف الحجاج ويقبل من شأن مكة .

وقام أبرهة في عام ٥٧٠ الميلادي بحملته المشهورة على مكة المكرمة وعاد منها مهزوماً (عام القيل - الذي ولد فيه محمد عليه السلام) ، وسنورد النص الإسلامي بعد الفراغ من هذا الشرح .

أغار جيوش الفرس على بلاد اليمن . وكان في ذلك نهاية الحكم الحبشي لبلاد اليمن ، وأخذت مملكة أكسوم في الضعف ، وتسيبت الحروب السالفة الذكر في كساد التجارة بين الجانبين ووقوف تيار المهاجرين ، الذين كانوا يدعون بعجلة الحياة في الحبشة إلى النشاط والرواج ، وكانت هذه الأحداث بداية العزلة الطويلة التي عاشت فيها الحبشة قروناً عديدة ، استمرت من عام ٦٥٠ إلى عام ١٢٧٠ ، ولكن المدهش حقاً أنه عند انقراض العزلة ظهر أن البلاد قد حافظت على مسيحتها في مرتفعات الهضبة وامتدت إلى الجنوب ، وإن كانت قد اتخذت طابعا خاصا بها ، فمع محافظتها على المذهب الارثوذكسي (القبطي - يعقوبي) إلا أنها أخذت تمارس معه كثيراً من الطقوس اليهودية والرثنية - ولكن المسيحية ظلت طوال

هذه المدة الرابطة القوية التي ربطت بين جميع سكان الهضبة الحبشية المرتفعة
للثيمة^(١).

الرواية الإسلامية للحملة الحبشية على النين^(٢) :

تولى (ذو نواس بن تبان أسعد) ملك النين ، واجتمعت عليه حمير
وقبائل النين ، فكان آخر ملوك حمير . وهو صاحب الأخدود ، وكان
بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، أهل فضل واستقامة
لهم رأس يقال له عبد الله بن السامر ، فسار إليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم
إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل ، فخذ لهم الأخدود ، فخرق من
حرق بالنار ، وقتل من قتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريبا
من عشرين ألفا .

• وفي ذي نواس وجنده قال تعالى : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات
الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يضعلون بالمؤمنين يهود . وما تقوموا
منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . »

• ويقال : كان فيمن قتل ذو نواس عبد الله بن الثامر رأسهم وأمامهم .
• وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له - دوس ذو ثعلبان - على فرس ،
فسلك الرمل فأعجزهم ، ففضى على وجهه ، ذلك حتى أتى قيصر ملك
الروم ، واستنصره على ذي نواس وجنوده ، فأخبره بما بلغ منهم . فقال
له : بعدت بلادك منا ، ولكني سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا
الدين ، وهو أقرب إلى بلادك . وكتب إليه يأمره بنصره ، والطلب بتاره ،
فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة

Islam in Ethiopia by Trimmingham

٢٢ ص (١).

The Ethiopians by Ullendorff

ص ٥٢

(٢) تهذيب شيرة ابن هشام ص ١٥ وما بعدها (عبد السلام هارون) الجزء الاول .

وأمر عليهم رجلا منهم يقال له أرباط ومعه في جنده أبرهة الأشرم ،^(١)
« فركب أرباط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعبان
وسار إليه ذو نواس في حمير ومن اطاعة من قبائل اليمن ، فلما التقوا أنهزم
ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به ويقومه وجه فرسة في
البحر ، ثم ضربه فدخل به ففاض به فمضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره
فأدخله فيه وكان آخر العهد به .
« ودخل أرباط اليمن فلما » .

• • •

« فأقام أرباط بأرض اليمن سنتين في سلطانه ذلك ، ثم نازعة في أمر
الحبشة باليمن أبرهة الحبشى حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فالتجأ إلى كل
واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار احدهما إلى الآخر ، فلما تقارب
الناس أرسل أبرهة إلى أرباط : إنك لا تصنع بأن تلتقى الحبشة بعضها
ببعض حتى تشنبا شيئا ، فأبرز إلى وأبرز إليك فأينا أصاب صاحبه
انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرباط . أنصفت . فخرج إليه أبرهة
وكان رجلا قصيرا لحيا ، وكان ذا دين في النصرانية . وخرج إليه
أرباط وكان رجلا عظيما طويلا ، وفي يده حربة له ، وخلف أبرهة غلام له
يقال له عتوده يمنع ظهره ، فرفع أرباط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه
وسط الرأس ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأثفه وعينه

(١) في رواية أخرى لسير بدج ص ٣٦١ - أن دوس ذو ثعبان كان يهوديا وأنه هو
الذي أوقع الفتنة ونسب في مهاجمة ذى نواس لأهل بجران - وأن أشبارم وصلت الى
بطريك الاسكندرية الذي كتب ملك الحبشة لانتفاذ المسيحيين في بجران ، وأن الملك أبللا
أصبحه كانت قد وصلت الى انباء أيضا عن طريق شخص تمكن من الهروب من المذابح ، وكان
يلقى ملك الحبشة الجيوش ولما لم تكن لديه السفن التي تنهب بهم البحر ، ولذلك طلبها من
(الملك حوستين البيزنطي Juscin) الذي أمده بما يلزمه منها .

وشفته ، فبذلك سمى . — أبرهة الأشرم — وحمل عتوده على أرباط من
خلف أبرهة فقتله . وانصرف جند أرباط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة
بالمين (١) .

« ثم أن أبرهة بنى — كنيسة القليس — بصنعاء لم ير مثلها في زمانها
بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : لما قد بنيت لك ، أيها الملك ،
كنيسة لم تبن مثلها لك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب
ثم تستطرد الرواية فيما حدث من أحداث حتى تأتي إلى حلة أبرهة الأشرم
على مكة فاصداً هدم التكية فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخفافيلف
واليلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : خيبر في منقاره وحيوانه
في رجله ، أمثال الحصن والعنبر ، لا تصيب منهم أحداً إلا بهلك (٢) ،
وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يتدرون الطريق الذي منه جاءوا ،
يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب
أبرهة في جسده فات . »

وفي هذا نزلت الآيات الكريمة (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب القبيل
ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من
سجيل ، فجعلهم كعصف ما كور) .

(١) ص ١٧ تهذيب سيرة ابن هشام

(٢) ص ٢٦٨ السير بد Budge يقول أن تلك الأحجار الصغيرة كانت تحمل مرميها
الجدري الذي تشفى في جيش أبرهة . . . الخ

وتمشيا مع ما سبق أن أشرنا إليه في المقدمة من اتخاذنا نهجا خاصا ،
يربط جميع المراحل الهامة في أحداث الحبشة بالتاريخ العالمي ، يمكننا الآن
أن نعتبر الحملة الحبشية على اليمن استجابة لطلب امبراطور الدولة
الرومانية الشرقية (يزدتلة) لحماية مسيحي اليمن - وما أعقب ذلك
في عهد أبرهة - أول تلك المراحل الحبشية التي تتصل بتاريخ العالم
الخارجي .

الفصل الرابع

تاريخ الحبشة في عصور الإسلام الأولى

اتصال الإسلام بالحبشة :

رأينا فيما تقدم مدى ما كانت عليه الصلات بين شاطئ البحر الأحمر ، الأحباش من الغرب وسكان الجزيرة العربية في الشرق وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن وجنوب الجزيرة . التي مرت في تلك الأزمان بأوج حضارتها القديمة . فكانت مركزا للششاط التجاري والإشعاع الحضارى ، الذى تكفلت طوائف المهاجرين بنشره في بلاد الحبشة وتطوير الحياة بها ، ولما استقر المهاجرون واختلطوا بالسكان الأصليين وتكونت منهم دولة جديدة على جانب من الرقى والازدهار ، بدأت موجات الهجرة تسير في الاتجاه المضاد وان كانت في هذه المرة على هيئة جيوش غازية يقال إنها سيطرت على اليمن قرابة قرنين من الزمان ، ورأينا على وجه اليقين نهاية تلك الفترة عندما استنجد امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بملك الحبشة لكي يحمى مسيحي اليمن من الفناء على يد ذى نواس اليهودى ، وكيف تم ذلك على يد القواد الأحباش الذى حاول أحدهم (أبرهة الأشرم) غزو مكة فاندحرت جيوشه .

تدخل الفرس بعد ذلك مباشرة فعاد الأحباش إلى بلادهم في عام ٥٩٠ الميلادى وكانت تلك نهاية السيطرة الحبشية في بلاد العرب ، وما أن جاء عام ٦٠٢ الميلادى حتى كان نفوذ الفرس قد شمل جميع أنحاء الجزيرة العربية واستمرت اليمن تحت حكمهم المباشر حتى العام الثامن من الهجرة (٦٣٠ ميلادية) حين اضطروهم الزحف الإسلامى إلى الانسحاب .

بدأ محمد عليه السلام دعوته إلى الإسلام سرا (عام ٦١٠ ميلادية) في بداية الأمر ، لا يعلم بها إلا أقرب المقربين ، ثم أمره سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة (فاصدع بما تؤمر) (الحجر ٩٤) (وانذر عشيرتلك الأقرين) (الشعراء ٢١٤) (عام ٦١٣ ميلادية) وهنا بدأت هذه الجماعة الصغيرة تتعرض للبعثة من اجتماع كلبة قريش على إلقاء المسلمين .

(فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصب أصحابه من البلاد وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنهم بما هم فيه من البلاد ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أتمم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام ^(١)) . (٦١٥ ميلادية) (السنة الخامسة بعد النبوة) .

ويجدر بنا أن نتأمل هنا برهة قصيرة ، لكي نتأمل السبب الذي دعاه عليه السلام إلى اختيار الحبشة دون غيرها لهُجرة أصحابه ، فلقد ذهب الكتاب في هذا الأمر مذاهب شتى ، وحلوا الحديث نوق ما يحتمل من معانٍ في الوقت الذي تستقيم فيه الأسباب مع أساط البديهيّات .

محمّد وصحبه يؤمنون ويدعون إلى عبادة الله ونيل الوثنية وتحطيم الأصنام وينادون في الناس بالدين الحنيف الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، جماعة صغيرة في مكة تنادى بهذا الأمر الخطير في وسط محيط من القبائل التي تدين بالوثنية وتعبد الأصنام .

لم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته ، وتعلم ذلك في مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٩٢ (عبد السلام هارون) .

بدينها الوثني ، وكذلك لم يفكر النبي في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب الذين يمتنون الديانات اليهودية والمسيحية لأن كلا من الفريقين كان ينازع الآخر وينافسه في النفوذ الأدنى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا يقبلان منافسا ثالثا خصوصا إذا كان من العرب الذين يتعالمون عليهم ويقولون عنهم - « ذلك أنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » (آل عمران ٢٥) - أما اليمن - وكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوي - فلن يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها ، وقد برهنت الأيام على بعد نظره .

وكذلك كان شأن الحيرة التي كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة ، أما الشام فهي بعيدة كذلك ، ثم أن كلا من الشام والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قريش ، وكان لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات في أوقات منتظمة ^(١) فأين يذهب أصحاب محمد عليه السلام إلا إلى بلاد ذلك الملك النضرائي ، الذي يؤمن بالله ويكتابه ويتبع ماجاه به عيسى عليه السلام من هدى ، وبمملكته (قنيسين وrehبانا وأنهم لا يستكبرون) أين يجد الرسول عليه السلام لصحبه مكانا أكثر أمنا وسلاما ، وليس أدل على ذلك من قوله « وهي أرض صدق » ولا نعتقد أن لهذه الحادثة تفسيرا أبسط وأصدق من هذا التفسير .

كما أن الحبشة هي أقرب البلاد المسيحية التي يحكمها ملك مسيحي إلى الجزيرة العربية والسفر إليها أهون أمرا وأسلم عاقبة ، إذ أنه لا يزيد عن كونه عبورا البحر وهو مما لا شك فيه أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالا أو جنوبا خلال القبائل العربية المعادية ، وليس أقل من ذلك أهمية في سبب اختيار الحبشة تلك العلاقة الطويلة التي سبق أن فصلناها بين الحبشة والجزيرة العربية ، وتلك الصلة التي توطدت بين الكثيرين في التجانبين خلال الرحلات التجارية إلى أكسوم .

(١) تاريخ الاسلام - الجزء الأول - لـ الدكتور حسن إبراهيم حسن - ص ٨٧ .

وكان عدد المهاجرين الأوائل في أرجح المصادر أحد عشر ، منهم عثمان بن عفان رضى الله عنه ومعهم بعض زوجاتهم ، ثم تابع المسلمون فيما يطلقون عليه الهجرة الثانية ، ومنهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومنهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه فكان من تلحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا سوى زوجاتهم وأبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا أو ولدوا بها ، ويقدر البعض بمجموع كل هؤلاء بستائة مسلم ، وامتدت إقامتهم في الهجرتين الأولى والثانية بالحبشة حوالى ستة عشر عاما .

• • •

لم تسترح قريش لما لاقاه مهاجرو المسلمين من أمان في كنف امبراطور الحبشة فأوفدوا إليه رسولين هما عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص وكانا من التجار اللذين سبق لهما السفر إلى أكسوم ، وخبروا الأحباش . وجمعوا الهدايا للنجاشى وبطارقته ، وعندما بلغنا النجاشى قال له : أيها الملك لأنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وعشيرتهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فاستدعاهم النجاشى كما استدعى أساقفته (فشرروا مصاحفهم حوله) وسأل المسلمين : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملل ؟ .

فأجابهم جعفر بن أبى طالب : أيها الملك ، كنا قوم أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأكل الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسب الجوار ، وبأكل القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف (٤ - الحبشة)

عن المحارم والدماء ، ونهانا عن القواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم
وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة
والزكاة والصيام .

وعندما سألهم النجاشي عن علاقة دينهم بالنصرانية ، قرأ عليه جعفر
سورة مريم فبكى النجاشي وأسأفته وقال النجاشي : إن هذا والذي جاء
به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ونظر إلى رسولي قريش قائلاً :
وانطلقا . فوالله لأأسلهم ليسكا ولا يكادون ، (١) .

* * *

تحليل الخلافات بين المؤرخين في تفاصيل الهجرة إلى الحبشة :

وهذه القصة تبدأ الخلافات بين المؤرخين ومراجعهم ، وأولى هذه
الخلافات أن ابن هشام ذكر أن عبد الله بن أبي ربيعة كان أحد الرسولين ،
بينما يقول (صاحب المواهب) أن الذي ذهب مع عمرو بن العاص هو
عمارة بن الوليد ، وترد بعض المراجع على ذلك بأن قريشاً أرسلت في أمر
من هاجر الحبشة مرتين ، ذهب أحدهما في الأولى وذهب الثاني في
الثانية (٢) .

ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن هذه القصة موضوعة — بدليل
أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع إلا بعد الهجرة إلى الحبشة . وبغير ذلك
من الأدلة (٣) .

وللقصة بقية متصل أطرافها بعضها ببعض ، ومنها ما يتعلق بما نحن بصدده
وهي أن النجاشي عندما تسلم كتاب الرسول يدعو فيه إلى الإسلام (كما

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٨ (عبد السلام هارون) .

(٢) ص ٤٣ ، السيرة الحلبية الجزء الثاني

(٣) ص ٢٦ فجر الإسلام تأليف الأستاذ أحمد أمين .

سأى ذكره فيما بعد) وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وشهد شهادة الحق . وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك (١) نستبق الحوادث ونذكر هذا الحادث في هذا المكان لأن هناك رواية أخرى تسب إلى السيدة / عائشة رضي الله عنها من أن هذا التجاشي (أصحمه) كان أبوه ملكا على الحبشة وهو صبي صغير ، قتل أبوه واستولى عمه على الملك وباع الصبي إلى رجل من العرب من بني ضمرة ومكث ببلاد العرب مدة مكنت له من لغتهم وعاداتهم ، وتمضى الرواية في شرح الظروف التي عاد فيها هذا الصبي عندما كبر وصار ملكا على الحبشة ، ويدلل المتحدثون بهذه الرواية على السبب الذي من أجله عطف التجاشي على مهاجري المسلمين (٢) .

وعلى هذا النحو يمضى التضارب بين أقوال المؤرخين العرب ، فنذكر بعض الحوادث في شيء كثير من التفصيل الذي يخرج بها عن حد البساطة والتصرف الطبيعي ، ويروى عنها قصة طويلة ذات مقدمات ونتائج .

وبما بلغت النظر مارواه الطبري (١ / ١١٨٢) « خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعبية ، منهم الراكب والماشي ، ووفق الله للسليين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مخزجم في رجب في السنة الخامسة من حين نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر ، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا ، وإيراد قصة الهجرة على هذه الصورة يجعل منها خطة سرية للهرب ، وعندما أحست قريش بها طاردوهم فلم يدركوهم .

عاد هؤلاء المهاجرون بعد فترة قصيرة لانتجاوز بضعة شهور ، وجاء

(١) ص ١٥٧ من نهاية الأرب الجزء الثامن عشر ، ص ٢٩٣ من السيرة الخلية .

(٢) ص ٣ من السيرة الخلية ج ٢ ، ص ٢٥٢ الجزء السادس من نهاية الأرب .

في الطبري مستندا إلى كتب السنة (١ / ١١٩٢ وما بعدها) أن مسلبي الحبشة بلغتهم حادثة الغرائيق التي افترى فيها الكفار على النبي ، وادعوا أنه قال « تلك الغرائيق العلا ، وأن شفاعتكن لترجيى » ، والغرائيق هي الأوثان التي كانت تعبدها قريش والعرب أيام الجاهلية ، أنه نتيجة لذلك أسلمت قريش فأيقن المهاجرون أنه لم يعد هناك ما يدعو لبقائهم بالحبشة فعادوا سراعا ، ولكن سرعان ما اكتشفوا حقيقة الغريب فعادوا ثانية إلى هجرتهم ، وزاد عددهم في الهجرة الثانية إلى ما يفوق الثمانين مهاجرا ومعهم بعض نسائهم ، وخرج معهم في هذه المرة جعفر بن أبي طالب .

ولما تعددت الروايات ، ذهب بعضهم إلى أن الهجرة الأولى ما كانت إلا وفدا إسلاميا بعثه الرسول (ص) إلى ملك الحبشة ليتعرف مدى استعداد النجاشي لقبول المهاجرين ، ولذلك كان تكوين الوفد شاملا لشخصيات ذات مؤهلات معلومة ، فمنهم التاجر ، والمتكلم ، وصاحب النفوذ ، والخبير بالحبشة وأهلها ، واستغرقت بعثتهم فترة قصيرة عادوا بعدها ليلقبوا استعداد النجاشي لاستقبال المهاجرين ورعايتهم ^(١) واستمرارا لما يذهب فيه البعض بهذه الرواية ، أخذت الهجرة إلى الحبشة وما جرى حولها من أحداث ، صورة الوفود السياسية ، مرة من المسلمين أعقبتها بعثة من عند النجاشي لىكى يستوثق من أخبار النبي قبل أن يصرح بقبول المهاجرين ، تلك البعثة التي ورد ذكرها في بعض المراجع والتي ضمت عددا كبيرا من القساوسة والراهبين ، والتي يقال إنهم عندما رأوا الرسول وسمعوا القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي وأخبروه بما شاهدوه .

ثم تلو ذلك بعثة ثالثة من قريش تطلب من النجاشي إعادتهم ، ثم ذهاب وفد رابع من المسلمين الذين يحملون كتاباً من الرسول إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام .

(١) ص ٧٧ بين الحبشة والعرب فكتور عبد المجيد عابدين .

وفي رأينا أن إيراد الحوادث على هذه الصورة أكثر مما تختمله ظروف ذلك العهد ولا تخلو من طابع القصص . وأن مانعها عما كان يمانيه النبي ومن معه من المسلمين الأوائل من شدة وقسوة من قريش ، دفعهم إلى الهجرة إلى الحبشة حيث يوجد بها ملك (لا يظلم عنده أحد) . ولا شك في ضرورة تدبير تلك الهجرة والقيام بها في سرية تامة ، الأمر الذي مكثهم من النجاة من مطاردتهم .

وبما لا جدال فيه أن حالة المسلمين في تلك الفترة العصيبة ، لم تكن من المدووم والأمن والاستقرار بحيث تجعلهم يرسلون وفدا يفاوض النجاشي ويستأذن منه .

* * *

وقرأنا لبعض الكتاب تحليلا يشككون فيه حتى بوصول المهاجرين إلى النجاشي وعاصمة ملكه ، ويحاولون إثبات نزول هؤلاء المهاجرين عند أحد الملوك التوابع يقال له (بحر نجش) أى ملك الساحل ولسنا على بينة من السبب الذى يدفع هؤلاء الكتاب إلى إبعاد هذا الفضل الكبير عن النجاشي ، ولكننا إبتاناً للحقيقة نأتى فيما يلي بنص ماجاء في سيرة ابن هشام لباقي القصة ومنها يتضح بجملاء أن مكان هؤلاء المهاجرين كان قريباً من النيل الأزرق في قلب الهضبة حيث كانت عاصمة النجاشي الكبير .

فوالله أنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، فوالله ما عدلتنا حرنا حرنا قاط كان أشد علينا من حزن حرناه ، عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فباتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه ، وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقبعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالوا : فانت . وكان من أحدث القوم سنا فنخروا له قرية فجعلها في صدره ، ثم سبغ عليها حتى

خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتكفين له في بلاده ، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير وهو يسعى . فلع بثوبه وهو يقول :
ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي .

وأهلك الله عدوه ومكن له في بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى عليه وسلم ، وهو بمكة ،^(١) وكان ذلك في عام ٦٣٠ ميلادية^(٢) (السنة الثامنة الهجرية) .

* * *

تقول المصادر العربية أن هذا النجاشي كان اسمه (أصحمة) ومعناه باللغة العربية (عطية) وجاء اسمه في بعض المراجع الأجنبية (ايللا صحم Ella Saham)^(٣) ويشك بعض الكتاب في وجود مثل هذا النجاشي أصلاً لعدم ورود ذكره في سجل الملوك (كبر انجست) الذي يحوى أسماء ملوك الحبشة ، ولست أجد لهذا الشك من سبب خصوصاً وأن المؤرخين يتلفهون على العثور على أى سند مكتوب في تلك العصور التي ندر فيها تسجيل الحوادث وليس من دينهم تكذيب أى خبر مكتوب إلا إذا تعارض مع المنطق أو نقضه خبر آخر أقرب إلى التصديق .

ونعتقد أن النص الإسلامى غاية في الوضوح وقريب إلى المنطق ، ولم يظهر من المراجع الموثوق بها ما يمكن أن ينفيه أو يدعو إلى التشكك فيه .

* * *

ومع ذلك فنود أن نشير إلى ما جاء في بعض المراجع لعلمنا نزول بعض اللبس . فان (هارتمان Hartmann) قد رجح أن يكون اسم النجاشي ايللا صحم وله ولد تلاه على العرش يقال له أرجمه .

(١) المرجع السابق — تهذيب السيرة .

Hartmann (٢)

ثم جاء في تاريخ الطبرى (١ / ١٣٦٩) أن كتاب الرسول إلى النجاشى الذى أرسله مع عمرو بن أمية الضميرى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة . . . »

وجاء رد النجاشى يقول « إلى محمد رسول الله . من النجاشى الأصحم ابن أبحر . . . »

ويروى السير بدج فى الصفحات ٢٧١ وما بعدها - قصة الهجرة والكتب المتبادلة ويذكر اسم الملك فى بعضها أصحمه (ايللا صحم) ثم يعود ويسميه أرحمه - ثم يستمر فى تسميته أرحمه فى باقى روايته .

ولورجنا إلى سجل الملك الذى نقله السير بدج عن (بروس Bruce) و(سولت Salt) و(سجل المتحف البريطانى List, BRIT - Mus. OR 821 fol 28b) لوجدنا فى المرجع الأخير ذكرا للملك يدعى ايللا أصحمه ولكنه لا يتفق فى الزمن مع وقت الهجرة بل يسبقها ، أما أرحمه فقد ورد فى باقى المصادر موافقا لنفس ذلك العهد الذى نحن بصدده . وهذا فيما يبدو هو السبب الذى جعله يستمر فى ذكر روايته مستعملا اسم أرحمه .

ولكننا بمقارنة المراجع الثلاثة لسجل الملك نجد اختلافا كبيرا وتضاربا عجيبا فى الأسماء والتوقيت والتسلسل وقتره حكم كل ملك من الملوك - الأمر الذى أدى بالسير بدج نفسه إلى الحكم وبأن سجل الملك الأصيل لا قيمة له ، إذ أنه وضع بقصد ملء الخانات الشاغرة فى تسلسل الملوك - ولقد أظهرت التواريخ ومقارنتها مع المعلومات المعروفة عن تاريخ العالم تضاربا كبيرا ،^(١) ولا يسعنا أمام كل ذلك إلا الاعتقاد على النص الإسلامى ، مع التسليم بأن الاتصال الأول كان مع النجاشى أصحمه ، والاتصال الثانى مع النجاشى الذى خلفه وهو ابنه أرحمه .

ولذا ما أبعدنا كل ماتعارض من نصوص واختصرنا الرواية إلى أركانها الرئيسية لوجدنا أنه مما يتفق مع المنطق ، أن النجاشي أصحمة عندما علم مبادئ الدين الإسلامي ووجدتها تدعو إلى ما تقوم على أساسه الديانة المسيحية قدر هذا الدين حق قدره وصدق بما جاء به وبذلك أحسن وفادة المهاجرين وأكرمهم ، وتبادل الرسائل والهدايا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهناك فرق كبير بين الاعتراف بدين هؤلاء المهاجرين وتقديره له وبين اعتناق الإسلام .

كذلك ذكر الطبري^(١) وغيره من المراجع أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل فيمن أرسل إليهم من الملوك ، كتاباً إلى النجاشي يدعو فيه إلى الإسلام ، فلو أن هذا النجاشي كان قد أسلم حسب الرواية الأولى لما كان هناك محل لإرسال الكتاب إليه .

كذلك لا يجوز أن نستعين بالأثر الذي يتركه اعتناق ملك لدين جديد ، فليس هذا بالأمر الذي يمكن أن يمر بسهولة دون أحداث أو عواقب يكون لها أثر يستحق التسجيل الأمر الذي لم يرد له أي ذكر في المراجع الثابتة عن ذلك العهد .

ونعتقد أن الرواية الصحيحة هي ما أتينا على ذكره مما جاء في (تهذيب سيرة ابن هشام) وبها ما يكفي من التقدير والإجلال للنجاشي أصحمة ، الأمر الذي — يجعل النبي الكريم يصلي عليه صلاة الغائب عندما علم نبأ وفاته — اعترافاً بفضله وكرمه (عام ٦٣٠ م) ، بل وتجعل من إرسال النبي عليه السلام كتاباً آخر يدعو إلى الإسلام عملاً له معنى ، يستقيم مع المنطق السليم .

* * *

(١) ذكر الطبري كتاب النبي إلى النجاشي ، ولكنه لم يذكر قصة مبعوثي فريش إلى النجاشي — التي جاء ذكرها في سيرة ابن هشام كما تقدم .

وقبل أن ننقل من هذه النقطة ، نود أن نشير إلى ما ذكره بدج عن قصة اسلام النجاشي التي جاء ذكرها في بعض المصادر الإسلامية حيث قال : « بالرغم مما يعرف عن الأحباش من تعصب وكبرياء ، فإن النجاشي عندما سمع بانتصارات محمد وأنه يفرض اعتناق الاسلام أو القتل ، ولم يكن النجاشي في حالة تسمح له بالتعرض للحرب مع محمد وتعرض شعبه للقتل وسفك الدماء - فإنه وجد من حسن السياسة أن يتفادى الهزيمة بأن يعلن اعتناقه للاسلام وأرسل الهدايا إلى الرسول - وبذلك أُنقذ بلاده ، وأصبحت الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي حافظت على مسيحياتها سالمة من العدوان لعدة قرون بعد حكم أرمجه (١) »

ولا يسعنا هنا أيضا إلا أن نستبعد هذا التفسير ، ونظل على ما أديناه من رأى وهو أن النجاشي لم يسلم ، ولكنه احترام الاسلام والمسلمين وقدرهم وأن العلاقة بين المسلمين وبين النجاشي ما كانت لتصل إلى حالة الحرب للصلات الطيبة التي كانت ماثلة في الأذهان وما يؤيد ذلك من أن الرسول عليه السلام قال (اتركوا الأحباش ماتركوكم) .
(ص ٢٩٤ - ٣٠٣ - السيرة الحلبية) .

* * *

ولقد ثار جدل آخر حول كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي وإمكان التوفيق بينه وبين ما جاء ذكره في السيرة التي اقتطفنا جزءا منها ، فقد جاء فيها ذكره ابن اسحاق أن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة كان كما يلي (٢) :

« من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، إني أحمد إليك الله الملك القدوس والسلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم البتول

(١) ص ٢٧٣ سير بدج

(٢) ص ٢٧٩ من صبح الأعشى لفلقنسى - الجزء السادس .

الطبيية الحصينة ، حملته من روحه وتفخه ، كما خلق آدم بيده . وإلى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فأني رسول الله وأني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فأقبلوا نصحي ، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى .

ويمتد الخلاف في موضوع كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي على أهميته ، حينما تذكر بعض المراجع أنه أرسله مع ابن عمه جعفر ابن أبي طالب ، فإن البعض الآخر يقول إن رسول النبي إلى النجاشي كان رجلا من بني ضمرة يقال له عمرو بن أمية ، ويربط هؤلاء بين هذا المندوب وبين قصة إقامة النجاشي أصحابه مع ابن عمه في شبابه ، لذلك كان القصد من اختيار هذا المندوب من تلك العائلة بالذات ، أن يؤتي أثره في نفس النجاشي .

وليس يعيد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل كتابين ، أحدهما مع ابن عمه جعفر^(١) ، والآخر مع عمرو بن أمية الضمري ، وهنا قد يستقيم ما ذكرته بعض المصادر من أن حوادث الهجرة قد وقعت في عهد ملكين متعاقبين من ملوك الحبشة أحدهما أصحمه والآخر أرحمه بن أصحمه - ومن هنا حدث الالتباس في الأسماء .

وكما أنه من الممكن التوغل فيما يمكن أن تفسره هذه النصوص على أنها تعارض بعضها البعض ، وما قد يستتبع ذلك من التشكيك في صحة الروايات ،

(١) عند مقارنة التواريخ نجد الملاحظة أن جعفر لم يسكن بين الفريق الأول من المهاجرين كما جاء في السيرة كما أن هناك بعض المراجع الأخرى التي تعطي نصا آخر لكتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أرسله مع عمرو بن أمية الضمري (راجع ص ١٥٧ من الجزء الثامن عشر من نهاية الأرب) وأيد الكتاب تسلم لغير النجاشي السابق .

فانه من الميسور هنا أيضا أن نفترض أبسط الفروض ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث برسالته مع جعفر عند هجرته لئسلمها للنجاشي وليس يعيد أن يكون قد أرسل رسالة أخرى إلى النجاشي بواسطة عمر بن أمية الضمرى ، وبهذه التفسيرات البسيطة تكتمل الصورة السليمة لما جاء في جميع المراجع الثابتة ، ولا محل بعدئذ للتعقيد والتشكيك ، خصوصا وأن العناصر الأساسية للحوادث مسجلة في وضوح على نحو ما عهدناه من العناية بتسجيل الأحداث منذ نشأة الإسلام ، فليس هناك شك في هجرة المسلمين إلى الحبشة ومن بينهم جعفر بن أبي طالب ، وليس بمستغرب أن يحمل معه كتابا من النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي مشابها لتلك الكتب التي حرص النبي على إرسالها للبلوك ، وليس بمستغرب على النجاشي أيضا أن يستقبل الكتاب بروح طيبة ويقدر الدين الإسلامي الجديد حق قدره ، ويرد رسل قريش الذين جاؤا يطالبون بعودة المهاجرين ، على أعقابهم فاشلين ، ويكرم وفادة هؤلاء المهاجرين ويحميهم مدة إقامتهم بالحبشة التي امتدت ستة عشر عاما .

* * *

ابتداء دخول الإسلام :

لم تكن الحبشة ضمن الممالك التي وجه المسلمون إليها حملاتهم في ذلك العهد الأول الذي شاهد الانتدفاع العظيم للإسلام ، ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة عوامل ، منها تركيز المسلمين على كسر شوكة الامبراطوريتين المجاورتين لبلاد العرب ، واللتين يخشى منهما على الدولة الإسلامية الناشئة وهما امبراطورية الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية ، وكذلك اعتبار المسلمين أن مصر أكثر أهمية من الحبشة لمركزها الهام وسبقها في ميدان الحضارة والعمران ، ومن أهم الأسباب كذلك قرب عهد المسلمين بالعلاقات الطيبة التي كان للنجاشي السابق فيها فضل مشكور ، حتى أنه يروى أن النبي

نصح بترك الأحباش وشأنهم طالما أنهم لم يبدأوا بالعدوان (اتركوا الحبشة ماتركوكم) ^{١١} ولكن بعد فترة من الزمن أخذ بعض القراصنة الأحباش يهددون تجارة العرب في البحر الأحمر مما اضطر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى إيفاد حملة بحرية صغيرة لتأديبهم، ولكنها لم تسلك بالنجاح واستمر نشاط القرصان إلى درجة اضطرت المسلمين عام ٨٣ الهجرى إلى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك العمليات بأن جردت حملة بحرية لاتخاذ مركز حربى على الشاطىء الغربى ، فاحتلت مجموع جزر (دهلاك Dahlak) المجاورة لمدينة مصوع . وكان احتلال المسلمين لهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على باقى المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى ، وعلى الانتشار التدريجى للإسلام فى شرق افريقيا .

* * *

عزلة الحبشة وقبائل البجة (Beja) :

قدمنا أن هزيمة الأحباش وجلاءهم على الجزيرة العربية كان بداية لعهد العزلة الطويل الذى خيم على بلاد الحبشة ، وكان لما ذكرناه آنفا من نزول المسلمين على الشاطىء الافريقى مزيدا من التمسكين لهذه العزلة ، ولكن عاملا ثالثا دخل إلى الميدان وكان له أكبر الأثر فى اتمام الحصار وتدهور سلطة مملكة أكسوم . ذلك هو زحف قبائل البجة القوية وانتشارها من (مملكة النوبة) ووادى النيل إلى شاطىء البحر الأحمر حيث طاب لهم الجؤ والمرعى فوغلوا فى الاريتريا وشمال الهضبة الحبشية إلى سواحل البحر الأحمر ، ولم يكن لمملكة أكسوم أى حول أو قوة للوقوف فى وجههم ، فاستولوا فى طريقهم على منطقة الحماسين ، مما اضطر كثيرا من الأحباش إلى الهجرة إلى الجنوب . ولكن أكسوم رغم ذلك بقيت عاصمة للبلاد الحبشية .

(١) ص ٣٩٤ من الجزء الثالث من السيرة الحلبية .

عرة الحبشة وقبائل الاجاو (Agao)

انقطعت وسائل اتصال الحبشة مع وادى النيل غربا ومع البحر الأحمر شمالا وشرقا، وانقطعت صلتهم بالامبراطورية الرومانية الشرقية والتجارة مع اليونان وعلاقتها الثقافية معهما . واضمحلت جميع نواحي الحياة في البلاد وعادت كثير من القبائل التي كانت قد اعتنقت المسيحية إلى وثنيها الأولى . ولم تعد الحبشة بمسئطعة أن تحتفظ باستقلالها إلا في المنطقة الجبلية في مقاطعة تيجرى وتلك الأماكن الجنوبية الجبلية التي اضطرروا إلى النزوح إليها حيث كانت تعيش قبائل (الاجاو Agao) الوثنية . وتكونت بذلك دولة الحبشة الجبلية الجديدة التي شملت أقاليم ومقاطعات ومناطق تيجرى - جوجام Gojam - وأمرا Ambara - شوا Shoa .

امتدت مملكة الحبشة إلى تلك المناطق الجبلية الواقعة في الجنوب وأخذوا ينشرون بين سكانها الوثنيين تعاليم الديانة المسيحية ولغتهم (الجعز Ge'ez) أو الجيز ومنذ ذلك الوقت بدأت تتكون دولة الحبشة الحقيقية التي تتميز بطابعها الخاص . الذي هو عبارة عن خليط متفاعل من طبقة الساميين وأهل البلاد الحاميين ومن بينها قبائل الاجاو الكثيرة العدد، وتعددت اللغات والطوائف ، ولكن اللغات التي سادت هي لغات الساميين (الجعز والتجيرية والأميرية) .

° * °

متاعب الدولة المسيحية :

ويبدو مما كتب البعقوبي والمسعودي أنه لمكة أكسوم صادفتها صحوة استعادت فيها نفوذها إلى ساحل البحر الأحمر في مواجهة اليمن فترة من الوقت ، وسيطرت أثناءها على كثير من الموانئ ومنها دهلك وزيلع التي أصبح جميع أهلها من المسلمين ، وبالرغم من كل ذلك فقد كانت المملكة

الحشية تلاقى كثيرا من الشدائد مع قبائل الاجاو التي اشتركت معها في تكوين الدولة الجديدة ، فكانوا مصدرا للشاكل حتى أصبحت حياة تلك الدولة عبارة عن حروب متتالية لا تنقطع ، مما أضعف سلطتها على الممالك الساحلية التي أخذت تستقل بنفسها تدريجيا ، بل أخذ سلطانها يمتد إلى داخل البلاد ، وكان الفضل في سهولة تغلغل الإسلام في هذه الفترة عائدا للشاكل التي تسببها قبائل الاجاو لمملكتهم . وانصراف الملك إلى توطيد سلطانه بينهم ، الأمر الذي أدى بملكهم إلى الالاح على بطريك الاسكندرية لارسال مطران إلى الحبشة (وكان المركز خاليا وقتا طويلا) لعله يتمكن من تهدئة الحال واستقرار الأمور . وفعلا وصل المطران (أبونا دانيل) وكانت هذه الأحداث في أواخر القرن العاشر .

ولقد لعبت الكنيسة دورا هاما وبذلت مجهوداً شاقاً لمحاولة السيطرة على قبائل الاجاو وأدخلهم إلى الدين المسيحي ، ولكن الاجاو كانوا من القوة والصلابة بحيث كانت استجابتهم لهذه الدعوة عبارة عن تشكيل هذه الديانة الجديدة بالشكل الذي يتمشى مع تقاليدهم الوثنية القديمة ، وبقيت بها إلى الآن كثير من العادات التي لا تتفق مع المسيحية كتعدد الزوجات .

ولقد بذلت كنيسة الاسكندرية مجهودات ضخمة خلال القرون المتوالية دون جدوى واستقرت تلك المسيحية المحرفة في البلاد ، أما أكبر اثر لنشاط الكنيسة فكان وقوفها إلى جانب الحكومة الملكية كما كان له أثر في تعزيز سلطة الدولة ومكنتها من المحافظة على كيانها .

وكان من نتائج نشاط الكنيسة ومجهوداتها أن ازداد عدد رجال الدين وانتشرت الكنائس والأديرة ، وكازاد اعتماد الدولة على الكنيسة ازداد اعتماد الكنيسة على الدولة . ولم تكن الكنيسة تعتمد على كفاءة رجالها وتنظيماتها بقدر ما كانت تعتمد على قوة رجال الحكومة .

لذلك كانت الأزمات السياسية والحروب الداخلية التي تتعرض لها الدولة تؤثر في قوة الكنيسة ونشاطها ، وعندئذ كانت تتهياً للفرص أمام الإسلام للزحف والانتشار .

انتشار الإسلام :

وبالرغم من أن التاريخ عن هذه الفترة ظل غامضاً ومتضارباً بالنسبة للجانبين المسيحي والإسلامي على السواء ، إلا أنه كما ظهر فيما بعد ، انتشر الإسلام انتشاراً كبيراً أثناء هذه الفترة بحيث شمل جميع نواحي البلاد فيما عدا تلك المنطقة الجبلية المعزولة ، بل وتعدى ذلك إلى سيطرته على منطقة شوا الجبلية كما سيأتي ذكره ، ولكن انتشاره هذا كان امتداداً عاماً وزحفاً طبيعياً تمتد به القبائل الإسلامية وتنتشر ديارها في كل مكان ، دون تنظيم أو تعاون بين منطقة وأخرى أو بين جماعة وأخرى ، وكان لاتساع الرقعة وتعذر المواصلات أكبر الأثر في ذلك ، ولم يكن منافسهم المشترك في تلك الفترة من القوة أو الخطورة بحيث يدفعهم إلى الاتصال أو توحيد الجهود أو ضم الدولات الإسلامية المتعددة بحيث تتكون منها دولاً واحدة قوية ، واستمروا في الاتساع على هذه الصورة حتى شملت مناطقهم أغلب مناطق الحبشة وسكانها ، في غير ما اتفق أو تعاون أو حتى سياسة مشتركة ولكن تغلغل الإسلام في هذه المناطق — كان من القوة بحيث أصبح اقتزاعه من قلوب الناس في حكم المستحيل . وأصبح وجوده حقيقة لا رجعة فيها . وسارعت القبائل الوثنية التي كانت في تلك المناطق إلى اعتناق هذا الدين الناشئ المنتصر وقويت بهم شوكة الإسلام .

تمت كل هذه العمليات في مدى القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وأصبح الإسلام يتحكم في جميع المناطق الساحلية من أرخبيل الدهلك (مصوع) إلى مناطق الدناكل وبلاد الصومال وشمل قبائل البجة في الشمال

وسيداما في الجنوب وسلطنة إيفات في شوا وسلطنة هرر ، وزاد على ذلك أنه بدأ في تهديد الهضبة الجبلية التي تحصنت المملكة المسيحية وانعزلت فيها .

* * *

مجهودات الكنيسة الحبشية :

ولكن خلال تلك القرون المظلمة كانت المسيحية في معقلا فوق الهضبة تتوالى عليها الصعاب والحروب الداخلية ، إلى أن تمكنت الكنيسة بعد مجهود شاق من توحيد القوى حول المسيحية ، وأصبحت الكنيسة المركز الذي تنهى حوله جميع الخلافات ، ولقد استفادت الكنيسة الحبشية في تلك الفترة في تثبيت أقدامها وإصلاح الأمور بين القبائل المتحاربة ، من الخدمات التي قدمها المهاجرون الأقباط الذين هاجروا من مصر هروبا من اضطهاد الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٣٠ م) والذين يعود لإيثارهم الفضل في إحياء الحركة الأدبية والدينية في البلاد^(١) . وما دمتنا قد تعرضنا لذكر الحاكم بأمر الله وما حدث في عهده من اضطهاد ، أصبح لزاما علينا أن نفصل حقيقة الأمور التي حدثت في عهده في بعض التفصيل .

* * *

عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي :

وكان عهد الحاكم بأمر الله^(٢) متافيا مع ما عرف عن الإسلام على مر العصور من سماحة وعدل مع النصارى واليهود على السواء ، فقد بلغ في عهده إلى أقصى ما يمكن من الاضطهاد للمسلمين ولغير المسلمين .

(١) Islam in Ethiopia by Trimingham ص ٥٦

(٢) Islam and The Arabs Rom Landau ص ٦٣

لقد كانت مصر ومعها باقي أنحاء الدولة الإسلامية تمر بمحنة عنيفة خلال حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وكتب عنه الخافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخه ^(١) (كان جوردا سمحا ، خبيثا ماكرا ، ردى الاعتقاد ، سفاكا للدماء قتل عددا كبيرا من كهراء دولته صبورا ، وكان عجيب السيرة ، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها ، فأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع . . . وأمر النصراني بأن تحمل في أعناقهم الصلبان وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرتال بالمصرى ، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرأى الخشب في زنة الصلب أيضا وأن يلبسوا العمامة السود . . . وأمر يهدمه من الكنائس) وقال الصابى ^(٢) أن الحاكم عندما بدأ أهل مصر في التهكم عليه (استدعى القادة والعرفاء ، وأمرهم بالسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها وقتل من ظفروا به من أهلها . . . وأوقعوا النار في أطراف البلد والحاكم يركب في كل يوم إلى القرافة ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح) .

وقد ادعى الحاكم الالوهية وساعده على ذلك رجل يعرف بالدرزى (محمد بن اسماعيل) أوهمه بأن روح آدم عليه السلام قد انتقلت إليه . ومن هذا الطريق نشأت الطائفة الدرزية الشهيرة .

ولقد قتل الحاكم وزراه وكبار رجال دولته ، وكان بينهم بعض الأقباط ومنهم وزيره وموضع ثقته (فهد بن إبراهيم - النصراني) - وجاء في أسباب قتله (أن هذا الوزير استبد في أعماله وأثرى ثراء فاحشا على حساب الدولة والرعية وحابى المسيحيين وقرهم إليه وأسند إليهم المناصب الرئيسية في الدولة واضطهد المسلمين . . . أما ما يزعمه المسيحيون من أنه قتله لرفضه اعتناق الاسلام ، الاسلام ، وأنه بعد قتله أصبح شهيدا ولم تحترق جثته

(١) من الجزء الرابع من النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبو الحسن .

(٢) من المرجع : ١٨٢ نفس المرجع :

فهي من خرافات المؤرخين وما أكثر ما تراه من خرافاتهم ، على أن الحاكم لم يقتل فهد لنصرانيته ، بل نراه يقتل كثيرا من المسلمين أيضا . ولم يقل أحد أن هؤلاء المسلمين أصبحوا شهداء . . (١)

لم يكن في إمكان المسلمين أن يهاجروا والحاكم يسيطر على جميع الأقطار الإسلامية ، أما الأقباط فقد وجدوا خلاصهم في الهجرة إلى المملكة الحبشية ، وكان هؤلاء المهاجرين أثر كبير في معاونة الامبراطور والمطران على توحيد كلمة الدين المسيحي بين القبائل المتنافرة في الحبشة والتفاف جميع القبائل حول الكنيسة . وبذلك توطلت دعائم الدولة الحبشية التي كانت في أوثق الروابط مع الكنيسة .

وبعد زوال حكم الحاكم بأمر الله ، (في عام ١٠٢١ م) عادت للعلاقات الطبيعية إلى ما كانت عليه وزال الاضطهاد ، وعاودت بطريركية الاسكندرية صلاحها وتعززها ومعاوناتها للكنيسة الحبشية فزادت الأحوال في الحبشة تحسنا واستقرارا ، مما كان له أكبر الأثر في التمهيد للصحوة المقبلة ، التي بدأت فيها قوة مملكة الحبشة تعود إلى الظهور .

حكم الأجويين للحبشة (Agro)

سبق أن ذكرنا أن غالبية قبائل الهضبة الحبشية الذين يسكنون الجزء الجنوبي منها تنتهي إلى الاجاو ، وأنه عند انتشار الإسلام وتطويقه للبلاد من جميع الجهات واستقرار قبائل البجة في الشمال ، اضطرت مملكة أكسوم أن تمتد إلى الجنوب حيث قبائل الاجاو ، وخلال الفترة التي سبق شرحها والأحداث التي توالى منذ القرن العاشر إلى بداية القرن الثاني عشر ، تمكنت أسرة (أجويه) من الاستيلاء على العرش في عام ١١٣٧م ، وانتزعت من الأجاش القادمين من أكسوم ، والذين مكثوا على عرش البلاد قرونا عديدة توطلت أثناءها علاقاتهم بالكنيسة وأرتبطت بها مصائرهم وأهدأفهم

(١) ص ٤١ ملانفة الدروز تأليف الدكتور محمد كامل حسين .

خلال تلك القرون وتعاونوا في الكفاح على تعميم المسيحية في بلاد الهضبة الحبشية .

لكل هذه الأسباب لم تكن الكنيسة مستعدة لتأييد الأسرة الأجورية، الحاكمة الجديدة وثار الخلاف بين المطران، والملك ، وأتخذ الصراع بينهما مظهرا طرفيا إذا انتهى بتدخل سلطان مصر، الذي اضطر بطريرك الاسكندرية إلى ايفاد مطران جديد لهم يعترف بملكية هذه الأسرة الجديدة على الحبشة ومنذ ذلك الحين أخذ ملوك، هذه الأسرة يحاولون التقرب من الكنيسة .

ومن أم ملوك هذه الأسرة (لاليبلا Lalibella ١١٩٠ — ١٢٢٥) الذي جعل همه بناء عدد كبير من الكنائس تقربا من رجال الكنيسة الذين رفعوه إلى مرتبة القديسين .

ولكن الأمور لم تستمر بعد وفاته على نفس المنوال ، كما أنه لم يتمكن أحد من ملوك الاجويين من السيطرة الكاملة على جميع أنحاء البلاد بالصورة التي تخوله حمل لقب (ملك الملوك) ، فبالرغم من وجود أفراد هذه الأسرة على العرش ، فان المقاطعات المسيحية بقيت في شبه استقلال ذاتي تحت حكم ملوكها ، وكان تغلغل المسلمين في البلاد وكذلك ترمد قبائل الاجاو ، سببا في جعل سلطة الملك الحقيقية لا تتعدى حدود العاصمة ، ولم تكن العلاقة بين الكنيسة والملك على مايرام .

وما أن جاء عام ١٢٧٠ حتى تمكن (يكونو أملاك Yekono Amlak) من الاستيلاء على العرش وانتهى بذلك حكم الاجويين ، وكان (يكونو أملاك) ينحدر من عائلة أمهرية قديمة .

الفصل الخامس

تفصيل للمالك الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث عشر

استطردنا فيما قدمنا من بحث في ذكر الحوادث التاريخية التي مرت بالحيشة في تسلسل تاريخي ، وما كان فيها من مد وجزر بين المسيحية والاسلام ، متخذين من تاريخ السلطة المسيحية أساسا للتسلسل وقاعدة للبحث .

وأصبح الظرف مناسباً بعد ذلك لأن نجمع شتات ما تفرق بين مراحل البحث منذ نشأة الاسلام وانتشاره في مختلف المناطق الحيشية ونحدد مواقعها ونبين أحوالها ومدى مالها من أهمية حتى نهاية القرن الثالث عشر .

شرحنا في تفصيل واف ظروف الاتصال الأول بين الاسلام والحيشة في عهد الرسول (ص) ، ثم ذكرنا كيف اضطرت المسلمون لحماية تجارتهم وشواطئهم من القراصنة الاحباش أن يستولوا على جزر (الدهلك) المواجهة لمدينة مصوع وكيف جعلوا منها قاعدتهم الأولى ومركز انطلاقهم ، ومنها امتد نفوذهم حتى استولوا على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وكيف أخذ نشاط المسلمين يمتد وتوسع بمالكهم إلى الداخل حتى استولوا على أغلب الأراضي الحيشية وبدأت مملكة الحيشة القديمة في عزلتها ، التي زادت على أن تزحف قبائل البجة من شاطئ النيل وانتشارهم في شمال الحيشة حتى ساحل البحر الأحمر .

ولقد ساعد على انتشار الاسلام وتغلغله في البلاد - كما انتشر في مناطق أخرى من العالم - عدة عوامل تبين فيما سيرد من تلخيص .

لم يدخل الإسلام شرق أفريقيا بحد السيف ، بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر في أقبال الناس على اعتناق الإسلام ، وبالرغم من قلة المراجع التي تفصل الأخبار في صدر الإسلام عن كيفية دخوله إلى أفريقيا الشرقية ، إلا أننا قد نستنتج الكثير من العوامل بمقارنته ما كتب عن دخول الإسلام إلى مناطق أخرى من العالم ، وقد أشار إلى ذلك (فون كرمير Von Kremer - 2 - p. 1-2) حين قال أننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسي والحربي الذي يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل في جمعهم للأخبار ، وأن بيننا وبين ذلك التاريخ اثني عشر قرناً ، لهذا تتناسب الدقة مع طول هذه الشقة على أن التاريخ الداخلي لتلك الفترة الهامة ، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين الديانات القديمة ، بين كيف تنوعت فيها المذاهب إلى حد التعقيد ، حتى أصبحوا لا يعلمون من حقائقها إلا الأمور السطحية (١) .

وكانت المذاهب الدينية المسيحية تناوى بعضها البعض عند ظهور الإسلام ، وتعرض الناس لزعة إيمانهم نقيحة للاندماج في الجدل المستمر ، وعندما ظهر الإسلام وجد فيه الناس وهم في ضجرهم وحيرتهم (ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي ولا تعرف اللين والتسامح ، واستجابوا إلى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوجدانية (٢)) .

وكأن هذه البساطة الخالية من السفسطة المذهبية كانت مغربة للمسيحيين وحببتهم في التحول إلى الدين الاسلامي ، فانها ولاشك كانت أكثر اغراء

(١) الدعوة للإسلام - سير توماس ارفولد من ٨٨ ، ٨٩ ترجمة - د . حسن ابراهيم

(٢) نفس المرجع .

قائمين الذين بدأوا يتصلون بالحضارة والعلم والمعرفة ، وكان عليهم أن يختاروا بين الإسلام في بساطته وبين الديانة المسيحية التي أحالتها الكنائس والثقافات الهيلينية والرومانية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عروسة معقدة مليئة بالشكوك والشبهات ، بعد أن كانت تعاليم المسيح الأولى بسيطة سامية لاتعقيد فيها .

كما أن الدين الإسلامي لم يعتمد في انتشاره في هذه العهود وما بعدها إلى سلطة دينية منظمة ، لها من السيطرة الروحية التي تندخل تدخلا كبيرا في طريقة حياة الأفراد وحررتهم ، ويقوم على هذه السلطة رجال الكنيسة والمبشرون ، الذين يتمكنون لسلطانهم بابتكار المزيد من التعاليم التي لا يتطلبها الدين ، الأمر الذي جعل سلطة الكنيسة تمتد إلى سلطة الدولة وترتبط الواحدة منها بالأخرى ، وبذلك أصبح المعتنق لهذه الديانة متقادا ، يصعب عليه التحرر من القيود التي لا يقبلها عقله ، إذ أنه أصبح يخشى على نفسه من خروجه على تلك السلطة التي أصبحت مرتبطة بسلطة الدولة .

والدين الإسلامي على العكس من ذلك تماما ، لا يعتمد على طبقة كهنوتية تخصص بنشر العقيدة ، فقد وجد المسلمون أن واجب كل فرد منهم أن يكون داعية لدينه ، وكل من يعتنق الإسلام يصبح ندا لأخواته فلا يميز أحدهم عن الآخر إلا بالإيمان ، ولا يوجد واسطة بين المسلم وربه ، وأصبح أمر إيمانه متروكا لشخصه ، مما جعله يحمل المسؤولية بنفسه ، وبذلك يصبح أكثر تشددا واهتماما في أداء واجباته الدينية ، وأشد تحملا للصعاب في سبيل تعلم مبادئ دينه وشعائره ، ويعتز بحريته التي تمنى فيه الاعتزاز ، بشخصيته وكرامته ، وجميع هذه الصفات ولاشك ، كانت أقصى ما يتطلع إليه أفراد الشعوب الذين وقعوا فريسة لأنواع السيطرة ، ومنهم سكان أفريقيا الذين تعرضوا خلال تلك العصور لأقصى أنواع الظلم ، وطبقت عليهم العبودية التي طمست إنسانيتهم ، وتاجر الأجناب فيهم كالسلع - ارقاء يساقون سوقا إلى من يدفع ثمنهم .

ولقد كان فضل الاسلام عظيما عندما نادى بتحرير العبيد ومحاربة الرق، ولقد اتخذ في ذلك خطوته الاولى التي تتفق وما تقتضيه الدعوة الجديدة من تعزيز، بأن حمت كل من يعتنق الاسلام من الرق، إذ أن الحرية الشخصية والكرامة الانسانية من مبادئ الاسلام الأولى .

ولقد وجد أفراد الشعوب الافريقية من أخلاق العرب الوافدين إليهم بحضارتهم ودينهم وتفوقهم في مختلف نواحي النشاط، لا يفرقون في المعاملة بين شخص وآخر إلا بالتقوى، مما جعل أهالي المناطق الافريقية المختلفة يقبلون على اعتناق الدين الاسلامي جماعات وطوائف بأكملها، ذلك الدين الذي يضعهم في نفس المستوى ويرد إليهم كرامتهم فليس بينهم سيد ومسود، فما تلبث طائفة منهم أن تختلط بالمسلمين حتى تدخل الاسلام .

* * *

ولعل أكثر المسلمين احتكاكا بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنيين هم التجار الذين يتجولون ويجوبون المناطق المختلفة سعيا وراء التجارة ومصادر الرزق، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الإسلام الذين انتشر على أيديهم أينما تغفلوا في افريقية - وكان لما يتصرفون به من حسن المعاملة والصدق لتركيز في كسب الاحترام والنفقة، وعن هذا الطريق البسيط انتشر الاسلام لتشارا منقطع النظير .

* * *

كل هذا لا يعني أنه لم يكن هناك للإسلام دعاة، بل يذكر لنا التاريخ عددا وافرا منهم، وكثيرون كان لهم شأن عظيم، ولكن كان كل منهم يعمل منفردا متطوعاً معتمداً على جهده الشخصي، لا يستند إلى مؤسسة، هذه بالمال والقوة كما هو معهود في الاساليب التبشيرية التي تتبعها الكنائس،

وأن كانت في العصور الأخيرة قد تألفت جماعات دينية أخذت على عاتقها تنظيم نشر الدعوة الإسلامية وتثبيتها ، إلا أنها لم تبلغ في تأثيرها ما وصل إليه هؤلاء الأشخاص الأوائل الذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجاري .

* * *

ومن الأسباب الهامة التي ساعدت على تغلغل الإسلام في البلاد الحبشية اضطراب الأحوال الداخلية ، فكلما زادت الفلاقل بين ملك أكسوم واتباعه من حكام المناطق وقامت بينهم الحروب ، واضطربت الأمور ، تهيأت الظروف للإسلام للتقدم ، وكلما ضعفت سلطة الكنيسة أو نشب خلاف بينها وبين ملك الحبشة ، زاد تغلغل الإسلام وهكذا ، ومن أبرز تلك الأسباب إحتياد المسيحية على ذلك النظام المرسوم المركز في الكنيسة ، فإذا شامت الظروف وبقي منصب المطران خاليا فترة من الوقت ، أو كان المطران ضعيفا أو شامت الظروف أن ينشب الخلاف بين المطران والملك ، فإن أحد هذه العوامل كقبيل بأضعاف سلطة الكنيسة واضطراب الأمور ، وهكذا على العكس في الإسلام الذي لا يعتمد - كما اسلفنا - إلى مثل هذا النظام .

* * *

هجرة المسلمين إلى الحبشة

الهجرة إلى شرق أفريقية :

بالرغم مما سبق أن ذكرناه من اجتهاد المؤرخين العرب بكتابة التاريخ السياسي والحربي عن تلك العصور اجتهادا لا يعرف السكال والملل ، فإن ماورد في كتبهم عن شرق أفريقيا كان ضئيلا متناثرا ، وجاء ذكره فيها ورد من مراجع بطريقة عرضية ، وأما ما عنيت بتفصيله بعض المصادر فقد جاء مشوشا يفتقر إلى الدقة شأن كل خبر مصدره انتقال الأخبار بالسمع والرواية .

من شخص إلى آخر ، فلم تكن تلقى أخبار شرق أفريقيا تلك الأهمية التي بنها المؤرخون لتسجيل تازيخ الشام والعراق ومصر وجزيرة العرب التي كانت مصدر القوة ومنبع الحوادث في ذلك العهد ، ولكن بالرغم من كل ذلك فان القليل الذي وصل إلينا كاف لأن نستنتج منه المجرى الأساسى لتطور الأحداث وتسلسلها في قدر لا بأس به من الدقة .

* * *

وليس هناك من شك كثير في أن الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين الذين استوطنوا السواحل ، ووطدوا مراكزهم في شرق أفريقيا كانوا من التجار العرب وعلى الأخص من أهل اليمن والجنوب العربى ، وليس هذا بالأمر الجديد ، فنذ العصور القديمة وهم عماد التجارة والنشاط في تلك البقاع ويكاد لا ينافسهم في التجارة في هذه المناطق إلا أشقاؤهم الواردين من الخليج العربى ومن مسقط وعمان على وجه الخصوص ، وعندما بزغ فجر الإسلام أخذ هؤلاء التجار المجاهدون يتحلون بصفاته وآدابه وتمانيه ، وأخذ أثرهم يزداد كلما ازدادت الصلات التجارية وزاد عدد المستقرين في الشاطئ . الأفرىقى الذى يتمتع بالخصب والهواء الطيب فوق مرتفعاته ، وساعد استقراره في (القرن الأفرىقى) على تحكّم التجار المسلمين في تجارة جميع البلاد الداخلية في وسط أفريقيا ، مما كان يعود عليهم بالمزيد من الربح الوفير .

في تلك العصور كانت دويلات الجزيرة العسرية على الخليج العربى والمحيط الهندى تلعب دوراً كبيراً في النشاط البحرى والتجارى - وظل أثره بارزاً حتى القرن التاسع عشر ، كما سيأتى تفصيله عند الكلام عن العصور الوسطى الحديثه ، ولكنه في تلك العصور الأولى ابتداء من القرن السادس الميلادى كانت تجارة هذه البلاد العربية واسعة الانتشار عبر البحار وأخذت

توطد أقدامها وتستقر في كثير من هذه الانحاء^(١) كما تشير إلى ذلك كتب المؤرخين القدامى عن هذه العمود ، ووصل نشاط هؤلاء التجار إلى الشاطئ الأفريقي الشرقي ونفذوا منه إلى داخل القارة ، وجاء ذكر طرف من أخبار هؤلاء العرب في إحدى الكتب التاريخية القديمة التي عثر عليها البرتغاليون في القرن السادس عشر من مدينة (كلوا Kilua) القريبة من زنجبار^(٢) .

وتقول هذه الوثيقة « من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي ، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين ، وجاء هؤلاء في سفن ثلاث برعامة سبعة أخوه هارين من إضطهاد ملك الاحساء ، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم ، وأول مدينه بنوها هي مقديشيو التي إرتفعت فيما بعد إلى تلك القوه التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل ، ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم (الأموزيدج ويقصد الزبيدين) من مذهب يختلف عن مذهب اللاجئين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرين من أهل السنة ، أبا أن يخضعوا لسلطة حكام مقديشيو ونفذوا إلى الداخل حيث إندمجوا في السكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم » .

وجاء في بعض المراجع تفصل أكثر وضوحاً بأن مدينة مقديشيو إنشئت حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة ، حينما أدى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج العربي إلى إنشاء وطن آخر يناقسا على بعد منها ناحية الجنوب ، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى علياً ، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسنا ولما كانت أمه حبشيه إزدراه أخوته ، وعاملوه معاملة قاسية ، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما . لهذا أبحر من جزيرة هرمز ومعه زوجته وأولادة وجماعة صغيره من أتباعه ، وسار متجهاً إلى

(١) ص ٢٢١ وما بعدها الدعوة للإسلام لسير توماس ارفولد .

(٢) ص ٢٧٨ نفس المرجع .

مقديشيو ، التي ينتمى سكانها إلى مذهب ديني يختلف عن المذهب الذي ينتمى إليه ، فضي في طريقه صوب الجنوب ، إذ سمع إن الذهب يوجد في ساحل زنجبار ، وأسس مدينة كلوا ، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متحرراً من تدخل منافسيه المقيمين بعيداً عنه في الشمال .

وتتفق تسجيلات جميع المؤرخين على أن العرب المسلمين قد أسسوا للمدن ووطدوا أقدامهم على طول الساحل الشرقى لإفريقيا ، ولكن لقلّة المعلومات التي أمكن الحصول عليها عن الأحوال في داخل القارة ذهب بعضهم إلى أن الإسلام لم يتغلغل إلى الداخل إلا ببطء شديد وفي العصور المتأخره — ولكن ما سوف نصل إليه من وقائع هامه يثبت أن الإسلام قد تغلغل بسرعة ، وفي العصور الوسطى بالذات وبلغ فيها شأناً عظيماً .

* * *

ويأتى في الأهمية بعد تجار المسلمين الذين إستقروا على الشاطئ الشرقى لإفريقيا فرق من المسلمين الذين هاجروا إلى إفريقيا خلال مراحل الصراع السياسى التي تعاقبت على الجزيرة العربية منذ الفتنة الكبرى التي بدأت في عهد خلافة عثمان بن عفان .

فبانتصار بنى أميه وتأسيس دولة الأمويين ، حدثت معارك دموية بينهم وبين الهاشميين كانت آخرها تلك المعركة التي قتل فيها زيد بن علي زين العابدين عام ١٢١ هجرى (٧٣٨ ميلادية) ، وتفرق أتباعه في البلاد واستقر فريق منهم في اليمن وأسسوا طائفة الزيديين التي كانت فيهم الأمامه إلى عهد قريب ، ومن هؤلاء الزيديين من هاجر إلى الشاطئ الأفريقى ، ومن تسلسل حوادث ذلك العصر يظهر أنهم كانوا ثانی الفرق العربية التي هاجرت ، بعد الفرق الأولى التي سبقتها إلى جزر الهندك .

ولم يكن الزيديون وحدهم هم الذين هاجروا في عهد الأمويين ولكن يبدوان كثيراً من أهل الحجاز (وعلى الأخص من أهل مكة والمدينة) فقد حذوا حذوهم بعد الحملات الحسرية التي جردها الأمويون على المدينة وما لاقاه مسلموا الحجاز على أيديهم من قسوة وتككيل .

وكا أن أتباع زيد كانوا من خيرة الأسر العربية ، كذلك كان مهاجروا الحجاز من أعرق الأسر التي لم تكن ترضى بالحكم الأموي ، ومنها من كانه ينافسهم في المركز والحسب ، ويشير ماسوف يمر بنا من تاريخ عن ظهور ملك على مملكة سوا يقال له المخزومي نسبة إلى بني غزوم قبله القائد الشهير خالد بن الوليد ، وقد يكون بعض هؤلاء قد هاجروا إلى الحبشة بالطريق الطبيعي وقد يكون نتيجة لخلافهم مع بني أمية وتنافسهم على النفوذ . ولقد تكررت نفس الهجرة وعلى نفس النمط عندما استولى العباسيون على الدولة الإسلامية ، وانتشر الأمويون وأتباعهم في شمال إفريقيا والأندلس ومنهم عدد لا بأس به وصل إلى الشاطيء الإفريقي .

* * *

الإسلام في شمال الحبشة وقبائل البجة :

يتضح مما تقدم كيف انتشر الإسلام وسيطر على الشاطيء الشرقى لأفريقيا وكيف كان ذلك أول مراحل دخول الإسلام ، وأول العوامل التي أدت إلى عزلة دولة الحبشة المسيحية .

وسبق أن أشرنا إلى قبائل البجة (أو البيجا Beja) التي انتشرت من وادي النيل إلى شاطيء البحر الأحمر مستولية على الأريتريا وشمال الحبشة ، وبذلك أتمت عزلة دولة الحبشة المسيحية ، ولأهمية الدور الذي تلعبه هذه القبائل في تاريخ الحبشة وكثرة عددها وأهمية موقعها ، يجدر بنا العودة إلى الكلام عنها في شيء من التفصيل .

كان لميلاد النوبة أوثق العلاقات مع مصر خلال جميع أدوار التاريخ وكانت تتأثر بما يجري في مصر من أحداث ، لذلك كان للفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص أثر كبير على مملكة النوبة التي حاولت أن تقاوم هذا التيار الجارف ، ولقد نجحت في صد أول حملته وجهها إليها المسلمون في عام ٦٤٢ م ، ولكن المسلمين أعادوا الكرة في ٦٥١ وتمكنوا من التغلب على جيوش مملكة النوبة وتوغلت فيها حتى وصلت إلى عاصمتها وحاصرتها ، وعقد

القائد العربي معاهدة (القط) مع ملك النوبه تعهدا فيها بتبادل التجارة بما
يضفي على هذه المعاهدة صورة التبادل الاقتصادي ، ولذلك اعتبرها
بعض المؤرخين (معاهدة إقتصادية) . ويعتبرها البعض الآخر (هدنه)
وينسبون كلمة (قط) إلى الأصل اليوناني (Pactum) الذي يعرف باللغة
الإنجليزية (Pact) ومعناه عهد وميثاق^(١) .

* * *

ولقد ذهب البيهقي في تاريخه (ص ١٩٢ من الجزء الأول طبعة بيروت)
إلى إطلاق اسم «مملكة البجة» على جميع تلك الأراضي التي كانت تمتد من
جنوبي أسوان إلى البحر الأحمر ، وإن كان قد قسمها إلى خمسة ممالك تبدأ
أولها وتدعى قيس (حد أسوان) إلى (حد بركة) عند الأريتريا والمملكة
الثانية تدعى (بلقين) ، والثالثة (بازين) والرابعة (جارين) ويبدو أنها
كانت مملكة كبيرة تمتد من (البحر الأعظم إلى حد بركة) من مملكة بلقين .
والخامسة تدعى (قطعة) وهي آخر ممالك البجة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البيهقي يستمر في سرد الممالك فيقول
« أن المملكة السادسة هي (مملكة النجاشي) وهي بلد واسع عظيم الشأن
ولهم مدن عظام وساحلهم دهلك ، ولم تزل العرب تأتي لهم بالتجار
ويؤدون له الخراج والنجاشي على دين النصرانية البيهقييه . »

ثم يعود ويذكر (مملكة الحبشة) ذكرا مستقلا ويقول أن لها مدينة
يقال لها « ثبير » ، ويسمى ملك هذه المدينة « مزح » ، إلخ إلخ . وربما كان السبب
في هذا الفصل بين الإثنين في ذلك العهد عدم إمتداد سلطان النجاشي على
تلك المملكة بعد وقد يكون هذا الوقت هو الذي بدأت تمتد فيه مملكة
أكسوم التي بها عاصمة النجاشي إلى الجنوب (كتب البيهقي كتابه حوالى
عام ٨٧٢ م) .

(١) صفحة ٧٦ - من كتاب العصر المايكي - للأكتور سيد عبد التاج عاشور والعصفحات

٢٧٦ - ٢٧٧ الجزء الخامس، صبح الامتى - لفلقشندى .

• وتدل الشواهد بما سبق لإيراده من ظروف أن العرب قد اتصلوا بالنوبة والبعجة لإتصال تعاهد ومرور وانتقال وتجاره ، وإن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب ، كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان واستقروا في أرض الجزيرة (مملكة مروى أو النوبة) ويبدو أن العرب قد اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبعجة في القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليها تجاراً ، واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مغاور الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين ، ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم ، فهدت كلها عوامل مهدت للعرب سبيل الاختلاط أول الأمر بالبعجة في شرق السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة .

غير أن البعجة لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم في معاهداتهم فكثرت غاراتهم على جهات أسوان ، واشتد لىذاؤهم للمسلمين فيها فكانت للخليفة المأمون العباسى (٨٣١ م) وقائع إنتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد تبين شروطه مدى إتصال العرب بمنطقة شرق السودان :

١) أن تكون البعجة من حدود أسوان إلى البلاد التى تمتد من دهلوك وباضع ملكاً للخليفة .

٢) أن يؤدى ملك البعجة كل عام الخراج أو البقطة على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار .

٣) أن يحترم البعجة الإسلام وألا يذكره بسوء ولا يعينوا أحداً على أهله .

٤) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول فى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

٥) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقبياً أو محتزراً أو حاجاً ، فهو آمن حتى يخرج من بلادهم ، (وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين

كانوا يذهبون إلى شرق السودان للتجارة والإقامة والمرور والحج) .
٦) إذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهر سلاحاً ولا يدخلون المدى والقرى بحال .

واستمر هذا الاتصال في عهد الخليفة المعتمد (٨٣٣ - ٨٤٢ م)
والخليفة المتوكل (٨٤٦ - ٨٦٠ م) حيث نقض البجة العهد مرة أخرى
وأغاروا على أعلى الصعيد مما أدى إلى قيام الحرب بينهم وبين المسلمين^(١) .
ولذلك لم تهدأ الأحوال على حدود الدولتين ، واستمرت المناوشات بينهما
بضعة قرون ، كان الدين المسيحي أثناءها منتشرًا في مملكة النوبة حتى جاء
عهد الدولة الأيوبية بمصر ومن بعدها المالكي ، حيث وجهت الحملات خلالها
إلى بلاد النوبة ، وفي عهد الظاهريين ومن بعده السلطان الناصر قلاوون
بلغت الحملات مبلغاً عظيماً من القوة ، وأخذت مملكة النوبة المسيحية في
التفكك حوالي عام ١٢٨٩ م ، وما أن جاء النصف الأول من القرن الرابع
عشر حتى كانت مملكة النوبة المسيحية قد سقطت ، وبدأ الإسلام يستقر في
هذه الدولة (السودان) .

وبما تجدر ملاحظته أن مملكة النوبة هذه تتأخم ما تنكلم عنه في هذه
المرحلة من مملكة أكسوم والاريتريا ، وكان استمرار اتفاقهما في الدين
سبباً لكثير من الاتصالات .

وعماساعد على تغلغل الإسلام في بلاد النوبة ازدياد عدد المسلمين العرب
الذين هاجروا واستقروا في بلاد النوبة قبل ذلك بعدة قرون ، وكانت كثرتهم
تقطع ضفاف النيل الأزرق ، وفي القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع
عشر خاصة بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماجهم مع العرب
ولاسيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا في نساء هذه البلاد ونجحوا تدريجياً في

(١) صفحات ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ الدعوة للإسلام - تأليف سيرتوماس ارفولد ترجمة
د. حسن إبراهيم حسن .

كسر شوكة الأمراء النوبيين ، ويخبرنا ، ابن بطوطة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا في وقته لا يزالون على المسيحية ، مع أن ملك مدينة دنقلة — تلك المدينة الرئيسية في بلاد النوبة ، كان قد دخل في الإسلام ، وذلك في عهد الناصر . . .

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي ببطء شديد وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى دركات من التخلف ، وكان من الطبيعي أن ينشدوا ما يشق غلثهم ويسد مقهم الروحي ووجدوا ما ينشدونه في الدين الإسلامي ، الذي حمل أتباعه الدليل على قوة حيويته وقتاً طويلاً^(١) .

ولقد كان بقاء مملكة النوبة على دينها المسيحي حتى القرن الرابع عشر أكبر الأثر في إيقاف تيار الزحف الإسلامي على الحبشة من الجهة الغربية ، أي من مصر عن طريق السودان ، وخصوصاً في تلك الأوقات التي كانت مصر فيه عزيزة الجانب متمكنة من قوتها .

بالإضافة إلى أن جوار الحبشة لهذه المملكة المسيحية جعل لها متنفساً تتصل عن طريقه بالعالم ، وتصل عن طريقه التجارة التي نشط فيها اليهود واليونانيون بجانب العرب ،

ولقد تسببت الحروب والقتال والمناوشات التي وقعت في تلك العهود بين المسلمين في مصر وبين بلاد النوبة والبعجة ، في ازدياد هجرة قبائل البعجة شرقاً في اتجاه البحر الأحمر .

وما تقدم يربط الكتاب بين قبائل البعجة الحبشية وبين قبائل الهدندوه وبنو عامر وغيرهم من القبائل التي يقم فريق كبير منها في شرق السودان كما سبق ذكره ، واختلطت قبائل البعجة مع قبائل (التيجرى Tigre) التي تنتشر وتكون غالبية السكان في وسط الأريتريا وفي شمال الحبشة الحالية .

(١) ص ١٠٦ الإسلام في أنيوبيا لترمنجم .

ولكن قبائل النيجرى حافظت على لغتها الاصلية بالرغم من هذا الاختلاط .

* * *

بدأ انتشار الإسلام بين قبائل البجة عندما بدأ المهاجرون العرب في الاستقرار في مناطق المناجم ، وكان لاحتكاكهم بالمصريين واختلاطهم نتيجة للمعاهدات التي سبق ذكرها ، أثر كبير في اعتناق كثير منهم للإسلام . ويقول المقرئى أن التجار العرب وأصحاب المناجم كان لهم نشاط واسع في أقاليم البجة الشمالية ، ويبدو أن تأثيرهم كان كبيرا على رؤساء القبائل مما مكنتهم من بناء المساجد ، وجاء ذكر أحد هذه المساجد في العاصمة (هجر) والآخر في سنكات ، في بعض المراجع ومنها الطبرى .

وكتب المسعودى في (٩٣٥ م) أن (الحدرات) وهى فرع من البجة قد اعتنقت الإسلام تحت تأثير المسلمين الذين يعملون في المناجم الموجودة في هذه المناطق ولكن باقى البجة لا زالوا وثنيين ، وأيده في هذا اليعقوبى وابن حوقل (٩٧٧ م) . وأضاف ابن حوقل أن قبيلة أخرى من القبائل الكبيرة تعيش في (وادى بركة) عند الأريتريا بها كثير من المسلمين وعليها ملك مسلم^(١) .

وبهذا يتضح أن الإسلام قد بدأ يأخذ مكانته بين قبائل البجة في القرن العاشر الميلادى .

وعندما جاء القرن الثانى عشر كتب بعض المؤرخين العرب أمثال الإدريسى (١١٥٤ م) وغيره من الكتاب بأن بعض قبائل البجة كانت لا تزال تعتنق المسيحية ويبدو أن هذا راجع إلى سابق صلتهم بمملكتهم الاصلية في بلاد النوبة المسيحية .

وعندما جاء المقرئى (١٣٦٦ - ١٤٤٢) وذكر أن قبائل الحدرات

(١) ص ٥١ من كتاب الإسلام فى أثيوبيا (عمرنجام) . وكتب اسم القبيلة المذكورة حدارب Hadareb بينما يكتبها اليعقوبى حدرات .

وسكان الساحل قد اعتنقوا الإسلام ، فإنه يؤيد دخول الإسلام إلى قبائل البجة وزيادة انتشاره بالرغم من وجود بعض القبائل المسيحية ، ولكنه يذكر أيضاً أن غالبية قبائل البجة كانت لا تزال وثنية^(١) ومن تسلسل تلك الأخبار يتضح جلياً أن الإسلام كان يتقدم تدريجياً بين قبائل البجة . ونكتفي في هذه المرحلة بما ذكرناه عن قبائل البجة وتاريخها إلى القرن الثاني عشر على أن نعود إلى ذكرها كلما جاءت مناسبتها فيما يلي من تاريخ الحبشة .

مملكة شوا الإسلامية :

تألفت من المهاجرين إلى الحبشة ومن القبائل التي اعتنقت الإسلام خلال تلك القرون ممالك وسلطنات ناشئة ، بدأت صغيرة ثم أخذت في النمو والاسراع وازدادت شأنها كلما توحدت أقدامها .

وكما سبق أن قدمنا لم يدخل الإسلام إلى الحبشة عن طريق غزو عسكري أو حروب كما حدث في الفتوحات الإسلامية الكبرى التي تغلبت فيها الدولة الإسلامية على الدول المجاورة ودخلت إليها حاكمة بجميوسها وسلطتها وتنظيماتها وأساليبنا الجديدة في الحكم ، ولكن دخول الإسلام إلى الحبشة كان تغلغلاً هادئاً ، بدأ بالمهاجرين الذين ينشرون الدين الجديد بين القبائل الوثنية بمختلف الأساليب ، وكان لنفوقهم الحضارى أكبر الأثر في استجابة الكثيرين من أهل البلاد إلى الدعوة .

لذلك عندما تشكلت الجماعات الإسلامية في أماكنها المتباعدة في تلك البقاع الشاسعة . لم يكن بين تلك الجماعات اتصال أو اتحاد ، بل أخذت كل منها تنمو مستقلة عن الأخرى ، وبعد عدة قرون أصبحت ممالك وسلطنات تتأخم بعضها البعض ، يجمعهم اسد الإسلامى ، وتفرقهم الخلافات المذهبية وتنافس الأسر الحاكمة ، فلم يكن بينهم أى نوع من الاتحاد بل على العكس من ذلك قامت بينهم بعض الحروب والمناوشات المحلية .

(١) من ٦٠٠ من الإسلام في آيوتيا لعرنجم .

وعند نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث عشر ، نجد تفصيلا لهذه السلطنات والممالك الإسلامية في كثير من المراجع ، وحدث في عام ١٩٢٦ أن اكتشف المستشرق الإيطالي (شيرولي "E. Cerulli) وثيقة عربية هامة تشرح الأحداث التي مرت على (دولة شوا الإسلامية) في أواخر عهدها (١٢٣١ - ١٢٨٩ م) ولقد أتيح للمستشرق شيرولي المزيد من البحث والدراسة أثناء استيلاء إيطاليا على الحبشة في ١٩٣٦ ، ونشر نتيجة أبحاثه في ١٩٤١ . ولها أهمية خاصة لأن المعروف قبل ذلك أن الإسلام في ذلك العهد كان مقتصرًا في انتشاره على الساحل ، وأنه وصل إلى حدود الهضبة فقط ، ولم يكن قد نفذ إلى داخلها ، أما هذه الوثيقة فانها تثبت أمرًا هامًا وهو وجود مملكة إسلامية في صميم الهضبة ، وفي منطقة شوا ذات الأهمية الكبيرة .

وتفيد الوثيقة بأنه قد تأسست دولة إسلامية في قلب الهضبة الحبشية في إقليم شوا المشهور ، وذلك في عهد حكم ملوك الحبشة الأجويين ، وأن سلاطين هذه المملكة كانوا من بني مخزوم (مخزومي) أسرة سيف الإسلام خالد ابن الوليد ، وأن انشاء هذه الدولة يعود إلى عام (٨٩٦ م) وهذه الوثيقة هي التي تؤيد ما سبق أن اشرنا إليه أن من بين المهاجرين إلى أرض الحبشة نفر من بني مخزوم في عصر الأمويين ، ويبدو أنهم تغلغوا داخل البلاد الأفريقية وتمكنوا من انشاء تلك الدولة الإسلامية في هذا المكان من قلب الحبشة الذي يعتبر من أمتع المعاقل فوق مرتفعات الهضبة ، والذي تقع به مدينة أديس أبابا الحالية .

ولا يوجد بهذه الوثيقة من التفصيل ما يبيط اللثام عن كيفية نشأة هذه المملكة ولا تاريخ عهدها الأول ، ولكنها تفصل السنوات الأخيرة من حكمها حين بدأت عوامل الانحلال في الدولة . وتذكر

أخبار الاشتباكات والاضطرابات الداخلية وأسماء الفرق المتصارعة وزعمائها^(١).

وقد استمرت مملكة شوا الإسلامية خلال أربعة قرون في شبه عرله عن العالم - الخارجي ، ومن أجل ذلك لم يرد ذكرها على أهميتها في أى مرجع من المراجع القديمة حتى ظهر خبرها بعد كشف تلك الوثيقة سالفة الذكر .

ويبدو أنها ظلت طوال تلك المدة في معزل العالم لأن منطقتها خصبه معتد له الجو تحوى على كل متطلبات الحياة في ذلك العصر ، وكان اشتغال السكان بالزراعة والرعى كافيا لسد حاجات الشعب ووفرة رزقهم .

ولقد استمرت اسرة بني مخزوم على عرش هذه المملكة حتى عام (١٢٢٥) حتى اغتصبه منها شخص يدعى مالزا الذي بقى على العرش ثمانية عشر عاما وبعدها استولى عليها سلطان آخر وهلم جرا ، من ملك إلى آخر في حروب داخلية لا تهدأ حتى تدهورت الحالة في المملكة .

وفي نفس الوقت كانت هناك مملكة اسلامية أخرى فتية تنأهب ، وأخذ شأنها يزداد ، تدعى مملكة (إيفات Ifat) وكانت تراقب الأمور في مملكة شوا الإسلامية عن كثب وانتهزت فرصة انحلالها وجردت عليها أربعة حملات انتهت باستيلاء مملكة إيفات الإسلامية على مملكة شوا (عام ١٢٨٩ م)^(٢) .

وباستيلاء إيفات على مملكة شوا يتحدد تحديدا واضحا المدى الذي وصلت إليه سلطة الاسلام في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر . إذ من المعلوم أن شوا تشغل جزءا هاما في قلب الهضبة الحبشية المنيعه ،

(١) ص ٥٨ من الإسلامى أبويوا ترجمتهام ، كذا الجزء ٦٣ .

The Ethiopians by Ullenderff

(٢) نفس المرجع .

وفي ذلك الجزء الذي تحتله قبائل الأجويين ويمتد نفوذ الدولة الإسلامية إلى شواطئ النيل الأزرق .

* * *

الممالك الإسلامية في شرق الحبشة :

سبق أن ذكرنا أن عددا من السلطنات والممالك الإسلامية قد بدأ في التكوين عندما ازداد انتشار الإسلام وثبت أقدامه ، ولم يكن بين هذه الممالك أى نوع من الاتحاد أو الصلة التي يفرضها اشتراكهم في الدين ، بل على العكس من ذلك كانت تحارب بعضها البعض .

ومن البديهي أن هذه السلطنات والممالك وهي تمر بأدوار تكوينها من الطفولة إلى الشباب . كانت مضطرة إلى خطب ود ملوك الحبشة المسيحية كلما ظهر فيهم نجاشى قوى ، ولقد كان ذلك راجعا إلى انتشار الإسلام ، وهو بعد في عصر تكوينه ، في مساحات شاسعة بلغت أكثر من ثلاثة أرباع مساحة الحبشة ، بينما لجأ ملوك الحبشة في تلك العهود إلى التكتل داخل المحظية والتحصن فيها والعمل الدائم على توحيد الصفوف والقوى إزاء هذا الزحف الإسلامى الواسع ، وخلال ذلك اعتلى عرش الحبشة من الملوك الأقوياء من اضطرت تلك الممالك الإسلامية الناشئة المتباعدة إلى تقديم الولاء والطاعة له .

* * *

ولعل أبرز تلك العهود هو ما وصلنا تفصيله في (مسالك الأبحار) ونقله عنه القلقشندي في صبح الاعشى (الجزء الخامس - صفحات ٤٢٢ وما بعدها) وهذه الاخبار وإن كانت في الغالب تعطى الصورة الحقيقية السائدة في تلك البلاد إلا أنه يغاب عليها طابع المبالغة القصصية المعهودة في ألف ليلة وليلة . حين يقول ان - (نجاشى الحبشة تحت يده تسعة وتسعين ملكا وهو لهم تمام المائة) .

ويحدد هذا المرجع تاريخ كتابته بعهد النجاشي (عمداسيون Amda Sion) ومعناه عمود أو ركن صهيون - (ويقال أنه من الشجاعة على أوفر قسمه وأنه حسن السيرة عادل في رعيته - وقد بلغنا أن الملك القائم عليهم أسلم سرا ، واستمر في اظهار نصرانيتها ابقاء للملكة .

ونعتقد أن المبالغة الروائية كان لها نصيب في تحديد عدد الملوك التابعين للنجاشي بتسعة وتسعين (منهم سبعة مسلمون) ، وكذلك نميل إلى الشك في صحة رواية اسلام النجاشي عمداسيون ، وأن كان سيرويليام بدج (Bedge 1 p 288) يقول أن عمداسيون أمضى مدة حكمه مختلفا مع رجال الدين وعلى رأسهم المطران بسبب سلوك الملك المشين فقد عاشر خليلات أبيه وأختيه مما أثار عليه سخط رجال الدين فحرموه ، فلم يأبه به وقبض على المطران وشهر به . الخ . الخ .

ولعل ما هو معروف عن عدم اهتمام الأقباش بتلك العلاقات المشينة إلى الدرجة التي تسبب غضب المطران على الامبراطور الذي يؤدي إلى نفي المطران ، مما يدعو إلى الظن بأن الخلافات بينهما كانت بالغة الشدة لأسباب غير التي ذكرها (السير بدج) ؛ الأمر الذي حدا بالمؤرخ العربي إلى تعليل ذلك بأن النجاشي اعتنق الاسلام سرا . وهذه في رأينا مبالغة لا يسلم تصديقها .

• • •

ويمضى (صبح الأعشى عن مسالك الأبصار) في وصف بلاد مسلمي الحبشة ويعبر عنها (بالطراز الاسلامي) لأنها على جانب البحر كالطراز له وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع - والزيلع إنما هي قرية من قرأها ، غلب عليها اسمها . . ولها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ... وعند أهلها محافظة على الدين - وتشتمل هذه البلاد على سبع قواعد ، كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل .

المملكة الأولى : وفات :

وتسمى أيضا أوفات - ويقال لها أيضا « جبره » ، والنسبة إليها جبرتي .
وطولها خمسة عشر يوما في عرض عشرين يوما كلها عامرة بالقرى المتصلة
وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفا فأكثر من
الرجال ، وتتبعها زيلع وهي مدينة مشهورة وأهلها مسلمون .

المملكة الثانية : ذوارو :

وهي تلي أوفات المقدمة الذكر ، وأن مملكتها طولها خمسة أيام وعرضها
يومان ثم قال ، وهي على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات
في الفارس والراجل .

المملكة الثالثة : ارايني :

وهي مدينة ذكرها في (المسالك) أيضا ولم يذكر شيئا من صفتها ، ثم
ذكر أنها مربعة طولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة
آلاف فارس ، أما الرجال فكثيرة للغاية .

المملكة الرابعة . هدية (Hadya)

وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وبين خط الاستواء ،
وذكر بعض المسافرين أنها جنوب أوفات . . . وطول مملكتها ثمانية أيام
وعرضها تسعة أيام ، وصاحبها أقوى أخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة
وأكثر خيلا ورجالا ، وأشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار أوفات ، ولملكها
من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجال . فانهم خلق كثير مثل
الفرسان مرتين أو أكثر .

المملكة الخامسة : شرخا :

وهي تلي هدية المقدمة الذكر وطول مملكتها ثلاثة أيام وعرضها أربعة
أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجاله مثل ذلك مرتين أو أكثر .

المملكة السادسة : بالى :

وهي تلى شرعا المقدمه المذكور ولكنها أكثر خصباً وأطيب سكتا وأبرد هواء ، وطولها عشرون يوماً وعرضها ستة أيام .

المملكة السابعة : داره :

وهي تلى بالى المقدمه الذكر ، وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك وهي أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلاً ورجالاً ، وعسكرها لا يزيد عن ألفي فارس ، ورجاله كذلك .

• • •

ويقول القلقشندي نقلاً عن (مسالك الأبحار) « أن جميع ملوك هذه الممالك وأن توارثوها ، لا يستقل منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمرا « النجاشي أو الخطي » ، وإذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا إلى سلطان أمرا ، وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم ملك يولييه ، فإذا أولاه سمع البقية له وأطاعوا ، فهم له كالنواب وأمرهم راجع إليه ، ثم كلمهم متفقون على تعظيم صاحب أوقات ، منقادون إليه . ثم قال . وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء ، لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط النجاشي بسلطان أمرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة » .

« ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزيلعي وغيره : أنه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم ، قدروا على مداومة الخطي أو التماسك معه ، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف واقتراق الكلمة بينهم تنافس . قال . وهم على ما هم عليه من الزله والمسكنة للنجاشي سلطان أمرا عليهم قطائع مقررره ، تحمّل إليه في كل سنة من القماش الحرير والكتان ، مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق » .

• • •

ويضيف القلقشندي في (صبح الأعشى الجزء الخامس ص ٣٣٥) على ما نقله عن — (مسالك الأبصار) ما أهملته تلك المراجع من المدن الهامة ، ويذكر منها جزر الدهلك الواقعة في الإقليم الأول — « وهي جزر مشهورة على طريق المسافرين في بحر عيزاب إلى اليمن وبينها وبين بر اليمن ثلاثين ميلاً وملكتها من الحبش المسلمين وهو يدارى صاحب اليمن .

ومنها مدينة «عوان» وهي على ساحل القلزم مقابل (تهامه اليمن) ومنها مدينة «مقدشو» وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وخط الاستواء وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة . وهي على بحر الهند ولها نهر عظيمًا شبيه بنيل مصر في زيادته في الصيف ، .

° ° °

ويعضى القلقشندي فيقول : « وقد أتى الخطى ملك الحبشة التصارى على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة (القرن الرابع عشر الميلادي) وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف ، وأكسره الكثير منهم على الدخول في دين النصرانية ، ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسيار المقابلة ببلاده لجزر دهلك تحت طاعة النجاشي ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقرره ، والسلطان سعد الدين صاحب الزيلع وما معها ، وهو عاص له خارج عن طاعته ، بينه وبين النجاشي الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين في كثير من الأوقات النصره عليه والغلبه ، والله يؤيد بنصره من يشاء .

ولقد ذكرنا هذه الفقرة الأخيرة لورودها في ختام حديث القلقشندي ولما لها من أهمية ، بالرغم من أن تلك الحوادث التي تشير إليها وقعت في القرن الخامس عشر كما سيأتي ذكره فيما بعد .

° ° °

ولكن الذي يعيننا مر كل ذلك هو نبيان الممالك الإسلامية كما أوردتها المؤرخون ، وشرح مدى ما وصلت إليه من إتساع وانتشار في عصر كانت فيه ياقمه حديثه العهد ، وبين ملوكها من أسباب الخصام ما جعلها في كثير من

الأوقات تنطوي تحت لواء النجاشي ملك الحبشة النصرانيه ، خصوصاً إذا كان ذلك النجاشي بمن تهيأت له أسباب القوه في بلاده ، ومن أمثلة ذلك عهد عمداسيون الذي كتبت هذه الأوصاف للممالك الإسلامية الحبشينة في عهده ، وهي الحالة التي كانت سائدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ثم استمرت على هذا المنوال في القرن الرابع عشر الذي جاء به عهد الملك عمداسيون - سنأتي إلى تفصيل ذلك فيما بعد .

الفصل السادس

الحروب الصليبية والحبشة

لا يمكن أن نتعدى ما وصلنا إليه من مراحل التاريخ في هذه المنطقة دون أن نتعرض لذكر الأثر الذي أحدثته الحروب الصليبية في مجرى الحوادث . فالحبشة تعرض لانتشار الإسلام بين ربوعها ويستمد المسلمون قوتهم في ذلك العهد من مركز عزوتهم في مصر والشام ، بينما يعتمد ملوك الحبشة وكنيستهم على تعزيز وتأيد بطريك الاسكندرية ، الذي يتبع سلاطين مصر ، والدولة الإسلامية في تلك الفترة من الزمن تتعرض لأقصى ما عرفة التاريخ من الحروب الدينية المركزة على مراكز الإسلام في مصر والشام . وكلها كما ترى عوامل متشابهة متعارضة ، تضارب مع بعضها البعض .

ولا يمكن أن نفترض الصدفة وتوافق الأحداث على غير اتفاق فيمثل هذه الأمور الخطيرة بل نعتقد أنها حلقة مترابطة تنبعث إحداها من الأخرى في تسلسل وانسجام تاريخي . من واجب المؤرخين أن يولوه ما يستحق من عناية .

وفي رأينا أن الفتح الإسلامي للأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ، كان له أثر كبير في مجريات الأمور وكانت ولا شك ضمن الأسباب التي مهدت للحروب الصليبية ، ولكننا نعتقد أن أنسب محل للكلام عنه هو عندما تأتي إلى تاريخ حوادث القرن الخامس عشر ، عندما زالت دولة الإسلام عن الأندلس .

التسامح الديني في الإسلام وحوادث الاضطهاد :

تكاد تجمع المراجع الأوروبية والإسلامية على أن التسامح الديني من أهم المميزات التي يتصف بها الحكم الإسلامي منذ نفاذ الدولة الإسلامية ، ولم يعدنا التاريخ على أن تكون الصفات والتصرفات مطلقة متشابهة تحت جميع الظروف وفي مختلف العصور ، ولكن الحكم والعبرة دائماً بالسائد من الأحوال ، أما الاستثناء فليس من العدل أو الإنصاف أن يعتبر طابعاً أو دستوراً .

وبما لا شك فيه أنه بالرغم مما عرف من الدول الإسلامية من التسامح ، فإن غير المسلمين قد لاقوا من الظلم والاضطهاد والقسوة في بعض الحالات خلال الحكم الإسلامي وبالرغم من قلتها وتندرتها إذ قيست بطول العهود والقرون الذي ساد فيها التسامح ، فإن المؤرخين المنصفين من المسيحيين قد وجدوا في أعمال المسيحيين وتصرفاتهم أثناء تلك الحالات ما يبرر ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد .

وإذا رجعنا إلى ما عني السير توماس أرنولد بذكره (صفحة ٩٤ وما بعدها من كتاب الدعوة للإسلام) لوجدناه يعدد بعض تلك الحوادث وكما حدث في عهد المنصور (٧٧٥ م) ، والمتوكل (٨٦١ م) ، والمقتدر (٩٣٣ م) والأمر (١١٣٠ م) التي كانت عبارة من صدور مراسيم بأفصاح (أهل الذمة) عن الوظائف العامة ، ولكن تجدد مثل هذه المراسيم الخاصة بإقصاء النعميين عن الوظائف دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ بما دعا إلى تكرار إصدارها ، والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إلى سخط شائع آثاره السلوك الحشن المتعرج ، الذي يسلكه الموظفون المسيحيون ، وقد آثاره هؤلاء السلاطين ما أكتشفه من أمر محاولة المسيحيين إحراق مدينة القاهرة أو إلى ثورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة للتسامح التي تميز بها الحكم الإسلامي ،

ولكن مصير هذه الأعمال التصفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت .
وعاد السير أرنولد في (صفحة ٩٧) وفسر ظروف هذا الاضطهاد
الديني، ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات
هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة ، من جراء
أساءة استعمال سلطتهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقاتهم ومعاملتهم
بشيء من الغلظة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم ، وقد تقدم المسلمون
بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٧٥ م) والمهدى (٧٨٥ م) والمتوكل
(٨٦١ م) والمقتدر (٩٣٢ م) وإلى كثير من خلفائهم ، كما تعرضوا أيضاً
لغضب كثير من المسلمين باستخدامهم عيوناً للدولة العباسية ومطاردة اتباع
البيت الأموي الذي أقصى عن الحكم ، وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون
في زمن الحروب الصليبية باتصالحهم بالصليبيين اتصالاً يتطوى على الحيانة ،
فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها
اضطهاد ديني .

ومهما قبل عن هذه الأحداث فإنها لا تكاد تذكر في شدتها وقسوتها
بجانب ما لاقته بعض طوائف المسيحيين من اضطهاد وغدر وقسوة على يد
أخوانهم في الدين من الطوائف الأخرى ، وأقرب الأمثلة لما نحن فيه من
جحمت ، ما ذكره نفس المؤلف (ص ١٢٣) من ترحيب أقباط مصر بالحكم
الإسلامي العادل السمع الذي خلصهم من ظلم الحكم المسيحي البيزنطي
(الدولة الرومانية الشرقية) ، وكذلك تحول عدد من الجماعات والطوائف
الصليبية إلى الإسلام أثناء قيام الحروب الصليبية .

ولا يمكننا هنا أن نبرز ما ناز في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي من اضطهاد
بأكثر مما سبق ذكره من أن الحاكم كان قد بلغ في أغلب تصرفاته إلى حد
العتة حيث ادعى الألوهية ، ولاقى المسلمون على يديه من القتل والتهديب
أكثر مما لاقاه المسيحيون .

ويقول السمعاني (Tom 111 Par. 11 P.C.) حين يتحدث عن

الأسباب التي أدت إلى اضطهاد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي وكثيراً ما أثارَت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم ، وتصريحات رجال الدين وكبرياء قاداتهم ، وسلطة أقطابهم العاتية ، عاصفة من الاضطهاد ، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم ، وفي خلال الحروب الصليبية طالما وقع مسيحيو الشرق في تهمة العمل على ممالاة الغزوات التي قام بها إخوانهم في الدين من المسيحيين الذين وفدوا من القرب ، وفي تركيا الحديثه ، نجد حركة استقلال اليونان ، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية في أوروبا المسيحية ، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة ، أشق مما يمكن أن يكون لو أنهم لم يهتموا بالحياثة ونفوذهم من حاكمهم المسلم .

وقد أوضح (دى جوبينو De Gobineau) فكرته أيضاً قوياً فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام حين قال « إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التي طالما تحدثت وعملت باسمها ، فإننا لا نجد دنبا أكثر تسامحاً ، بل يمكن أن يقال وعلى وجه التقريب ، أكثر بعداً عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام . هذا التكوين الآلى قوى إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التي كان كيان الدولة الواقع في خطر يجعل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة ، فقد كان التسامح إلى أقصى حد . هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية ، لا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارتكبا في أية مناسبة ، وإذا نظرنا إليها عن قرب ، لن نتردد في معرفة أن أسبابها كانت سياسية بحتة أو راجعة إلى الأهواء البشرية ، أو المزاج المسيطر على الحاكم .

(1) (A. de Gobineau I P., P. 24 - 25)

* * *

(١) ص ٤٦٢ الدعوة إلى الإسلام لسير توماس ارنولد — ترجمة د. حسن

ولقد ظل طريق الحج أمام الحجاج الغربيين إلى يدت المقدس مأمونة مهذا خلال القرون ، السابع والثامن والتاسع والعاشر ، عبر البلاد الإسلامية ، الأمر الذى أدى بالملك شرممان أن يرتبط بصداقة الخليفة هرون الرشيد ، ويعتبره نصيره وسنده ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطية) ، فى الوقت الذى كان شرممان على عدااء مستحكم مع المسلمين فى أسبانيا^(١) .

* * *

الحروب الصليبية - وأسبابها المباشرة :

وفدت إلى البلاد العربية طوائف من مهاجرى الأتراك السلجوقيين ، وسمرقان ما اعتنقوا الإسلام ودخلوا فى خدمة الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وتميأت الظروف لهؤلاء السلجوقيين بحيث أصبحوا فى عنقوان قوتهم عندما ضعفت الدولة العباسية ، وصارت لهم السيطرة الحقيقية على سورية ، وبدأت فى هذه الفترة معاملة هؤلاء الأتراك القاسية لسكان البلاد لآفواج الحجاج المسيحيين ، وكانوا أقل تسامحا من العرب ويتصفون بالقسوة والغلظة ، فجادلوا النصارى للمرة الأولى فى حق المرور وسط البلاد الإسلامية بلا إذن ، وأكروها الحجاج على دخول القدس بمخشوع بدلا من أن يسمحوا لهم بدخولها على صوت الصنوج وضوء المشاعل ، كما كان العرب يسمحون به ، وأخذوا يحملونهم على دفع القنذية غير تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أتوها^(٢) .

وفى إحدى هذه الرحلات ، وفى هذه الفترة الشاذة فى تاريخ العلاقات الطويلة السمحة ، جاء فى أحسنى قوافل الحجاج قسيس يدعى بطرس التاسك^(٣) ، وامتلا غيظا مئراى ومن سوء ما عمل به فى فلسطين ، وتخييل أنه مرسل لدعوة أوروبا إلى إنجاد الأراضى المقدسة ، وتوجه إلى روما واستنجد بالبابا (أوربان الثانى) الذى حمل الرسالة وصار يحجب بلاد إيطاليا

(١) صفحة ٨١ "Islam and the Arabs" by Rom Landau

(٢) حاضرة العرب لفرستاف لويون ترجمة الأستاذ عادل زهير (ص ٣٢١) .

(٣) نفس المصدر ص ٣٢٢ ؛

وفرنسا ويلقى الخطب النارية (ووعد الرب للذين يرحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة) وتوالى المؤثرات وارتفعت الشعارات وترددت في جميع أنحاء أوروبا، وأصاب القوم نوبة حادة من الجنون أخذت تزداد يوماً بعد يوم، وبدأوا زحفهم خلال الأناضول وآسيا الصغرى مرتكبين في طريقهم أشنع الجرائم وأبشع الأعمال الوحشية، التي كانت السبب في أبادتهم على أيدي الأهل قبل أن يصل هذا الفوج الأول إلى الأراضى المقدسة وهلك من هذا الجيش الأول مئات الألوف .

وتوالى بعد ذلك الحملات المنظمة وتبادل ملوك أوروبا قيادة تلك الجيوش وعلى الأخص ملوك فرنسا الذين قاموا بالجانب الأكبر من الحروب الصليبية .

* * *

ومن الغريب أن تلك الفترة الشاذة في تاريخ هذه المنطقة والتي انفردت باضطهاد الحجاج النصارى ، كانت قد انتهت وعادت البلاد إلى سلطان مصر وزالت أسباب الشكوى ، وعادت الأمور إلى حالتها السلبية الأولى ، ولكن الصليبيين وقد استعدوا في هذه المرة بجيش كامل العدة والذخيرة وقوامه مليون جندي ، أبى إلا أن يندفع تحت حماسة العصية الدينية التي اندلع لها ليخلص القدس وفلسطين من حكم المسلمين ، فاستولوا على بيت المقدس في ١٥ يولية عام ١٠٩٩ م .

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر ابن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون ، قال كاهن مدينة لويوى « ريموندواجيل » حدث أمر عجيب للعرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيهم ، وبقرت بطون بعضهم . فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرقت بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكفاس من رؤوس

العرب وأيديهم وأرجلهم . فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا ، وروى ذلك السكاهن خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر وقال في ذلك الوصف التالي - « لقد أفرط قومنا في سفك الدماء . في هيكل سليمان وكانت جثث القتلى تسبح في الساحة هنا وهناك ، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، وقام الفرسان الصليبيون بعد ذلك بآبادة جميع سكان القدس ، فأنتوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام » .

* * *

وبلغت المسيحية الغربية أوجها في الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٥ / ١٠٩٩) على حساب الاسلام - وأقامت سلسلة من الامارات المسيحية في سوريا تمتد من انطاكية وأورفة حتى بيت المقدس والعقبة (على رأس خليج العقبة الذي يؤدي إلى البحر الأحمر ^(١)) .

وفي عام ١١٤٤ بدأت قوة المسلمين في الظهور وكان ذلك أبان الحملة الصليبية الثانية التي بدأت من فرنسا أيضا واشتركت فيها ألمانيا ولكنها منيت بالفشل وقضى عليها الأولى في آسيا الصغرى . أثناء مرورها بها .

وما أن جاء عام ١١٨٧ حتى كانت الدولة المسيحية مقتصرة على مواقي انطاكية وطرابلس وصور ، وقامت لتصرتها الحملة الصليبية الثالثة المؤلفة من الجيوش الفرنسية والألمانية والانجليزية ، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد وطد أقدامه في مصر وجزيرة العرب والعراق ودخل سوريا في ١١٨٧ واسترد بيت المقدس ، وتم طرد الصليبيين منها .

ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل بالصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيدهم عن بكرة أبيهم ، بل اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيء منهم .

(١) مختصر دراسة التاريخ لارنولد توينبي - ترجمة الأستاذ فؤاد شبل (ص ٢٥١) .

وتمكن صلاح الدين من الانتصار على جيوش الدول الثلاث التي تكونت منها الحملة الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) وكان سلوكه خلالها مثالا للشهامة والساحة وكرم الأخلاق بقدر ما تميزت أخلاق الصليبيين بالشراسة كما بدأ من (ريشارد قلب الأسد ملك الانجليز) عندما قتل ثلاثة آلاف أسير مسلم سلوا أنفسهم إليه بعد ما قطع عهدا محضن دماهم،^(١)

* * *

تابعت بعد ذلك الحملات الصليبية واحدة بعد الأخرى وابتدأت جميعها بالفشل ولم تتمكن من استرداد القدس وانتهت بالحملة الثامنة في عام ١٢٧٠ التي هزمت . أمام السلطان بيبرس ، وانتهى عهد الصليبيين باستيلاء الناصر قلاوون على طرابلس في ١٢٨٩ واستيلاء ولده خليل على عكا سنة ١٢٩٠ ولم يحدث بعدها إلا تلك المحاولة التي قامت بها قبرص ونقضت المعاهدات وأغارت على الاسكندرية ١٣٦٥م ، ثم على طرابلس الشام في ١٣٦٧ ولقد كانت أثناء ذلك مأوى للصليبيين ومركزا للقراصنة الذين يتعرضون للسفن العربية ، مما حفز مصر على الانتقام واستولت على قبرص في عام ١٤٢٦ -

نتائج الحروب الصليبية وآثارها :

« ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد العالم عدم التسامح عدوة قرون ، وأن صيغته بما لم تعرفه ديانته — خلا اليهودية — بصفة القسوة والجور ، أجل كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير عن عدم التسامح ، ولكنه ندر إن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حد الغدر والظنيان ، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغا من الحيا الشديدة في الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاسى أثره إلى زماننا هذا »^(٢)

(١) حضارة العرب لفوستاف لويون (ص ٣٣٠)

(٢) حضارة العرب لفوستاف لويون (ص ٣٣٤)

استمرت الحروب الصليبية الأصلية مدة قرنين من الزمان ، تبعها فترة مساوية أخرى من العداوة والحق اللتين انطوت عليهما نفوس الدول الأوروبية المسيحية ، لعدم توفيقها رغم مجهوداتها الفائقة ، ثم تأصلت بعد ذلك في نفوسهم كراهية وترصص للعالم الاسلامي تنتقل من الوالد إلى ولده جيلا بعد جيل بلا انقطاع .

ومهما قيل من أن الحروب الصليبية قد اتخذت طابعا اقتصاديا أو استعماريًا أو وسيلة للزيد من النفوذ السياسي وما إلى ذلك مما يذهب إليه كثير من المؤرخين ويدللون عليه بمحاذثة من هنا وتحليل من هناك ، فإن الحروب الصليبية وما أعقبها من تعصب ديني لا يزال فعالا إلى الوقت الحاضر ، ماهي إلا استجابة مستمرة طوال الزمن لتلك الصيحة المنعصبة الأولى التي صاح بها البابا أوربان الثاني « أتم فرسان أقيوا . ولكنكم تتناطحون وتتناذبون فيما بينكم ، ولكن تعالوا وحاربوا الكفار ، يامن تناذبتم اتحدوا ، يامن كنتم لصوصا كونوا جنودا ، تقدموا للدفاع عن المسيح لئلا تمنعكم عراقيل ، ولا تلهيكم نساؤكم ولا أولادكم ولا أموالكم عن القتال في سبيل الله تقدموا إلى بيت المقدس ، انزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم وهي تدرسنا وعسلا ، إنكم إذا انتصرتكم على عدوكم ورتم مالك الشرق ، وإن خذلتكم فستقتضون حيث مات يسوع فتخلدون في النعيم الدائم ،^(١)

تلك الصيحة التي ملأت العالم بالشور والاثام ، وقضت على التسامح الديني لازالت راسخة في قلوب نصارى أوروبا ، وامتدت منها إلى جميع الشعوب النصرانية التي أجمعت على عداة الإسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بمجد جميع الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لا يفتقر لسحق الاسلام سحقا ، وتأخذ النصرانية مشاعر كل مسلم بصور الهزء والسخرية والعبث والازدرام وأن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم في

(١) مواقف سامية في تاريخ القومية العربية لمحمد صبيح (س ٢٢٤) .

ببلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة - والوطنية
المحبودة^(١) وقال مستر جلاستون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق -
«بوجوب إعدام القرآن وتطوير أوروبا من المسلمين» وقال لورد سالسبوري
البريطاني أيضاً «بوجوب إعادة ما أخذه الهلال من الصليب للصليب دون
العكس» .

ولقد تعمد اللينبي القائد البريطاني في نهاية الحرب العالمية الأولى عند
دخوله القدس عام ١٩١٧ أن يقول (الآن فقط انتهت الحروب الصليبية)
وتلاه القائد الفرنسي عند دخوله دمشق الذي جعل همه الأول أن يزور
نبر صلاح الدين الأيوبي لكي يقول (هاقد عدنا يا صلاح الدين) .

* * *

طبة أخيرة قالها قائد بريطاني يعمل في خدمة الحكومة المصرية وهو
الجنرال غوردون حاكم السودان الذي كتب لأخته (ص ١٥٥ من رسائل
غوردون) عندما أصدر يوحنا امبراطور الحبشة أمره بتنصير جميع المسلمين
(أن يوحنا - وبالعجب - يشبهني تعصباً للدين ، وله رسالة سينجزها ،
وهي تنصير جميع المسلمين)^(٢)

ولعل في هذه القصة الأخيرة ما يثبت للقارىء مدى ارتباط الحوادث
التاريخية بعضها ببعض ، ومدى ما أحدثته الحروب الصليبية في العالم من
إشاعة التعصب الديني ضد المسلمين والعرب ، من أثر على تاريخ الحبشة ،
وما سوف تعرض له من أحداث ، التي لا يمكن أن يكون حدوثها في نفس
الوقت واستطرادها بعد ذلك من قبيل الصدف .

(١) يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين (ص ١١٠) .

(٢) الاسلام في القرن العشرين لنباس محمود بغداد (ص ٩١) .

منذ أن قام صلاح الدين الأيوبي بمواجهة الجيوش الصليبية ومصر تتحمل الجانب الأكبر من متطلبات هذه الحروب من رجال وعتاد، واستمرت في كفافها طوال تلك الحروب وخلال عهود السلاطين المختلفة على هذه الحال، حتى أنه عندما هدأت الحروب في أرض الشام بدأ الصليبيون في غارتهم على مصر ووجهوا حملتهم الرابعة على مصر عام ١٢٠١ وكذلك حملتهم الخامسة على مصر عام ١٢٤٨ تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وظلت العلاقات متوترة وفي حالة ترقص وتحفز ما يقارب قرنين من الزمان، امتدت إلى الوقت الذي هاجمت فيه قبرص مدينة الإسكندرية وضربتها عام ١٣٦٥ واضطرار مصر إلى الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها عام ١٤٢٦ .

* * *

علاقة الحبشة بالحروب الصليبية :

ولا يمكن أن تمر تلك التجارب المريرة والحروب التي استنفذت مجيها شاقا من مصر وملوكها دون أن تؤثر في أعصاب الدولة الإسلامية ، وكان من الممكن أن يقوم المصريون والسوريون بما قام به الصليبيون من إقامة المذابح والتفنن في وسائل التعذيب والاضطهاد ولكن بما يدعو إلى الفخر أن ماتعرض له الأقباط في تلك الفترة العصبية من الاضطهاد لا يكاد يذكر أو يقارن بما حدث فيما تشابه مع تلك الظروف في دول أخرى في العالم .

* * *

ولقد كانت الحبشة خلال تلك الفترة في أشد الأوقات حاجة إلى معونه الكنيسة المصرية لتثبيت أقدام المملكة المسيحية ، وبالرغم من ذلك فإن المملكة المسيحية وجهت حملاتها على الدول الإسلامية الحديثة العهد بالحبشة وكلما قويت شوكة المملكة كلما أمنت في فرض سلطانها على تلك الدول الناشئة وفرضت عليها الاناوات ، وكل ما يؤكد تبعيتها لملك الحبشة .

وفي تلك الأثناء وقعت في مصر تلك الحوادث المؤسفة التي يعددها بعض المؤرخين ضمن مظاهر الاضطهاد الديني في مصر، ولقد سبق أن ذكرنا بعضها منها، وذكرنا أيضا أن أسبابها كانت تعود إلى أساءة كبار المسيحيين للسلطات التي منحتها لهم الدولة (راجع الصفحات ٨٤-٩٤-١٢٣-١٢٨-٤٦٢) من كتاب الدعوة للإسلام للسير توماس ارنولد) - مما يفيد بأن أغلب تلك الحوادث كانت ردا على سوء تصرف أو عقابا على سوء استعمال السلطة، ولم تكن نابعة من تعصب ديني، وأنها بالرغم من ذلك تتضاءل أمام ما شهدته العالم من اضطهاد ديني في غير الدول الإسلامية، ولأسباب سطحية تافهة لا تقارن بما كان يتعرض له المسلمون، كما أن هذه الصفحات نفسها تسجل ما كان يلقاه أقباط مصر من تسامح وتكريم واعزاز عندما تستقيم أمورهم بالتعاون مع الحكومة، وأبناء وطنهم .

* * *

ولم تكن مملكة الحبشة غافلة عن مجرى الأحداث في أثناء الحروب الصليبية، بل كانت معنية بها تتابع أحداثها ولكنها كانت بعيدة عنها لبعده المسافة وتعذر الوسائل التي تمكنها من تقديم المعونة للصليبيين، وانشغالها في هذه الأثناء في حروبها الداخلية وقلقها على كيان دولتها وشغلها الشاغل بتثبيت أقدامها لزاء الزحف الإسلامي ونفوذ الذي يتسع رويدا رويدا . ولقد حاول بعض الكتاب أن يسدل ستارا على العلاقة الوثيقة التي كانت بين الحبشة وبين الحروب الصليبية ودول غرب أوروبا المسيحية، بل عمد البعض إلى الإيحاء بأن أوروبا لم تكن تعلم بوجود مملكة مسيحية في قلب أفريقيا، وأن سلاطين الماليك في مصر كانوا يعملون على أن تظل أخبار تلك المملكة المسيحية مجهولة لدى الدول الأوروبية، حتى لا ينتهزوا

الفرصة، ويتحالفوا معها للقضاء على مصر بالمهجوم عليها من الشمال ومن الجنوب .

وحقيقة الأمر أن الحبشة كانت على اتصال وثيق بالحروب الصليبية والدول المسيحية في أوروبا طوال تلك الفترة العصيبة من تاريخ العالم الاسلامي وبعدها ، يؤيد ذلك ما جاء في كتاب الحروب الصليبية الجزء الثاني ص ٩٦٥ للدكتور سعيد عاشور نقلا عن «كولبو» (ولم يفت الصليبيون كذلك أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة (١٢١٨م)^(١)

ولقد بحث الصليبيون عن حليف يقطع طريق البحر الأحمر من الجنوب فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية ليحالفوها ويعتمدوا عليها . لذلك حرصت البابوية منذ أوائل القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم - الراهب الدومينيكانى (١٣٠٥) برحلة طويلة تزار فيها شرق افريقية والحبشة ثم عاد في ١٣١٦ م^(٢) ، أوفى تلك السنة أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين سفارة من الدومينيكان إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك في مصر ، كذلك كان مصير سفارة أخرى من الدومينيكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة عام ١٣٢٨ م^(٣)

ويدو أن تلك الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربي من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى ، نجحت في استثارة ملوك الحبشة ضد

(١) Coulbeaux : Hist. D'Abysinie Part 2 ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

(٢) The Crusades of the Middle Ages by A, S. Atya ١٦٢-١٦١ ص (٢)

(٣) Krammer : La Mer Rouge I ص ٢٩٤

ومضعة ١٢٠٩ - الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور .

المسلمين وفي جذبهم إلى داخل مجال الحرب الصليبية ، ومن ذلك ما ذكره لابوركيير La Borquiere من أن ملك الحبشة أسرع عندما بلغه نبأ اغارة بطرس لوزنجمان ملك قبرص على الاسكندرية في عام ١٣٦٥ إلى اعداد جيش ضخم من ثلاثة ملايين ؟؟ وزحف على رأسهم شمالا لمهاجمة دولة المماليك من الجنوب ، ولكنه لم يكذب يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسحاب بطرس لوزنجمان من الاسكندرية فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خسر في تلك العملية زهاء مليونين من الرجال ، — وعلى الرغم مما في هذه الارقام من مبالغة واضحة في العدد وفي التوقيت لأن بطرس لوزنجمان لم يبق بالاسكندرية أكثر من ثمانية أيام ، فإن الخبر نفسه يشير إلى وجود اتصالات بين ملكي قبرص والحبشة بقصد كبس دولة المماليك من الشمال والجنوب (١١)

ثم كان أن فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) في القيام بحركة صليبية كبرى ضد المماليك في مصر وأرسل مندوبا إلى ملوك أوروبا بذلك وقبض على مندوبه عند عودته ومروره بمصر — كما سيأتي ذكره فيما بعد .

وبالرغم من الصعوبات العملية التي تجعل اشتراك الحبشة في الحروب الصليبية بمخاطب الأوربيين ، فإن فكرة استغلال الحبشة في القيام بعمل حربي ضد المماليك ظلت ماثلة في أذهان أصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر ومن ذلك أنه حدث عام ١٤٥٢ م أي قبيل سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين أن كتب حنا جيرمان . Jean German تقريراً لانقاذ شرق أوروبا من توسع العثمانيين المسلمين ، أشار فيه إلى أن البابا نصح في مجمع فلورنسا (١٤٢٩ م) في إصلاح ذات البين بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وأن هذا من شأنه أن يجعل من الممكن أن يؤلف المسيحيون الشرقيون — ومن جملتهم « يعاقبة الحبشة » جبهة قوية في وجه المسلمين (١٢)

(١١) ص ١٢٠٩ — الحركة الصليبية للدكتور سيد عاشور .

(١٢) ص ٢٠٧ A.S Ariya

ولقد ظل الفشل حليف جميع تلك المجهودات المسيحية إلى أن نجح فاسكو دى جاما البرتغالى فى كشف طريق الرجاء الصالح حول أفريقيا (١٤٩٧ - ١٤٩٩م) مما جاء بمثابة الضربة القاضية لدولة الممالك ، وسرعان ما ظهر أثر ذلك وتعاون الأبحاش والبرتغاليون ضد الممالك المسلمين . وسوف نرى فيما يلى من أبناء ملوك الحبشة كيف كان اتصالهم بالدول المسيحية مستمرا بقصد القضاء على الدول الاسلامية .

ويلاحظ أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة باشتراك الأبحاش مع الأوربيين جاءت مصحوبة بفكرة أخرى نادى بها دعاة الحروب الصليبية طويلا ، هو تجويع مصر والقضاء على من فيها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة . . وقد أشار فيليب دى ميزير صاحب المشروع الصليبي الكبير فى القرن الرابع عشر - إلى إمكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على دولة الممالك قضاء تاما ، وظلت هذه الفكرة تراود المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل الفونس الخامس ملك أرجونه إلى ملك الحبشة عام ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من الجنوب ، وفى الوقت الذى يقوم الفونس نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين^(١) - ولما اشتد النزاع بين الممالك والبرتغاليين عقب كشف طريق الرجاء الصالح أرسل البوركك - قائد الأسطول البرتغالى - إلى ملك البرتغال يطلب امداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فورا على تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد الأوربيين والأبحاش جميعا فى إمكان تنفيذ المشروع^(٢) .

De La Baciére : La Decouverte de L'Afrique Au 119 (1)
Moyen age Tome II

(٢) س ١٢١٤ الحركة الصليبية للدكتور سعيد ماحور .

الفصل السابع

الأسرة السلجانية

والصراع مع الإسلام

(من أوائل القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر)

عند انتهاء عهد ملوك الأيوبيين وارتقاء الملك ويكونو أملاك Yekono Amlak عرش الحبشة بدأ عهد الأسرة السلجانية ، تلك الأسرة التي تروى الأساطير أنها تنحدر من نسل سليمان بن داوود عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ (ما كيدا الحبشية) كما سبق ذكره . و « يكونو أملاك » ليس اسما وإنما جملة تعنى (سوف يكون ملكا - وهي قريبة من العربية كما هو واضح - ويبدو أن هذه الكلمات نطق بها القديس تكلاهيمانوت عندما زعم أنه نزل عليه الوحي ليمنح العرش لى الأسرة السلجانية) فصارت عليه علما⁽¹⁾

ولقد لعبت الكنيسة دورا هاما في إنهاء عهد الأيوبيين وعملت على تسمين « يكونو أملاك » للعرس وكان على رأس رجال الدين الأب « تكلاهيمانوت Takla Haymanot السالف الذكر ، كان الاعتقاد السائد أن انتقال الملك من الأسرة الأيوبية إلى الأسرة السلجانية حدث بعد اتفاق سلمى مهدت له الكنيسة إلا أن الوثيقة العربية التي سبق ذكرها « عن روسيني » تبين أن الملك يكونو أملاك « جهر جيشا من عدة ولايات هزم به الأسرة الأيوبية » ، والثابت في كثير من الروايات أن الكنيسة ورجال الدين كان لهما الفضل الأكبر في انتصار الملك الجديد واستتباب الأمر للأسرة السلجانية .

(1) ص ٢٧٤ سير بيج Budge (ولاسم الحقيق للملك هو تسفا لياس)

ويبدأ عهد هذه الأسرة في عام (١٢٧٠ م) ومنذ ذلك التاريخ تتعدد المراجع التاريخية التي توضح الكثير من تسلسل الأحداث في شكل لآباس به من الدقة والوضوح وأول ما حدث من الأمور الهامة هو أن الامبراطور « يكونو أملاك » عرفانا منه بفضل الكنيسة على نصرته وتثبيتته على العرش وهب الكنيسة ورجال الدين ثلث أراضى الدولة للصرف على أمور الدين ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة أكبر مالك في الدولة ولديها من الموارد الثابتة ما جعل منها قوة هائلة ، ومهد لها السبيل لانتشار سلطانها ونشاطها ، والمتصرف الوحيد في هذه الأملاك وذلك الاقطاع هو المطران ، بصفته الراعى الأكبر لرجال الدين .

ومنذ ذلك الحين أيضا ازداد اعتماد الأباطرة على رجال الدين ، ولم يكن من الممكن بقاء مركز المطران شاغرا فترات طويلة ، لذلك عمد الأباطرة إلى الكتابة إلى سلاطين مصر وإيفاد الرسل إليهم ، للسماح لبطريك الاسكندرية باختيار المطارنة وإرسالهم إلى الحبشة في أقصر وقت يمكن ،

* * *

وكان لاستتباب الأمر للملك الحبشة على هذه الصورة أثر كبير في مجريات التاريخ في البلاد ، إذ أن هؤلاء الملوك أخذوا يعززون مراكزهم في مملكتهم على هضبة الحبشة بالصورة التي تمكنهم من الصمود أمام المد الإسلامى الذى أخذ يطرُق أبوابهم ، وعلى الأخص من سلطنته إيفات الإسلامية ، التي زحفت على مقاطعة شوا وحلت محل السلطنة الخزومية السابقة .

وسرعان ما بدأ الصراع بين الممالك المسيحية والإسلامية ، الذى اتخذ حظها سياسيا بجانب الدوافع الدينية .

وبالرغم من مرور ما يقرب من تسعة قرون على دخول المسيحية إلى الحبشة فإن غالبية الشعب الذى يسكن الهضبة كانت لاتزال وثنية حتى القرن

الثالث عشر ، لذلك كان تنصير هؤلاء الوثنيين أهم واجب وضعت الكنيسة والاسرة الحاكمة نصب أعينها ، حتى يوحدوا البلاد تحت لواء ديني واحد يمكنهم من الوقوف أمام الزحف الاسلامي .

لذلك بدأت حركة تبشير واسعة بين القبائل يتزعمها الأب تكلاهياتون ولقد رفعه الاحباش إلى مرتبة القديسين وبنوا له ديرا عظيما في (ديرا ليبانوس) ولقد كان نجاح هذه الحملة التبشيرية عظيما ، واعتمدت في نجاحها على جميع ما تبسر لها من نفوذ ، فبالاضافة إلى ما كان لرجال الدين من حمية ونشاط فقد استعانوا بسلطة الامبراطور ، وبالأموال التي آلت إليهم بعد أن منحهم الامبراطور ثلث أملاك الدولة .

السلطنات الاسلامية :

رأينا فيما سبق كيف كانت المسيحية تتقدم في ببطء في بلاد الهضبة الحشبية المرتفعة بينما كان الاسلام يمتد في خطوات واسعة وسريعة من المناطق الساحلية إلى داخل البلاد متغلغلا في الأقاليم الجنوبية ، وامتدت بذلك سلسلة من السلطنات من البحر الأحمر إلى منطقة البحيرات . وشمل نفوذها الجانب الأكبر من إقليم شوا .

ولو اتبعت هذه السلطنات الاسلامية أن تتحد في ذلك الوقت ، لأصبحت خطرا يهدد بقاء الدولة المسيحية ، التي كانت تعاني من قبائل الأجاو الوثنية التي تحيط بها وتتغلغل داخلها ، متحصنة في مواقعها الطبيعية المنيعه (١)

ومن أهم تلك السلطنات الاسلامية شأنا — سلطنة (هدية Hadya) التي تغلغل في أقصى الجنوب ، لذلك كانت أكثر السلطنات نشاطا في تجارة الرقيق ، ثم سلطنة (فناجار Fatajar) التي تقع في جنوب مقاطعة شوا ثم أهم تلك السلطنات وأكبرها وهي (إفات Ifat) التي سبق ذكرها ،

(١) الاسلام في أمبوتيا لتر منجهام ص ٦٦ . وكذلك ماجاء في الفصل الرابع من عبد الله الزيلعي .

وكانت تسيطر على مساحة شاسعة من الدولة تبدأ من ساحل البحر الأحمر إلى قلب الحيشة شاملة لاقليم شوا الشرق ، وبذلك كانت تسيطر سلطنة ايفات على طرق التجارة التي تربط داخل البلاد بميناء زيلع ، ولقد سبق أن جاء ذكر هذه السلطنة في كتابات المؤرخين القدامى تحت اسم (ولاشما Walashma) في بعض العصور ، وأطلق عليها المؤرخون العرب أيضا اسم (جبرة Jebara) ثم اسم (جبرت Jabarta) وهذا الاسم حبشى الأصل (أجبرت بمعنى عباد الله ، وهي جمع مفردا جبر أى عبد ، والنسبة إليها جبرتي - وهو الاسم المتداول والذي ينسب إليه الجبرتي المؤرخ الشهير ^(١))

وكتب المقرئى أن الولاشما يزعمون أنهم من أصل عربي - قدموا من الحجاز واستقروا في (جبرت) ، وأن أحدهم يقال له (لاشما) عينه النجاشي محافظا على مدينة أوفات وماحولها واستمر الحكم في الأسرة حتى (١٤٤٥ م) ويقول البعض أن اسمه أصبح علما على المنطقة التي اشتقت اسمها من اسمه .

وكانت سلطنة ايفات تشمل أيضا امارات مورا و (عدل Adal) .

* * *

أما الممالك الإسلامية الأخرى فكانت إلى الجنوب من ايفات وتقع في أقاليم سيداما وأهمها مملكة دارو وبالي ، وكانت تسكنها قبائل السيداما ومعها قبائل الجالا إلى الجنوب . وإلى الشرق منهما تقع مدينة هرر وهي مدينة يرجع عهدها إلى العصور القديمة وينسب انشاؤها إما إلى القبائل السامية أو العرب الذين هاجروا إلى الشاطيء الافريقي ، وذلك لأن أهل هذه المدينة يتكلمون إلى الآن لهجة سامية .

(١) ص ١٠٦ بين الحيشة والعرب تأليف الدكتور عبد الحميد هابدين .

ولقد اعتنق أهل هرر الإسلام فأصبحت هذه المدينة مركزا تجاريا هاما ومصدرا لاشعاع الدعوة الاسلامية .

• • •

وكانت هذه المناطق تعرف عند الكتاب المصريين والسوريين باسم بلاد الزيلع بالرغم من أن زيلع مدينة واحدة فيها ، وهناك غيرها من المدن التي اشتهرت على الساحل مثل مقديشيو . (نرجو مراجعة ماجاه في الفصل الرابع من وصف القلقشندي لهذه الممالك الاسلامية) .

• • •

وعماسبق يتضح أن الممالك الاسلامية كانت أكثر اتساعا من المملكة المسيحية ، وعلاوة على ذلك كان الحكام المسلمون قد وطدوا صلاتهم مع قبائل الأجاو المناوئين لمملكة الحبشة . ولكن المملكة المسيحية تمكنت في صراعها المقبل مع المسلمين من الانتفاع من قدرتها على الحركة على خطوطها الداخلية القصيرة ، في الوقت الذي كان المسلمون منتشرين في مساحات شاسعة رديئة المواصلات ، تنخلها في كثير من الأماكن قبائل البدو ، لذلك كان نظام المسلمين مضطربا وتعنت المحاربين عسيرة مما جعل مقاومتهم ضئيلة وعرضة للانهيار المفاجيء . .

ولقد كانت سلطنة ايفات في طور التكوين والتنظيم ، وكانت تشكل خطرا كبيرا لو أنها فكرت في المباداة ، ولكنها فوجئت بهجوم شامل من الجيوش الحبشية التي شباها الامبراطور عمداسيون ، الذي لم يترك لها الفرصة لجمع شملها بما اضطرها الى التسليم ، وبذلك فتح الباب للانتصار على السلطنات الأخرى واحدة بعد الأخرى . .

• • •

ولم يكن هذا الانتصار على ايفات حاسما ، إذ استمرت القوات الاسلامية في حروب ومناوشات ، تكسب معركة وتخسر أخرى ، حتى أخذ الموقف

يتغير عندما أصبحت هرر القاعدة الاسلامية الرئيسية ، إذ أصبح الأجانب عندئذ بيدين عن قواعدهم فوق الهضبة ، وكانت هرر قد أصبحت على صلة تامة بقبائل (عفار Afar) والصومال التي تتوق إلى الحرب لتوسيع سلطانها ، وبذلك تحولت المبادأة والحملات الهجومية إلى القوات الاسلامية المنظمة (١)

* * *

المناطق الاسلامية داخل المملكة المسيحية :

إضافة إلى تلك الممالك الاسلامية التي امتدت وتوغلت إلى داخل الحبشة وأحاطت بالهضبة الحبشية واستولت على إقليم شوا ، فإن كثيرا من المسلمين قد توغلوا في الهضبة المسيحية نفسها وكونوا عددا من المستعمرات التي انتشرت في مختلف بقاع الهضبة ، ولقد جاء ذكر ذلك في (تاريخ بطارقة الاسكندرية) وكذلك من شواهد القبور التي عثر عليها في شمال مقاطعة تيجرى والتي يرجع أحدها إلى (٨ ذو القعدة ٣٩٦ هجرية - أي ١٦ أغسطس ١٠٠٦) .

ولقد ذكر أبو صالح (١١٧٠ - ١٢٢٠ م) أن بمملكة الحبشة كثيرا من المسلمين في الأعوام الأولى من القرن الثالث عشر ، وكان على كل مسلم أن يدفع نوعا خاصا من الضريبة .

ولقد كانت الكنيسة أثناء الصراع مع الاسلام تتعرض للحرارة ، لاضطرابها أثناء عهد ضعفها إلى تأييد الاسلام ، فكانت تضطر الكنيسة القبطية في مصر أن تدعن لرغبة سلطان مصر بتعيين المطران الذي يتعهد برعاية مصالح الإسلام في الحبشة ، ومن أمثلة ذلك تدخل بدر الجمالي - وزير المنتصر بالله - (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) في تعيين مطران معين غير ذلك الذي

أختاره البطريرك ، وعندما وصل هذا المطران إلى الحبشة عمل على تنفيذ ما وعد به الوزير بتشجيع بناء المساجد ، مما أثار عليه المسيحيين واضطر لتبرير أعماله بأن المساجد إنما تبنى ليستعملها التجار العرب وهي بذلك لا تبنى شيئا ، بينما قد يؤدي رفض إقامتها إلى اضطهاد الأقباط في مصر ، ولكن كراهية هذا المطران بلغت الحد الذي أدى بالملك إلى وضعه في السجن ، وقام بتدمير المساجد السبعة التي كانت قد تم بناؤها .

وأعقب ذلك وضع القيود على نشاط التجار المسلمين مما دفع مصر إلى اتخاذ اجراءات مماثلة وتسبب عن ذلك قطع العلاقات بين الدولتين (١)

° ° °

علاقة سلاطين مصر بالحبشة :

شرحنا فيما سبق تلك العلاقة التي قامت بين مصر والحبشة ، وتبعية المسيحيين في الحبشة لكنيسة الاسكندرية ، وأهمية المطران المصرى الذى يوفده بطريرك الاسكندرية ليرأس كنيسة الحبشة ، وخطورة مركز المطران المصرى ونفوذه وما يتمتع به من سلطان روحى على الدولة واعتماد الامبراطور فى كسب طاعة الشعب على تأييد المطران ومن معه من رجال الدين . الذين بلغوا شأنًا عظيمًا حتى أصبحت الكنيسة منبعًا للقوة ، وازداد أثرها فى القرن الثالث عشر ، فعملت على نشر المسيحية بين الوثنيين المنتشرين فى المملكة المسيحية وجمع الكلمة حول الامبراطور للتمكن من الوقوف أمام الزحف الاسلامى .

وكذلك تكلمنا فى فصل سابق عن الحروب الصليبية التى جردتها للدول المسيحية فى أوروبا بغية القضاء على الإسلام ، وكيف اصطلت الشام ومصر بناراها بضعة قرون شملت ذلك العهد الذى تسكلم عنه الآن من تاريخ الحبشة .

لقد عدنا إلى التذكير بهذه الأمور في اختصار ، لأن المرحلة التي نمر بها الآن ، في الكتابة عن تاريخ الحبشة ، تمثل البداية الحقيقية لسلسلة متتابعة من الاضطهاد الديني من الطرفين .

• • •

لا يمكن أن يمر الإنسان بمرحلة الحروب الصليبية التي أشعل نارها التعصب الديني البغيض ، وما حدث خلالها من قسوة وفنك بالأموال والأرواح . وتلك الحملات التي أخذت تتوالى على البلاد الإسلامية واحدة بعد الأخرى ، لا يمكن أن يمر الإنسان بكل ذلك مر الكرام كآتما يتابع قصة من القصص العابرة .

لا شك في أنه كان لتلك الحملات أسوأ الأثر في نفوس المسلمين شعوبا وحكاما ، ولا شك أيضا في أن المسلمين كانوا يعانون من تعظيم أعصابهم ، بأمرهم دينهم بالتسامح ورعاية أهل الذمة في آيات وأحاديث وأضحة صريحة لا تقبل الشك أو التأويل ، بالإضافة إلى ما جلبوا عليه من النبل والشهامة ، وبين التوازن الإنسانية التي تتحرك في النفس عندما تتوالى عليهم الحروب وتزداد الضحايا والخسائر من جراء تلك الحروب التي أشعلها الصليبيون على الإسلام ، وفي بلاد المسلمين وبين ظهرانهم يعيش فريق كبير من المواطنين الذين يدينون بدين المهاجرين المعتدين .

لا شك في أن احتفاظ المسلمين بسماحتهم وعهدهم برعاية أهل الذمة ، يحتاج إلى قدر هائل من ضبط النفس والصبر ، ولقد تمكنوا من ذلك في غالب أوقاتهم ، حتى لقد امتلأت كتب المؤرخين من غربيين وشرقيين بالتعجب للوقف النبيل الذي وقفه المسلمون من قضية الاضطهاد الديني في ذلك الوقت العسير . وبالرغم من ذلك فانه مما يتفق مع طبيعة الأمور ، ويتمشى مع الطبيعة البشرية . أنه لا بد وأن تشتد بعض الظروف إلى الحد الذي لا يمكن معه الصبر والاحتمال ، خصوصا وأن الإسلام كما مر بالتسامح ، أمر بـ (٨ - الحبشة)

وتوقيع الجزاء والنفاع عن الإسلام وكرامة المسلمين ، ومع ذلك فلم يلجأ المسلمون إلى معاقبة البرىء المسلم بحريرة المعتدى المذنب ، وما تحركت مشاعرهم إلا نتيجة لأعمال مباشرة قام بها مسيحيو الشرق العربي أبان الحروب الصليبية .

ولقد ظهرت آثار ذلك واضحة منذ القرن الثاني عشر حيث قال عنها Belin P. 478 (أنهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية ، باتصالهم بالصليبيين اتصالاً ينطوى على الخيانة ، فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني)^(١) .

جرت التقاليد أنه كلما خلا منصب المطران أن يطلب ملك الحبشة بدلا عنه من مصر ، وأن يرسل بذلك رسالتين ، إحداهما إلى سلطان مصر والأخرى إلى بطريرك الإسكندرية وعندئذ يلتبس البطريرك من السلطان السالح له بإرسال المطران .

وللاهمية البالغة لعدم ترك منصب المطران شاغراً فإن الأباطرة لم يكونوا يترددون في التذلل إلى كل سلطان و بطريرك في سبيل الموافقة على تنصيب المطران ، فقد كتب (يكونو أملاك) (عام ١٣٧٤) إلى الظاهر بيبرس يقول (أقل الممالك يقبل الأرض ، وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أن رسولا وصل من والى قوص ، بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيداً عالماً ، لا ينجى ذهباً ولا فضة . . . وعندى في عسكرى مائة ألف فارس مسلمين . . . وأما النصارى فكثير لا يحصون ، والسكل غلبانك وتحت أمرك . . . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل الممالك ، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون . . . ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين ، فسيرا مطرانا نحفظهم^(٢)) .

(١) من ٩٨ الدعوة إلى الإسلام لسير توماس ارنولد .

(٢) من ١٢٠ صبح الأعمى للقفقندى الجزء ٨ .

ولكن في نفس الوقت الذي ارسل فيه الملك (يكونوا أملاك) هذا الكتاب يتذلل فيه للسلطان بيبرس لكي يرسل المطران ، ويدعى فيه أنه يحافظ على المسلمين وأن يجيشه مائة ألف فارس مسلم ، في نفس ذلك الوقت كان الامبراطور (يكونوا أملاك) يضطهد جيرانه المسلمين ، ولقد جند كل ماله من قوه لمواجهتهم ولكنه تحمل خسائر كثيره في تلك الحروب ، وخرب المسلمين جهات كثيره من بلاده^(١)

• • •

وبالرغم مما أظهره (يكونوا أملاك) من التذلل والزلي والاعتذار ، فإن الظاهر بيبرس ، تحت تأثير الظروف العصيبة التي تمر بها الدولة الإسلامية في أواخر الحروب الصليبية وتحت تأثير ما يعرفه عن عدم صدق الامبراطور في رعايته للمسلمين في بلاده ، فإنه أرسل إليه رداً يشعره بأنه خالف التقاليد ، ورفض إيفاد المطران ، مما اضطر الامبراطور إلى الاستعاضة عنه بمطران سوري ، بالرغم من الاختلاف في المذهب الديني ، ولذلك لم يقابله الشعب بالرضاء والتأييد .

• • •

وفي عهد الملك التالي (يجباصيون ١٢٨٥ - ١٢٩٤ Yagba Soon^(٢) ذكر (ماركوبولو Marco Polo) أنه بدأ بحملة عسكرية موفقة ضد سلطنة عدل (أوزيلع) وانتهت بقبوله لعقد هدنة مع جيرانه الأقوياء ، وبعدها أرسل إلى السلطان قلاوون رسالة ذكر فيها أنه سيتخذ سياسة غير تلك التي اتخذها والده من قبل ، وأنه يذود عن حقوق المسلمين في بلاده ، وطلب إيفاد مطران مصري إذ أن المطران السوري لم يستطع أن يقوم بأعباء الكنيسة الخبثية على الوجه المطلوب ، ونظر إليه الأقباش على أنه أجنبي

(١) من ١٨٥ Budge Vol. I P. 285

(٢) هذه الكلمات ليست أسماء ولكنها جملة معناها (سبعة أمة صهيون) واسم الختلق

عنهم وعن كنيستهم ، وقد استجاب السلطان قلاوون لطلبه وسمح برسيم المطران وسفره^(١) .

ولم تسفر سياسة المهادنة التي اتبعها (مجباصيون) عن إيقاف الزحف الإسلامي وامتداد نفوذه ، واعتبر المسلمون (في سلطنة ايفات) ذلك مظهراً من مظاهر الضعف لدى المسيحيين وبدأوا سلسلة من الاغارات على مملكة الحبشة ، ولكن كان لهذه الحملات أثراً عكسياً إذ أنها قوت الروابط بين المسيحيين ورفعت من روحهم المعنوية ووحدت صفوفهم ضد المسلمين ، ومنذ ذلك العهد أصبحت القوة المسيحية متكافئة مع قوة المسلمين ، بل كانت تتميز عن المسلمين بتركيزها في منطقة صغيرة قصيرة المسافات والمواصلات ، بينما تشتمت قوى المسلمين في مساحات شائعة ، تعذر بينها وسائل الاتصال كما سبق ذكره .

ولقد استمرت الحرب بين الفريقين طوال القرنين المتتاليين ، وخصوصاً في عهود الملوك «عمداً سيدن وسيفاً أردد» ثم «زرع يعقوب» الذي سيأتي شرح خاص لتاريخهم .

بداية الصراع العنيف:

رأينا فيما سبق كيف كان ملوك الحبشة المسيحية يحاولون التوفيق بين عدائهم للإسلام وإصرارهم على انتهاز الفرص للقضاء على الدول الإسلامية الناشئة التي تحيط بهم من كل جانب ، وبين اعتمادهم في تثبيت أركان دولتهم على المطران وسلطة الكنيسة ، وأن المطران لا بد وأن يكون مصرياً موفداً بموافقة السلطان المسلم في القاهرة، وخلال هذه الفترة كانت اعتداءات ملوك الحبشة على جييرانهم المسلمين ، وتقضهم لعود الهدنة وما إلى ذلك من مظاهر العداوة تصل أبنائها إلى سلطان مصر ، فأضافت عبئاً جديداً على كاهل السلاطين فوق ما يلاقونه من الحروب الصليبية وآثارها .

ولقد شهدت هذه الفترة تحصن الصليبيين في قبرص ، واتخاذها قاعدة للقضاء على تجارة المسلمين وقوافلهم البحرية ، وتعدت ذلك بالمهجوم على الإسكندرية والبقاء بها ثمانية أيام ، دمروا فيها المدينة ، ثم غادروها بسرعة (١٣٦٥ م) ثم غارتهم على مدينة طرابلس الشام في ٧ يناير سنة ١٣٦٧ . ولم تكن دولة الاسلام تطبق تحت هذه الظروف العصيبة أن تتحمل وجود دولة مسيحية في جنوبها (مملكة النوبة) ودول أخرى مسيحية تصارب المسلمين بلا هوادة وتحاول القضاء على الاسلام في الحبشة ، في الوقت الذي تلتبس فيه من السلطان إيفاد المطران وتسهيل مرور الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس .

ولقد كان ملوك الحبشة يعلون بغضب سلطان مصر عليهم من جراء تصرفاتهم العنيفة تجاه المسلمين ، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى ملك اليمن لكي يتوسط لهم لدى سلطان مصر لإرسال المطران وأرسلوا رسائلهم للسلطان عن طريقه ، وفي مرة أخرى حاولوا إرسال طلبهم عن طريق ملك النوبة . وما أن اكتشف السلاطين علاقة المسيحيين في الشرق الإسلامي بالخراب الصليبية كما سبق أن ذكرنا ، حتى عولوا على أخذهم بالشدّة . بعد أن ثبت لديهم أن سياسة التسامح التي سادت قبل ذلك في عصر الدولة الأيوبية وفي حكم صلاح الدين على وجه الخصوص ، لم تكن ذات أثر ، ولم يقابلها الصليبيون والمسيحيون في مصر والشام إلا بالوجود .

وبعد بعض الكتاب إلى إغفال ذكر كثير من الحوادث وإيرادها بصورة مشوهة ، لا تتفق مع واجب الكاتب في تحرى الحقائق والالتزام بذكرها على وجهها الصحيح ، مثل ذلك ما جاء في (ص ١٨٩ من كتاب الإسلام في أثيوبيا لأزهر رياض) من أن الأوربيين كانوا يعتقدون بأن التوابل تأتي من الجنة ، وأن الممالك يعملون من جانبهم على رواج هذه الخرافات لغرض أخفاء مصادر هذه التجارة عن الإفرنج كلاً لئلا يبلغهم خبر ملك مسيحي في الجنوب هو ملك الحبشة فيقوم بينهما اتفاق لا يأتي إلا

بأبلغ الأضرار على مصر الإسلامية التي تقع بينهما ، ويؤيد ذلك بقصة الجاسوس الحبشي التي حدثت في سنة ٨٢٢ هجرية (١٤٢٥ م) حين قبض عليه السلطان برسباي عندما كان موفداً من ملك الحبشة إلى ملك الفرنجة . إلى آخر القصة ، التي سنذكرها فيما بعد وبدل على أن القبض على ذلك الجاسوس كان لمنع وصول أخبار وجود المملكة المسيحية في أفريقيا إلى الدول الأوربية التي كانت تجمل وجودها ، حتى لا تهتم بها وتعمل على معوتها . والمعنى الوحيد الذي يمكن أن يخرج به القارىء من إيراد الحوادث على هذه الصورة ، هو إيهام القارىء بعدم وجود أية معرفة أو اتصال بين الصليبيين وبين ملوك الحبشة من قبل ، وهذا يخالف ما أثبتته التاريخ في كثير من المراجع الهامة ، ونخص بالذكر منها ما أجمعت عليه المصادر من أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما استولى على بيت المقدس ١١٨٩ م ، (أى قبل التاريخ الذي جاء ذكره في ص ١٩٨ من الكتاب المشار إليه ، بحوالى ٢٥٠ سنة) شمل دير الأقباش برعايته ، وأنه بالرغم من وعورة الطريق فقد تكاثرت أفواج الحجاج من الحبشة إلى بيت المقدس^(١) .

ولقد وقع السير بدج Budge في نفس الخطأ حين ناقش معلومات أوروبا عن ملك الحبشة المسيحي بما يفيد عدم وجود صلة أو معلومات عنه^(٢) — بينما يقرر (رانسيان) أنه كان يوجد بالأراضي المقدسة مجتمعات دينية وأديرة للأقباط^(٣) المصريين والأقباش وفي مدينة القدس بالذات ، وذلك قبل الحرب الصليبية^(٤) .

ولعل في هذه الأدلة التاريخية الهامة ما يؤكد وجود جمالية حبشية مقيمة

(١) ص ٥٦ الإسلام في أنبوبيا لترمينجام .

(٢) ص ١٢٥ سير بدج Budge .

(٣) وفي الوقت الحاضر يستخدم بين إقباط الحبشة على ملكية (دير السلطان) بالقدس وهو الدير الذي سماه لهم السلطان صلاح الدين إبان الحرب الصليبية ومنذ ذلك الوقت اشتهر بهذا الاسم — بزعم السائر عن أن الأقباش كانوا بالقدس إبان الحروب الصليبية وقبلها .

(٤) A History of the Crusades by Sir Steven Runciman ٢٩٥

في بيت المقدس قبل ذلك التاريخ ، ولسنا بحاجة إلى كثير من إمعان الفكر حتى تؤمن بوجود صلة بين المسيحيين الأقباش وإخوانهم في الدين من الصليبيين قبل ذلك العهد وبعده ، مما لا يستقيم معه ما جاء في الكتاب المذكور ، وكذلك في كتاب السير بدج ، عن محاولة المماليك حجب أخبار وجود دولة مسيحية إلى الجنوب من مصر ، حتى لا تتفق مع الفرنجة فيصيب مصر الاسلامية من ذلك ابلغ الأضرار ، ومع كثرة الأدلة على الصلة القديمة والمعرفة الوثيقة ، فإنا لا نريد أن نقف كثيراً عند هذه النقطة ، مفضلين الاستمرار في سرد الوقائع التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع كأدرجنا عليه من تسلسل .

* * *

« والواقع أن وجود جاليه كبيرة من الأقباش مقيمة اقامة دائمة في بيت المقدس ، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة ، أمر له أهميته من حيث اطلاق ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول ، ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا بفكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية - وهي الحبشة ، في محاربة المسلمين ، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر . »

ولقد سبق أن قدمنا في الفصل السادس أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين ، وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة ، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥ ، كذلك فكر إسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في غزو مصر - وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسرُوا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ م ،

وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن ولكنها باءت بالفشل - راجع المقرئى - الإلام ص ٤ ، (وكذلك النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ طبعة كاليفورنيا) كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجميع مصر ، وهى الفكرة التى ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أراجون والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (١) .

* * *

ومما يؤيد صحة وقوع هذه الاتصالات المريبة التى وقعت فى ذلك الوقت بالذات تلك الحادثة التى سبقت الإشارة إليها والتى حدثت فى عام ١٤٢٥ م (أيام حكم السلطان برسباى) عندما قبض على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبرئى ، اعترف بأن اسحق ملك إثيوبيا أرسله إلى ملك أراجون (الفونس الخامس) يدعوه إلى الانضمام له لمحق الإسلام ، ورفع لواء المسيحية بأن يغزوها من ناحية البحر فى الوقت الذى تغزوها فيه جيوش إثيوبيا من ناحية البر ، وأن هذا الرسول قد سافر من الحبشة فعلا إلى أوروبا عن طريق الصحراء ، وأنه الآن فى طريق عودته إلى إثيوبيا يحمل نتيجة هذا السعى ، فقبض عليه فى مصر وحوكم أمام قاضى القضاة شمس الدين محمد ، وحكم عليه بالإعدام فأركب جملا وطوف به فى شوارع القاهرة والنفساط وبولاق . . .) (٢) ولقد تأيدت هذه الواقعة بالمصادر العربية ، وكذلك من ملفات نايولى ، التى ورد بها نص الرسائل المتبادلة مع ملك أراجون (عهد الإمبراطور زره يعقوب) .

* * *

(١) النصر المالىكى ص ٢٥٠ للكتور سعيد عاشور .

الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤ سعيد عاشور .

وذكر بعض المؤرخين الأوروبيين (أن مسيحي الشرق انساقوا مع الصليبيين ، ولكن بعد أن تخلى الصليبيون عنهم وفشلت حركتهم الصليبية . أظهر المسيحيون السوريون فيما بعد شعورهم الحقيقي نحو المسلمين ، أما طائفة المارونية اللبنانية فظلت على ولائها للكنيسة الرومانية والصليبيين ، وخدم أبناؤها في جيشهم بإخلاص حتى ١١٨١ م)^(١) .

« ومهما يكن من شيء فالحقيقة التي لا يمكن أغفالها ، أن الحروب الصليبية جلبت الشر على المسيحيين الشرقيين ، ومزقت علاقتهم الطيبة مع المسلمين ، وخلفت عندهم نوعاً من التعصب الأعمى ضد المسلمين ، قابله نوع مثله عند المسلمين ، صحيح أن السلطان صلاح الدين وأخلافه من بعده خففوا من حدة هذا التعصب ضد المسيحيين ، غير أن خلفاءهم من سلاطين المماليك ، كالوا الرعاياهم من المسيحيين الصاع صاعين ، بسبب استئثارهم على المسلمين بدمشق مدة استيلاء التتار عليها وتخريبهم المساجد والمآذن ، وشرب الخمر في نهار رمضان ورشه على ثياب المسلمين في الطرقات . . . ثم أدبرت الدنيا عن التتار ، وأقبلت على سلاطين المماليك فقتلوا عدة من النصارى وانتقموا للمسلمين منهم^(٢) ، وعلى هذه الصورة جرى الزمن ، واتسعت الهوة بين الشيعين الإسلامى والمسيحي وورث الشرق الأدنى عن هذه الحروب الصليبية ذكريات التنافر بين المسلمين والنصارى والحزازات الدينية التي لم تنطفئ جذوتها^(٣) . »

ولقد شرح جرجى زيدان ملخصاً لتلك الحوادث في الجزء الرابع من (تاريخ التمدن الإسلامى) ص ١٤١ وما بعدها وقال « على أن أفضح ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، إنما كان في دور الاضمحلال أو التمهقر في

(١) Grousset ; L'Empire pp. 311-313 & Runciman A. 3 p. 477. (١)
وصفحة ١٩٦ الحرب والإسلام زمن المدوان الصليبي - د . نظير حسان سعادوى .

(٢) السلوك ج ١ ص ٤٢٥ ، ٤٣٢ وكذلك ص ١٩٧ الحرب والسلام - د . سعادوى .

(٣) تاريخ العرب لبيب حتى ص ٧٨٠ .

العصور الإسلامية الوسطى ، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية ، لأنها كانت سبباً كبيراً في إثارة التعصب بين الأمتين ، فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الأفرنج سراً ، فبالغ أمراء المسلمين في الفتك بهم ، فنصارى (قاره) مثلاً - وهي بلدة بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين في أثناء الحرب ، ويبيعونهم خفية للأفرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم لأن الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها ، وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا ، وإذا دخلوا بلاداً إسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجرامع ، ولما تغلب نصارى الأندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن - أي المسلمين الذين يعيشون في الإمارات النصرانية - ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم.

• على أنك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الأذى في أبان التمدن الإسلامي لرأيت سببه في كثير من الأحوال وشايه بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق ، وكثيراً ما كان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين ،^(١)

* * *

ولعلنا قد أفضنا في الحديث عن هذا الموضوع البغيض وهو موضوع الاضطهاد الديني ، ولكننا قصدنا أن يكون التفصيل توضيحاً لتلك الأعمال التي قام بها بعض سلاطين مصر في ذلك العهد ، والأسباب التي حفزتهم عليها وأشعلت فيهم نار التعصب الديني .

(١) ص ١٤١ وما بعدها - الجزء الرابع - من تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان .

ولسنا بعد ذلك في حاجة إلى مزيد من الإيضاح لعلاقة الأحداث في الحبشة بالخروب الصليبية وما جرته على العالم من تعصب أعمى ، سفكت فيه الدماء وامتنتت الكرامات ودمرت المدن ومعالم الحضارة ، وتوارت الإنسانية خلالها وبرزت المعجزة والبربرية .

كذلك أصبح واضحاً - كيف استباح الملوك والحكام لأنفسهم اضطهاد مالدتهم من أقليات وكيف كان بعض ملوك الحبشة يرسل الرسائل المعسولة التي تفيض خضوعاً لسلطان مصر ، مشيداً ومتعاهداً على التسامح وحسن الجوار ، بينما هو في نفس الوقت ينزل بالعسف والشددة على المسلمين كما حدث في عهد « يكونوا أملاك » .

o * o

لذلك لا يستغرب أن يلجأ السلطان الظاهريبيرس ، وهو يعاني ما يجابهه من ظروف عصيبة ، أن يرفض ارسال المطران إلى الحبشة ، « وأن يقوم السلطان برساي بحبس البطريرك وضربه وفرض ضريبة كبيرة عليه ، وأخذ تعهد بالآلا يقوم البطريرك بالاتصال بملوك الحبشة بنفسه مباشرة ، ولا بوكيله لا ظاهراً ولا باطناً ولا يولى أحداً على بلاد أثيوبيا لا قسياً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ، ووقوفه على كتابته وأنه متى خالف ذلك وانتقض عهده ضربت عنقه » (١) .

وكان ما حاق بمسيحي مصر من الاضطهاد خلال الخمسين سنة الأخيرة من حكم المماليك والسنين الأولى من الحكم التركي ، لم يجعل لهم مجالاً في التفكير في أمور الحبشة فقد فرض السلطان العادل (١٤١٢ م) على الأقباط ضريبة خاصة وأنشأ لهذا الغرض مكتباً يقيد فيه أسماء مواليدهم ووفياتهم كما صرح السلطان الحمودى (١٤١٢ - ١٤٥٣) ، للمماليك

باضطهاد الأقباط فنشأت حالة من الاضطهاد البغيض ، كانت بالنسبة للصريرين كأنها تنفيس عما لحق بهم من قسوة وعنت طال صبرهم عليهما . تلك كانت النتيجة المنطقية المحتومة التي يتوقعا أى إنسان ، من المسلمين بعد أن تعرضوا فى بلادهم إلى مثل ما لحق بهم أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، وما جرّه عليهم التسامح من إيمان نبى وطنهم من المسيحيين فى مؤازرة العدو ، واستعداد الممالك المسيحية المجاورة والبعيدة على السواء ، لمعاونتهم فى العمل على سحق المسلمين - ولا يسعنا فى هذا المقام إلا الأسف الشديد على مظاهر الاضطهاد التي تعرضت لها طوائف الديانتين السابوتيين - وندعو الله ألا يعيد مثل هذه الأيام ، وأن يستمر الجميع فى العمل والتعاون فى أخاء ومحبة .

* * *

وأصبح المجال مناسباً لأن نذكر فى شيء من التفصيل عهد بعض الملوك البارزين من الأسرة السلجمانية فى تلك الحقبة التي نتكلم عنها من تاريخ الحبشة .

* * *

عهد عمداسيون الأول (Amda Syon) (١٣١٤ - ١٣٤٤)^(١) :

وعمداسيون هو أحد الأباطرة ذوى الشأن العظيم فى تاريخ الحبشة ، وهو فى نظر المؤرخين المؤسس الحقيقى للدولة الحبشية ، حيث أخذت مملكة (أمهراء المحرمة) فى عهده فى تثبيت أقدامها وتوسع رقعتها ، وأصبح الحكم فى الأمرة السلجمانية مستقراً .

(١) عمداسيون عبارة عن جملة مناهها (عمود صهيون - أو ركن صهيون أو دعامه صهيون) واسمه الحقيقى هو جبراً مسكال أى عبد الصليب .



المقاطعات الإسلامية في عهد عماد سامون
(١٣١٤ - ١٣٤٤ م)
(ص ١٦، الإسلام في أفريقيا - ترجمته ج. م.)

ولقد امتد حكم عمدا سيون مدة ثلاثين سنة، قضى نصفها الأول في معامرات الشباب وطيشه، فيحكى عنه أنه طاشر خليلات أبيه، وأختيه، بما أثار عليه سخط رجال الدين والمطران - ولم يأبه بهم وقبض على المطران وشهر به في الشوارع - ثم أحرق العاصمة ليلا متهما رجال الدين بإشعال النيران، وبرر بذلك نفسه أن يبدأ معهم سلسلة من الاضطهادات، دفعتهم إلى الهروب، والتجأ عدد كبير منهم إلى أديرة بحيرة تانا^(١) ولقد سبق أن ذكرنا في الفصل الثالث طرفا من أبناء هذا الملك، وناقشنا ما جاء في بعض المراجع العربية عن قصة اعتناقه للإسلام، وأشرنا إلى عدم اقتناعنا بصحة هذا الخبر.

ولكنه تيم في النصف الثاني من حكمه بتهديده للمسلمين، وكذلك اشتهر عهده بما أدخله من التنظيم في شئون الدولة، وتمكن أثناء حكمه من بسط نفوذه على مقاطعة جوجام . (Gojam) التي يحيط بها النيل الأزرق، وتخطى نفوذه هذا النهر إلى إقليم بجمدير (Begemder)، وبذلك وطد أقدام مملكة الحبشة المعروفة فوق الهضبة وحدد معالمها، ووحدها في إطار واحد تحت حكم أسرته، وأصبح بذلك قادراً على توجيه اهتمامه إلى مواجهة الزحف الإسلامي والعمل على إيقاف خطره الذي بدأ يظهر في الجنوب، وامتدت حروبه إلى باقي السلطنات التي تحيط بمملكته من الشرق والجنوب تلك الحروب التي بقيت مستمرة طوال القرنين التاليين^(٢).

ولقد صادف حكمه حدوث موجة من الاضطهاد الديني للأقباط في مصر

(١) ص ٢٨٨ من ج ١ Budge

ومص ٦٧ The Ethlopians by Ullendorff

(٢) نفس المرجع السابق.

في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة التي امتدت من ١٣٠٩ - ١٣٤٠) .

فانقذ قام السلطان الناصر قلاوون بتدمير كثير من الكنائس ، مما دفع ملك الحبشة عمداسيون إلى ارسال وفد إلى القاهرة (٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) يطلب من السلطان إعادة بناء الكنائس ، والكف عن اضطهاد الاقباط ، وأنذره باتخاذ إجراءات مماثلة ضد رعاياه من المسلمين ، وهدده بتجريح أهل مصر بتحويل مجرى النيل ، فسخر السلطان من الوفد الحبشي وطرده (٢) .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى سلطان ايفات (حق الدين) تشجع وحول مناوشاته مع المملكة المسيحية إلى حرب حقيقية، أغار فيها على الحدود الحبشية وأحرق عدداً من الكنائس وأجبر المسيحيين على اعتناق الإسلام .

وكانت هذه الأحداث سبباً في إثارة الأقباط ، فقام الملك عمداسيون في عام (١٣٢٨ م) بالقضاء على طلائع مملكة ايفات ، وأرسل الحملات العسكرية في جميع الجهات مما نشر الفوضى في الممالك الإسلامية ، وقبض على السلطان حق الدين ، ونصب بدلاً منه شقيقه (صبر الدين) .

ولكن سرعان ما تمكن الملك الجديد صبر الدين من تجميع القوى الإسلامية حوله (من ممالك هدية ودوارو) واستعان بقيبائل الأجاو في داخل المملكة الحبشية ، وبينما كانوا يعدون الهجوم من ثلاثة مواقع ، علم الملك عمداسيون بالخبر ، فسبق بالهجوم على القوات الإسلامية واحدة بعد الأخرى وانتصر عليهم ، وللرة الثانية عاد سريعاً إلى مملكة الحبشة بعد أن وضع على عرش الدول الإسلامية الشقيق الثالث (جمال الدين) .

وامتدت أثناء ذلك حدود مملكة الحبشة إلى أطراف الهضبة عند نهر أوأش) .

(٢) ص ٧١ الاسلام في اثيوبيا (المرنجمام - نقلا عن المقرئى .

وفيا بين ١٣٣٣ م ، ١٣٣٨ م ، أرسل المسلمون وفداً إلى سلطان مصر تحت حراسة عبد الله الزيلعي لكي يتدخل السلطان الناصر قلاوون لإيقاف الحملات الموجبة اليهم فلم يجد أمامه إلا أن يطلب من البطريرك بالكتابة إلى ملك الحبشة . وقد سبقت الإشارة إلى عبد الله الزيلعي الذي ينسب إليه الكثير مما كتب عن تاريخ الحبشة في هذه الفترة .

عهد سيفا أراعد (Saifa Arad) (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م) :

ومعناه (وعاء المسيح) وفي عهد الملك (سيفا أراعد) (Saifa Arad) (١٣٤٤ -- ١٣٧٢ م) استمر على نهج سلفه معززاً سلطة المملكة الحبشية .

فلقد قامت السلطنات الإسلامية مرة أخرى في ثلاث محاولات متتالية لتلتخص من سلطة مملكة الحبشة وسيطرتها ولكنها باءت جميعها بالفشل ، وانتهت باستيلاء الملك على زيلع وكان في ذلك نهاية لسلطنة إيفات ، وقتل فيها سلطانها (سعد الدين) الذي اعتبره المسلمون شهيداً .

وبعد زوال سلطته إيفات أخذت مكانها سلطنة جديدة تدعى سلطنة (عدال Adal) التي كانت فيما مضى جزءاً من إيفات ، تقع إلى الجنوب من زيلع .

* * *

ومن الأحداث الهامة التي تستحق التسجيل أن عدداً من المماليك الذين هربوا من مصر أثناء التنافس السياسي بينهم والذي بلغ أشده في أواخر عهد عهد المماليك ، هاجروا إلى الحبشة ، في عهد الملك إسحق (١٤١٤-١٤٣٩ م) وقاموا بتنظيم الجيش الحبشي ودربوا الأبحاش على استعمال (النيران الأخرقية) وأنشأوا الورش التي تصنع لهم السيوف والدروع وآلات الحروب الأخرى كما قام أحد المهاجرين الأقباط بتنظيم مالية الدولة ووضع نظام الضرائب .

* * *

وأهم ما تجدر الإشارة إليه هنا ، أن السلطنات الإسلامية الناشئة - وهي حنشرة ذلك الانتشار الواسع ، كانت تتعرض دائماً للغارات والهجمات الحافظفة ، وما أن تنتصر فيها القوات الحبشية المسيحية المتكثلة في الهضبة ، حتى تسارع إلى العودة إلى هضبتها ، وإلا فقدت ميزتها وطالت خطوط اتصالها وتعرضت للهزيمة ومن أجل ذلك سرعان ما تقوم السلطنات الإسلامية مرة أخرى في صورة أخرى أوفى مكان آخر بنفس القوة والعزم والحوية . وجاء الوقت الذي قويت فيه شوكة هذه السلطنات ، وأصبحت الغارات والهزائم والانتصارات متبادلة بين الفريقين .

عهد زره يعقوب (Zar'a Ya 'gob) (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م)^(١)

ومعناه (زرع يعقوب - أو بذرة يعقوب) بلغت الأسرة السلجمانية قمة مجدها في عهد الامبراطور زره يعقوب الطويل ، الذي قام بالإصلاحات العديدة في البلاد ، مما رفعه إلى مصاف عظماء الملوك في تاريخ أثيوبيا .

ولم يقصر زره يعقوب في تعقب المسلمين والعمل على القضاء على قوتهم بصورة قاطعة وبذله في ذلك قصارى جهده ، فعندما تجددت في عهده تلك المناوشات التقليدية ، هاجم سلطنة عدل . ولكنه لمس الحقيقة التي تكشفت بعد التجارب العديدة التي مرت على من سبقه من الأباطرة ، أن تلك السلطنات الإسلامية الناشئة ما تابت أن تنهزم في موقعة حتى تدب فيها الحياة والقوة بسرعة ، وتنفض ثابته وتعود إلى عنفوانها مما أجهد مملكة الحبشة وجعلها دائماً مهددة مهما أحرزت من انتصارات .

أزاء هذا الموقف لجأ زره يعقوب اتخاذ سياسة جديدة حكيمة ، وذلك بتكيز جهوده في جمع كلبة رعاياه المسيحيين وتوحيدهم وإزالة الخلافات ، ووضع هدف واحد نصب أعين الجميع وهو الدفاع عن المسيحية والتسكين

لها والمحافظة على ما بلغته من سيطرة وهوذ ، ولقد وجد أنه قد أصبح لازماً عليه أن يكسر شوكة قبائل الاجاؤ التي كانت تناوته فجرد عليها حملة عسكرية بجانب الحملة التبشيرية ، وضعت النهاية لعصيان هذه القبائل ، وعزز هذه الأعمال بالاصلاخات الإدارية ، وعين على جميع المقاطعات موظفين من عنده بجانب أمرائها بآتمرون بأمره مباشرة ويلفونه عن كل ما يروونه مخالفاً لأوامره ، ومنحهم من السلطات ما يمكنهم من تنفيذ سياسته .

وبالرغم من استتباب الأمر في الحبشة للمرة الأولى في التاريخ على هذه الصورة فإن الامبراطور زره يعقوب شعر أيضاً أنه لا سبيل لروال الخطر نهائياً عن المملكة المسيحية إلا إذا عزز جانبه بتوثيق صلته مع الدول المسيحية الخارجية .

وفي نفس الوقت كانت غارات المغول على البلاد الإسلامية قد انتهت بما فتح الطريق أمام ضغط الإسلام على أوروبا وكانت بادرت به الأولى استيلاء المسلمين على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م ، مما جدد عزم الدول المسيحية إلى تناسي الخلافات بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ، لتدبير أمورهم أمام القوة الإسلامية الجديدة ، وكان قد انعقد مؤتمر فلورنسة (١٤٣٩-١٤٤١ م) لمحاولة إزالة الخلافات بين روما والقسطنطينية ، حضره مندوبون عن كنيسة الاسكندرية ، ولقد جاء في أخبار هذا المؤتمر أنه حضره وفد حبشي أرسله الامبراطور زره يعقوب ، ويدل هذا الاجتماع على الاتصال الوثيق الذي بدأ يتخذ شكلاً عملياً بين امبراطور الحبشة والدول المسيحية في أوروبا ، وأن كان قد سبقته اتصالات أخرى كذلك التي أرسلها الملك إسحق يستحث فيها الفرغخ على الهجوم على مصر من الشمال بينما يهاجمها من الجنوب ليقتضى على مصر والإسلام - كما سبق ذكره ، كما أنه ثابت من (ملفات نابلي) أن إسحق أرسل التماساً إلى الملك الفونسو الخامس (ملك اراجون) (١٤١٦ - ١٤٥٨) مقترحاً عليه التعاون في القضاء على المسلمين ، إذ يهدد مملكته فريق منهم في سلطنة عدل .

ولقد تأيد حدوث هذه الاتصالات وإيفاد الرسل ، بذلك الخطاب الذي أرسله القونوسو إلى زره يعقوب في عام ١٤٥٠ يقترح فيه عقد تحالف، ويشير إلى العلاقات القديمة التي كانت تربط الدولتين^(١) ، والثابت أن هذا الاتصال لم يكن الأول من نوعه إذ تفيد الأنباء أنه سبقه اتصال في ١١٧٧م في السنوات ١٢٩٧ ، ١٣٠٧^(٢) وهذه السنوات تتفق مع أوقات الحروب الصليبية وما أعقبها من مناوشات .

وبوفاة الامبراطور زره يعقوب في عام ١٤٦٨م ، انتهى العهد الأول من حكم الأسرة السليمانية ، الذي تميز بالصحة الكبيرة للمملكة المسيحية ، وحروبها المتوالية وصراعها الطويل مع السلطنات الإسلامية الناشئة الذي انتهى بامتداد نفوذها وسيطرتها ، ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية من حكم الأسرة السليمانية - وهي مرحلة الدفاع .

١ - ومنجم .

(١) ص ٧٦ من الاسلام في أمبوييا

La Poitica Orientale di Alfonso di Argona Archivio Storico
Per le Province Napolitane XXVII (1902) 39-43 & 65-66.

Budge . ص ٣١١ سيريدج .

الفصل الباشم

صراع الإسلام فى أوروبا

امد سلطان الإسلام وعظم شأنه ودخل إلى أوروبا من جهات ثلاثة .
أولها إلى أسبانيا حيث دخلها فى عام (٧١م - ٥٩٢) وخرج منها فى (١٤٩٠م)
بعد أن قضى بها ما يزيد عن سبعة قرون ، والثانية باستيلائه على صقلية فى
عام (٨٢٧ م) ومعها جزر سردينية وكريت (أقريطش) وامتدوا فى جنوب
إيطاليا إلى أن بلغوا روما ، وانسحبوا منها خلال القرن الحادى عشر- والثالثة
بواسطة الأتراك العثمانين الذين زحفوا على الامبراطورية الرومانية الشرقية
واستولوا على آسيا الصغرى ودخلوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، وجعلوا
منها قاعدة لنزو أوروبا ووصلوا إلى مدينة فيننا ثم تراجعوا وبقيت القسطنطينية
فى أيديهم إلى الآن .

وفى الحقيقة أن الإسلام كان لابد وأن يصطدم مع المسيحية منذ بزوغه ،
وحدث هذا الصدام فعلا فى الجولات الأولى للجيوش الإسلامية فى فجر
الإسلام ، وكانت موجة إلى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن الخلاف
العقائدى بينها وبين كنيسة روما وصراعهما الداخلى على النفوذ، جعل الدول
الأوربية الغربية غير حافلة بما تتعرض له الامبراطورية الشرقية من خطر
المد الإسلامى .

ولكن لم يمتض على ذلك قرن من الزمان حتى كان الإسلام يطرُق أبواب
أوروبا بعنف ، بما أيقظ دولها النائمة ، وبعث فيها من الحركة والعمل ما لمسنا
آثاره العظيمة فى عهد النهضة بعد ذلك .

المسلمون فى أسبانيا :

كانت أسبانيا قبل الفتح العربى تعاني من الاضطراب الداخلى والتفكك ،

فأمرأوها يكيدون لبعضهم البعض ويترصد كل منهم بالآخر حتى ضعفت سلطة كبيرهم على صغيرهم ، بينما بلغت الفوارق الطبقة حداً مزق كيان الدولة .

قسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى إقطاعات كبيرة وملكوا القصور الفخمة ، وانصرفوا إلى اللهو وماتت فيهم حمة آبائهم الشجعان ، وتركوا الصناعة والزراعة في أيدي الأرقاء والفلاحين الذين كانوا يعيشون في ذل وضعة ، كما أتفلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب .

وكانت الطبقة الدنيا — التي يتكون منها أغلب السكان — تشمل العبيد والفلاحين الذين انصرفوا إلى الزراعة ، بينما كانت الطبقة الوسطى تلاق من ضنك العيش أشد مما كان يلاقه العبيد ، فكان يقع عليهم عبء الإلتاق على الدولة ، فهم الذين يؤدون الضرائب ويجمعون الأموال للأمرء ، مما جر الخراب والإفلاس إلى هذه الطبقة (١) .

تلك كانت حال أسبانيا في الوقت الذي كان الحكم الإسلامي قد استقر في شمال أفريقيا ، ونشر العدل والمعرفة وجمع القبائل والممالك حول عقيدة واحدة وأصبحوا أمة واحدة ، رفعت من روحهم المعنوية وعززت فيهم عوامل الكرامة والطموح ، ولا بد وأن أخبارهم قد انتقلت عبر المضيق وبلغت أسماع المظلومين والمهاتين ، حتى أنه عندما عبر المسلمون إلى الشاطيء الأسباني ، لاقوا أجمل ترحيب وتأيد من الشعب - من طبقة الكادحين والأرقاء ، خصوصاً وأن معلوماتهم عن الدين المسيحي كانت سطحية لعدم عدم عناية الحكام بأموهم - وكذلك من الطبقة الوسطى ومن اليهود ، وبما زاد في تمهيد الأمور أمام انتشار الإسلام أن الجيش الإسلامي وجد من بعض الأمرء المسيحيين تأييداً ، انتقاماً من منافسيهم من الأمرء الآخرين .

للكور حسن إبراهيم حسن -
للسير توماس ارنولد

(١) ٣٠٩ ، ٣٠٨ من تاريخ الاسلام
ومن ١٠٤ ، ١٠٥ من الدعوة للاسلام

ولقد كان تأثير الإسلام في أسبانيا باهراً منقطع النظير، فإنه سار لايولوى على شيء، يبنى حضارة قائمة في أنحاء البلاد مستندة إلى تقدم في العلوم والآداب والفلسفة حتى أصبحت الأندلس عروس أوروبا ومركز الإشعاع العلمي والحضارى . وبالرغم من ارتداد الجيوش إلى ما وراء الحدود والقرنسية بعد أن استولوا على نصف فرنسا على أثر معركة تور وبوايقه حيث صدتهم قوات شارل مارتل الفرنسية ، فإن العلوم والآداب والفلسفة والحضارة الإسلامية اخترقت الحدود وغمرت جميع دول أوروبا . ولم ترتد مع ارتداد الجيوش الإسلامية .

* * *

وأخذ نجم العرب السياسى في أسبانيا يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذروتها ، وشرع النصارى الذين تكتلوا في الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفن وصاروا يغيرون عليهم .

• واستغاثت عرب أسبانيا ببربر مرا كاش في عام ١٠٨٥ م ليحولوا دون توالى انتصارات ملك قشتاله وليون ، ولم يلبث البربر الذين جاءوا إلى أسبانيا حلفاء العرب أن ظهروا لهم بمظهر السيد ، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام الدولة إلى عشرين دولة ، وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور وعن انكماش العرب وتدرج الحضارة في الأندلس .

• وانتهز النصارى تلك الفرص ، فوسعوا دائرتهم على حساب المسلمين ، وأقاموا دويلات كثيرة ، تكتلت في النهاية في أربع دول وهى : البرتغال ونبره وأرجونه وقشتاله .

ولم يبق للعرب في أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوج ملك أرجونه (فرديناند الكاثوليكي) ملكة قشتاله (ايزابلا) حاصر

غرناطة في سنة ١٤٩٢ م ، التي كانت آخر معقل للإسلام في أسبانيا وفتحها ،
ثم ضم إليه مملكة نبرة فأصبحت جميع أسبانيا — خلا البرتغال — تابعة
لعرش واحد .

و دامت دولة العرب في أسبانيا نحو ثمانية قرون ، وأدى انقسامها إلى
زوالها أكثر مما أدت إليه الغارات الأجنبية ، وظهر أن العرب وأن كانت
عقريتهم الثقافية من الطراز الأول ، إلا نبوغهم السياسي لم يكن على مستوى
ثقافتهم خصوصاً في عهدهم الأخير عندما سادت الخلافات بين طوائفهم
وأمرائهم .

* * *

وبالرغم من أن فرديناند قد عاهد العرب على منحهم حرية الدين واللغة ،
فإنه لم تكذب تحمل سنة ١٤٩٩ م حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي
دام قروناً . والذي لم ينته الا بطرد العرب من أسبانيا . . . وكان تعמיד
العرب كرها فاتحة هذا الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير
من المومنين ، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدرج لتعذر إحراق الملايين
من العرب دفعة واحدة ، ونصح كرينال طليطلة التقي ، الذي كان رئيساً
لمحاكم التفتيش ، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءً
وشيوخاً وولدانا ، ولم يكتف الرهبان الدومنيكي — « بليدا » —
بذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، أيضاً « فن المستحب ، إذن
قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى ويدخل
النار من لم يكن صادق النصرانية منهم » ، ولم تر الحكومة الأسبانية أن تعمل
بما أشار به الرهبان الدومنيكي وأيده فيه الأكليروس ، وخشيت الحكومة
عما قد يبديه الضحايا من مقاومة ، وإنما أمرت في سنة ١٦١٠ باجلاء العرب
عن أسبانيا فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق ، وأبدي ذلك الرهاب —
« بليدا » — ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين أثناء هجرتهم ، وهو

الذي قتل مائة ألف مهاجر في قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقيا .

« وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر، ويقدر كثير من المؤرخين ، ومنهم « سيدبو » ، عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى لإجلاتهم الأخير بثلاثة ملايين ، ولا تعد مذبحه بارتاليو ازاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين (١) .

المسلمون في صقلية وإيطاليا :

في الاعوام الأولى من فجر الإسلام (حوالي ٥٣٢ هـ - ٦٥٢ م) عندما تحطم أسطول الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام الإسكندرية ، بدأت قوة العرب البحرية في الظهور . ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع البحري بين القوتين ، متخذاً أساليب القرصنة التي كانت أسلوب التنافس السائد في البحار عند المسلمين والمسيحيين على السواء في تلك العصور .

وما أن جاء القرن الثامن الميلادي حتى بدأت الغارات العربية على جزر الدولة الرمانية الشرقية وكان من بينها غارة على صقلية (١١١ هـ - ٧٢٩ م) وأخرى على سردينيه (١١٧ هـ - ٧٣٥ م) وثالثة على صقلية مرة أخرى (١٢٢ هـ - ٧٣٩ م) مما يشير إلى أن القوة البحرية العربية قد بلغت من القوة والبأس وسرعة الحركة ما جعلها تسود البحر الأبيض المتوسط .

أرسل العرب إلى صقلية حملة كبيرة في عام (٨٢٧ م) واستمرت في حروب داخل الجزيرة مدة خمس سنوات ، واستقرت خلالها أوضاعهم بالجزيرة -

(١) صفحات ٢٦٦ ، ٢٧٢ من حضارة العرب ليوستاف لوبون (مترجم) .

وتأيدت قواتهم في عام (٨٣١ م) بالقوات الإسلامية التي وصلتها من الأندلس .
فأتموا فتح « بالرمو » في نفس السنة ثم مسينا في (٨٤٣ م) ثم سيرا كوز
في (٨٧٨ م) .

وفي عام (٨٢٧) استنجد أمراء نابلج بالعرب فزولوا بها (١) ، وأخذوا
يعملون لحسابهم واتخذوا من نابلج قاعدة لهم ، وسرعان ما أصبح جنوب
إيطاليا تحت نفوذهم .

وفتح المسلمون باقي جزر إيطاليا وكورسيكا ومالطه وجميع جزر البحر
الأبيض المتوسط وأصبحوا سادة البحر المطلقين ، ولم يسع البندقية لإزاء
ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم زمناً طويلاً (٢) .

وما أن جاء القرن العاشر حتى دب الخلاف بين المسلمين في صقلية
وإيطاليا ، خصوصاً بين عرب الشرق وعرب الأندلس ، حتى عرب الشرق
تنازعوا فيما بينهم على نحو ما كانت تتنازع القبائل المختلفة قبل الإسلام .

فلما ظهرت في ذلك الوقت قوات النورمنديين ، وجدت هزيمة المسلمين
هيئة ميسورة فاستولت على مسينا في ١٠٦٠ م ثم بالرمو في ١٠٧٢ م ثم
سيرا كوز في ١٠٩١ م ، أما مالطة فقد استولى النورمنديون عليها في ١٠٩٠ م .

* * *

اقتصرت النورمنديون على احتلال صقلية وما تبعها من البلاد التي دخلها
المسلمون واحتفظوا بالمسلمين في مختلف الأعمال والوظائف ، محافظين بذلك
على نظم الإدارة والحكم التي أدخلها المسلمون ، ونشأت من ذلك حضارة
من نوع جديد ، خليط من (العربية والنورمندية) وكان هذا النوع من
الحضارة هو الذي انتقل وتغلغل بعد ذلك في كثير من دول أوروبا .

(١) ص ٦٠٤ تاريخ العرب تأليف فيليب حن الطبعة الثامنة (ماكيلان) .

(٢) ٣٢ حضارة العرب لغوستاف لوبون (مترجم) .

وَبذلك أصبحت صقلية مركزاً هاماً للاشعاع الحضارى ، ولعبت دوراً كبيراً في دفع النهضة الأوربية إلى الأمام (١).

دخل العرب صقلية في عام (٨٢٧ م) وتم استيلاء النورمنديون عليها في ١٠٧٢ ولكن العرب استمروا بالعمل فيها تحت حكم النورمنديين، ناشرين للثقافة العربية حتى أجلوم عنها في عام ١١٩٤ م أى أنهم بقوا في صقلية قرنين ونصف من الزمان حكماً ، وقرناً آخر معلمين ومرشدين .

* * *

الإسلام في أوروبا وأثره في الحروب الصليبية :

اشتعلت الحروب الصليبية أثناء حكم المسلمين لأسبانيا، وعقب جلائهم عن صقلية بعد أن حكموها قرنين من الزمان .

ومما لا شك فيه أن نجاح المسلمين في النفوذ إلى أوروبا على الصورة التي ساد فيها الموقف في أسبانيا وصقلية وهدد فرنسا وإيطاليا ، ونفذ إلى روما ، لا بد وأن يكون في كل هذا دافع خفي يملأ نفوس البابوات والملوك بالرغبة في الانتقام ، ولا بد أنهم كانوا خلال تلك العصور يشفقون على زوال الديانة المسيحية والمذهب الكاثوليكي بالذات - فإ أن دوت صرخة (بطرس الناسك) واهتزت أوروبا لمخاطبة البابا حتى تحركت ما انطوت عليه النفوس خلال تلك القرون واتحدت تحت هدف واحد وهو القضاء على الإسلام . والاستيلاء على الأراضى المقدسة والإقامة فيها بصورة دائمة ، واندفعوا إلى الشرق في جحافل وأساطيل ترفرف عليهم راية التعصب الدينى . ولكن كان الفشل نصيب تلك الحملات المتوالية التي استمرت ما يزيد عن قرنين من الزمان .

* * *

(١) ص ٦١١ - ٦١٢ تاريخ العرب لقلب حتى .

غارات التتار :

ما أن زال خطر الصليبيين وانسحبت جيوشهم من البلاد الإسلامية في عام (١٢٥٠) حتى زحف على الدولة الإسلامية خطر داهم من الشرق . وهو خطر التتار المغول .

وكان مركز القوة في الدولة الإسلامية وقتئذ في مصر والشام ، وإليهما يرجع الفضل في الانتصار على الصليبيين وإجلائهم عن البلاد ، بفضل السلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك ، وأما الخلافة فكانت طوال تلك السنين باقية في بغداد في أواخر عهد العباسيين ، حيث كان الخلفاء يحملون اللقب دون أن يكون لهم أثر أو سلطة .

وصل المغول إلى شمال العراق في عام (٥٦٣٤هـ - ١٢٢٦م)

وفي عهد هولاكو التفتوا إلى بغداد فدخلها المغول في (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) وأعملوا فيها القتل والتخريب فحطموا المدينة وبلغ عدد القتلى مليون قتيل ، وانتهى بذلك عهد بغداد الذهبي وزال سلطانها ومجدها الذي استمر خمسة قرون منذ إنشائها وعندما أتى تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر قضى على ما تبقى منها ، وفر كثير من أهلها إلى مصر .

وجاء دور الشام ، فهاجمها المغول في (٦٥٧هـ - ١٢٥٩م) وسقطت مدنها واحدة بعد الأخرى وآخرها دمشق ، وكان من أبرز الأمور في حملة المغول على الشام وعلى الأخص دمشق - تحالف الأرمن ، وبقايا الفرنج من عثقات الغزوات الصليبية في سوريا وجبل لبنان - على توقيع أشد العقوبات بالشام العربي .

أراد هولاكو أن يكمل رحلته الدموية بغزو مصر فأرسل إلى سلطانها قطز (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) يهدده وينذره ، فرفض قطز التهديد والإنذار وأعد العدة للقاء هولاكو بجيش مصرى تحت قيادة الأمير بيبرس . ووقعت بينهم عدة مواقع انتمت بانتصار المصريين على المغول في موقعة عين جالوت

(يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٣٥٦٥هـ / سبتمبر ١٣٦٠م) وتعتبر هذه الموقعة من أشهر مواقع التاريخ، إذ أنها فضلا عن تدمير الجيش المغولي فإنها أوقفت زحفه وخطره على باقي أنحاء العالم .

واستمر زحف الجيوش المصرية فحررت دمشق وحلب ، واتحدت مصر والشام على إسلام المغول .

وأغار تيمورلنك بعد ذلك على سوريا في عام (١٤٠٠م) حيث استولى على حلب في ثلاثة أيام وأقام هناك هرما آخر من هاجم عشرين ألفا من القتلى ، ودمر مدارسها ومساجدها ثم سقطت في يده حماة وحمص وبعبك ، وانتصر على الجيوش المصرية التي سارعت لتجدة الشام واستولى على دمشق في (فبراير ١٤٠١ م) ، وجرى في دمشق ما أصاب غيرها من التدمير والحريق ولكنه قبض على مهرة الصناع فيها وأرسلهم إلى عاصمته (سمرقند) ولكن تيمورلنك توفي في عام ١٤٠٤م أثناء حملته على الصين ، وبموته اهتزت دعائم امبراطوريته وزال خطر المغول ، وانتهى عهدهم .

* * *

لا جدال في أن ما لاقتة الدولة الإسلامية في مصر والشام خلال أربعة قرون متتالية من الحرب الطاحنة المدمرة والغارات العاتية التي تعرضت لها من الصليبيين من الغرب مدة قرنين من الزمان ، ثم من التتار من الشرق مدة قرنين آخرين ، أنهكت قوى الدولة الإسلامية ، وبما هو جدير بالذكر أن الدولة الإسلامية دافعت عن كيانها دفاع الأبطال وقدمت أرواح أبناءها وجميع إمكانياتها في سبيل الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين ، ولقد كتب لها النصر على الصليبيين ثم على التتار ، ولكنها كانت قد استنفدت قوتها ودب الوهن والضعف إلى كيانها ، وكان هذا العهد نهاية لمرحلة هامة من تاريخ الإسلام والعرب ، وبدأت المرحلة التي زال فيها سلطان العرب وأصبحوا فيها تابع للامبراطورية العثمانية الإسلامية .

* * *

ظهور الامبراطورية العثمانية :

عندما زال خطر التتار وكانت دولة مصر والشام على ما وصلت إليه من ضعف وإنهاك ، وزالت الدولة العباسية في بغداد ، أصبح الجو خاليا للأتراك العثمانيين لكي يربثوا جميع البلاد الاسلامية . ويتجاوزوا ذلك إلى الاستيلاء على الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

ولقد بدأ العثمانيون جولانهم داخل أوروبا واستولوا على جانب كبير من دولها حتى وقفوا على أبواب فيينا ، وكانت هذه الفتوحات في قلب أوروبا عاملا جديدا من عوامل التأثير الإسلامي الكبير على أوروبا . دهم أوروبا من الشرق عقب زوال خطرهم في أسبانيا وصقلية ، مع فارق واحد وهو أن الخطرين الأولين كانا للعرب الذين يحملون معهم بجانب الدعوة للإسلام ، حضارة وثقافة ومدنية نقلت أوروبا من عهد الهمجية إلى عصر النهضة والنور ، أما الزحف الإسلامي من الشرق فقد جاء على يد الأتراك العثمانيين الذين حلوا معهم الدعوة إلى الاسلام فقط ، ولم يكن معهم إلا تعاليمه وقوانينه وتقاليده ولكن لم تكن معهم ثقافته وحضارته .

* * *

أخذت دولة المماليك في مصر والشام تهتز أمام هذه الدولة الاسلامية الناشئة التي أخذت تخرج من نصر إلى نصر في أوروبا . وحاول سلاطين المماليك واحدا بعد الآخر تعزيز سلطانتهم ، وتلصق وسائل الوقاية من العثمانيين ، وبدأت بينهم المناوشات في عهد السلطان قايتباي في مصر والسلطان بايزيد الثاني العثماني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) .

* * *

وفي عام (١٥١٦ م) التقت جيوش العثمانيين مع جيوش مصر والشام في عهد السلطان قنصوه الغوري ، في مرج دابق - بالقرب من حلب - وانتصرت الجيوش العثمانية - وتابع سليم الأول زحفه حتى دخل القاهرة

في (١٥١٧ م) وانتهى إلى الأبد عهد المماليك في مصر ، وأصبحت مكة والمدينة وباقي بلاد الحجاز تابعة للإمبراطورية العثمانية . بعد أن تنازل الخليفة المتوكل آخر خلفاء بني العباس إلى السلطان سليم عن ممتلكات الخلافة .

وسرعان ما امتد سلطان الامبراطورية العثمانية إلى باقي الدول الاسلامية الجزائر (١٥١٨ م) ثم تونس (١٥٣٤ م) واليمن في (١٥٦٨ م) و عدن في (١٥٤٧) ومسقط في (١٥٥١ م) وطرابلس الغرب في (١٥٥١) ^(١)

* * *

كما تقدم يتضح أن القوة البحرية العثمانية في البحر الأحمر بدأت في أوائل القرن السادس عشر ، ويمكن أن نستنتج أنها أصبحت ذات شأن في جنوب البحر الأحمر في منتصف القرن السادس عشر عندما تم لها الاستيلاء على عدن واستقرارها في حكم اليمن والجزيرة العربية .

دور البرتغال :

منذ أن تقلص حكم العرب في أسبانيا في أواخر القرن الثالث عشر مقتصرًا على مملكة صغيرة حول غرناطة ، ومملكة البرتغال تهض بخطوات واسعة حتى تمكنت من التفوق في فنون الملاحة والبحار .

وتتميز تلك الفترة من التاريخ بأهميتها الكبرى لكثرة حوادثها والأفاق الجديدة - التي شملتها ، إذ فتحت البحار والمحيطات أمام المغامرين ، وتفوق البرتغاليون في هذا المضمار ، وسيطروا فترة طويلة من الزمن على تجارة الشرق بجهود قوة بحرية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل ، وبدأت حملات البرتغال البحرية في مياه البحر الأبيض المتوسط ضد مسلمي شمال أفريقيا ثم انتقلت بعد ذلك إلى شاطئ أفريقيا الغربي يراودهم الأمل في تحقيق

(١) ص ٧٠٢ - ٧١٢ تاريخ العرب لليب حتى (الطبعة الثانية ماكيلان) .

أهدافهم الجديدة ، وهي الوصول إلى مصادر التجارة التي سببت ثراء الدولة الإسلامية ، عن طريق آخر غير طريق البحر المتوسط الذي تنافسهم فيه القوات الإسلامية وقطع عليهم السبيل فيه .

وأخذوا يتقدمون سنة بعد أخرى على طول الشاطئ الغربي لأفريقيا وخلال ذلك تقدمت معلوماتهم البحرية وخبرتهم بأعلى البحار ، وتعدلت على أساسها تصميمات السفن . فكبرت في حجمها وزادت أشرعتها وكان يطل التقدم البحري البرتغالي في مرحلته الأولى هو الأمير هنري (المتوفى في ١٤٦٠ م) .

وأخيرا تمكن البحار البرتغالي باثولوميو دياز من اكتشاف الطريق المشهور حول أفريقيا في رحلته الكبيرة (١٤٨٦ - ١٤٨٨ م) حول رأس الرجاء الصالح .

وسرعان ما تمت البرتغال تجهيز حملة بحرية كبيرة تتعقب اكتشافات دياز ، واستغرقت في رحلتها عامين (١٤٩٧ - ١٤٩٩ م) تحت أمرة فاسكودي جاما ، وعادت بجمولة ثمينة وعلت البرتغال من دى جاما أنه لكي يمكن المساهمة في تجارة البهار والتوابل فلا بد من قدر كبير من الصراع لأن تجارة الهند كانت في يد المسلمين من بلاد العرب منذ قرون ، ويعتمدون على تأييد سلطان مصر الذي حصل على مكاسب ضخمة مما يجبه من ضرائب على البضائع الهندية التي تمر بيلاده ليشتريها البنادقة لتوزيعها في أوروبا ، ولم يكن من المنتظر أن يسمح السلطان بسهولة بزوال هذا الاحتكار ، وكانت لديه قوة بحرية كاملة التسليح^(١) .

وصمم ملك البرتغال أمانويل (Emmanuel) على الفوز بسيادة البحار

(١) ص ٢٨٧ وما بعدها الجزء السادس من «تاريخ العالم» (المقالة من وضع الدكتور ١ -

ب . نيوتن) .

فجهر أعدادات بحرية منقطعة النظر وأغدق عليه البابا لقب (سيد الملاحه والفتح والتجارة في أنيوييا وبلاد العرب وفارس والهند) ، وبرزت خلال المعارك والصراع البحري بطولثةفرانسكودي الميدا (Francisco de Almeida) ثم الفرانسودي ألبوكيرك (Alfonso de Albuquerque) .

أسس البرتغاليون مراكزهم الهامة في كلكتا وجوا في شرق الهند وغربها ومنهما بدأت أساطيلهم في السيطرة على البحار ، فاستولى الميدا على سوقطرة وهرمز اللتين تحرسان المداخل الضيقة للبحر الأحمر والخليج العربي وجاء من بعده البوكيرك الذي ضرب عدن بالمدافع .

ونشبت المعركة الحاسمة بين أليدا والأسطول المصري (في فبراير سنة ١٥٠٩ م) أما ميناء (ديو Diu) ^(١) انتصر فيه البرتغاليون انتصارا حاسما وتمسكت مدفيعتهم الحديثة من إبادة الأسطول المصري إبادة تامة . وبذلك خلا الجو للبرتغاليين ، وتسلم البوكيرك القيادة . فأخذ يعمل في همة ونشاط للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية حتى يهد للاستيلاء على مكة ومصر . ولاستعادة بيت المقدس والأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وبالرغم من ضخامة هذه الآمال ، فانها تدل على مغزى كبير وهو أن قادة البرتغال لم ينسوا بعد تلك الأفكار الصليبية . بل اعتبروا أنفسهم مكلفين بالنار للحملات الصليبية الفاشلة ، وحملوا لواء الأهداف التي عجز عن تحقيقها ملوك أوروبا الصليبية السالفين .

وبالرغم من عدم تمكن البرتغاليين من تحقيق هدفهم الكبير فانهم تمكنوا من تحقيق عمليتين كبيرتين .

الأولى : تطويق البلاد الاسلامية ، بالسيطرة على منافذ الخليج العربي والبحر الأحمر ، والمحيط الهندي .

(١) ميناء الهند شمال بومباي .

الثانية : تحطيم الأسطول المصرى بحيث لم يعد له أية قيمة حربية يخشى منها ، وتم كل ذلك فى أوائل القرن السادس عشر .

وتذكر المراجع التاريخية أن قادة البرتغال فى حملاتهم البحرية كانت تدفعهم الآمال للاتقاء بالملك القديس جون (Prester John) وهكذا كانوا يسمون ملك الحبشة . تلك المملكة المسيحية التى يعملون على معوتها وتحليصها من سيطرة المسلمين^(١)

ولقد أوفد ملك البرتغال (جون الثانى) حوالى عام (١٤٩٤م) مندوبين للاتصال بملك الحبشة ، انقطعت أخبار أحدهما ، أما الآخر وهو (كوفيلهام Covilham) فقد وصل إلى داخل الحبشة حيث استقبله الامبراطور استقبالا حسنا واقطعه مساحة من الأرض وأسبغ عليه ألقاب الشرف ، ولكنه لم يسمح له بالعودة ، فزوج من حبشية واتقن لغات الحبشة وعاداتها ، وكانت لهذه المعلومات فائدة كبرى بعد ذلك بثلاثين سنة ، عندما وصل إلى بلاط امبراطور الحبشة وفدملك البرتغال برئاسة رودريجو دى لىما Rdrigo de Lima عام (١٥٢٠م) بناء على طلب الملكة هيلينا ملكة الحبشة للاستعانة بهم على حرب المسلمين الذين أخذوا يهددون ملكة الحبشة . ولكن الأمور استتبت قبل وصول الحملة ، فلم يعد لبقائها مبرر فغادروا الحبشة فى (١٥٢٦م) .

ولقد كان وفد دى لىما على هيئة حملة عسكرية ، نزلت فى مصوع وحول مسجدها إلى كنيسته ، ثم أخذت طريقها إلى داخل البلاد حتى وصلت إلى النجاشى ، وبذلك تأسس الاتصال بين الحبشة والعالم المسيحى ، وكان من نتائج هذه الحملة أن أرسل ملك البرتغال (جون الثالث) إلى نائب الملك فى

(١) صفحات ٣٨ - ٣٩ - ٤٥ Portugal in Africa by James Duffy وكذلك من ٢٨٤ الجزء السادس من تاريخ العالم ، وكذلك الجزء الثامن عشر من دائرة المعارف البريطانية .

الهند لتجيز حملة عسكرية وإيفادها إلى الحبشة لمساعدة النجاشي ضد الزحف الإسلامي الذي حدث بعد ذلك ، ووصلت الحملة عام (١٥٤١ م) ^(١) تحت قيادة كريستوفر دي جاما (Christopher Di Jama) .

* * *

ولم تكن باقى دول أوروبا بغافلة عن الحبشة ، بل كانت توليها من اهتمامها ما جعلها تعنى بأخبارها وشؤونها ، وبينما كان البرتغاليون يجوبون الحبشة ويوطدون علاقاتهم بأهلها ويحصنون مراكزهم ، فإن الدول الأوروبية الأخرى كانت قد بدأت أبحاثها ودراساتها ، وكانت روما مركزا لهذا النشاط فلقد مر بنا ذكر أعضاء الوفد الحبشى الذى حضر مؤتمر فلورنسة (١٤٤١م) الذى تلاه بعض الوفود الأخرى ، وأخذ بعض الحجاج الأحباش يعرجون على روما فى طريق عودتهم من بيت المقدس ، وتحتوى الوثائق البابوية ما يؤيد تقديم المعونة المالية لهؤلاء الحجاج ، وفى عام (١٥٢٩م) خصصت لهم كنيسة روما مركزا خاصا بهم بجوار الكنيسة ، وأصبح منذ ذلك الحين مركزا للدراسات المتعلقة بالحبشة ، ونشطت حركة التأليف والترجمة التى كانت قد بدأت قبل ذلك باللغة الحبشية (الجعر) ^(٢)

تمكن البرتغاليون من تعزيز مراكزهم على الشواطىء البحرية وأصبحت لهم السيطرة الفعلية على الخليج العربى والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، وعندما استولى العثمانيون على الدولة الإسلامية لم تتمكن من تحسين موقعها وظهر ذلك واضحا بعد فشلها فى حصار (ديو Diu) عام (١٥٢٨ م) .
(شمال بومباى بالمحيط الهندى) .

* * *

لعل القارىء قد لمس بما أوردناه فى هذا الفصل ، أهمية الحوادث التى

(١) The Ethiopians by Ullendorff ٧٤ ، ١٠٥ ص

(٢) ص ٠ نفس المرجع .

حدثت في أوروبا في تلك العهود ، وصراع الاسلام بها ، وكيف أن تسلسل
الحوادث قد انتهى إلى ظهور دولتين كبيرتين كان لهما أبلغ الأثر في مجريات
الأمور بالعبود التي تلت ذلك في الحبشة ، وهما مملكة البرتغال والامبراطورية
العثمانية ، ولم يكن من المستساغ أن نقفر بالقارىء مباشرة إلى شرح دور
هاتين الدولتين دون أن نخصص فصلا يشرح في اختصار الظروف التاريخية
التي سبقت ظهورهما على مسرح التاريخ ، خصوصا وأن تأثيرهما على مجرى
الحوادث في الحبشة ومنطقتها كان بالغ الأهمية .

• • •

الفصل التاسع (الغزو الإسلامي في الحبشة) في القرن السادس عشر

رأينا في ختام الفصل السابع كيف تمكنت مملكة الحبشة من توحيد صفوفها أمام المد الإسلامي ، وكيف انتصر ملوك الحبشة المسيحية على القوات الإسلامية ووصلنا إلى عهد الامبراطور زرم يعقوب الذي بلغت المملكة الحبشية في عهده أوج قوتها بحيث أصبح وهو في عاصمته على الهضبة يسطر سلطانه على الممالك الإسلامية التي تحيط به إلى شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندي .

ولكن بعد وفاة الامبراطور زرم يعقوب (١٤٦٨ م) لم تستمر الأمور على ما كانت في عهده ، من سيطرة خلفائه على الممالك الإسلامية واستتباب الأمن ، بل عادت الأمور إلى سابق عهدها من مناوشات واشتباكات وحروب صغيرة . وسرعان ما أصبحت سيادة الامبراطور على الممالك الإسلامية إسمية وشكلية لا تتعدى في أحسن أحوالها دفع الجزية السنوية ، وكان من أهم أسباب ذلك اتساع رقعة الإسلام وتراخي أطرافها ، واستمرت الاضطرابات خلال عهد عدد من ملوك الحبشة تنقلت أثناءها الانتصارات من فريق إلى آخر ، حتى كان عهد الملك هيلينا التي بنيت من معاونة السلطان قنصوة الغوري آخر سلاطين المماليك في مصر ، في إقرار السلام بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة ، فاجتمعت إلى طلب المعونة من البرتغاليين لأجل التعاون على قهر المسلمين (القساة الكفرة) وهزيمة الجيش الذي يجهزه سلطان مصر والقضاء قضاء تاما على (جرثومة الكفار) الخ . الخ ، في نفس الوقت كان سلطان عدل قد وصلته بعض الأسلحة من العثمانيين

في الجزيرة العربية ، فتشجع وقام منفردا بمحاربة مملكة الحبشة ولكن الامبراطور هزمه واجتاح مملكة عدل وفي نفس الوقت قام الاسطول البرتغالي من البحر بحرق ميناء زيلع .

بعد كل التحام من هذا النوع ، كان الناس يعتقدون أنها آخر المعارك ، وأن الهدوء والاستقرار سيدوان البلاد ، ولكن سرعان ما تغير الاوضاع وتجدد الحروب وفي هذه المرة بدأت مرحلة هامة أخذت فيها الحرب مظهراً جديدا اكتسح فيها المسلمون جميع بلاد الحبشة واستولوا على السلطة فيها كاملة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد وبطلق المؤرخون على هذه العملية اسم (الغزو العظيم) .

* * *

الغزو العظيم :

في أعقاب الأحداث السابقة ظلت أحوال البلاد في اضطراب فترة من الوقت ، لم يقتصر الأمر فيها على الاشتباكات بين الملوك والولاة ، ولكن نشطت في البلاد حركة قطاع الطرق ، مما صرف الملوك والولاة إلى بذل جانب كبير من جهوداتهم للقضاء عليهم .

وفي عام (١٥٢٠ م) نقل السلطان أبو بكر بن محمد عاصمته إلى مدينة هرر وكون جيشاً من الصوماليين واستولى به على زيلع وقتل أميرها في عام (١٥٢٥ م) ، واستمرت الاضطرابات بعد ذلك^(١) .

وأهم المراجع التاريخية التي تسجل أحداث هذه الفترة ، هو (فوح الحبشة) لشهاب الدين الشهير بعرب فقيه ، وبالرغم مما يبدو في كتاباته من بعض الحماس للمسلمين فإنه ولا شك أوفى المراجع وأكثرها دقة .

ولقد بدأ شهاب الدين روايته عن أبناء هذا العهد . بقصة كثيراً ما تتردد أمثالها في عصور الاضطراب والنوضى تعبر عما يتخالج الناس من آمال في ظهور رجل يخلصهم مما هم فيه .

(١) عن كتاب الاسلام في اثيوبيا تأليف سيستر ترمينجهام الصفحات (٨٤) وما بعدها

فيقول نقلا عن بعض من يثق بهم من الرواه أن أحدهم رأى في منامه (التي «ص» وعن يمينه أبو بكر وعن يساره عمر بن الخطاب وبعوارهم على ابن أبي طالب وبجانبه الامام أحمد بن إبراهيم - فسأل من هذا يا رسول الله - فقال - هذا هو الرجل الذي سيصلح الله به بلاد الحبشة) وكان الإمام في وقت هذه الرؤيا جنديا بسيطا وعندما زار صاحبها مدينة هرر ووقع نظره على أحمد بن إبراهيم عرفه على الفور . . . الخ) .

ولعل الخيال قد لعب دورا كبيرا في القصة التي حاكها الناس حول أحمد بن إبراهيم ، وحرص المؤرخ على إيرادها ، ولعله في ذلك كان يهدف إلى تسجيل كل ما يدور في ذلك العصر ، وعلى الأخص شدة تعلق الناس بالإمام أحمد بن إبراهيم الأشول .

ويبدو أن الخيال قد امتد إلى مولد أحمد ونشأته ، بأنه قد روى عن نفسه أنه كان ابنا لأحد قساوسة إجمو ، ولكنه ترك موطنه إلى عدل إحدى بلاد سلطنة أوفات حيث اعتنق الإسلام ، ولو أن هذه القصة قد وردت على لسان مؤرخ هذا العصر في كتابه (فتوح الحبشة) إلا أن سنسرت منجم لم يقم لها وزنا ، وأورد عنه نشأة أخرى قد تكون أقرب إلى الحقيقة .

• • •

الإمام أحمد بن إبراهيم : الملقب (بالأشول أو الأعسر) وبطلق عليه (أحمد قران Gran) (١٥٠٦-١٥٤٣) هو الذي قاد المسلمين وبسط نفوذهم على جميع أرجاء الحبشة .

ولقد قضى نشأته الأولى في هوبات (Hubat) وهي المنطقة الواقعة بين جلديسا وهرر التي أصبحت فيما بعد مركزاً لعملياته العسكرية ، ولقد وضعه والده تحت رعاية أحد عبيده الذين حررهم يقال له (عدلى أو عدولى) الذي أصبح فيما بعد من كبار مؤيديه ، ولقد تزوج أحمد من (بانى) ابنة محفوظ إمام زيلع وكسب بذلك تأييد اتباع الامام محفوظ .

• • •

وكان الصراع في ذلك الوقت قائماً بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمر ، بعد أن قضى البرتغاليون على تجارة العرب في الخليج العربي والبحر الأحمر ، وسببت زيارات البرتغاليين للملك الحبشة قلقاً كبيراً للعثمانيين الذين بادروا بالاستيلاء على سواكن وزيلع - وأقاموا العلاقات مع مسلمي مصوع التي كانت في تلك الفترة تحت حكم البرتغاليين .

وفي نفس ذلك الوقت كان الأسبان قد بدأوا يدخلون إلى الميدان منافسين للبرتغاليين ويروى أنهم عمدوا إلى إمداد المسلمين بالسلاح عن طريق ميناء زيلع في إحدى محاولتهم للتغلب على تفوق البرتغاليين ، ولكنهم لم يعاودوا الكرة ، وليس بعيداً أن تكون الكنيسة قد تدخلت لإيقاف هذه المساعدة ، ولكن الأغلب أن الأسبان كانوا قد فضلوا الاختفاء من الميدان الأفريقي وتركيز جميع نشاطهم في فتوحاتهم في العالم الجديد (أمريكا) .

* * *

أمضى أحمد سنواته الأولى في صراع مع السلطان أبو بكر في هرر ، وانتهى ذلك الصراع بقتل السلطان وقام أحمد بتنصيب شقيق القنيل ملكاً على هرر وتاباً له ، وعندما فرغ من هذا الأمر أخذ يعمل على تحقيق الهدف الأكبر الذي شعر بأنه قد خلق له ، وهو أن يكون (إماماً للمسلمين) ويستولى على جميع أرجاء الحبشة . وسرعان ما أعلن رفضه لدفع الجزية لملك الحبشة وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهما أمراً لا مفر منه ، وعندما تحركت الحبشة واجتاحت سلطنة عدل ، تصدى لها الإمام أحمد وهزمها شر هزيمة . وعندئذ اشتعلت في نفوس المسلمين حماسة الجهاد في سبيل الله ، والتي كانت كامنة في قلوبهم وقتاً طويلاً .

رأى الإمام أن يبدأ بوضع حد لحركات الأمراء الصوماليين ويوحد أركان حكمه في الصومال ليحمي ظهره ، ثم بدأ في تنظيم صفوف القبائل

التي انضمت له ، في مهارة فائقة ، وجعل منهم قوة ضاربة منيعة ، وعندئذ
تم له ذلك ، بدأ الجهاد .

ويروى أن بعض المسلمين خاطبوا الإمام قبل إحدى المعارك ، يخذرونه
من مغامراته التي لم يقدم عليها أباه أو ما سبقه من الملوك والسلاطين الذين
كانوا يكتفون بمناوشة المملكة الحبشية بالأغارات التقليدية على حدودها
فقط ، أما حربهم داخل بلادهم ففيه خطر كبير قد يمسود على المسلمين
بالحصران ، ولكن الإمام أحمد أجابهم بأن الجهاد في سبيل الله لا يمكن أن
يعود بالحصران على المسلمين .

* * *

ولقد حاز الإمام أحمد نصراً كبيراً على الأحماس في (١٥٢٩ م) ،
ولكنه كان قلقاً من (الجلال البدو) الذين يشكلون جانباً هاماً من قوته ،
لما يتصفون به من خصال يصعب تربيتها ، وبالرغم مما بذله معهم من
مجهودات ، فضل كثير منهم العودة إلى مواطنهم حاملين معهم ما غنموه من
أسلاب ، لذلك أخذ في تكوين جيشه من جديد معتمداً على العناصر التي
تدين له شخصياً بالولاء دون غيره . واستغرق ذلك منه عامين وأصبح على
استعداد للقيام بغزوته الكبرى .

ومنذ ذلك التاريخ وانتصارات الإمام أحمد سلسلة متصلة فاستولى في
(١٥٣١ م) على دوارو وشوا ، ثم أمره ولاستا في ١٥٣٣ م ، وفي طريقه
استولى على السلطنات الاسلامية - بألى وهديه وسيداما وجوراجي .

ولقد اتسمت غزوات الإمام أحمد بالسرعة والمفاجأة والحماس والشدة
التي لا تقاوم وتخلتها كثير من مظاهر القسوة ، وما أن جاءت سنة ١٥٣٥ م
إلا وكان الإمام أحمد قد سيطر على وسط الحبشة وجنوبها ، وبدأ في غزو
مقاطعة تيجرى التي دانت له بالرغم مما بذلته من مقاومة عنيفة ، وامتدت

سلطته إلى شواطئ البحر من الشرق حتى مدينة كسلا من الغرب . وهناك اتصل بالمقاطعات الإسلامية التي كانت وقتئذ بشرق السودان .

وقد أدت هذه الانتصارات المتوالية التي أحرزها الإمام أحمد بن إبراهيم إلى انضمام كثير من أعداء الامبراطور (لنا دنجل) إليه ودفعهم اعجابهم بالإمام أحمد إلى اعتناق الإسلام ، كذلك عاد إلى الدين الإسلامي جميع الذين أرغمهم أباطرة الحبشة في السابق على ترك الإسلام ، كما فعل أحد القواد ومعه عشرون ألف مقاتل إذ كتب إلى الإمام أحمد يقول (أنا مسلم ابن مسلم ولكنهم أسروني ونصروني وما زال قلبي مطمئناً بالإيمان ، وأنا الآن جار الله وجار رسوله وجارك ، إن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته ، فأنا تائب إلى الله وهذه جيوش الملك الذين هم معي ، أنا احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا)^(١) .

وأمام هذه الانتصارات المتلاحقة أصبح امبراطور الحبشة (لنا دنجل) طريداً ينتقل من جبل إلى آخر ويهرب من مقاطعة إلى أخرى ، ولقد أحس في آخر الأمر بحكمة الملكة هيلينا وبعد نظرها عندما نصحت الامبراطور بطلب النجدة من البرتغاليين ، واضطر أثناء فراره أمام قوات الإمام أحمد إلى إرسال مندوب إلى ملك البرتغال يطلب منه العون السريع ، ولقد استجاب ملك البرتغال بسرعة وأرسل أسطولاً وعليه أربع مائة فارس وعندما وصلت الحملة البرتغالية (١٥٤١ م) كان الامبراطور لنا دنجل قد مات وحل محله ابنه الامبراطور (جلاو ديوس Clawadewos) - (١٥٤٠ - ١٥٥٩ م)^(٢) (يسميه الكتاب الغريون كلو ديوس) .

* * *

ويؤكد المؤرخ الإسلامي في (فتوح الحبشة ج ٢ ص ١٧٦) على أن جميع

(١) الدعوة للإسلام لسير توماس أرنولد من (١٢٨) وعرب فقيه من (١٨١-١٨٢).

(٢) من ٨٧ الإسلام في أثيوبيا أترمنجهم .

سكان الهضبة الحبشية اعتنقوا الإسلام ، ويبدو أن بعضهم قد اعتنقوه تمشياً مع الأمر الواقع ، واتباعاً لعقيدة القائد المنتصر كما يظهر ذلك من قوله « لم يعتنق سكان (جان زلق Jan Zalaq) الإسلام والتجأوا إلى الوديان والجبال ، فأرسل الإمام لهم قوة عسكرية بقيادة خالد الوردى الذى اضطهرهم إلى اعتناق الإسلام .

كما أن المؤرخ كونزلمان^(١) يقول أنه « لم يبق على مسيحيته أكثر من العشر وهؤلاء هم الذين فضلوا دفع الجزية ، ولقد حاول بعضهم مقاومة الإمام وتحصنوا في بعض الأماكن فهجم عليهم الإمام فاستسلمت الغالبية وقبلت دفع الجزية ، أما من رفضوا فقد قضى عليهم الإمام . »

بعد أن أتم الإمام غزو (جوجام Cojjam) في ١٥٣٣ م حتى بحيرة تانا ثم منها إلى حدود السودان ، حاول الامبراطور جمع شتات جيوشه المنهارة وهاجم ، فهزمه الإمام هزيمة منكرة وتقدمت جيوش الإمام واستولت على أكسوم وحرقتها بعد أن غنمت ماكانت تحويه كنائسها من كنوز ، ثم احتلت شمال الهضبة ثم انحدرت إلى إقليم يجمدين وتم له بذلك الاستيلاء على شمال الهضبة .

وبعد أن اجتاحت جيوش الإمام جميع أرجاء الحبشة عاد إلى عاصمته هرر (١٥٣٧) وأصبحت الحبشة كلها ، من ممالك إسلامية ومسيحية ، تحت إمرة الإمام وأصبح الامبراطور الحقيقي للبلاد ، وأخذت المسيحية في الانهيار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية ، وامتدت آخر مظاهر المقاومة في أقصى الشمال بين أعوام ١٥٣٨ - ١٥٤٠ ، وعندئذ بلغ الامبراطور (لينا دنجل) أقصى حالات اليأس ، وألح عليه الاجهاد والمرض ومات وهو في أسوأ حالات البؤس والعوز^(٢) .

(1) Conzelman, Chronique de Clawadewos

(١) ص ٢٢٤ جلد ١١

وعندما استتب الأمر للإمام أخذ ينظم البلاد ويرسى قواعد الحكم في
امبراطوريته فقسم البلاد إلى ولايات وأوفد لكل منها وال، لحكمها وتصريف
شؤونها وجباية الضرائب والأموال، وبما تجدر الإشارة إليه أن الإمام أحمد
ابن إبراهيم الأشول الذي أصبح في ذلك الوقت امبراطور الحبشة
وصاحب السيطرة الكاملة على جميع ممالكها وسلطانها لم يكن قد بلغ بعد
الرابعة والثلاثين من العمر .

* * *

وأهم ما تجدر ملاحظته أن الإمام أحمد قد تمكن من تلك الانتصارات
المهائلة بعد أن نجح في توحيد كفة السلطنات الإسلامية وسيطرته عليها ،
والقضاء على أسباب الخلاف والتنافس بينها ، فحقق بذلك ما سبق أن أشرنا
إليه في هذا الكتاب (عما قاله عبد الله الزيلعي) من أنه (إذا اتحدت السلطنات
والممالك الإسلامية فسوف تكون خطراً كبيراً على مملكة الحبشة المسيحية)
ولقد تحقق ذلك على أكمل وجه بواسطة الإمام أحمد الذي جعل من قوة
المسلمين المتحدين قوة ساحقة اجتاحت مناطق الحبشة في مدة يسيرة لا تتجاوز
العشر سنوات ، كانت فيها الجيوش الإسلامية منتصرة على طول الخط
ولا تكاد الجيوش المسيحية تنجمع حتى تنهار .

* * *

تدخل البرتغال:

وصلت الحملة البرتغالية التي طلبها الامبراطور لبنا دنجل قبل وفاته ،
إلى ميناء مصوع في (١٥٤١ م) وكان لوصولها صدى كبير في البلاد ، وكانت
تتكون من ٤٥٠ من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة .
وسرعان ما انضم إليهم بعض الأمراء القداى وأتباعهم (مثل اسحق -
بحر نجش - أي أمير المقاطعة البحرية) وتمكنوا من الحصول على مؤازرة

قبائل التيجرى ، ووجد الإمام أحمد نفسه مضطرا للحيلولة دون اتصال الجيش البرتغالى مع القبائل المعادية التى تضمر التأيد لملك الحبشة فى مقاطعة شوا ، ولكن عندما نشبت المعركة مع هذه التشكيلات الجديدة التى تستعمل من الأسلحة ما لم تعده الحبشة من قبل لحقت الهزيمة بقوات الإمام أحمد فى ١٥٤٣ م وأصيب بجراح .

وفى معركة لاحقة - بعد بضعة أيام - لحقته الهزيمة مرة أخرى وتمكن بأعجوبة من الإفلات من الأسر ولم تكن لدى البرتغاليين من الفرسان من يمكنه تعقبه والقبض عليه .

ولقد كان لهاتين الهزيمتين أسوأ الأثر على الإمام أحمد الذى سارع إلى العودة إلى الجبال (زوبول) المطلة على وادى الدناكل ، لكن يعمل على جمع قواته وتنظيم صفوفه ، ووجد نفسه مدفوعا إلى طلب المعونة من والى العثماني المقيم فى زيبد باليمن . وكذلك من شريف مكة فأرسلوا له قوة مؤلفة من ٩٠٠ فارس وعشرة مدافع ، فقام الإمام أحمد بالهجوم على القوات البرتغالية والحبشية وانتصر عليهما وقبض على القائد البرتغالى كريستوفر دى جاما وقتله . وفى هذه المعركة فقد البرتغاليون نصف قوتهم وكية كبيرة من الأسلحة والذخائر .

توهم الإمام أحمد أن مركزه قد توطد ثانية - فوقع فى غلطة كبيرة عندما ظن أن الأمر قد استتب له وأعاد الجنود العثمانيين والعرب إلى بلادهم ، وعاد هو إلى مركز قيادته بجوار بحيرة تانا . ولم يكن على بينة بما أصاب مركزه من ضعف وما تعرضت له قواته من انهماك ، وسرعان ما جمع البرتغاليون صفوفهم البساقية مع قوات الامبراطور (جلاوديوس) . وانتصروا على الإمام أحمد الذى توفى فى تلك المعركة وتفرقت جيوشه (أكتوبر ١٥٤٣ م) وبذلك تغير مجرى التاريخ فى الحبشة . وسارعت أقاليم الهضبة لتقديم فروض الولاء والطاعة مرة أخرى للامبراطور ،

وعادت الأمور إلى سابق عهدها قبل عهد الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول^(١).

ولقد كانت الحروب الصغيرة التي امتدت عدة قرون بين الإسلام والناسية والمسيحية القديمة في بلاد الحبشة التي انتهت بهذه الغزوة الكبيرة في عهد الإمام أحمد، قد اتخذت طابعاً من القسوة والوحشية من الجانبين. فلقد درجت جيوش المسيحيين كلما أتت لهم الفرص عند دخول بلاد المسلمين أن يخرّبوا المساجد وأماكن العبادة بالإضافة إلى الإفراط في القتل، كذلك حذت جيوش المسلمين حذوها وطاردت في أثناء زحفها رجال الدين المسيحي وخرّبت الكنائس وأفرطت في القتل والانتقام. ولم تكن جيوش البرتغاليين بخير من هذين المتحاربين فقد عملت على تحطيم المساجد منذ دخولها موصوع في طريقها إلى داخل البلاد.

ولما كانت الحرب سجّالاً بين الطرفين خلال تلك القرون تنقل فيها النصر بين الفريقين لذلك كان التخرّب شاملاً ممتداً.

* * *

وما تجدر الإشارة إليه، أن غزوة الإمام أحمد كانت الغزوة الأولى في تاريخ الحبشة التي أمكن فيها لقائد أولئك أولامبراطور أن يوطد فيها أركان مملكته بغير منازع على جميع أرجاء الحبشة، وكان عهده في ذلك فريداً في بابه لم يتيسر لاحد من الملوك إلا في أوائل القرن العشرين في عهد الامبراطور منليك الثاني - كما سيأتي ذكره فيما بعد.

* * *

ولقد كانت معونة الأتراك العثمانيين للإمام أحمد قصيرة ومبتورة، ولم يكن مركزهم في البحر الأحمر قوياً، بل كانت تتحكم

فيه القوة البرتغالية بشكل واضح ، الأمر الذي كان يمكن البرتغاليين من استعمال ميناء مصوع والنزول منها إلى أرض الحبشة في سلام واطمئنان .

وكان لدخول هؤلاء البرتغاليين وحماهم في حروبهم بجانب امبراطور الحبشة ضد المسلمين ، أكبر الأثر في انتصارهم وإيقاف زحف القوات الإسلامية ، ولقد حققوا بذلك هدفهم من معاونه الملك المسيحي (Prester John) وكانوا في عملهم هذا محققين لبعض الآمال التي قصرت الحروب الصليبية عن تحقيقها .

• • •

وينحى المؤرخون باللائمة على العثمانيين لتدخل وضعهم الاستراتيجي في ذلك الوقت الذي بلغت فيه امبراطوريتهم الفتية عنفوان قوتها .

فبينما امتدت الامبراطورية العثمانية في قلب أوروبا إلى أبواب فيينا ثم سيطرت على أقاليم شمال إفريقيا ، فإنها وقفت عند حدود مراكش ولم تتعداها بدون سبب أو مبرر مفهوم ، وكانت الضرورة الاستراتيجية تلزمهم بضرورة احتلالها لكي تظل على المحيط الأطلسي ، فكانت نتيجة توقعهم عند هذا الحد أن أصبح الجو خاليا للأساطيل البرتغالية ثم بعدم الأسباب فالهولنديين فالإنجليز والفرنسيين لكي تجول وتصل في شواطئ أفريقيا الغربية ، وما أن عبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح حتى وصلوا إلى شواطئ العرب والهند ووطقوا الامبراطورية العثمانية في الشرق وسدوا عليها السبل عن ذلك الطريق الطويل .

وكان ارتياد هذه البحار المترامية حافزا للبرتغاليين ومن بعدهم باقي الأساطيل الأوروبية على ادخال التحسينات على سفنهم لمواجهة الأسفار في

أعلى البحار ، فكبر حجمها وازدادت أشرعتها وأدخلت التحسينات العديدة على تصميماتها وصناعتها ووسائل تسليحها ، مما كان له أكبر الأثر في تفوقهم العسكرى البحرى .

• • •

نتائج الغزو العظيم على المسيحيين والمسلمين :

لم تكن الخسائر فى الممتلكات والأرواح التى صاحبت الغزو العظيم مهما عظمت بذات بال بجانب التغيير السياسى الذى غير وجه الامبراطورية ، التى بذل الامبراطور زره يعقوب وخلفاؤه الجهد فى تأسيسها وتوحيدها حول الديانة المسيحية .

فلقد كان تأثير هذا الغزو على نفوس الاحباش بالغ الأثر ، إذ اعتنق الشعب الإسلام فى جماعات صغيرة ، وليس من اليسير تغيير ديانة الناس ممن العودة مرة ثانية إلى ديانتهم الأولى ، ولم تكن الكنيسة الحبشية ورجال الدين بقادرين على مواجهة هذا الموقف ، خصوصا وأن فترة الخمسة عشر عاما التى سيطر فيها الإمام أحمد على الحبشة — بالرغم من قصرها ، قد فصمت عرى الروابط التى كانت تربط أفراد الشعب بملوكهم .

وعندما أرادوا أن يجمعوا شملهم ، كان الملوك يشعرون بضرورة اعتمادهم ، فى تعزيز ملكهم ، على الدول الأوروبية الغربية ، بينما شعرت الكنيسة بما فى هذا الاتجاه من خطورة على كنيستهم مما أوجد جفوة بين الامبراطور وبين الكنيسة واتخذ رجال الدين موقفا منعزلا محافظا أقرب ما يكون إلى الجلود .

• • •

ولم يكن تأثير تلك الحروب على المسلمين بأقل من ذلك خطرا . فقد شعر المسلمون أن حالهم بعد الغزوة كانت أشد ضعفا من حالة أعدائهم .

المسيحيين بل أصبحت من الضعف بحيث صارت أرضها مهددة لأن تكلسهما قبائل الجلالا من الجنوب . فلقد انهكت البلاد حروب الامام أحمد وتسببت هزيمته في فقد كثير من الأموال والأرواح وخصوصا بين قبائل (الغفار Afar) والصومال الذين اعتمد عليهم الامام في غزوته .

* * *

صحوة مؤقته :

بعد انتهاء الغزوة الكبرى ، أخذ الامبراطور جلاوديوس في إعادة تشكيل جيوشه وتنظيمها ، بينما كان (الوزير عباس) يجاهد في تكوين دولة اسلامية من مقاطعات دوارو وفاناچار وبالي ، ولكن جلاوديوس قضى على تلك المحاولات وقام باحتلال تلك المقاطعات ولكنه كان احتلالا سريع الزوال ، حيث وصلت طلائع قبائل الجلالا إلى بالي وجملوا منها مركزا للوجات التي أخذت تنبعث منها بعد ذلك .

وكان من أثر ذلك أن أخذت عوامل الاتحاد تظهر بين المسلمين في هرر وخصوصا تحت تأثير زوجة الامام أحمد التي عزمت على الانتقام لزوجها ، وكان نصيبها الفشل في محاولتها الأولى ، ولكن في عام (١٥٥١ م) (٥٩٥٦ هـ) تولى القيادة (نور بن الوزير مجاهد - أحد أقارب الإمام) الذي تزوج من أرملة الامام بعد أن تعهد لها بالانتقام له ، فقام نور بتحصين مدينة هرر وبنى سورها الذي لا يزال يحيط بها إلى الآن ، وكانت محاولاته في غزواته الأولى غير موفقه ولكن سرعان ما تغير موقف المملكة المسيحية ، عندما أصبحت مهددة من الجنوب من قبائل الجالا - ومن الشمال بواسطة الأتراك .

في عام ١٥٥٧ م كانت أحوال الأتراك العثمانيين قد أخذت في التحسن في البحر الأحمر فاستولوا على مصوع وحرققو وتغلغوا داخل الإثريا وبنوا قلعة في (داباروا Dabarwa) وقام القائد التركي بعدة مناوشات

عسكرية فاشلة انتهت بعودته إلى قواعده في سواكن ومصوع وحرقيقو
التي بقيت تحت الحكم العثماني .

وفي أثناء ذلك كان نور بن مجاهد يعزز قواته في هرر واشتبك مع قوات
الامبراطور جلاوديوس في معركة انتصر فيها على جلاوديوس وقتله (٢٣
مارس سنة ١٥٥٩) ، وتوفي نور بن مجاهد في عام ١٥٦٧ ، ودفن في هرر ،
ويزور مسلمو اثيوبيا قبره إلى اليوم .

* * *

الفصل العاشر

(قبائل الجالا GALIA)

في الحقبة التي وصلنا إليها من تاريخ الحبشة ، أخذت تظني قبائل الجالا على مسرح الحوادث ، وأصبحت إحدى العناصر الهامة التي يتكون منها سكان الحبشة . وتميزت بكثرة العدد وانتشارها في مساحات شاسعة في أغلب المناطق ولقد سبق أن تكلمنا في الفصل الثاني عن نشأتهم والعوامل التي أدت إلى هجرتهم . التي بلغت ذروتها في القرن السادس عشر وفي تلك الفترة التي نحن بصددها عما يدعو إلى تفصيل الحديث عنها وعن الدور الكبير الذي بدأت تلعبه في تاريخ الحبشة .

وكما سبق أن قلنا - تفرعت قبائل المهاجرين إلى ثلاثة فروع كبيرة - صومال وعفار ساهو - وجالا وسرعان ما نشأت بين هذه الأجناس في تكاثرها نزعة إلى التنافس والاستئثار بمناطق الرزق ، وأدى هذا التنافس إلى اضطراب قبائل الجالا التي بدأت تتسكأثر بشكل كبير إلى الهجرة إلى داخل الحبشة -

وبينا تأثرت قبائل الصومال وعفار ساهو بالثقافة السامية ، واعتنقت الاسلام منذ ظهوره ، بقيت قبائل الجالا تسيطر عليها الطبيعة البدوية ، مما جعلها بعيدة عن التأثر بالأديان أو بالحضارات المتقدمة ، وبقيت عدة قرون في وثنية وهمجية منعزلة عن جيرانها . لما جمع خصائص البدو الرحل الذين يتجولون في جماعات صغيرة منتشرين في أنحاء البلاد .

وعندما أسلمت قبائل الصومال وعفار أصبحت في القرن السادس عشر قوة متماسكة تمكنت من دفع أبناء عمومهم قبائل الجالا إلى الماضي في هجرتهم

إلى الشمال ، وفي نفس الاتجاه الذي اتخذته الفتوحات الإسلامية من الصومال والشواطيء إلى داخل الحبشة . وكان لانتشار قبائل الجالا أثناء هجرتهم في أنحاء الحبشة أكبر الأثر في أحوال البلاد وتكوينها . وأصبح لها أثرها الفعال فيما مر بالبلاد بعد ذلك من أحداث تاريخية .

ولقد امتلأت بهم مقاطعات العروسي وهور . وامتدوا إلى نهر ديدسا (Didessa) وسيطروا في طريقهم هذا على مقاطعة سيداما ، بينما بلغت موجة هجرتهم إلى الانتشار في مقاطعة شوا ومقاطعة والو واستقروا في مجتمعات وثنية في قلب أقاليم مملكة الحبشة المسيحية .

وسرعان ما استقرت بعض قبائل الجالا في مقاطعات (والو - شوا - جيا - وهر) وتركوا البداوة وأصبحوا يعملون في الزراعة وتربية المواشي ومنذ عهد هذا الاستقرار أخذ الإسلام ينتشر بينهم^(١) وقين فيما يلي تفصيل العوامل التي رافقت انتشار الإسلام بين الجالا - سواء من استقر منهم أو من بقى على بدوته .

* * *

الإسلام بين قبائل الجالا :

تكاثرت قبائل الجالا في الحبشة وانتشرت في البلاد على النحو الواسع المترامي الذي سبق ذكره ، وأصبحت في بعض الاحصاءات تقدر بثلاث سكان الحبشة أو يزيدون ، ومن هنا نشأت أهميتهم ، وأهمية البحث في شئونهم والتعرف على مدى انتشار الإسلام بينهم .

ولقد رأينا فيما قدمناه من مختصر عن ما أورده ترمنجهام في كتابه (الإسلام في أثيوبيا) وكذلك أولندورف في كتابه (الاثيوبيون) من أن غالبية قبائل الجالا قد اعتنقت الإسلام ، إلا أن السير توماس أرنولد (في كتابه الدعوة إلى الإسلام) قد أولى هذا الأمر عناية خاصة مستندا

(١) ص ٨ ، ٩ الإسلام في أثيوبيا ترمنجهام .

إلى كثير من المراجع الحديثة العهد . مما يجدر توضيحه هنا فيما يلي حيث يقول في ص ٣٨٤ من كتابه المغرب :

« أما قصة دخولهم في الاسلام فيكتنفها الغموض ، فيينا يقال إن بعضهم أدخلوا كرها في الديانة المسيحية ، نجد أن الأمر على عكس ذلك بالنسبة للاسلام لعدم وجود أية سلطة سياسية في أيدي المسلمين تسهل إمكان القيام بأي نشاط أو ضغط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو ، وفي القرن الثامن عشر قبل إن معظم الذين في الجنوب يعتنقون الاسلام أما الذين أكانوا في الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون ، وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى في عدد المسلمين ، وفي سنة ١٨٦٧ تبأ موتسنجر (Munzinger) بأن كل قبائل الجالا استدخل في الاسلام في مدة قصيرة ^(١) . وإذ قد قيل عنهم (أنهم متعصبون جدا) فانا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ماغير متحمسين أو متراخين في اعتناقهم هذا الدين ^(٢) . »

« وبعض السكان ، في قبائل الجالا التي تقيم في بلاد الجالا الصميّة مسلمون » (إذ كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الاسلام حول سنة ١٥٠٠ م) ^(٣) ، وبعضهم الآخر وثنيون ماعدا تلك القبائل التي تقيم على حدود الحبشة مباشرة والتي أرغها ملك هذه البلاد على اعتناق المسيحية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ^(٤) والمسلمون بين الجبال قله أما في السهول فقد صادف دعاة الاسلام نجاحا رائعا ، ولقيت تعاليمهم قبولا بين الناس أخذ ينمو نمو اسريعا في خلال القرن الماضي . ويذكر انطونوسنتشي (Antonio Cecchi) الذي زار مملكة (لور) الصغيرة في سنة ١٨٧٧

(١) من ٤٠٨ Munzinger

(٢) من ١٠٠ I.L.Krapf Vol. 2 p. 106 (1898)

(٣) من 408 Morie Vol. 2. p.

(٤) Reclus, tome X P. 309 & Basset

قصة عن اسلام (أبا باغيو Abba Baghibo) والد الأمير الذى كان يحكم
إذ ذلك، على أيدي مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون فى نشر الدعوة فى هذه البلاد فى
زى التجار ، وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجالا المجاورة ورجال حاشيتهم
وظفرت العقيدة الاسلامية بعدد من العامة كذلك - واستمرت تتقدم بينهم ،
ولكن السواد الأعظم منهم كان يتشبث بعبادته القديمة ، وكان بقاء التجار
فى البلاد مددا طويلة سببا فى تهيئة الفرص الكثيرة التى عرفوا كيف
ينتهزونها للعمل فى نشر الدعوة الاسلامية - وحينما وضعوا أقدامهم كان
من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين فى الاسلام فى مدة قصيرة من
الزمن^(١) .

« وقد دخل الاسلام هنا فى نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوروبا ،
صادفت جهودهم نجاحا ضئيلا . على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل
- وحتى الذين نصرهم (الكاردينال مساجا Cardinal Massaga) فانهم
(بعد أن طرد من هذه البلاد) إما أسلوا ، أو عادوا مرة أخرى إلى الوثنية
حتى قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة
بين الذين كانوا فى أقصى الغرب ونعنى بهم قبائل الليجا ، قد أخذت فى
طريقها إلى الزوال ، وقد أخذ تأثير الدعاة المسلمين فى النمو وأصبح دخول
كل قبائل الجالا فى الديانة الاسلامية فى مدى سنوات قليلة أمر محتمل .

ولعل فى التفصيل السابق ما يؤيد أقوال ترمنجهام وأولندورف المشار
إليها من أن أكثرية الجالا يعتقدون الاسلام - ولقد عنى ترمنجهام فى ص ١٦
من كتابه بتقديم جدول شامل لتوزيع مختلف قبائل الحبشة بين المسيحية
والاسلام والوثنية وفى رأينا أن لهذا الجدول أهمية كبيرة سوف نرجع إليه
فيما بعد ولكننا ونحن نتكلم عن قبائل الجالا نكتفى الآن بأن نلقت النظر إلى

(١) ص ١٠٢ ج ٤ من كتاب الكاردينال مساجا Massaga

ما جاء من توزيعهم في هذا الجدول مما يؤيد من النظرة الأولى اعتناق غالبية الجالا للدين الاسلامى .

* * *

وبعود ترمنجهام^(١) ويتعرض لنقطة هامة في تاريخ الأديان في الحبشة ويقول «لما كانت المسيحية هي الدين الرسمي للدولة وللقابضين على الحكم فيها ، فإن زعماء قبائل الجالا قد تعرضوا للضغط من الحكام حتى يتحولوا الى المسيحية ، وكانت أبرز عهود هذا التحول الدينى فى حكم الامبراطور منليك وعلى الأخص فى مقاطعة (وللامو Wallamo) . ولا يغيب عن البال أن جميع موظفى الدولة وجميع القوات العسكرية وقوات الأمن من المسيحيين ، ولقد كانت مقاطعة هرر خالية من المسيحيين فى عهدها السابق ولكنها بعد استيلاء منليك عليها فى ١٨٨٧ م أصبح عدد المسيحيين بها ٣٠٦.٠٠٠ نفس من بين مجموع السكان البالغ عددهم ١٥١٧.٠٠٠ نفس .»

ولقد أجبرت الحكومة قبائل (الوالوجالا) القاطنين بالهضبة على ترك الاسلام فى عهد الامبراطور يوحنا ، ولكن الحقيقة أن غالبيتهم بقيت سرا على دين الاسلام ، ولقد أحرزت المسيحية بعض النجاح بين قبائل الجوراجى وكباتا وكفيشيو وازداد نشاط بعثات التبشير الغربية الكاثوليكية والسويدية .

كان لا بد أن نستطرد فى البحث ونتعدى ما وصلنا إليه فى الفترة التاريخية الهامة فى القرن السادس عشر . لى نبين أهمية قبائل الجالا - وخطورة الدور الذى لعبته فى تاريخ البلاد . وأصبح لزاما علينا أن نعود ثانية إلى المرحلة التى وقفنا عندها فى تاريخ الصراع داخل الحبشة .

* * *

الهجرة الكبيرة لقبائل الجالا :

كانت غزوة الإمام أحمد مرحلة هامة فى تاريخ الحروب المتصلة المتوالية

(١) ص ٢٤ الاسلام فى اثيوبيا .

بين القوتين المتصارعتين في الحبشة وكانت هذه الحروب بالغة الشدة والضراوة مما أجهد الفريقين، وأحدثت دمازا شاملا في البلاد وخسارة كبيرة في الأرواح، وعادت قوات الفريقين إلى قواعدهما مشنخة بالجرار محطمة القوى، الأمر الذي أدى إلى زعزعة سلطة الملوك والسلاطين والرؤوس على أتباعهم، ولم تكن سلطة أى منهم تتعدى حدود المدينة التي يقيم بها. وأصبحت البلاد فيما بين تلك المدن المتباعدة خالية من السلطان وسيطرة الحكومات.

وخلال الأحداث السابقة كانت قبائل الجالا المشتهة قد بدأت تتجمع ووجدت فرصتها الذهبية في ملء الفراغ الذي حدث بعد حروب الإمام. وبدأت في غزوها لبلاد الحبشة، ولم يكن ذلك الغزو على هيئة هجمه غزيرة الأعداد في مبدأ أمرها، ولكنها اتبعت في حركتها تلك العادات المتأصلة في القبائل البدوية، بأن تشن غارة على جاريتها وتعود منها بسرعة، وبعد قليل من الوقت كبرت هذه الغارات وأصبحت حروبا احتلت فيها كثيرا من أقاليم الحبشة. وبالرغم من هزيمتها في بعض المعارك إلا أن هذا لم يؤثر كثيرا في عملية الزحف التي قامت بها القبائل. فاستولت على دوارو وبالي فيما بين عامي ١٥٤٥، ١٥٤٧ م ثم استقروا قليلا في إقليم بالي حيث المرعى الخصيب والمياه الوفيرة، وبعد ذلك ولوا وجوههم شطر هرر واستولوا عليها في عام ١٥٦٧ وأنزلوا بها كثيرا من الخراب والدمار كما فعلوا بمقاطعة شوا وما جاورها من الأقاليم.

وفي ذلك الوقت أخذوا يجهزون قوات الفرسان المشهورة، وبحصولهم على الخيل من أبناء عموماتهم في الصومال، وتمكنوا من السيطرة على البلاد التي دخلوها وأصبح مركز الأمراء والسلاطين مزعزعا، ولم يعد في مقدورهم تعزيز مراكزهم أو استعادة نفوذهم.

وما أن قارب القرن السادس عشر من نهايته حتى كانت قبائل الجالا قد توغلت في بلاد الحبشة واخضعت تحت سلطانها جميع الأراضي الخصبة في شرق الهضبة، ونفذت إلى مقاطعات أمهره ويجمدير التي تتكون منها قلب مملكة الحبشة، وفي نفس الوقت بدأ زحف جانب آخر من قبائل الجالا في

الأقاليم الغربية والجنوبية فاستولوا على (واللاجـا Wallaga) (وسيداما Sidama) وشوا وأصبحت قوات الامبراطور عاجزة تماما عن صد تيارهم ، ومآل بدأ القرن السابع عشر حتى كانت قبائل الجالا احتلت ثلث الامبراطورية الحبشية^(١) واضطربت الأحوال في مملكة الحبشة المسيحية ، كما اضطربت في الممالك الاسلامية وبذل الامبراطور جهودا كبيرة في محاولة جمع الشمل ، ولكنه كان تائها في وسط بحر هائج من أفواج الجالا في كل مكان فعادت حروبه منهم على دولته بمزيد من الخسائر .

وفي نفس الوقت أخذت سلطنة هرر وقواتها في الاختلال وكانت قد انهكتها حروب الامام أحمد ، فلم تعد تقوى على الصمود أمام زحف الجالا . الذين قطعوا الطريق بين هرر ومينازيلع وبذلك ساءت حالة هرر التجارية .

ولكن أحد حكام هرر (ويدعى عثمان) تمكن من إنقاذ الموقف ، بأن عقد معاهدة مع الجالا صرح لهم فيها بارتداد أسواق هرر ، فكانت هذه الاتفاقية فاتحة لترويض الجالا ودفعهم إلى طريق السلام والتفاهم ، وبعد سلسلة من القلاقل الداخلية القصيرة الامد في هرر استتب الأمر وهذأت الأحوال في عهد (محمد الخامس) الذي سرعان ما راودته فكرة الحرب . فجهز جيشه وتقابل مع قوات ملك الحبشة المسيحية عام ١٥٧٧م في معركة كان نصيبه فيها الهزيمة والقتل . وكانت هذه المعركة خاتمة القوة العسكرية لهرر التي لم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وبينما كان الجيش الهرري يخوض تلك المعركة سالفة الذكر ، انتهزت الجالا الفرصة وأغارت على حدود هرر وحطمت ما يفوق عن مائة قرية وحاصرت مدينة هرر نفسها . ومنذ ذلك الحين وهرر شعبا وحكاما يعيشون تحت تهديد دائم من قبائل الجالا مما زاد في اضطراب الأحوال الداخلية وانتقال الحكم من إمام إلى آخر .

(١) من ٩٣ ، ٩٤ الاسلام في اثيوبيا لترجمهم .

وهكذا تضاءلت القيمة العسكرية لأقوى السلطات الإسلامية في شرق أفريقيا، والتي عرفت في بداية عهدها باسم إيفات التي استولت في أوج قوتها على إقليم شوا، وعرفت بعد ذلك بمملكة عدل وعاصمتها زيلع، وعرفت في آخر عهدها بسلطنة هرر، وتوقف عهد الازدهار والتقدم والمدنية التي كانت تتمتع بها هرر مما لم يكن له مثيل في جميع أرجاء الحبشة، وانقطعت عنها القوافل التي كانت تجلب إليها البضائع من مختلف البقاع، وتعطلت وسائل التقدم الفنى والحضارى الذى جلبه إليها الدين الإسلامى . ووقف الإسلام جامداً، وتوقفت قدرته السابقة على الامتداد والتغلغل . وقعد حيويته التي كانت تهدد جميع أرجاء الحبشة، ولا بد من الإشارة بأن الخلافات الداخلية بين أمراء هرر كان لها كبير الأثر في الوصول إلى هذه الحالة من الركود .

* * *

وفي خلال تلك الفترة التي قاست فيها السلطنات الإسلامية ما قاست من هزيمة وتشيت ، كانت الحبشة المسيحية مشغولة بأحداثها وحروبها ضد قبائل الجالاقبائل الأجاو والفلاشة وسيداما، ثم بعد ذلك وقعت الحروب بينهم وبين الأتراك العثمانيين في مصوع ، انتهت بمقد صلح بينهما ، انسحب بعده الأتراك بعد أن اكتفوا بتعيين نائب في مصوع وحرقة بقوا هذه المنطقة تابعة للحكم العثمانى .

وسرعان ما دب الخلاف داخل المملكة الحبشية المسيحية وعادت المنازعات القديمة بين الأمراء ، الذين أخذ كل منهم ينزع إلى الاستقلال . في الوقت الذى كانت فيه المملكة تحت تهديد دائم من قبائل الجالالا ، التي انتهرت فرصة هذه الخلافات وأمعنت في تغلغلها داخل المملكة الحبشية^(١) .

وبذلك سادت الحبشة كلها - بمناطقها الإسلامية والمسيحية مرحلة

(١) صفحات ٩٣ - ٩٨ الإسلام في اثيوبيا (أبرمنجمام) .

جديدة من الاضطراب والعزلة - وانقطعت أخبارها عن العالم مدة قرنين من الزمان كانت فيها البلاد نهبا للاضطرابات ، وتنافس الأمراء على السلطة والنقوذ ، وتفتت البلاد إلى عدد كبير من هذه الامارات التي ظل ينازع بعضها البعض إلى منتصف القرن التاسع عشر - عندما خرجت الحبيشة من عزلتها مرة ثانية في عهد الملك تيودور^(١).

الفصل الحادى عشر

العلاقة بين الديانتين

فى القرنين

السابع عشر والثامن عشر

حدث فى عهد العزلة التى ذكرناها فى ختام الفصل العاشر ، أمر لم يكن فى الحسبان ، وهو تحالف بين القوى الاسلاميه والمسيحية فى الحبشة ضد النفوذ الاجنبى . وهو بالرغم من غرابته فانه يبعث الامل فى إمكان تحقيقه مرة أخرى فى الوقت الحاضر ، ولذلك فهو جدير بما يستحقه من تفصيل .

° ° °

الدعوة الكاثوليكية ومقاومتها :

لم تكن الإمبراطورية الرومانية الشرقية — بعد أن حطمها الاسلام الناشئ — ثم من بعده الأتراك العثمانيين — بقادرة على نجدة الحبشة المسيحية التى تعتنق مذهباً قريب الشبه لمذهبهم وإن اختلف فى بعض التفاصيل ، لذلك وقع واجب الدفاع عن مسيحية الحبشة على عاتق الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت فى حملها لهذا الواجب داعية إلى امتداد الحروب الصليبية عن طريق آخر ، قد يؤدى إلى نتائج تخفف من وقع المراتم التى لحقت بالصليبيين الأوائل .

وكان البرتغاليون هم الذين وقع عليهم عبء تنفيذ هذه المهمة الدينية ، فعملت على تحقيقها بكل ما أتيج لها من قوة وتضحية . وتم لهم النصر على الإمام أحمد ، وأعدت المملكة المسيحية إلى عرشها ، ومكنت لها من وسائل

المنعة ببناء القلاع والحصون وتدريب القوات المسيحية على أحدث وسائل الحروب وتزويدها بالأسلحة الحديثة .

وبعد أن استتب الأمر على هذا المنوال ، تحركت في نفوس البرتغاليين كوامن النزعات المذهبية وأخذت تعمل جاهدة على تحويل الحبشة المسيحية إلى المذهب الكاثوليكي ، وفصم عرى الصلات التي تربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية ، ولقد ذكرنا طرفاً من هذه الأمور فيما سبق من الكتاب بقدر ما كانت تستدعيه المناسبات ، وأصبح الآن من الواجب إيفاء هذا الموضوع حقه من التفصيل .

• • •

بعد أن انتهت غزوة الإمام أحمد وانتهى أمر المناوشات والحروب المحلية التي تلتها وأخذت البلاد تعود إلى نوع من الهدوء الذي فرضه التعب من الحروب . وسادت عوامل الضعف والإنهاك . تحرك البرتغاليون يريدون انتهاز الفرصة لتحقيق هدفهم الكبير .

ولقد كان باقياً بالحبشة عدد لا بأس به من البرتغاليين ، الذين تزوجوا وأنجبا وأصبحوا هم وأبناؤهم يشكلون الصفوة الممتازة بين الأبحاش ، وكان نفوذهم بناء على ذلك خطيراً ، ولقد ازدادوا أهمية عندما استقر رأى حكومة البرتغال على اتخاذ الخطوات الجديدة لإتمام كتملكة المسيحيين في الحبشة ، بأن أرسلت عدداً كبيراً من القساوسة الجزويت لتوجيه الجانب الروحي من عملية التحويل .

وكان استقبال البلاد لهؤلاء القساوسة ودياً ، وفي عام ١٦٢٢ م تمكن أفتر هؤلاء القساوسة (بيدرو بايز Pedro Paiz) من إقناع الإمبراطور باعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأخذ ذلك الإمبراطور يحاول إقناع شعبه ، فكانت النتيجة أنه فقد ولاء الشعب وأثار عليه رجال الدين .

ولقد كان البرتغاليون قد شغلوا منصب المطران قبل ذلك في عهد غزوة

الإمام أحمد واضطروا الأمبراطور لتعيين مطران كاثوليكي برتغالي (برمودز ١٥٣٨ م) ولا جدال في أن الهزائم التي كانت تتوالى على المملكة المسيحية وتعرضها للزوال ووصول البرتغاليين لنجدتهم ، جعلت الظروف غير مواتية لرجال الدين للاحتجاج في ذلك الوقت ، خصوصاً وإن علاقتهم مع كنيسة الأسكندرية كانت مقطوعة منذ وقت طويل .

ولكن موقفهم في هذه المرة كان مخالفاً تمام المخالفة ، فلم تكن هناك حروب تشغلهم ، لذلك أخذت تستثيرهم التعاليم الكاثوليكية وإجراءات تطبيقها على الشعب داخل الكنائس وخارجها ، مما أدى إلى قيام ثورة شاملة بين جميع طبقات الشعب حتى أن بعض أمرائهم نادى (بأنه يفضل اعتناق الاسلام عن أن يخضع لهؤلاء البرتغاليين) (١) .

وتأزمت الأمور إلى الحد الذي اضطر الأمبراطور إلى إصدار بيان على الشعب يعتذر فيه عن اعتناقه للذهب الكاثوليكي ويعلن عودته وعودة شعبة إلى مذهب آبائهم وأجدادهم ورأى الأمبراطور أن يتخلى عن العرش لنجله الأمبراطور (فاسيلاداس (Fasiladas) (١٦٣٢ - ١٦٦٧ م) .

* * *

بعد هذه الحوادث لم يعد هناك محل للتسامح المذهبي الذي كان سائداً في العصور السابقة ، وازدادت حساسية الشعب المسيحي وتعلقه بالمذهب (الأرثوذكسي العقوبى - التابع للكنيسة المرقسية بالأسكندرية) ، وترتب على ذلك طرد الجزويت من الحبشة ، وعندما وصلوا إلى الهند (جوا) أرسلوا إلى ملك أسبانيا (كانت أسبانيا في ذلك الوقت قد فاقت البرتغال في القوة) يقولون أن الوسيلة الوحيدة لتحويل الأحباش إلى المذهب الكاثوليكي هي تجريد حملة عسكرية عليهم .

(١) ص ٩٩ الاسلام في اثيوبيا لترينجام .

التحالف مع المسلمين :

اهتزت كنيسة روما لهذه الحوادث فحاولت التدخل في هذا الصراع وأرسلت بعض الرسل الفرنسيين مما أزعج الإمبراطور فاسيليداس ، ودفعه ذلك إلى عقد اتفاقية مع الولاة العثمانيين في سواكن ومصوع لإعدام جميع القسس الذين يحاولون دخول الحبشة (١٦٤٨ م) ، وكانت هذه الاتفاقية أكبر دليل على فشل سياسة الكنيسة الكاثوليكية في الحبشة ، وذهاب مجهوداتها ومساعداتها هباء . ومن المؤكد أن معالجتهم للعملية كانت تنطوى على سوء تصرف وتسرع وقصر نظر ، فإن الشعب المسيحي بالحبشة رفض تغيير مذهبه ، في الوقت الذي كان في الإمكان إجراء هذا التغيير بوسائل طابعها العلم والمعرفة وكسب مودة الشعب واتخاذ الوسائل البعيدة المدى التي تسرب إلى نفوس الشعب تدريجياً ، فرمما كانت تلك السياسة تلقى النجاح . إذا تهيأت لها بعض الظروف الأخرى وأهمها سكوت كنيسة الأسكندرية عن هذا النشاط .

ولم يقتصر فاسيليداس على اعتماده على العثمانيين ، بل عمد إلى توثيق الصلة مع جيرانه المسلمين ، بأن أرسل مندوباً إلى إمام اليمن (الموحد بالله) عام ١٦٤٢ يطلب منه أن يطرد أو يقتل أى برتغالي يمر ببلاده ، وأرسل مندوباً آخر في عام ١٦٤٨ للإمام الذي تلاه على عرش اليمن (المتوكل على الله) يعرض عليه صداقته ويقترح تبادل السفراء ^(١) .

* * *

ولقد كان اعتماد الإمبراطور فاسيليداس على المسلمين لحماية الحبشة من التدخل الغربي قلباً للأوضاع القديمة ، التي كانت الحبشة تعتمد فيها على البرتغاليين لحمايتهم من المسلمين ، وذلك بواسطة استيلاء البرتغاليين على

(١) ص ١٠٢ الاسلام في أنيويلا لترمجهام .

موانئ البحر الأحمر ، وأصبحنا الآن نشاهد ظرفاً جديداً تقطع فيه علاقات الحبشة مع العالم الغربي ، ويصبح المسلمون حلفاء للحبشة ضد من أخذ الأحباش يعتبرونه خطراً أكبر - ذلك الخطر الذي يهددهم ويعمل على القضاء على مذهبهم الديني الذي تلتف حوله جميع الروابط القومية للشعب المسيحي ، ولقد ظهرت في هذه التصرفات نزعة الأحباش إلى المبالغة في الاعتداد بالنفس والتمسك بأهداب الكرامة ، فوجدوا في موقف المتصلب ضد الكنيسة الكاثوليكية تعبيراً عن استقلالهم وعدم الرضوخ لأي قوة تفرض عليهم .

* * *

عودة الاسلام إلى الانتشار :

في أثناء تلك الاضطرابات ، عاد الاسلام مرة أخرى ، ووجد طريقه إلى الانتشار بعد أن وقف زحفه فترة طويلة من الزمن نتيجة الصدمات العنيفة التي تعرض لها في الماضي القريب ، وظلت المملكة الحبشية لاهية عن عودة الاسلام إلى الانتشار ، ولكن الصراع مع الكاثوليكية كان قد انتهى بانسحاب الجيزويت وانقطاع الصلات بهم ، بعد أن تركوا في البلاد أثراً كبيراً وهو انتشار عادة مناقشة الأدبان وتعاليمها ومقارنة الفروق بين المذاهب والتفسيرات المتضاربة ، مما استمر يشغل رجال الدين ، ويلبيهم عن الانتباه لاستمرار الاسلام في التغلغل ، وفي هذه العهود كان انتشاره يتوذه وثبات لا يعتمد على القوة أو الحروب ، وأثناء ذلك كانت حدود المملكة المسيحية تنكش بالتدرج ، حتى أن (مانويل دالميدا Manuel de Almeida) الذي عاش في الحبشة من (١٦٢٤ م - ١٦٢٣ م) كتب يقول إن في فترة وجوده بالحبشة كان المسلمون منقرضين في جميع أنحاء الأمبراطورية وكانوا يشكلون ثلث السكان ،^(١) - ملاحظة : (كان

(١) س ١ - ١٠ الاسلام في أثيوبيا لترنجم .

الوثنيون في ذلك العهد لا يزالون يشكلون ما يقرب من نصف السكان مما يثبت أنه منذ ذلك العهد أخذ عدد المسلمين يزيد عن عدد المسيحيين في الحبشة ، وذلك يؤيد ما سوف نصل إليه من معلومات في مكانها المناسب من الكتاب) .

* * *

عندما أثار الكاثوليك المناقشات المذهبية التي استمرت بعد رحيلهم تشغل تفكير الشعب ووجد فيها الكثيرون مادة للمقارنة والنقاش ، لم يتألك الناس من إظهار إعجابهم بالاسلام الذي يتميز ببساطته وتمشيه مع المنطق السليم وخلوه من التعقيدات وكان لذلك أثره الكبير على أفراد القبائل التي كانت لا تزال على وثنيها .

وعما زاد في ترحيب الوثنيين بالاسلام أنه كان في نظرهم الدين الذي يهدد سلطة الجنس الأمهرى الذي يفرض سلطانه على القبائل الوثنية ، ولقد فتح الاسلام ذراعيه لاستقبال هؤلاء الوثنيين كأخوة ، ثم هو لا يكلفهم من الطقوس أو التعاليم لاعتناقه ، سوى ترديد جملة واحدة هي « النطق بالشهادتين ، ولقد كان مما يغرى الوثنيين باعتناق الاسلام أنهم يصبحون بعد اعتناقه أخوة لهذا العنصر القوى المثقف المتحضر الذي تحطم لديه جميع الحواجز العنصرية ^(١) .

* * *

العودة إلى الخلاف مع المسلمين :

ما أن تولى الإمبراطور يوحنا الأول العرش (١٦٦٧ - ١٦٨٢) حتى هاله ما وصل إليه المسلمون من تقدم وانتشار ، فدعا مجلساً للانعقاد في جوندار ليقرر السياسة التي يجب اتباعها للتغلب على الاضطراب الديني ،

(١) ص ١٠٢ الاسلام في اثيوبيا لترينجام .

ولقد أسفر هذا المؤتمر على اتخاذ قرار هام . بالفرقة الدينية . وذلك بإجبار بقايا الافرنج (سلافة البرتغاليين) إما اعتناق مذهب الحبشة أو مغادرة البلاد . أما بالنسبة للمسلمين فلم يكن في الامكان طردهم وقد أصبحوا جزءا هاما من البلاد - عدديا واقتصاديا - ففرضت عليهم الدولة ألا يعيشوا في مكان واحد مع المسيحيين ، فعليهم أن يسكنوا في قرى مستقلة بهم ، أما في المدن فعليهم أن ينتقلوا إلى أحياء خاصة بهم كذلك حرّموا من امتلاك الأراضي ، ويبدو أن هذا القانون لم يطبق بدقة في أول الامر مما أدى إلى إعادة إصداره ثانية في عام ١٦٧٨^(١) .

ولقد كانت هذه القوانين سببا في زيادة خطورة الاسلام ، بدلا مما قصد بها من إضعاف للمسلمين . فنشأت مع تلك القوانين بعض العادات التي تهدف إلى تحقير المسلمين ومعهم اليهود الفلاشة والارمن والمجوس ، كان يتمتع النصراني عن مشاركتهم في الطعام ، أو الجلوس معهم والاختلاط بهم ، ومخاطبتهم بصورة تدل على التحقير .

قابلهم المسلمون بالمثل وانضم إليهم في ذلك اليهود والارمن ، ولما حرمتهم الدولة من مملك الاراضي الزراعية ، اتجهوا إلى التجارة والحرف فأصبحت قاصرة عليهم وملكوا عن طريقها زمام البلاد ، وكان إحترافهم للتجارة وسيطرتهم عليها عاملا جديدا لتقلهم بين مختلف البلاد والأقاليم للتعامل في أسواقها مما جعلهم يتصلون بكثير من القبائل ويزيدون في رقعة الإسلام وتعدد المسابن .

الانقسامات الإقليمية :^(٢)

لما كان هدفنا هو العناية بتفصيل أخبار الاسلام في الحبشة ، فسوف

The Ethiopians by Ullendorff

(١) ص ٧٩ ، ٨٠

(٢) الاسلام في اثيوبيا لترينجهانم ص ٤٤٣ وما بعدها

(١٢ - الحبشة)

تنقى من حقائق هذه الفترة من تاريخ البلاد ما يتعلق بموضوعنا الأصلي وما يمكن لإبراز الصورة التي كانت عليها أحوال تلك البلاد .

أتى إنشاء مدينة جوندان وتركيز العاصمة بها بنتائج عكسية لم تكن متوقعة إذ أنه قبل انشائها لم تكن للامبراطور عاصمة محددة ، بل كان ينتقل من مقاطعة إلى أخرى ومعه حاشيته ورجال حكمه ، وكانت بذلك تنتقل معه السلطة من مكان إلى مكان حتى تشمل جميع المقاطعات ، فما يكاد يصل الامبراطور إلى أية مقاطعة حتى يتخذ من الاجراءات ما يقيم بها العدل ويقضى على المنازعات ويوطد أركان حكمه ، وما أن تصبح الحاجة ماسة إلى إقرار النظام مرة أخرى في أى مقاطعة حتى يكون قد أتى دورها من زيارات الامبراطور .

فما أن أقام الامبراطور فاسيلاداس في جوندان حتى قلت زيارته للأقاليم الأخرى ، وقصرت مدة اقامته بها وعلى الأخص تلك المقاطعات البعيدة عن العاصمة ، ولم يعد في إمكان الامبراطور السيطرة الحقيقية إلا على المقاطعات القريبة منه وهي مقاطعات أمهرا ويجمدير ، وعلى درجة أقل سيطرة في مقاطعات جوجام وداموت . بينما فقدت باقي المقاطعات شعورها بسلطة الامبراطور .

وبتركيز الحاشية ورجال البلاط في العاصمة طوال الوقت ، بدأت فيها بينهم التكتلات والمؤامرات التي لعبت فيها الاطباع دورا كبيرا حتى أصبحت الانقلابات وحوادث القتل والاعتداء على الملوك من الأمور الشائعة ، وبذلك بدأت قيمة مملكة جوندان في التدهور ، وتهيأت الفرصة للجنود المرتزقة ، وأسرى قبائل الجلالسكي يلعبوا أدوارا بالغة الأثر في تاريخ الدولة حتى جاء الوقت الذي أصبحت فيه العاصمة تحت سيطرتهم .

* * *

تعاقب على العرش عدد من الأباطرة الذين دبت في عهودهم عوامل

الفوضى والاضلال ، وكانوا يجاهدون في يأس ، ويتلسون الوسائل التي تقوى من شوكتهم وتحفظ لهم سلطانهم .

وتعرضت هيبة الامبراطور (إياسو الثاني) إلى كثير من الضعف عندما لحقت بجيوشه الهزيمة الساحقة من جيوش مملكة الفونج الإسلامية (في السودان) على النيل الأزرق عام (١٧٣٥ - أو عام ١٧٤٤ م) ، وكذلك عندما تعرض وفد ملك الحبشة إلى مصر للحصول على مطران ، لاعتداء الأتراك العثمانيين في حرققو ومصوع في ذهاب الوفد وفي عودته .

ولقد عمدت والدة الامبراطور وقتئذ على تقوية مركز نجلها بزويجه من ابنة أحد زعماء الجالا الأقوياء ، وبذلك اختلط دم الأسرة المالكة بعنصر جديد ، واكتسبت الجالا مقاماً سامياً بعد أن أصبح من أبنائهم من ارتقى إلى مركز الإمارة ، وأصبح من بين ملوك الحبشة المسيحية من يجرى في عروقه دم قبائل الجالا ، وما أن حدث هذا الاختلاط حتى أمعن الجالا في الحصول على النفوذ والثروة وازدادت قوتهم واكتسبوا المزيد من السلطة وأصبحت لهم خطورة من نوع جديد ، وتسلموا من المناصب الكبرى ما كانت في السابق وفقاً على أمراء البيت المالك ، ومن ذلك تعيين اثنين منهم محافظين للمقاطعات^(١) .

أدت هذه الأحداث إلى ما ليس منه بد ، وهو إقسام الامارات وقويت شوكة بعض الأمراء بحيث أخذ كل أمير يتصرف مستقلاً عن الملك أو الامبراطور ، ودارت بين هذه المقاطعات المناوشات والحروب الصغيرة والغارات . ومنذ ذلك الوقت بدأت دولة الحبشة تتخذ شكلها القديم وهو عبارة عن مجموعة من الممالك المستقلة التي يتنافر بعضها مع بعض ، على رأسهم نجاشي لا يملك إلا السلطة الرمزية التي لا تمتد في حقيقتها خارج حدود عاصمته جوندار .

(١) ص ١٠٤ - ١٠٥ الاسلام في اثيوبيا لترتجمام .

تفكك الامبراطورية وسيطرة الجالا على العرش :

لم تكن الامبراطورية الحبشية في أى عهد من عهودها متجانسة من الوجهة السياسية ، بل كانت دائماً عبارة عن مجموعتين الامارات أو السلطنات ، ومن هنا جاءت تسمية الامبراطور (بملك الملوك) ، ولذلك كان توحيد الدولة بطيئاً ، ولم يصل في التاريخ إلى الوحدة الحقيقية الكاملة ، والحقيقة أن سلطة الحكومة المركزية لم تكن تبرز وتأييد إلا كلما كان هناك خطر مشترك يحاول الجميع دفعه كالاتحاد بين الممالك المسيحية لمواجهة الزحف الاسلامى . أو كلما تسلم العرش ملك قوى وعاونته الظروف على السيطرة على أنحاء البلاد المختلفة - بالقوة -

وكما كانت الوحدة بعيدة ، بطيئة التحقيق كذلك كانت التفرقة الكاملة بين الإمارات المسيحية بعيدة التحقيق أيضاً ، إذ كانت سلطة الأسرة السليمانية التاريخية وكذلك نفوذ الكنيسة من العوامل التي حالت دون حدوث التفرقة الكاملة في المملكة المسيحية .

وبالرغم من ذلك كانت سلطة الامبراطورية تتضاءل كلما امتد زحف قبائل الجالا التي تمكنت من الانتشار بحيث أحاطت بكثير من الإمارات وعزلتها عن جاراتها مثل مملكة سيداما ، وامتد انتشارهم إلى منطقة النيل الأزرق وشمل أغلب إقليم شوا ، وبنما تسلق فريق منهم منطقة الجرف الكبير في الغرب كان الفريق الآخر يمتد إلى شرقى مملكة الحبشة إلى نهر أوأش ، وفيما بينهما توغلا في صميم الهضبة وتمكنوا من تكوين مجموعات قوية من قبائلهم مثل (واللو Wallo) و (الباجو Yajjo) و (الراجا Raja) .

ولم تقتصر أهمية الجالا على تغلغلها في البلاد وتمزيق الروابط بين مختلف الممالك وسيطرتهم على الحرس الامبراطورى ، وإنما ازدادت خطورتهم لانهم اعتنقوا الاسلام^(١) ، وعندما استقروا وتركوا طبيعتهم

(١) ص ١٠٦ الاسلام فى اثيوبيا لترمفهام .

البدوية وأصبحت لهم مراكز ثابتة واشتغلوا بالزراعة والرعي - تكونت منهم كتل قوية مركزة تتميز بصفاتنا الحربية الممتازة ، مما جعل الامبراطور يستزيد من اعتماده عليهم ، وحذا حذوه باقي الأمراء والملوك ، أما من جانبهم فقد حافظوا على استقلالهم وتكتلاتهم وفي القرن الثامن عشر عززوا استقلال شخصيتهم باعترافهم الاسلام^(١) .

وبالرغم من اشتراك جميع قبائل الجالا فوق الحضبة في اعتناق الإسلام إلا أن فروعهم المختلفة لم تفكر في الاتحاد مع بعضها تحت هدف واحد بل كانت مكنتية بما وصلت اليه من نفوذ . ولم يطرأ من الحوادث ما يدفعها إلى التفكير في الاتحاد والتكتل ، ولقد كتب في ذلك الميجر هارس (Major Harris) الذي أوفد في مهمة إلى ملك شوا عام ١٨٤٠م وقال . (ولقد كان الجالا يكرهون المسيحيين والوثنيين على السواء ، ويعاملونهم بقسوة وشدة كلما أتحت لهم الفرصة لذلك ، ولو أن قبائل الجالا المذكورة تهيأت لها الظروف للاتحاد ووقعت الحبشة تحت سلطة حاكم مسلم لا كفسحت قبائل الجالا جميع البلاد وقضت على ما عداها من سلطات) .

ولكن قبائل الجالا لم تفكر في مثل هذه الأمور ولم تتطلع إلى العرش وبذلك بقيت مملكة الحبشة - على ضعفها - محافظة على عرشها الرمزي ؛ بالرغم من أن المملكة انقسمت إلى أربع مقاطعات هامة فوق الحضبة تتمتع كل منها بقدر كبير من الاستقلال ، ولم يكن يجمعهم إلا الولاء الاسمي للامبراطور وولائهم جميعاً للكنيسة الحبشية . وهي مقاطعات أمره وتجرى وجوجام وشوا .

ومرت بهم كثير من الأوقات التي زالت فيها سلطة الامبراطور الرمزية وأخذت الإمارات الأربع تتصل مع الدول الأجنبية مباشرة وتعتد معها المعاهدات السياسية . ولكن هذه الظروف ما لبثت أن انتهت ، بعد أن بدأ

(١) ص ١٠٧ الاسلام في انيويوا لترمنجام .

أمراء الحبشة يشعرون بالخطر الذي يتهددهم بزيادة النفوذ الإسلامي وقوة الممالك الإسلامية التي زاد نشاطها في مصر والسودان والبحر الأحمر .

كذلك بدأ الأمراء يشعرون أيضاً بخطر آخر يهددهم من ازدياد قوة الدول الأوربية وأطماعها التي أخذت مظهرأ خطيراً منذ بداية القرن الثامن عشر .

كل هذه الظروف مجتمعة هيأت الظروف لظهور شخصية كبيرة في الحبشة وقضت على سلطة الجالا ، وتغلّبت على أمراء المقاطعات المختلفة ووحدت المملكة الحبشية المسيحية فوق الهضبة تحت سلطانها وقطعت تسلسل الحكم من الأسرة السلبيانية وهذه الشخصية الهامة هي شخصية ملك الملوك النجاشي تيودور الثالث الذي تولى العرش في عام ١٨٥٥م^(١) .
التي سيأتي تفصيل ذكرها في فصل قادم مستقل .

* * *

تقدم الإسلام أثناء الانقسامات الاقليمية^(٢) :

كان الإسلام في بداية القرن التاسع عشر يمر بفترة ركود . فقد أثناءها حماسه ونشاطه نحو التقدم والانتشار ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار انتشاره بين قبائل الجالا وقبائل الباتو .

وأما ممالك سيداما فانها بعد مقاومة دامت قرنين من الزمان اعتنقت الإسلام ، وأهمها ممالك (جيمبا Jimma) (وجوما Gomma) (وليما أينا ربا LimmaEnarya) (وجيوما Guma) وجميعها في الجنوب الغربي من الحبشة ولم يكن اعتناق هذه الممالك للإسلام راجعاً لنفوذ قبائل الجالا وحده ، بل كان يعود إلى النشاط الذي بذله التجار المسلمون وتقدير شعوب هذه الممالك لهم ، لما كانوا يجلبونه للبلاد من خير ورواج ، ولقد عاش هؤلاء التجار

(١) ص ١٠٥ وما بعدها الإسلام في إثيوبيا لترمنجهم .

(٢) ص ١٠٩ وما بعدها نفس المرجع .

بينهم واختلطوا بهم وتزوجوا منهم ولم يكونوا ليغادروا تلك البلاد الامرة واحده كل عام ، إما إلى السودان أو إلى الشاطئ الشرقي من أفريقيا ، وبذلك أتاحت لهم الظروف وساعدهم الوقت على نشر الدعوة الاسلامية ، فأأن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كان ملوك هنالممالك والغالبية الكبرى من شعوبهم قد اعتنقت الاسلام .

ولقد تمكنت مدينة هرر في تلك الأثناء من استعادة نشاطها كمرکز للاشعاع الاسلامي في أنحاء المقاطعة وعلى وجه الخصوص بين قبائل الجلالا التي كانت تعيش إلى الجنوب والغرب من هرر ، أما منطقة العروسي فلم ينتشر فيها الإسلام إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وأما في مملكة الحبشة نفسها (فوق الهضبة) فقد بلغ انتشار الاسلام فيها مبلغا كبيرا عن طريق إسلام قبائل الجلالا الذين استقروا فوق الهضبة كما سبق أن قدمنا وزاد على ذلك أن ظهر من بينهم كثير من الأمراء الأقوياء الذين حببوا سلطة الامبراطور الاسمية في جوندار ، وأصبحت اماراة بعض الامارات وراثية بينهم في بعض المقاطعات مثل مقاطعة بيجمدير . ولكن للحصول على لقب الامارة أو تسم الملك حتى ذلك العهد كان من التقاليد والقوانين القديمة في مملكة الحبشة الا تكون الامارة لابن المسيحيين لذلك كان المسلمون الذين بطمعون في لقب الامارة يختصرون الطريق ويوفرون على أنفسهم كثيرا من المشاكل والعقبات ويعلنون اعتناقهم الدين المسيحي ، وما كان ذلك منهم الا تمثيل ظاهري يقتضيه الموقف ، وكانوا في حقيقة الأمر محافظين على اسلامهم ويظهر ذلك منهم في تصرفاتهم وشعورهم وسياساتهم التي يتبعونها بين رعاياهم بتأييد الإسلام والمسلمين ، ولذلك كان من أظهر الشواهد على ذلك انتشار اسم «علي» و«الإمام» بين هؤلاء الأمراء ولقد كان من نتائج هذه الطريقة العجيبة أن زاد - الاسلام في داخل مملكة الحبشة المسيحية حتى بلغ حسب تقدير (ماسايا Massaya) إلى ثلث السكان مما ينم عن انتشار الإسلام بين الممالك المسيحية بشكل لم يكن منتظرا .

وبينا يعتقد البعض في أن التقدير السابق يميل إلى المبالغة ، فان التقديرات الأخرى التي تميل إلى التقليل (كتقدير ستيرن H.A'Stern, 1860) يقول أنه ولو أن أتباع النبي العربي ليسوا عديدين إلا في العاصمة جونداران فان هذا لا يمنع وجودهم في تجمعات صغيرة منتشرة في جميع أنحاء البلاد (كل هذه التقديرات السابقة تتعلق بانتشار الإسلام فوق الهضبة داخل مملكة الحبشة المسيحية ولا تتعلق بتعداد السكان في باقي مناطق الحبشة التي تشكل ثلاثة أرباع البلاد وينتشر فيها الاسلام انتشارا واسعا ، ويشمل من بينها ممالك باكملها.)^(١١)

* * *

ولقد أتت الفرصة للإسلام في عهد الاضطرابات التي سبق ذكرها أن ينتشر بين قبائل التيجري التي تسكن شمال الحبشة وكذلك جزءا من المنطقة المعروفة لدينا الآن باسم (اريتريا) ، ولقد كانت هذه القبائل التي بالأريتريا تمتنع المسيحية قبل ذلك ، ولكن جانبا كبيرا منها تحول إلى الإسلام وكان ذلك عائدا إلى سببين أساسيين ، ذكرهما (بلاوذين Ploowden)^(١٢) أولها انتشار الفوضى والاضطرابات في المنطقة وتخاذل الحكام المسيحيين وثانيهما نشاط التجار ومعهم الدعاة المسلمون ، وكانت أحوال الكنيسة ورجال الدين المسيحي في ذلك العهد تمر بمرحلة من الضعف والاضطراب بلغت بهم إلى حد اليأس ، فتضافرت جميع الظروف إلى دفع السكان إلى أحضان الإسلام. وظهرت في ذلك الوقت مجيودات دعاء الإسلام المشهورين من أمثال الوهايين والسيد / أحمد بن ادريس القاسمي ، اللذين امتد أثرهم حتى شمل جميع القبائل التي تتكلم اللغة التيجرية ، بالإضافة إلى قبائل بني عامر وباقي فروع البجة التي سبقتهم إلى الإسلام بتأثير مملكة الفونج السودانية ، وبلغ نشاط دعاء الإسلام ذروته في عهد محمد عثمان الميرغني الذي أوفده أحمد بن

(١١) المؤلف .

W. C. Plowden, Travels in Abyssinia (1868) p 15

(١٢)

ادريس في عام ١٨١٧ م وما أن جاء الفتح المصرى حتى تم اسلام جميع هذه المناطق .

ولقد ذكر الرحالة الذين زاروا هذه البلاد ، أن السبب في نجاح الإسلام في المناطق المسيحية هو التفوق الروحي الذي تميزه المسلمون عن المسيحيين^(١) وذكر (روبل Ruppel)^(٢) أن المسلمين « الجبرته » كانوا يتميزون عن المسيحيين بالنشاط ، ولقد كان أطفالهم يقبلون على تعلم مبادئ القراءة والكتابة بينما لم يكن يعنى المسيحيون بتعليم أبنائهم أى شيء ، اللهم إلا بعض هؤلاء الذين كانوا يعدونهم للخدمة بالكنيسة . ولذلك كان من الطبيعي أن يتولى المسلمون جميع المناصب التي تتطلب الكفاءة والثقة .

* * *

وما ساعد على انتشار الاسلام في الحبشة كما حدث في المناطق الأخرى من أفريقيا ، أن الحبشى المسيحي يعتبر نفسه محاربا أو راعيا ، ويحتقر التجارة والتجار ، لذلك سيطر المسلمون على التجارة الداخلية والخارجية مما جعلهم يتميزون بالصفات التي تكتسب من الحركة والسفر والاتصال .

ولكن انتشار الاسلام في تلك الفترة كانت تسوده العوامل الطبيعية الهادئة في التغلغل ، ولم تتسرب إلى الأذهان نزعات التكتل والاتحاد التي تثيرهم المسيحيين ضدهم . فلم يابه المسيحيون بما يجرى حولهم ، ومع ذلك فانهم أخذوا يشعرون بالخطر الذي يداهمهم من جهة قبائل الجالا وتسلمهم إلى معازل المسيحية فوق الهضبة ، ولكن الكنيسة كانت في حالة من الضعف والانعزال فلم تتمكن من إيقاف هؤلاء الجالا المسلمين عند حدهم فتحطمت الملكية وساد عهد الانقسامات الاقليمية فترة من الزمن .

(١) ص ١١٢ في الاسلام في اثيوبيا لترجمتهما .

(٢) E.Ruppel, Reise in A bysinnien (1388) 327-8, 366. (٢)

وقد ذكر السكاردينال (ماساجا) الذي أمضى خمسة وثلاثين عاما يعمل في التبشير في الحبشة ، (أن نفوذ الاسلام في ختام هذا العهد قد وصل إلى الحد الذي لو أتيح له وجود إمام آخر مثل الامام أحمد الاشول ، ليرفع راية الرسول لتحولت جميع الدولة إلى الاسلام) ويدل تصريح ماساجا هنا على مقدار ما وصل إليه نفوذ الإسلام في ذلك الوقت ، ولكن الخطر جاء إلى البلاد بعد ذلك من الخارج ^(١)

الفصل الثاني عشر

الامبراطور تيودور

والحملة الإنجليزية

وصلنا في تسلسل الحوادث إلى نهاية القرن الثامن عشر عندما انقسمت مملكة الحبشة المسيحية (على مرتفعات الهضبة) إلى عدة ممالك كل منها تتمتع بقسط كبير من الاستقلال وتضائل سلطة الامبراطور ولم تكن تتعدى حدود مدينته جوندار . عاصمة مملكة، واستمر هذا الانقسام في المملكة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى اتبعت للمملكة من وحيدها، ظهر فجأة واختفى فجأة فكان حكمه كالشهاب ، ما أن سيطر على البلاد في سرعة خاطفة حتى اختفى بنفس السرعة — وكان حكمه للحبشة لحظة من لحظات التاريخ .

ولد كاسا (الذي سمي نفسه فيما بعد — تيودور) في عام 1818م وكان والده من موظفي الحكومة وكانت والدته من امرئة متواضعة ، وكانت ولادته بين قبائل الاجاو في غرب الحبشة سبباً في معرفته للغة (كوارو) بجانب معرفته للأمرية ، ولقد مات أبوه وهو لا يزال طفلاً صغيراً ، وعندما شب التحق بالدير ليتلقى التعليم التقليدي لرجال الدين . مما كان له شأن كبير في تقانيه وتمصبه في خدمة الديانة المسيحية فيما بعد . وشاءت الظروف التي سادت البلاد في ذلك العهد أن يحطم الدير ، فدفعت به الاقدار لكي يكون زعيماً لاحدى عصابات قطاع الطرق (الشيفتا Shitta) التي كانت مقصورة على الشباب الذي يتمتع بالشجاعة والجرأة والقدرة على الحركة والقتال ، ولقد كانت لتلك الفترة أهم أثر في حياته ، إذ كانت أساساً لنبوغه فيما بعد كجندي قدير وكقائد وزعيم .

ولقد حازت غاراته وغنائه شهرة واسعة لفتت إليه الأنظار وجعلته أهلاً لكي يتزوج من ابنة الرأس على أمير بيجمدير . واستمر في جولاته وغاراته حتى تمكن من هزيمة كثير من الأمراء وعلى رأسهم أمراء قبائل الجالا ومن بينهم والد زوجته ، وبذلك قضى على سلطة الجالا ونفوذهم، وبعد ذلك أخضع مقاطعة تيجرى ، وما أن جاء عام ١٨٥٠ حتى كان قد قضى على جميع الملوك والأمراء المتنافسين .

ونصب نفسه امبراطوراً في عام ١٨٥٥، وسمى نفسه الامبراطور تيودور الثالث^(١) وأدعى بأنه نسل الأسرة السلطانية الحاكمة وهذا يخالف ما عرفنا عن حقيقة نشأته ، كذلك زعم أنه هو المقصود بنبؤة قديمة تقول : يظهر ملك اسمه تيودور يحطم الإسلام ويبعد الاستيلاء على بيت المقدس^(٢) ، ولذلك رسخ في ذهنه أنه بطل جديد لحروب صليبية ضد المسلمين وسيطرته هذه الفكرة عليه واستمرت بارزة في جميع تصرفاته .

* * *

ولقد كان النفوذ البريطاني قد بدأ في الظهور في هذه الجهات منذ وقت غير بعيد ، وبدأ نشاط بريطانيا في إنشاء العلاقات مع مختلف الممالك وتوطد صلاحها فأوفدت إلى الحبشة قنصلها يدعى (بلاودن Walter C. Plowden) الذي عاصر الامبراطور تيودور وعرفه عن قرب وكان موضع ثقته وعاش بالحبشة مدة طويلة ويعود اليه الفضل في كتابة تفصيل هام لتاريخ هذه الفترة، ولقد كتب بلاودن في وصف تيودور ما يعتبر أدق وصف لشخصيته العجيبة المليئة بالتناقض .

ولقد كان تيودور في كثير من أفعاله قريب الشبه بإيفان الرهيب، وفاق

في قسوته جميع المقاييس الحيشية ، ولكن تمر به بعض المناسبات الطيبة التي تظهر عليه فيها لمحات من النبل ، ولقد كان سريع الغضب والانفعال ولذلك لم يكن ذلك الشرير الذي يدبر الشر ، ولكنه يقوم بأفعاله الجنونية دون سابق تحضير أو تفكير .

و عندما كان تيودور صغيراً كانت تغلب عليه سمات اللباقة والرقه ، ولما كبر وتسلم زمام السلطة أصبح عنيف الغضب ، يرتجف منه الجميع ، ولكنه كان جم النشاط والحزم متديناً - بالغ الكرم - متحلياً بجميع الصفات التي يتحلى بها كثير من الزعماء من شجاعة وطموح وخيال وتفان في تحقيق الإصلاح والتقدم ، ولكنه بجانب هذا لم يكن يتحمل الفشل (١) .

ولقد كانت تلك الصفات العنيفة المتناقضة سيئاً جوهرياً في اضطراب تقديره للأمر وعواقبها ، ولم تسمح له بأن يتبين طريقه بحيث يعلم أين يتوقف ، وعندما لحقته المزممة أخذ في ثورة هوجاء يضرب ذات اليمين واليسار محطماً أعوانه كما حطم أمماده ، يتملكه شعور الأطفال الذين يرتكبون الأخطاء وهم يعلبون أنها أخطاء ثم يندمون بعد ذلك ويطلبون المغفرة .

. . .

تمكن الامبراطور تيودور من السيطرة على مملكة الحبشة وتوحيدها ، وقضى على سلطة الملوك والأمراء وأعاد إلى الكنيسة هيبتها ومكانتها بين الناس ، وعاد الشعب للالتفاف حولها ، وبذلك أخذت تبرز إلى الوجود شخصية الدولة الحبشية الحديثة .

ولقد بادر بإجراء كثير من الإصلاحات في شؤون الدولة . بأن النبي

تجارة الرقيق وتعدد الزوجات . وإن كان تحقيقهما الكامل لم يتم ، إلا أن اتجاهه في سبيل الإصلاح لمثل هذه الأمور يتم عن حبه للعدل وشغفه بحماية رعاياه .

ولقد شعر تيودور بأن اتخاذ جوتندار عاصمة للدولة كانت له آثاره السيئة في انهيار سلطة الأباطرة ولذلك نقل عاصمة ملكه إلى (مجدلا Magdala) التي تتوسط الدولة وتميز بحصانة موقعها ، وعاد إلى عادات الأباطرة القدامى بكثرة التنقل بين الأقاليم حتى تظل سيطرته قائمة ، ويظل الأمن مستتباً والولاء له مستمراً وساعده على تنقلاته وسرعة حركته ما كسبه في شبابه من خبرة عندما كان زعيماً لحدى عصابات قطاع الطارق (الشيفتا) ولقد أضاف إلى تنقلاته مظهرًا جديدًا وهو استعماله للمرة الأولى عددًا كبيراً من الخيام له ولأفراد حاشيته وجنوده .

. . .

علاقته مع بريطانيا :

في عام ١٨٦٠ توفي القنصل البريطاني (بلاودن) وهناك اعتقاد بأنه مات مقتولاً فأرسلت بريطانيا في عام ١٨٦٢ قنصلاً آخر يدعى (كابتن كاميرون Captain Cameron) وحمل معه خطاباً إلى تيودور من الملكة فيكتوريا ، وحرر تيودور رداً إلى الملكة ، ولأهمية هذا الكتاب وما نشأ عنه من سوء تفاهم وما ترتب عليه من أحداث جسام نورد فيما يلي ترجمته الكاملة .

(باسم الأب والابن والروح والقدس - الإله الواحد في الثالث ، من ملك الملوك المختار . من الرب - تيودور ملك أثيوبيا إلى صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا) .

و أهني لجلالتك الصحة البلية - وأتي في خير حال بمشيئة الله . إن

آبائي الأباطرة بعد أن نسوا الخالق فإنه قد أعطى ملكتهم إلى الجلال والأتراك، ولكن الله قد بعثى ورفعنى من التراب ووضع هذه الامبراطورية تحت حكمى، ومنحنى من القوة ما مكنتى من الوقوف فى مكان أجدادى، وبهذه القوة تمكنت من التغلب على الجلال، أما بخصوص الأتراك فإننى أخطرتهم بترك بلاد أجدادى ولكنهم رفضوا ولذلك سوف أتصارع معهم .

« ولقد دأب مستر بلاودن وكذلك مرافقى الخاص الإنجليزى بل (Bell) على إخبارى بأنه توجد ملكة مسيحية عظيمة تحب المسيحيين . وعرضوا على أن يعملوا على تعارفنا وعقد الصداقة بيننا، مما ملأنى سروراً بحصولى على نوايا جلالتكم الطيبة . »

« والموت مقدر على جميع الرجال، ولقد قام أعدائى بقتل أصدقائى (بلاودن وبل) ولكنى بمشيئة الله قضيت على هؤلاء الأعداء ولم أترك منهم أحداً، بالرغم من أنهم كانوا من أفراد عائلتى، حتى أحظى بصداقتكم بمشيئة الله، وأن الأتراك الذين يسيطرون على شواطئ البحر يمنعوننى من إضاد بعثة إلى جلالتكم عندما أكون فى شدة . ولقد وصل القنصل كاهيرون ومعهم كتابكم وهداياكم، ولقد سررت بسماع أخباركم وتأكيد صداقاتكم، وأشكركم على هداياكم . »

« ولانى أخشى إذ أنا أرسلت وفداً من عندى يحمل هداياى إليكم أن يقبض عليهم الأتراك، ولذلك أرجوكم أن تقوموا بالمحافظة على سلامة رسلى فى جميع مراحل الطريق، وأود أن أتلقى رداً على كتابى هذاعن طريق القنصل كاهيرون الذى يحمل رسالتى إلى الجلال، انظروا كيف يظلم الإسلام المسيحيين . »

ولقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى لندن، وشاءت الظروف أن يهمله أحد موظفى وزارة الخارجية، ولم يصل تيودور ردد فى الوقت المناسب مما أثار غضبه . واعتبره إهانة، زادت فى نظره خطورة عندما علم أن

كاميرون قد عاد من لندن إلى شرقي السودان ، كسلا ، لكي يدرس إمكان
زراعة القطن بها بعد أن نقص الوارد منه إلى إنجلترا بسبب الحرب
الاهلية الأمريكية . وكانت السودان في ذلك الوقت العدو للدودللامبراطور
تيودور . وتبلخه بين الحين والآخر أخبار استعداد (المصريين) في السودان
وتأهبهم لغزو الحبشة .

ولقد كانت حمى التنافس الاستعماري قد بدأت في الحبشة ، وكان بها
عدد من الأوروبيين من مختلف الجنسيات . بدرت من بعضهم نزعات التبرص
. وانتهاز الفرص ، وأساء البعض الآخر فهم العقلية الحبشية وكانت بعض
تصرفاتهم تسمى إلى أهل البلاد وعلى الأخص نشاط البعثات التبشيرية التي
حاولت تحويل الشعب إلى المذهب الكاثوليكي ، دفعت جميع هذه الأمور
مجتمعة الامبراطور تيودور إلى الريبة في جميع الأوروبيين واتخاذ الحيلة
من أساليبهم وغضب الامبراطور غضباً شديداً عندما بلغه أن المبشر الانجليزي
شيترن (Stern) ألف كتاباً فيه إهانة للامبراطور وأمرته - وتطوع
الفرنسيون بترجمته للامبراطور .

وعندما تخيل تيودور من كل ما سبق من أحداث أن الإنجليز يتآمرون
مع الأتراك والمصريين للقضاء على الحبشة . انقضت على الرسائل الأوروبية
الموجودة في جوندار وكلمهم بالاعلال ووضعهم في السجون . وما أن صاد
كاميرون في ١٨٦٤ إلى الحبشة حتى قبض عليه الامبراطور ووضعه في
السجن مع الآخرين .

فشلت جميع وسائل الشرح والاقناع والتفسير مع الامبراطور تيودور
الذي تغلب عليه أسوأ صفاته واحتدمت نيران غضبه وأمر بتعذيب كاميرون ،
حوصلت أخبار تلك الحوادث إلى عدن في ١٨٦٤ م ومنها إلى لندن ، وأدت
إلى تحرير كتاب من الملكة فيكتوريا إلى الامبراطور تيودور
تقول فيه : -

(بلغنا أخيراً أن جلالته قد سحبت ثقتكم وعطفكم من خادمنا ، ونحن على ثقة من أن ذلك يعود إلى تفسيرات خاطئة بيدها إليكم أشخاص لا يجمعون لكم مودة وبهمهم أن يعكروا صفو العلاقات وشعورنا الطيب نحوكم ، وليس هناك دليل على حسن نوايا جلالتهكم أبلغ من إطلاق سراح خادمنا كامرون ومن معه من الأوربيين ومساعدتهم وحياتهم في طريق عودتهم إلى الأماكن التي يرغبون العودة إليها) .

ولكن تيودور استمر في عناده ولم يقم وزنا لكتاب الملكة فيكتوريا ، وأمعن في إهمال وفودها ثم حجزم في بلاده ومنعهم من العودة ثم أمر بسجنهم ، ووضع الأغلال في أيدي وأقدام أغلب المعتقلين ، واستعمل مع مندوبي إنجلترا أساليب المزاوغة التي اشتهر بها الأبحاش ، وبلغ في ذلك أقصى ما عرف عنهم في هذا الشأن ، واستمر تمزيبه لمندوبي إنجلترا ومن معهم من الأوربيين ما بنوف عن أربع سنوات - مما لم تجد إنجلترا معه بدأ من الالتجاء إلى القوة . فجدت عليه الحملة الشهيرة تحت قيادة (سير روبرت نابيير Sir Robert Napier) . التي سنرى تفصيلها فيما بعد .

* * *

وكان تيودور يعتبر الحبشة والمسيحية صنوان لا يفرقان ، لذلك جعل مهمة بعد انتصاره على الجالا وإخضاعه جميع الممالك ، أن يستعمل القوة في إجبار المسلمين والجالا وكذلك الفلاشة والأجاو على اعتناق المسيحية . ولكنه فشل في تحقيق ذلك ^(١) بالرغم من قوة الإجراءات التي اتخذها في هذا الشأن .

ولقد ساءت علاقة تيودور مع الكنيسة القبطية في عهد البطرك كيرلس الرابع لأنه استجاب لرغبة خديوى مصر في السفر إلى الحبشة للتوسط

(١) الإسلام في اثيوبيا لترمنجهم ص ١١٨

لدى الأمبراطور تيودور لتحسين العلاقات بين مصر والحبشة ، ولقد كانت هذه أول مرة يقوم فيها بطريك بزيارة الحبشة ، ولكن تيودور لم يكن على استعداد للاقتناع بمهمة البطريرك وكيف يمكن أن يكون وهو رأس الكنيسة القبطية رسولا لدولة مسلمة ، ولذلك قابله ببرود في ديسمبر سنة ١٨٥٦ م ، ثم سجنه بضعة أيام ولم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا في نوفمبر سنة ١٨٥٧ م ، وسوف يأتي تفصيل لموقف مصر من الحبشة خلال تلك الفترة في الفصل القادم ^(١) .

* * *

فدعنا أن تيودور قام بكثير من الإصلاحات الجريئة ، وكان من الواضح أن تلك الإصلاحات قد لاقت الترحيب من الشعب ، بينما وقف منها الأمراء الإقطاعيون موقف العداء ، ولكنهم أمام سلطة تيودور وبطشه اتجه عداؤهم له يتخذ طابع التآمر السرى ، وتمسكوا من إثارة بعض القلائل التي قعها تيودور بمنتهى الشدة والقسوة ، وعندما شعر بأنه وحيد ولا يؤازره أحد من الأمراء ، أمعن في البطش والعنف ، وأصبح ضارياً لا يمكن تهدئته أو التغامم معه ، وطلعت قسوته على ما كان لديه من صفات حميدة ، وسيطرت عليه عصبية بلغت حد الجنون .

لذلك لم يكن توحيد الحبشة ذا فائدة أو معنى حقيقى ، إذ أنه وحد البلاد بالقوة ، واكتسب عداء جميع الأمراء الذين أخذوا يتجبنون الفرص للنيل منه . مما اضطره للاعتماد الكامل على قواته العسكرية ، يقفز بها من مكان إلى آخر لإخماد الثورات .

* * *

طنبيان تيودور :

عندما أصبح تيودور في أوج قوته عمل على تحقيق ثلاثة أهداف هامة :

(١) ص ١١٨ نفس المرجع .

- ١ - القضاء على سلطة الطبقة الأرستقراطية والإقطاعية في البلاد .
- ٢ - القضاء على الجالا أو اعتناقهم المسيحية .
- ٣ - طرد جميع المسلمين الذين لا يعتنقون المسيحية .

بدأ حروبه مع الجالا وفي طريقه استولى على مملكة شوا ، ولما مات ملكها استولى على ما عنده من مدافع ، (التي كان قد أهداها الميجر هاريس إلى سلفه سهلا سلامى) وأسر زوجة الملك وابنها متليك - ولكنه أحسن معاملة متليك وعامله كإبن له . بالرغم من أنه إحتاط وحدد إقامته داخل قلعة مجدلا .

وفجأة ركب تيودور الغرور وتغيرت أخلاقه وأصابته لوثة من الجنون في القتل والفتك بالناس . فكان يجمعهم (٧٠٠٠ في إحدى الممرات) ويحرقهم مرة واحدة ، ثم أمر مرة أخرى بإطلاق النار على ٤٥٠ قسيس خرجوا بالطبول لاستقباله فقتلهم دفعة واحدة - بدون سبب - وأحرق في إحدى نزواته ١٧٠٠ من الفلاحين والعمال ، وأمر جنوده بالاستيلاء على ما في مدينة جوندال من غنائم - واعتدى جنوده على الأديرة وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف ولم يبقوا فيها شيئاً حتى ملابس الرهبان والأثاث والصلبان والستائر الحريرية والحلى الذهبية ، ونقلوها جميعاً إلى دبرا تابور ، ثم نقلت فيما بعد إلى مجدلا .

وتقول المصادر الأثيوبية التي سجلت هذه الحوادث أن تيودور قد أسكرته خمر النصر والقوة ، فتعدت وحشيته جميع الحدود المألوفة حتى بين العصابات المتوحشة في الحبشة .

ولكنه استمر يعامل متليك معاملة طيبة وزوجه من ابنته - ولكن متليك ووالدته تمكنا في إحدى الليالي من الهروب من قلعة مجدلا - ويبدو أن ذلك تم بمعاونة باقى الأسرى ومعظمهم من قبائل الجالا وكان معهم المطران

الذى كان معتقلا وقتئذ ، وعاد منليك إلى مملكة شوا واستقبله الشعب هناك استقبالاً رائعاً - فثار غضب تيودور واستدعى أماله ٢٤ رئيساً من زعماء الجبال وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قذف بهم من ربوة عالية فتحطموا ^(١) .

تجمع زعماء الجبال وقرروا العصيان ، ووجدوا قواتهم (١٨٦١ - ١٨٦٢) وقاموا بثوراتهم - وعند وصول منليك إلى شوا أعلن استقلاله ، وفى وسط هذه المجازر التى يقيمها تيودور أخذ الشعب ينظر إلى منليك فى إعجاب وأمل - ولقد كانت نفس تيودور تراوده على الاستيلاء على مصر والسودان والنوبة وأواسط أفريقيا - ولكن الحكومة المصرية سبقته إلى ضم السودان إليها ، وبدأت تهدد حدوده ، وفى نفس الوقت كانت قوات الدول الأوروبية البحرية تنتشر فى البحر الأحمر وتتزعزع الموانئ الهامة من العثمانيين واحدة بعد الأخرى ، وأصبح تيودور محصوراً ، وأخذت منطقة نفوذه داخل بلاده فى الانكماش .

وكان أهم الملوك الذين ظهروا فى الحبشة فى ذلك الوقت واستقلوا عن الحكم التيودورى - منليك ملك شوا - ويوحنا ملك تيجرى - وجوباز ملك امهارا - ولقد أخذوا فى مراوغة تيودور وتحاشوا مجابهته فى معارك حربية - بل كانوا يفسحون ويتحصنون فى الجبال عندما تقدم قواته ، فكان تيودور يصب جام غضبه على الفلاحين ويقتلهم ويحرق منازلهم . ولقد أنهكته هذه المطاردات وقضت على جنوده الذين أباهم البرد والجوع ، وانخفضت جيوشه من ٥٠٠ ر ٥٠ إلى ٥٠٠٠ جندي ^(١) .

* * *

(١) المنفحات ٤٩٣ وما بعدها - السير بيج Budge

(٢) ص ٥٠٠ سير بيج Budge

حملة نابيير (Napier Expedition)^(١)

أثناء هذه الظروف التي كانت سائدة بالحجشة تحت حكم تيودور ، وصلت الحملة البريطانية تحت قيادة نابيير ونزلت في ميناء (زولا) جنوب مصوع في عام ١٨٦٧ وكانت قد سبقت ذلك عدة اتصالات وافق بعدها خديو مصر على أن يمد يد المعونة للإنجليز ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجي محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الإنجليزي في نزوله إلى البر ، ووضع الأسطول المصري تحت تصرف الإنجليز ينقل مهماتهم ومؤنهم من السويس إلى مصوع^(٢) . ولقد كان من أسباب منح بريطانيا هذه التسهيلات ، سوء العلاقات التي نشبت في ذلك الوقت بين تيودور وسعيد باشا والى مصر .

وقد قامت الحملة من بومباي بعد دراسة مستفيضة لجميع الظروف المتوقعة وغير المتوقعة ومتطلبات الحرب من أسلحة وأغذية ووسائل المواصلات الحديثة ، وأصبحت العناصر الأساسية للحملة تتألف من ٣٢٠٠٠ رجل منهم ١٣٠٠٠ جندي والباقي لأغراض الحملة المختلفة ومن بين الجنود ٤٠٠٠ أوربي فقط ، وكان للحملة ٥٥٠٠٠ من الدواب للركوب ونقل الأغذية والعنادر ، وكذلك ٥٠٠٠٠ طن من اللحوم المملحة ومثلها من لحم الخنزير و ٣٠٠٠٠ جالون من الخمر وكميات كبيرة من الخضروات المكبوسة واللبن المحضف .

ومن أهم مستحاثات الحملة احتوائها على ٤٤ من الأفيال المدربة للحمل للدفاع وكذلك معدات كاملة لمد خط سكة حديد طوله ثلاثون كيلو متراً

(١) لهذه الحملة تفاصيل مطولة شائعة جديره بالإطلاع عليها وعلى الاخص لى

C. R. Barkham - History of the Abyssinian Expedition

وكذلك الصنعات من ٢٠٥ - ٢٧٤ من The Blue Nile by Alan Moorehad

وأما هنا فكتبى بما ورد عنها باختصار لى من ١٨ ، ٨٨ ، ٨٩ من كتاب

The Ethiopians by Ullendorff

(٢) ص ١٤١ من كتاب عصر إسماعيل بقلم عبد الرحمن الرامسى .

(من زولا إلى سينافيه) ومعدات كاملة لإنشاء رصيفين لرسو البواخر ،
وجهازين من أجهزة تقطير مياه البحر لإعداده للشرب ، ولم ينس قائد الحملة
أن يجهز معه سلاحاً من أهم الأسلحة وهو نصف مليون ريال حبشى (ماري
تريزا) الذى له فعل السحر فى الحصول على معونة الشعب (ملحوظة -
استعمل الطليان نفس السلاح فى عام ١٩٣٦ ، واستعمله الانجليز مرة أخرى
فى الحرب العالمية الثانية فى حملتهم لطرد الطليان من الحدشة عام ١٩٤٣)
وكان إعداد الحملة على هذه الصورة فريداً فى بابه واستحداثاً فى أساليب الحرب
والتجهيز الحربى .

* * *

ولقد استفادت الحملة الانجليزية فى اجتيازها الستمائة كيلو متر التى كان
عليها أن تقطعها لتصل إلى مجدلا عاصمة تيودور ، من المساعدات والتسهيلات
التى قدمها لها رؤساء القبائل التى مرت بها لاسترداد كراهتهم لتيودور وحكمه
وعلى رأسهم الملك كاسا ملك التجرى ، ولم تصادف فى طريقها إلا بعض
المنافسات البسيطة ، ولم تقع إلا معركة حربية كبيرة واحدة بالقرب من مجدلا .
لنى فيها كثير من المحاربين الأجايش مصرعهم .

تبادل نايبير بعد المعركة بعض الرسائل مع تيودور لم يكن لها نصيب
من التوفيق ويبدو أنها لم تؤد الغرض المطلوب منها لما طرأ عليها من تحريف
فى الترجمة ، وعدم إلمام الانجليز بعقلية الأجايش وعاداتهم . واضطر نايبير
إلى الهجوم على مجدلا ودخلها فى أبريل سنة ١٨٦٨ ، وعندئذ انتحر الأمبراطور
تيودور بأن أطلق على نفسه الرصاص .

ولقد اختار تيودور لنفسه خاتمة عنيفة تتفق مع حياته العنيفة ، وليس
هناك من شك فى شدة تعلقه بيلاده وأندفاعه فى حياها وشغفه بتوحيدها
ورفعة شأنها ونشر الدين المسيحى بين ربوعها وتأييده وتثبيت أركانها ، ولكن
صفاته الأخرى التى جعلت منه حاكماً طاغياً لا حدود لقسوته طغت على

صفاته الطيبة ، فانطفأت شعله حياته فجأة ، ومر عهده بالحبشة كالغمام الحاطف .

* * *

استولى نايبير على الكنوز والنفائس التي جمعها تيودور من جميع الكنائس والأديرة والقصور وكندسها في قلعة مجدلا ، ومن بينها المخطوطات والكتب والمراجع - التي بلغت حوالي ١٠٠٠ مخطوط ، وزع نايبير بعضا منها على الكنائس مرة ثانية ، ونقل الباقي - وهو الجزء الأهم منها إلى لندن - وأودعت النفائس في متحف فيكتوريا والبرت - أما المخطوطات فوضعت في المتحف البريطاني .

ومن بين النفائس التي حملها معه نايبير تاج تيودور - الذي أعيد إلى الحبشة مرة أخرى إلى الرأس تقرى (هيلاسلاسى) (١) .

* * *

هدية الاسلحة الانجليزية للرأس كاسا (الامبراطور يوحنا)

قبل أن نختم هذا الفصل ، حرى بنا أن نتعرض لذكر أمر بالغ الخطورة في تاريخ الحبشة ، وله أكبر الأثر في الانتصارات الحربية التي أحرزتها مملكة الحبشة على السلطنات الاسلامية وأخضاعها فيها بعد ، وهو أمر هدية الاسلحة الانجليزية الحديثة للمملكة الحبشية المسيحية التي سبقت الإشارة إليها ، وقبل أن نمضي في ذكرها نرجو من القارئ أن يضيفها إلى قائمة الحطط البريطانية التي سنفصل ذكرها في الفصل القادم عند الكلام عن الحملات المصرية على الحبشة .

* * *

ذكرنا عند الكلام عن عهد تيودور كيف تجهزت حملة نايبير وكيف تفنت فيها اجمالاً فأحتوت على مقادير هائلة من أحدث أسلحة الحرب

(١) ص ١٦٦ سبر بديج Budge

وأكثرها ملامة للحروب في البلاد الجبلية مثل أراضي الحبشة - وكيف كانت حملة نابيير مقتصرة على إنقاذ الأسرى الأوربيين وعندما تم لها ذلك عادت إلى بلادها بسرعة .

ويبدى الكثيرون عجبهم من هذه السرعة التي انسحبت بها حملة نابيير بعد نجاحها الساحق وانتصارها على تيودور وقتله وخلق الجو تماما لها ولسيطرتها التامة على البلاد ، ولم نعهد في بريطانيا ولا في غيرها من الدول الاستعمارية في ذلك الوقت أن تنسحب من بلاد حققت مثل ذلك الانتصار فيها ، ولطالما تملكت بأتمه الأسباب للبقاء ، وهكذا كونت امبراطوريتها الواسعة .

لقد كانت مهمة حملة نابيير تحرير الأسرى الأوربيين من سجون تيودور وأعلنت ذلك وأكدته في كل مناسبة ، وكان يبدو أنه لا يعنىها أمر الحبشة أو من الذى سيملا الفراغ الذى تركه تيودور ، ولم يكن بالبلاد في ذلك الوقت غير بعض الأمراء ذوى النفوذ وأهمهم ثلاثة كما قدمنا - وهم منليك ملك شوا - وكاسا ملك تيجرى - وجوبازى ملك أمرا .

ولا يمكن أن يسلم الانسان براءة هذه السياسة التى أعلنتها بريطانيا ، وجميع المنطقة تغلى بالصراع بين الدول الكبرى للحصول على مناطق نفوذ ومستعمرات بشكل جنونى . ولا بد وأن يكون انسحاب بريطانيا من الحبشة بعد انتصارها الكبير هناك ، أمراً اقتضته الظروف السياسية في ذلك الوقت ولكنه في نفس الوقت انسحاب مدروس منخطط ، تمهد معه بريطانيا للحصول على ماتنتيه . وكانت انظارها متجهة إلى جميع المنطقة ، وأصابعها ممتدة إلى صميم الدول المحيطة بالحبشة ، فهى متغلغلة في السودان تحت اسم الحكومة المصرية . وتعمل على انتزاع أوغندا والافراد بها بعد أن فتحتها الجيوش المصرية . ثم تجوب أساطيلها شواطئ البحر الأحمر لتمكن من سيادتها وتحفز لانتهاز الفرص . وفوق كل ذلك فهى لاتخرج عن إجماع الدول

الأوروبية على تعزيز ملكة الحبشة المسيحية ، والعمل على تأييدها وبسط نفوذها .

ومما لاشك فيه أن بريطانيا قد أخذت في اعتبارها طبيعة البلاد الجبلية بالحبشة وطبيعة أهلها ، وماسوف يكبدها ذلك من مجهود ونفقات للبقاء في تلك البلاد ، ومع أن هذه النفقات والمجهودات في مقدورها ، إلا أن الموقف على هيئته الشاملة في المنطقة لا يستدعى بقاء القوات البريطانية في الحبشة . ومما لاشك فيه أن بريطانيا فضلت اتباع خطة أعظم فائدة وأكبر أثرا بالاستيلاء على مصر وتوابعها في السودان وأوغندا والصومال والبحر الأحمر وركزت جهودها في هذا السبيل .

ومما يؤيد يقيننا بخطة بريطانية بعيدة المدى مترامية الأطراف ، ذلك التناقض العجيب في المظاهر الواضحة للخطة . فبينما يتم لها الانتصار الساحق على الحبشة تسارع إلى الانسحاب وترك هدية لا تقدر بحال من الأسلحة الحديثة لملك الحبشة ، وتبين للعالم أجمع بأنها لم تدخل الحبشة لالانتفيمذعمل بطولى وهو انقاذ الأسرى الأوربيين وأنها أوفت بعهدها بعد انتهاء مهمتها بسرعة الانسحاب .

وفي نفس ذلك الوقت كانت تحيك الدسائس وتدير الحطط حول مصر وما أن استنجد بها الخديو توفيق حتى دخلت بجيوشها لتثيت عرشه في ١٨٨٢ على أن تغادر البلاد بعد ذلك ولكنها بقيت أكثر من سبعين عاما .

فان بريطانيا كانت في ذلك الوقت تنصب الفخاخ للخديو اسماعيل وتضيق الخناق عليه وتفرض عليه من رجالها حكما على المناطق المصرية الهامة وأهمها السودان الذى أرسلت إليه صمويل بيكر ثم من بعده جوردون الذين حكما السودان خلال الفترة التى تسلكم عنها ، وظهرت نوايا بريطانيا واضحة جليلة من اعجاب جوردون بالامبراطور يوحنا لمجهوداته في تصير المسلمين وكذلك رفضه تلبية اوامر الخديو اسماعيل لمعاونة الحملة المصرية التى نزلت

على شواطئ الصومال تماما لخطة تثبيت أقدام الفتوحات المصرية -- كما سيأتي ذكره فيما بعد .

* * *

لقد لعب الكولونيل (ميرويذر Merewether) المقيم البريطاني في عدن دورا بارزا في حملة نايير على الحبشة واليه يرجع الفضل الأكبر في تسجيل تاريخ هذه الحملة ، وهو الذى قام بالجانب السياسى منها وكان محورا للرسائل المتبادلة في كل مايتعلق بالحملة منذ قيام الازمة حتى نهايتها ، وكان المشرف الأول على جهاز المخابرات البريطانى في تلك المنطقة الذى مهد للحملة على الشاطئ . وفي داخل البلاد ثم رافق الحملة عند وصولها وكان دائما في مقدمتها .

ومنذ اللحظة الأولى ركز ميرويذر اعتماده على زعيم قبائل التجرى الثائر على حكم تيودور وكان يدعى وقتئذ (كاسا Kassa) ثم أصبح فيما بعد الامبراطور يوحنا الرابع ، ومن المعلوم أن الحملة كان عليها أن تمر في كل اقليم تجرى لكي تصل إلى مجدلا حيث يتحصن الامبراطور تيودور .

انتصرت حملة نايير ولم تستعمل مجاليتها معها من اسلحة وعتاد إلا النزر اليسير ، وبقيت لديها مقادير هائلة منها . قدمتها هدية إلى كاسا زعيم تجرى فأصبح بفضل هذه الاسلحة قويا لا يمكن منافسته في الحصول على العرش وبسط نفوذه على البلاد^(١) وكانت هذه الهدية عبارة عن مجموعة من مدافع الميدان الحديثة ، ومدافع المورتار وبنادق حديثة الصنع تكفي لتسليح فرقة كاملة^(٢) .

وليس بالعسير على الفهم أن نتصور ما مثل هذه الاسلحة من الاثر في صد الاعتداءات التي تعرضت لها الحبشة من المهدى في السودان ومن الايطاليين في الاريتريا ، وكذلك في تقوية ساعد الامبراطور في البطش

بالمسلمين والتنكيل بهم على النحو الذى ستميز به العمود المقبلة ، والتي لم يتمكن فيها الاسلام فى الحبشة من أن تكون له أية قوة أو قيمة عسكرية .

* * *

ويشرح (آلان مورهد Alan Moorehead) ^(١) الموقف فيقول :
« لقد كافأت بريطانيا (كاسا) على معاونته للحملة بأهدائه كمية هائلة من البنادق والذخيرة والمعدات الحربية . وسواء كان وراء هذه الهدية هدف سياسى أم لم يكن لها هدف ، فإن مستقبل كاسا قد تحدد بحصوله عليها ، إذ أصبح أقوى زعيم فى الحبشة كلها . وكل رجل يجوز مثل هذه الأسلحة فى تلك البقاع الجبلية حرى بأن يستعملها ويستولى على البلاد . »
« ولأنه لمن العسير أن يصدق الانسان أن ميرويندر لم يكن يقدر هذه الأمور ويعلم عواقبها ، ولو أنه كان متحفظا عندما أورد فقرة عابرة فى تاريخه الرسمى الذى كتبه عن الحملة تلقى بعض الضوء على الموضوع عندما قال (أحسن ما يمكن توقعه من آمال فى تمتع الحبشة بالسلام هو أن تقسم مقاطعاتها بين حاكين على الأقل ... فإنه من المستبعد أن يقوم كاسا بمهاجمة (واجشام جوباز Wagsham Gobaze) بينما يحتمل أن يحاول واجشام مد نفوذه على مقاطعة تيجرى ، وعندئذ تصبح هدبة الأسلحة التى حصل عليها كاسا ذات فائدة فى الدفاع عن نفسه - وعلى أى حال فقد كان صديقا حميا للحملة البريطانية ، ويمكن الاعتماد على أن يكون حليفا عظيم الشأن فى المستقبل » ^(٢) ولا يمكن لبريطانيا أن تسحب على هذه الصورة ، إلا إذا كانت على ثقة تامة من نجاح يوحنا فى تحقيق مآربهم وتوطيد أركان حكمه ، وهو لهم حليف ومؤتمر بأمرهم ، ولعل فى الموقف الدولى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، تصارع فيه الدول الكبرى على الحصول على النفوذ فى المنطقة مادفع بريطانيا إلى اتباع تلك السياسة البارعة . وبما يؤيد ذلك ، عقد معاهدة التحالف بين يوحنا وبريطانيا (١٨٨٤) .

مريد من الأسلحة - من روميا :

لم تشأ روسيا أن تباعد عن هذا الصراع - فأرسلت في ١٨٨٥ مندوبا عنها إلى الملك يوحنا ، فأستقبله استقبالا حسنا ، ومنحه تصريحاً ببناء كنيسة وأقطعته مساحة كبيرة من الأرض ، أطلق عليها اسم (موسكو الجديدة) - واتهم الملك يوحنا الفرصة وطلب تسليح الجيش الخبشي وحصل بذلك على ٥٠٠٠٠ بندقية طويلة ، ٥٠٠٠٠ بندقية فرسان ، ٥٠٠٠ مسدس ، ٤٠ مدفع ، ٥٠٠٠ سيف ، كبة وأفره من الذخيرة^(١)

الفصل الثالث عشر

عهد الامبراطور يوحنا الرابع (١٨٧٢ - ١٨٨٩ م)

لختم هذه المرحلة يجب الكلام عن عهد الامبراطور يوحنا الذي دام سبعة عشر عاما . لأنه كان شديد التعصب للسيحية ، متطرفاً في كراهيته للإسلام ، مما جعل عهده سلسلة متواصلة من الحروب ضد المسلمين الذين يتاخون مملكته ، وفي نفس الوقت يعمل على حماية بلاده من تسلل الأوروبيين ولقد استفاد أيما فائدة من هدية الأسلحة الضخمة التي سبقت الإشارة إليها والتي تركتها له بريطانيا بعد حملة نابيير .

وهو الامبراطور الذي قال عنه جوردون — كما سبق أن قدمنا — « من الغريب أن يوحنا يشبهني — فإنه متعصب ديني — وله رسالة لا بد وأن يحققها وهو تنصير جميع المسلمين » .

ولقد تميز عهده بشدة ضغطه وقسوته على المسلمين والوثنيين واليهود ، وحدد للجميع فترة أقصاها ثلاثة سنوات يتحتم أن يتحول الجميع أثناءها إلى الدين المسيحي ، وبطبيعة الحال اختص المسلمين بمزيد من القسوة ، وفرض عليهم أن يبثوا كنائس على نفقتهم بجوار مساكنهم ، وأن يدفعوا عشورا خاصة للقسس والكنائس التي في منطقتهم ، وأخذ يستعمل مختلف الوسائل لتعذيبهم والخط من شأنهم ، فلجأ كثيرون منهم إلى الفرار من الهضبة إلى المناطق البعيدة عن سلطانه . بينما اضطرت الكثيرون إلى التظاهر باعتناق المسيحية حتى يأمنوا على أنفسهم وعلى أرزاقهم ، ولكنهم ظلوا في ضمير قلوبهم مسلمين متسترين على اسلامهم ، حتى إذا حانت ساعة وفاة أحدهم نطق بالشهادتين ، وأصبحت هذه عادة معروفة لدى جانب كبير من المسلمين الذين يعيشون في المناطق المسيحية أو المناطق التي تزداد فيها سلطة الامبراطور

وكان الامبراطور يوحنا على وشك أن يقضى على شوكة الإسلام .
لولا أنه انشغل في إبان حكمه بهد الهجمات التي تعرض لها ، وخصوصاً من
الغارات والحروب التي وجهتها إليه جيوش المهدي في السودان . وكذلك
الغارات التي بدأت إيطاليا في توجيهها ضده من الأريتريا وكانت قد استولت
عليها بعد جلاء المصريين عنها .

• • •

صراع يوحنا مع الاسلام :

استلم يوحنا حكم الحبشة والاسلام يتقدم في ثبات ، ونفوذه يزداد في
جميع المناطق وبين جميع الأجناس حتى نفذ في قوة إلى داخل الهضبة - معقل
المسيحية ، ولقد أيد مسر بلاودن هذه الحقائق ووصف الكيفية التي كان
ينشر بها الاسلام . « وهناك شهادات عاتلة أدلى بها رجالون آخرون
(Peke 51 Isenberge p-36) تؤيد تقدم الاسلام في أوائل القرن التاسع
عشر الميلادي ، فقد وجد هؤلاء الرجالون جموعاً من المسيحيين في تحول
مستمر إلى هذا الدين... وقدم هذا الدين الآن جذوراً بعيدة الغور في
أرض الحبشة ، حتى أن أتباعه ملكوا ناحية التجارة كلها ، كما ملكوا المهن
الصغيرة بأنواعها في البلاد ، ونعموا بأمالك واسعة وسيطروا على مدن
كبيرة وأسواق هامة ، وظفروا بنفوذ قوي على جمهرة الشعب ، وقد قدر
مبشر مسيحي عاش في الحبشة خمسة وثلاثين عاماً نجاح دعاة المسلمين وحماستهم
تقديراً عظيماً بقوله ، لو أن هناك أحمد قرآن آخر (الامام أحمد الأشول)
ينفض رأية النبي لهارت بلاد الحبشة مسلبة بأسرها (مساجا

Massaja Vol. IV p. 124

« وفي سنة ١٨٧٨ عقد الملك يوحنا مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية ،
ونادوا به حكماً أعلى في المسائل الدينية ، وقرروا وجوب الاقتصار على دين
واحد في كافة أنحاء البلاد . وأعطى المسيحيين على اختلاف طوائفهم الذين
لا يعترفون مذهب اليعاقبة . مهلة عامين ليصبحوا بعدها متفقين في الرأي مع

كنيسة البلاد ، ، وألزم المسلمين باعتراف المسيحية في خلال ثلاث سنين والوثنيين في خلال خمس . وأذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة ، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التي منحها للمسلمين ليست بذات أهمية ، وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية في مناطقهم كلما احتاج المسيحيون إليها وكذلك دفع العشور والقساوسة الذين في مقاطعاتهم فحسب ، بل أنه أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة شهور بين قبول التعميد واعتراف المسيحية أو التخلي عن مناصبهم ، وكان مثل هذا التنصير الاجباري الذي لا يشمل إلا على طقوس العماد ووضع العشور ، عديم الأثر بطبيعة الحال ، ففي الوقت الذي تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا في الخفاء يؤكدون ولا هم لديهم القديم . وقد شاهد «مساجا» Massaja بعضا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التي عمدوا فيها قاصدين المسجد ، يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يمجوع عنهم ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه ، وأن ما جعل كل هذا التنصير أضف أثرا وأقل قيمة هو أنه كان مقصورا على الرجال دون النساء ، وهي حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد في مستقبل الاسلام في بلاد الحبشة كما أن مساجا يقيم البرهان الساطع على ما قامت به النساء المسلمات من دور خطير في سبيل نشر دينهم والمحافظة عليه في هذه البلاد .

ويقول «مساجا» أن الملك جون (يوحنا) أرغم حول سنة ١٨٨٠ ما يقرب من خمسين ألف من المسلمين على التعميد كما أجبر عشرين ألفا من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجالا ، ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور ، فلا عجب إذا عرفنا أن هذه الوسائل التي تقوم على العنف والأرهاب ، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأجباش المسلمين والوثنيين جميعا نحو الدين المسيحي^(١) وقد اغتتم ملك كافا Kaffa فرصة ارتباك الملك يوحنا الذي هدده الايطاليون واتباع المهدي في وقت واحد فأعلن استقلاله واعتنق الإسلام ليكون بذلك

(١) ص ١٤٣ الدعوة للإسلام لسير توماس أرنولد ترجمة د . حسن ابراهيم حسن -

أقوى نفوذا ، وقد أفلح في مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧ حين غزا
الامبراطور منليك بلاده . (الذى كان قد وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد
الحبشة بعد وفاة الامبراطور يوحنا سنة ١٨٨٩ وعاد الدين المسيحي دينا
رسميا في ولاية كافا) ... ولكن هذه التدابير الصارمة التي اتخذت لصالح
المسيحية قد اخفقت في وقف نمو النفوذ الاسلامي في حلال القرن التاسع
عشر ، فقد أسلبت قبائل بأجمعها كانت يواما تدين بالمسيحية ، ولا تزال تحمل
اسماء - مسيحية مثل قبائل تاكليه Takies (أى بنات يسوع) وهبته Haptes
(أى عطية يسوع) وتيا ريام Temaryam (أى عطية مريم) وكذلك
قبيلتنا منساع Mansa حول منتصف القرن التاسع عشر ، ثم دأن السواد
الاعظم منها بالاسلام في مستهل القرن العشرين وبلوح أن الجهود التي قام
بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم إلى الإسلام ، كانت مهددة السبيل بسبب
جهل رجال الكنيسة . كذلك قامت حركة مماثلة بنشر الاسلام ظلت مستمرة
بعض الوقت بين قبائل أخرى^(١)

وللحديث عن عهد يوحنا بقية - متصل بما يشمل الفصل القادم من
تاريخ الحملات المصرية على الحبشة .

(١) من ١٤١٠ - ١٢٤٤ نفس المرجع .

الفصل الرابع عشر

الحملة المصرية

— على الحبشة —

ترتبط مصر بالحبشة بروابط قل أن نجد لها مثيلاً بين دول العالم، وترجع هذه العلاقة إلى أقدم عصور التاريخ. فهناك شريان هائل يفد من الحبشة إلى مصر ويفذها بالقدر الأكبر من مائها وطمئها وهو النيل الأزرق — وتتدفق مياه الحبشة في نيل مصر سنة بعد أخرى في نظام رتيب وتوقيت محكم دارت حوله عجلة الحياة في مصر. وتفعل في صميمها متحكماً في أعمال الناس جميعاً ونشاطهم، محدداً لهم صورة حياتهم، وهو في أغلب تاريخه مخلص أمين يأتي إلى البلاد بالقدر المعلوم الذي ألفه الناس ويترقبونه عاماً بعد عام ويستقبلونه بالأفراح، ولكنه يشح أحياناً فيعم القلق، بينما يزيد عن معدله أحياناً أخرى فيفيض على البلاد، ويحطم الجسور وينشر الخراب ويدفع بجميع الناس إلى العمل الدائم ليل نهار لمكافحة ثورته. تعلق حياة الناس وآمالهم به ولا حديث لهم إلا عنه حتى مرت عصور جعلوا منه إلهاً يعبدونه.

وحول هذا النيل كتب العالم أولى سطور الحضارة، ونشأت الأسس الأولى للدينونة والعلم والمعرفة، وعندئذ بدأ المصريون القدماء يعجبون لهذا النهر ويتطلعون إلى معرفة مصادره، فانتشرت حوله الأساطير فترة من الزمن، ولكن سرعان ما نشطت حركة الاستكشاف، فاختلفت الشعوب وتراوحت وحاربت وأثرت حضارة أحداها على الأخرى، واستمرت العلاقات بين مد وجزر خلال العصور المتعاقبة.

ولعل من أهم ما نشأ من صلوات حول هذا النهر العظيم ، انتقال الاديان وتجاوبها بين مصر والسودان والحبشة ، وكان أظهرها أثراً انتقال الديانة ، المسيحية في عصورها الأولى من مصر إلى السودان والحبشة ، ثم بعد ذلك انتشار الإسلام في مصر أولاً ثم في الحبشة ثم في السودان .

وفي كل مرحلة من تلك المراحل تبرز علاقة مصر بالحبشة بشكل يحجب ما عدها من الصلوات . سواء كان ذلك لاشتراكها في قارة واحدة أم لوجود أهم مصادر لمياه المصرية داخل الحبشة ، أم للارتباط الوثيق بين الحبشة بمصر التي تزعم العالم الإسلامي في هذه المنطقة وترتكز فيها دعائم الإسلام ومعاهده ومراكز الدعوة إليه .

* * *

فليس بغريب بعد كل ذلك أن تكون مصر شديدة العناية والاهتمام بكل ما يجري في الحبشة وما يدور فيها ، وإنا وإن كنا قد عرضنا الكثير مما حدث في الماضي ، إلا أن عصر النهضة قد شهد نشاطاً هائلاً في تطوّر وسائل المواصلات ، انسمت معها الأاطماع ودخلت إلى الميدان كثير من الدول الأوروبية الاستعمارية ، وانتقلت العدوى إلى الدول القديمة مثل مصر التي سارعت إلى اعتماد سلطاتها وتثبيت أقدامها ، ولأ أقل من أن يكون نشاطها هذا مركزاً على حماية مصادر حياتها في السودان والحبشة ، وأصبح لزاماً عليها أن تعمل لتحقيق ذلك بمختلف الوسائل من حملات عسكرية في البر ، وأساطيل بحرية تسيطر على الشواطئ . وأهمها البحر الأحمر . وكان الهدف الأول لنشاط مصر هو تأمين مصادر المياه التي يتوقف عليه حياتها . خصوصاً وأن ملوك الحبشة كثيراً ما هددوا مصر بتحويل مياه النيل عنها .

* * *

تم فتح السودان في عهد محمد علي في بداية القرن التاسع عشر ، وإن كان الإسلام قد دخله قبل ذلك بكثير أيام المماليك وعن طريق المهاجرين

العرب الذين استقروا بالبلاد ، وكذلك سبق اعتناق فريق كبير من قبائل البيجة للإسلام كما قدمنا إلا أن فتح المصريين للسودان عجل بانتشار الإسلام في غربي الحبشة والاريتريا ، ومنح المسلمين في الحبشة نوعاً من الظمائية كما كانوا دائماً في حاجة إليها .

ثم لا يجوز أن ننسى ذلك النشاط الكبير الذي بذله دعاة الإسلام من شرق أفريقيا وشرق السودان ، الذي تميز بالنجاح الباهر المعتمد على الدعوة السلمية ، ولم يعتمد على سلاح أو حملات عسكرية وحقق نتائج عظيمة وكان له الفضل في اسلام طائفة كبيرة من مملكة النوبة وامتد أثره إلى كردفان .

° ° °

عندما ظهر محمد علي في مصر ارتفع بها إلى مصاف الدول الكبرى واكتسبت من الثروة والقوة ما جعلها تتفوق على الدولة العثمانية التي كانت لها السلطة الاسمية على جميع بلاد الإسلام في الشرق الأوسط والمغرب العربي . ولما عجزت هذه الدولة عن الاحتفاظ بامبراطوريتها المترامية الأطراف اضطرت إلى الاستعانة بمصر ، وأوكلت إليها شئون جزيرة العرب ثم بعد ذلك استعانت بهافي غير ذلك من الأقطار - التي لا يعيننا أمرها في هذا الكتاب . وعندما سيطرت الجيوش المصرية على الحجاز ونجد ، تخلت الدولة العثمانية عن سيطرتها على وافي البحر الأحمر وأهمها، صوع للحكومة المصرية . بدأت الحملة المصرية على السودان في عهد محمد علي في ١٨٢٠ م وفي عام ١٨٢٢ كانت قد دانت له جميع بلاد شرق السودان إلى حدود الحبشة . وكانت تراوده آنذاك أطباعه في الاستيلاء على الحبشة .

وذكر محمد علي لفتنصل بريطانيا العام بالقاهرة (مستر سولت Salt) أنه يفكر في الاستيلاء على الحبشة بعد سنار ، فأخبره سولت بأن الدول الأوربية سوف لاتنساهل أو تحتمل مهاجمته للدولة الأفريقية الوحيدة التي حافظت على مسيحتها ، (١)

(١) ص ١١٥ الاسلام في اثيوبيا

ولا ندرى هل كان لهذا التهديد الصريح الأثر الذي منع محمد علي من متابعة زحفه واستيلائه على الحبشة ، أم أنه كان أشد اهتماماً في ذلك الوقت بالأحداث والحملات التي تعمل في سورية فصرف نظره مؤقتاً عن مغامرة الحبشة ، ويبدو أن التعليل الأخير هو الأقرب إلى الصواب ، إذ أن محمد علي - بعد انسحابه من سوريا إثر تدخل القوات الأوروبية التي تكتلت ضده وحصرته في داخل القاهرة الأفريقية - ذهب في آخر عهده في عام ١٨٣٨ في رحلة شاقة خلال السودان ووصل إلى حدود الحبشة . رغم تقدمه في السن .

قامت القوات المصرية بعد هذة الزيارة مباشرة بالهجوم على الحبشة ولكنها لم توفق ، فأعدت العدة لمعاودة الكرة ، مما أدى إلى تدخل الحكومتين الانجليزية والفرنسية وأجبرتتا محمد علي - على التخلي عن فكرة الحبشة . واستمرت الحال كذلك إلى عهد سعيد باشا .

الخلاف بين تيودور وسعيد باشا وإلى مصر :

عندما استتب الأمر لتيودور ، أخذ ينظر بعين القلق إلى مركز المصريين في مصوع شرقاً وفي السودان غرباً ، وخصوصاً لما سمعه بأنهم يطمعون في إنشاء خط حديدي يربط بين الجهتين وكانت محاولة محمد علي للاستيلاء على الحبشة لازالت ماثلة في الأذهان ، بجانب ما تحرك في نفس تيودور من أطماع بالقضاء على النولة الإسلامية . وإعادة مجد الامبراطورية الحبشية القديمة ، الذي حد لها بنفسه حدوداً لم تكن موجودة من قبل ، ولكنها في الواقع تعزز مركز دولته الجديدة ، فتعددت غارات رجاله على السودان وكان الاعتقاد الدائم في تلك المرحلة هو أن الانجليز هم الذين كانوا يحرصونه على العدوان ، ويشيرون كوا من حقه على الإدارة المصرية بالسودان على خلاف ما كان يدعيه قناصلهم في مصر وقتئذ من أنهم إنما يريدون أن يسود السلام بين مصر والحبشة .

« ولقد تحدث عن أطباع تيودور - القنصل الفرنسي في مصر » بنديتي Benedetti « فذكر في رسائله إلى حكومته في ٥ ، ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٦ أن الامبراطور تيودور يهدد بالاغارة على السودان المصري، ويريد تحويل مجرى النيل حتى يجعله يجرى صوب البحر الأحمر ، وأكد وجود هذه الأطماع لدى تيودور القنصل الانجليزي المقيم بالحبشة وبلاودن Plowden الذي كتب في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٥٦ يقول « أن تيودور يطلب البلاد العربية الواقعة على حدوده الشمالية حتى سنار ، كما أنه يريد مصوع وكذلك مرتفعات البوغوس والمنسا والحجاب وغيرها . . . » وأما عن تحريض الانجليز لتيودور ، فقد تحدث عنه أيضاً القنصل النمساوي « هوبر » عندما قال في رسالته إلى حكومته من الإسكندرية في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٥٦ « أن سعيد باشا كثير القلق من ناحية هذه الحركات التي يقوم بها تيودور الجريء والنشيط وخصوصاً ما يذاع في القاهرة من أن وسوسة الانجليز في أذن تيودور تزيد ندمراً وغضباً من الادارة المصرية في السودان ، والواقع أن تيودور قد حصل على بعض المدفعية والبنادق لعساكره من عدن ، وفي هذه الرسالة ذكر « هوبر » أن سعيد باشا يريد في رحلته التي يزعم القيام بها إلى السودان تعيين حدود السودان التي لا تزال غير واضحة المعالم وموضع نزاع ، وذلك لتأمينها ضد هجوم يأتي عليها من جيرانها المتأخمين لها في الشرق وهم الأقباش وفي الغرب من سلطنة دارفور » (١) .

لذلك وجد سعيد باشا نفسه مضطراً إلى المبادرة بمعالجة الموقف واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإيقاف اعتداءات تيودور على حدود السودان ، فأمر حكمدار السودان بأن يكتب إلى امبراطور الحبشة كتاباً رقيقاً جاء فيه (فيلزم التبصر عن طلب لإزالته في سلك مكاتبة المودة التي تحرقونها) (٢) .

(١) ص ٧٥ مصر والسودان د . محمد فؤاد شكرى .

(٢) سامي باشا - تقويم النيل - المجلد الأول ج ٣ ص ١١٩ - ١٢٠

ويبدو أن مطران الحبشة كان يلقى الكثير من المتاعب من الأمباطور تيودور ، عندئذ رأى سعيد باشا أن يوفد البطريرك كيرلس الرابع إلى الحبشة ليعمل على تهدئة الأمور وإحلال السلام محل الحرب وربط أو اصر الصداقة بين الدولتين وإيقاف المناوشات على حدود السودان وتميز مركز المطران المصري ، وسافر البطريرك مزوداً بهدايا ثمينة وزود بالخطاب التالي إلى حاكم السودان .

« جناب بطريرك الأقباط عرض لأعتابنا أن مطران بلاد الحبشة المقيم في طرفه هناك حاصل له عى شديد ترتب على عطل أشغاله ويرغب التوجه بنفسه لإجراء ما يقتضى لضبط وملاحظة أشغال الملل ، والتمس الإذن له بالإجابة له فيما يطلب .

ومن حيث أنه من الوجوب ملاحظته ، ومراعاته كما هو من مقتضيات شميم مراحمتنا وأن يصير له الاستعداد والمساعدة في جميع الجهات التي يمر في الذهاب والاياب أصدرنا أمراً هذا إليكم . . . (١)

ولم يكن سعيد باشا معامتنا إلى نتيجة مسعى البطريرك فسافر إلى السودان لتنفذ الشئون الحربية وتظاهر بأنه يقصد بزيارته الوقوف على أحوال أهل السودان ووضع وتأسيس المنظمات اللازمة لعمارتها ولرفاهية تلك البلاد . وفي الوقت نفسه أرسل لحكمدار السودان أمراً عالياً . نصه كالآتي :

« في ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ (١٨٥٦) .. أعلوا أن ارادتنا اقتضت بتحرك ركابنا . من جهة مصر المحروسة بقصد الحضور إلى جهة السودان .. فيلزم حالاً وسرياً تجميعوا كافة العساكر الجهادية الموجودين في جهة

(١) نفس المرجع .

النودان لىكونوا حاضرين جميعاً بآلاتهم فى الخرطوم ، كذلك تجمعوا فيها كافة المدافع الموجودة المياة المطقمة ...»^(١)

وكان استقبال البطريك بالحبشة عظيماً - إذ أن هذه هى المرة الأولى التى يأتى فيها الرئيس الأعلى لكنيسة الاسكندرية أرض الحبشة . ولكن الامبراطور تيودور لم يكن يستسيغ أن يقوم بطريك الأقباط ورأس الكنيسة المسيحية بالتوسط من أجل سلطان مسلم، وسرعان ما بدأ الامبراطور يعامله ببرود وغلظة ووجد البطريك صعوبة فى إقناعه بالكف عن الإعتمادات على الحدود السودانية ، وكان الأجناب الموجودون بالحبشة يوغرون صدر الامبراطور ويمتنعون فى دساتيمهم وادعائهم .

واتنهر هؤلاء ما بلغهم من زيارة سعيد باشا للخرطوم وتجمع الجنود بها لاستقباله لإقامة الدليل على سوء نية المصريين - خصوصاً وأن البطريك كان قد توسط للامبراطور ونصحه بمعاملة المسلمين بالعدل والاحسان حتى يعامل سعيد باشا أقباط مصر ومسيحي السودان بالمثل ، عندئذ غامر الشك تيودور وقويت ريبته من البطريك فأمر بالقبض عليه ومن معه وأودعهم السجن .

وعندما بلغ سعيد باشا ما حدث للبطريك - أراد أن يطمئن الامبراطور فكتب له فى ٩ جمادى الأولى ١٢٧٣ - ما يفيد به بأن زيارته للسودان هى (بقصد النظر فيما عليه أهلها من أحوال) . هذا غاية قصدنا ولا قصد لنا (سواه) فاطمان الامبراطور وعرف خطاه وندم على تسرعه . واعتذر للبطريك وأفرج عنه ومن معه .

ولكن الامبراطور لم يسمح للبطريك بالعودة ، فأرسل له سعيد باشا كتاباً آخر بعد عام (فى ٢٨ ربيع الثانى) يبدى فيه قلقه وقلق أقباط مصر .

(١) سامى باشا - تقويم النيل - المجلد الاول ج د ص ٣٠١ .

. . . وإنما دعت الحاجة للسكّابة الآن فيما يأتي ليضاحه ، وهو أن رئيس الطائفة العيسوية الأقباط بمصر عرض علينا مضمونه ، أن البطريرك تقدم توجهه إلى الحبشة زائراً من مدة شهور وحضرتكم أبقيتموه هناك ولو أنه محترم عندكم . . . إلا أنه نظراً لغيابه تلك المدة تعطلت إقامة شعائرهم الدينية والدينية نوعاً ، واثموا المخاطبة من طرفنا لحضرتكم أملاً في برجوعه ليقوم إليهم بأداء تلك الوظائف . . . ومنه برد الجواب ليتواصل الود والاستحباب ، ودمتم كما رتم ، ^(١) .

وعاد البطريرك إلى مصر بعد أن غاب عنها سنة كاملة يحمل إلى سعيد باشا كثيراً من الهدايا ووعدا بالصدقة بين مصر والحبشة .^١

* * *

عهد اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) :

تسلم اسماعيل عرش الخديوية المصرية بعد وفاة سلفه سعيد باشا وورث عنه دولة أشبه ما تكون بمسرح تتنافس فيه قناصل الدول الأوروبية ووراء كل منهم مجموعة من التجار والمغامرين والمرابين . وتم في عهد سلفه أمران على جانب كبير من الخطورة - أولهما : استدانته . . . ر ١٦ ر ١١ جنيه وبذلك بدأت سيطرة الحكومات الأوروبية على مصر عن طريق مراهبا ، وثانيهما : إقناع امتياز حفر قناة السويس لفرديناند ديلسبس الفرنسي ، ذلك العمل الذي كان له أبلغ الأثر في تاريخ العالم وأسوأ الأثر في تاريخ مصر .

جاء اسماعيل إلى الحكم ووجد أمامه هذين الأمرين الخطيرين . وكان بإمكانه أن يخفف من وقعهما ويرتب أمور الدولة بما يعود عليها بالخير ويحى آثار الأخطاء السابقة ولكن شخصية اسماعيل كانت كامنة على نقيصين حطم أحدهما الآخر وحطم معه البلاد ، فبينما كان طموحا مفرطاً في

(١) تقويم النيل أمين سامي باشا المجلد الاول ج ٣ ص ٢٦٠ .

الطموح - شديد الاعتداد بنفسه وثقته بإمكان الإرتفاع بمصر إلى مصاف الدول الكبرى وإنشاء امبراطورية كبرى ودفع البلاد في سبيل الرقي والتقدم والقوة ، فإنه كان في نفس الوقت متلافاً قصير النظر في كل ما يتعلق بأمر المال والاقتصاد . منساقاً وراء اللذات والمظاهر .

سار في سياسته العمرانية على أحسن ما يمكن أن يسير فيه حاكم عصرى متطور فتقدمت البلاد في عهده في جميع نواحي العمران والنشاط . وأصبحت لمصر امبراطورية ضخمة تمتد من قسمايو في جنوب الصومال إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتوغل داخل أفريقيا شاملاً أوغندا ومنطقة البحيرات ، وأصبحت له الأساطيل البحرية القوية التي تجوب بحار هذه الامبراطورية معززة لأركانها . وفتحت في عهده قناة السويس واحتفل بافتتاحها احتفالاً يعيد إلى الأذهان أبهة ملوك فرنسا ، ولكنه بجانب ذلك ظهر قصر نظره في أمور المال والسياسة وبنى القصور الرائعة بجانب مشروعاته الكبرى ، فتجاوزت أهدافه بذلك وما رافقها من إسراف وإفلاق على المظاهر والملاذات ، جميع امكانياته ، وقفر الدين المصرى في عهده إلى ما يقرب من ١٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه ويقدر المليون المبالغ الحقيقية التي وصلت إلى خزينة الحكومة منها بما لا يزيد عن نصف هذا المبلغ ، أما الباقي فقد بقي في جيوب المرابين وخزائن البنوك الأجنبية على صورة أو أخرى من أتعاب وأرباح وفوائد .

وكانت هذه هي نقطة الضعف التي أمسك بها الأجانب وقضوا بها على الامبراطورية المصرية وفرضوا على مصر الوصاية بالتحكم في مالية الدولة . وعن طريق ذلك تدخلوا في صميم شئونها الداخلية ، وأوفدوا من رجالهم من يتحتم على اسماعيل تعيينه في أسمى المناصب وأخطرها ، وتدخلوا في تعيين الوزراء ممن يتوسمون فيهم الطاعة والولاء لهم ، أما من يعتز بمصرته ويحاول إصلاح بعض الفساد وإيقاف الأجانب عند حدهم ، فعمره قصير في الحكم ، وليس للتخديو خلال كل ذلك إلا الإذعان .

وسياسة الدول الأوروبية الكبرى . معروفة واضحة — فإنها تتنافس وتتصارع فيما بينها وتتسابق في الحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ والسطرة على الأسواق ، وتبلغ في منافستها مع بعضها حد الحروب ، وتربص الواحدة منها بالأخرى . وعلى الأخص بين إنجلترا وفرنسا حيث كان لهما التصيب الأكبر في الصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر . والذي زادت حدته بافتتاح قناة السويس .

ومهما بلغ هذا العداء والصراع بين الدول الأوروبية الكبرى ، فإنها سرعان ما تتحد مع بعضها وتتكاتف للقضاء على مصر إذا رفعت رأسها ، وبدأ منها ما يشير إلى استرداد قوتها . وليس تاريخ تلك الدول من مصر في عهد محمد علي يبعيد حين تألفت جميعها واتحدت بالرغم مما بينهما من تنافر وصراع لكي تقضي على القوة المصرية وتختتم عملياتها بتحطيم الأسطول المصري التركي في موقعة نغارين . ولم يكن انسحاب الأسطول الفرنسي من المعركة وهو حليف لمصر — إلا انصياعاً للأهداف الأوروبية المشتركة التي يتضاءل أمامها في نظر فرنسا أي تحالف معقد مع مصر .

* * *

تحت هذه الظروف التي سبق شرحها كان اسماعيل يعمل على تحقيق آماله ، ولسنا نريد أن نطيل في سرد تفاصيل أعماله ، فهذه أمور لها مراجعها الخافلة المستفيضة ، ولكن يعيننا أن نذكر منها ما هو متصل بموضوع كتابنا هذا .

وكانت رأس اسماعيل مليئة بالآمال والمشروعات والأطماع الكبرى ، ولم يتوان في اتخاذ العدة لتنفيذها ، وبدأ في عام ١٨٦٥ باستصدار فرمان من السلطان بإحالة قائمقاميتي سواكن ومصوع إلى عهده ثم جعلهما فرمان ٢٧ / ١٨٦٦ من ملحقات مصر وشملت مساحتها جميع السواحل حتى باب المنتدب .

* * *

وإنجحت أنظار اسماعيل إلى قلب افريقية ومناجم النيل . ولكنه مع الأسف اعتمد في تنفيذ ذلك على قواد من الأجانب - وتخص بالذكر منهم حمويل بيكر الانجليزي الذي عمل في خدمة اسماعيل حتى عام ١٨٧٣ ، ثم تلاه جوردون في منصب مدير خط الاستواء (١٨٧٤ - ١٨٧٦) وهي فترة خدمته الأولى بحكومة مصر - ثم فترة عمله الثانية (١٨٧٧ - ١٨٧٩) ثم الفترة الأخيرة من ١٨٨٤ التي انتهت بقتله في ١٨٨٥ .

ومن الغريب أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير انجليزيان لهما مقام معلوم لدى الحكومة الانجليزية ، ولا يمكن أن يكون ذلك من قبيل المصادفات فإن الجو في ذلك الوقت كان زاخراً بالأحداث الحفوية . وثبت فيما بعد أن لإنجلترا كانت تعمل على تنفيذ خططها للتدخل في شئون السودان وتنفيذ منه إلى قلب إفريقيا وعن طريق ذلك تتحكم تحكماً كاملاً في مصر . وليس من قبيل المصادفات أيضاً أن يقع اختيارها الكولونيل جوردون بالذات ، فإنه كان الرجل الذي يفيض قلبه ووطنية وإخلاصاً لبلاده ، ومن أبرز صفاته التي رشحته لهذا المنصب شهرته بالتعصب الشديد للدين المسيحي وتفانيه في سبيل نشر مبادئه ، وعدائه السافر للدين الإسلامي .

• • •

ولقد أميط اللثام عن المآزق التي وقع فيها اسماعيل ومحاولاته اليائسة للثغلب عليها ، وعمل في الخفاء على أن يسبق الانجليز في أطباعهم ويستولي قبلهم على مناطق أعلى النيل . فكيف يتأني له ذلك وجوردون الانجليزي يحكم باسمه في السودان ؟

كان في خدمة اسماعيل ضابط أمريكي يدعى القائم مقام شالپه لونغ بك . فعينه اسماعيل رئيساً لأركان حرب الجنرال جوردون في ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ في نفس الوقت الذي تم تعيين جوردون فيه مديراً عاماً للمديرية خط الاستواء .

ولقد سجل شاليه لوغج مايلي في كتابه (حياتي في أربع قارات
ج ١ ص ٦٧ My Life in Four Continents)^(١)

« كان الحديو اسماعيل يزرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة وهو متبهج
تهيجا عصبياً عندما دخلت عليه يصحني طويئذ بك القشر يفاني الثاني ليقوم
بواجب المحافظة عليه - فسألني الحديو هل رأيت جوردون ؟

فأجبت : نعم رأيت به يمولاي وقضيت معه المزيغ الأكبر من الليل :
فقال الحديو حسن جداً والآن اصنع إلى ما أقول .

« ولقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب
أهمها حماية مصالح الحكومة . واعلم أن القوم في لندن على وشك أن يجهبوا
حملة تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الاميركية يسمى استانلي Stanley
وهو في الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة إلى الدكتور ليفينجستون Livingstone ،
أما في الباطن والحقيقة فلرفع العلم البريطاني على أوغنده ، فليك الآن أن
تذهب إلى غندوكورو ، إلا أنه يلزمك ألا تضع شيئاً من الوقت بل يمم
في الحال أوغنده واسبق هناك حملة انجلترا واعقد معاهدة مع ملك تلك
البلاد . وعصر لا تنسى لك أبر الدهر هذا الجميل أذهب وليس عقبك
النجاح لإنشاء الله . »

وسافر الكولونيل شاليه لوغج عملاً بهذه الأوامر إلى أوغنده وأنجز
مهمته . وعقد معاهدة مع متيسا ملك أوغنده الذي وضع مملكته تحت حماية
مصر ، التي سارعت بإعلان ضم جميع الأراضي الواقعة حول بحيرات فيكتوريا
والبرت الكبرى .

ولقد قام شاليه لوغج بإثبات اكتشاف بحيرة فيكتوريا باسم الحكومة
المصرية ورفع العلم المصري هناك وسجل ذلك في الجمعية الجغرافية
المصرية .

(١) تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية - الجزء الثالث - ص ٣٧٨

عند احتلال إنجلترا لمصر . وضعت يدها على دار المحفوظات المصرية بالقلمة - ونقبت واستولت على كل ما يتعلق بهذه الحملة من رسائل ووثائق حتى لا يبقى لدى مصر أى مستند عن حقوقها فى تلك المناطق - ولكن شاليه لونغ عنى بتسجيل جميع تفاصيلها فى الكتب التى وضعها .

وفى نفس الوقت ظهرت نيات الإنجليز واضحة عندما رفض جوردون أوامر الخديو بمقابلة الحملة البحرية التى أرسلها اسماعيل إلى شرق أفريقيا (الصومال) لفتح الطريق إلى أوغندة من تلك الجهات . حتى تصبح منابع النيل تحت السيطرة المصرية من جميع الجهات ، بل على العكس من ذلك تماماً فقد كان جوردون هو الذى أمر الحاميات المصرية بإخلاء أوغندة بعد ذلك . حتى تستولى عليها بريطانيا فيما بعد .

* * *

كانت زيلع وبربرة من أملاك تركيا ، تابعتين للواء الجديدة فى اليمن ، فسكر الخديو اسماعيل فى ضمهما إلى أملاك مصر حينما عزم على فتح سلطنة هرر لأن زيلع هى ميناء هرر الطبيعى ، فسعى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية وصدرة له فرمان أول يولية سنة ١٨٧٥ بالتنازل له عن زيلع وملحقاتها مقابل زيادة فى الجزية مقدارها ١٥٠٠٠ جنيه عثمانى سنويا ، ويدخل فى ملحقات زيلع ثغور بربره وبوغا وتاجوره .

وجعل منها اسماعيل محافظات عين لسكل منها محافظا من كبار قواده . وقامت بها فى الحال أعمال العمران ومباني الحكومة والجمارك والشككات العسكرية والمساجد ومشروعات المياه ومكاتب البريد - ووصلت الشواطئ التى تحت النفوذ المصرى جنوبا إلى رأس جردفوى على المحيط الهندى .

* * *

فتح هرر (١٨٧٥) :

في عام ١٨٦٦ تولى الحكم في هرر سلطان تحالف من قبائل الجالا واستعان بهم على توطيد حكمه باضطراد شعب هرر فاستنجدوا بالحديو اسماعيل . فأرسل إلى رؤوف باشا قائد الحملة المصرية على زيلع وبربره الذي توجه إليها (٣٦٠ كيلو مترا) واستولى عليها في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بدون أن يلقى أية مقاومة تذكر ، وكان استيلاء المصريين على هرر لا يقتصر على كونه مرحلة من مراحل التقدم المصري داخل البلاد ، بل كان له أثره البالغ في انتشار الإسلام ، إذ أن الحملة المصرية عملت على كسر شوكة قبائل الجالا المحيطة بمدينة هرر والتي درجت على تهديدها وكان جانبها كبيرا منهم في تلك المنطقة لا يزال وثنيا . ولم تال الحملة جهداً في إدخالهم إلى الدين الإسلامي .

وعادت هرر مركزا لبعث الدعوة الإسلامية منها وانطلقت مجموعة من الفقهاء لارشاد الناس إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة . وكذلك انتهى عهد الجالا وسيطرتهم في هذه المناطق وأصبحت المنطقة كلها في فترة قصيرة متجانسة .

° ° °

فتح الصومال ١٨٧٥ (١) :

اعتزم الحديو اسماعيل فتح بقية بلاد الصومال فجرد لذلك حملة بقيادة الاميرال ماكيلوب باشا ، وكانت القوات البرية بقيادة شابي لونج بك مكلفة بفتح باقي شواطئ الصومال والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب) ثم فتح الطريق من هناك إلى منطقة البحيرات - لكي يتم اتصال أملاك الإمبراطورية المصرية حول شرق أفريقيا ونهر النيل من منبعه إلى مصبه . ووصلت الحملة إلى رأس حقون ورفع العلم المصري عليها ثم غادرها إلى بربرة ثم استمر

(١) ص ١٢٧ ج ١ . عصر اسماعيل عبد الرحمن الراتبى

في طريقه إلى بلدة قسايو وعسكرت الحملة بها استعدادا للسير غربا قاصدة بحيرة فيسكتوريا وفقا للخطة المرسومة لها من قبل .

وكان اسماعيل قد كتب لجوردون حاكم خط الاستواء وقتئذ لكي يقابل الحملة ويمهد لها ويعمل على نجاح المهمة . ولكن الحملة عادت مرة ثانية إلى قسايو ويقول قائدها ، أن من أسباب اخفاقها إغضاء جوردون عن الاتصال بهارغم الأمر الصادر له من الحديو اسماعيل ، وظهر فيما بعد من كتابات جوردون أنه فوجئ . عندما وصلته أنباء خضوع أوغندة للقوات المصرية مما يؤيد أصرار جوردون على ألا يمتد النفوذ المصرى إلى تلك الجهات ومن البديهي أنه كان يعمل في ذلك بتعليمات من الحكومة الانجليزية .

.. ولم يحاول الإنجليز اخفاء نواياهم فان الحملة قد ازعجت الانجليز فأوعروا إلى حليفهم سلطان زنجبار لكي يمتنع على نزول القوات المصرية في قسايو قريبا من حدوده ، وخابت بريطانيا اسماعيل في الكف عن الحملة وأرسل وزير خارجية إنجلترا إلى الحديو مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الانجليزية وكان في الوقت نفسه يجهز الحملة على الحيشة فأمر بانسحاب الحملة من الجوبا في يناير سنة ١٨٧٦ وعادت إلى مصر بعد أن اخفقت في تنفيذ مهمتها .

على أن الحكومة الانجليزية اعترفت بامتلاك مصر لبلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن بمعاودة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ التي اعترفت فيها امتلاك مصر سواحل بلاد الصومال لغاية رأس جردفون ثم رأس (حفون) الواقع جنوبيه على المحيط الهندى . وقبلت مصر أن تبقى بربره وبولهار ثغرين حريين ، وأن لاتعطى فيها أى امتياز أو احتكار لأحد ما^(١) .

. . .

(١) ص ٣٥١ ، ٣٥٢ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر .
د . شوق عطالله الجبل .

الحرب بين مصر والحبشة :

كما تجدر الإشارة إليه أن الحملات المصرية قد سيطرت على بلاد يسود فيها الدين الإسلامي ، فقد كانت قد ربطت بين مصوع وبين كسلا وسنار في شرق السودان مسيطرة بذلك على الاريتريا ثم انتشرت قواتها على الساحل إلى رأس جردفون فشمعل نفوذها ببلاد الصومال وتوغلت في الداخل واستولت على هرر وبدأت تبسط نفوذها مرتكزة في هرر . وحاصرت بذلك الدولة المسيحية .

ويبدو أن نجاح هذه الحملات كان سريعاً خاطفاً للدرجة التي أدهشت كثيراً من المؤرخين والكتاب ، خصوصاً وأن جميع الحملات كانت مصحوبة بخطة مدروسة لإدخال الحضارة والعمران واستئجاب الأمن ورفق البلاد وتقدم الزراعة والتجارة . مما جعل الحكم المصرى فريداً في بابها بالمقارنة مع الدول الاستعمارية .

ومن عجيب الأمر أن مصر كانت تقوم بتلك الحملات الباهظة في وقت كانت فيه ماليها تسوء من يوم لآخر ، ويقوم على رعاية شئونها في السودان وخط الاستواء وولايات هرر وبربرة وزيلع أجانب مفروضون عليها من أمثال الجنرال جوردون . وفي الوقت الذي كان من المفروض أن تستقر الأمور فيما يسيطر عليه المصريون من أقاليم وسلطنات حتى تنهيا الفرصة للصحيحة للإقدام على الخطوة الأساسية وهي الاستيلاء على مملكة الحبشة . في هذا الوقت الذي يحتاج إلى الاستقرار وإلى خبرة القواد العظام الذين حققوا تلك الانتصارات السابقة ، أخذ جوردون بفصلهم واحداً بعد الآخر مبتدئاً برؤوف باشا فاتح هرر ورضوان باشا وأبو بكر باشا متصديداً للأخطاء . ومتعللاً بأنفه الأسباب ، ويمتنع عن تلبية أمر الخديو لمقاومة الحملة المصرية المتجهة من قسمايو إلى منابع النيل في أوغندا ، مما أدى إلى فشل الحملة وبقاء أطراف الامبراطورية الجديدة بدون اتصال .

لا غرابة أن تصادف الحملة التي جردتها الجيوش المصرية في عام ١٨٧٥م بالهزيمة على يد الامبراطور يوحنا . الذي تشجع بهذا النصر ونادى في البلاد بطلب المعونة وقام بجواره رجال الدين بالدعوة لتجنيد أكبر قوة ممكنة ، وانضم إليه الملك منليك ملك شوا ، وأوقعوا بالمصريين هزيمة ثانية بالقرب من (قورع Gura)^(١) (١٨٧٦) وانتهت بعقد هدنة . ظلت مصر بعدها تسيطر على منطقة كيرين سنهيت (Keren) في الاريتريا - بالإضافة إلى ما كان تحت يدها قبل تلك المعارك وهي الصومال وهرر والمناطق الساحلية .
وما هو جدير بالذكر أن الأمير حسن نجل الحديو اسماعيل كان من بين الأسرى فأمر الملك يوحنا برسم صليبيين على ذراعيه (بالوشم) وطالب بقدية مقدارها (٢٥ مليون ريال) - دفعها اسماعيل عن طريق قروض جديدة^(٢) .

ويذكر المؤرخ المصري الكبير عبد الرحمن الراجحي حرب الحبشة بشيء كثير من التفصيل ، ومع أن آراءه لا تختلف كثيراً عن الآراء التي سبق شرحها ، والظروف التي أدت إلى هزيمة المصريين ، إلا أنه يضيف إليها رأياً خاصاً حين يقول : هي الحرب العقيم التي غاضتها مصر في عهد اسماعيل . والعقبة الكأداء التي اصطدمت بها فتوح مصر في حوض النيل وملحقاته . ومن أي ناحية نظرنا إليها نجد أن مصر لم تكن في حاجة إليها ، ولا مصلحة لها في خوضها ، وإنما ساق إليها النزق ، وسوء التدبير فانتهت بالهزيمة والحسran^(٣) .

(١) بلغت خسائر مصر في معاركها بالحبشة عدداً من القتل والأسرى والجرحى وكميات كبيرة من العتاد ومبالغ ضخمة من الأموال . وبقيت لها في النهاية بلاد البوهوس (الاريتريا) التي كانت تملكها في السابق ، وكانت جميع تلك المناطق كافية لوصول السودان بالبحر - ولم يكن هناك مبرر لتطلع إلى احتلال الحبشة ، في تلك الظروف التي كانت المالية المصرية أثنائها هي أسوأ حالتها .

(٢) من - ٥٢٢ سيرج Budge

(٣) من ١٤٣ ج ١ عصر اسماعيل عبد الرحمن الراجحي

(١٥ - الحبشة)

« رأيت مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر وفتحت سنهوت (كبرين) وبلاد البوغوص (الاريتريا) شماليها وهرر المجاورة لها من الجنوب الشرقي ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلاً عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد علي . »

« فهذه المواقع كان يكنى مصر أن تثبت سلطتها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة مسألة لها ، إذ تحتاج إليها للوصول إلى البحر ، ولكن اسماعيل حدثه نفسه بفتح الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة ، فالحبشة كما يعرفها الذين جابها وسبوا غورها ، بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية أن تحتلها أو تيمتاز جبالها الوعرة ومغاورها الجرداء ، فضلاً عن أن حربها لا تفيد مصر مجال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدتها من الخسائر والضحايا ما هي في غنى عنه. (١) .

ولا شك في أن الحرب بين مصر والحبشة كانت مغامرة عقيمة ، قامت بها مصر في وقت يتحكم فيها الإفلاس ، واعتمد إسماعيل في حكم مناطق امبراطورته الجديد وقيادة جيوشه على مجموعة من الأجانب المغامرين ، ويبدو واضحاً للعيان كيف أن بريطانيا قد استفادت من جميع الظروف وبسطت نفوذها في الخفاء وفرضت رجالها على الخديو ليتقلدوا أخطر المناصب . وإذا جمعنا ما لدينا من معلومات وما حدثت في تلك الفترة من أحداث وما نعله الآن عما كانت تدبره بريطانيا في الخفاء ، وعن إزدياد نفوذها في البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس ، وما تم فعلاً بعد ذلك فإنه يظهر واضحاً جلياً أن هذه الأعمال والحوادث لا يمكن أن تكون من قبيل الصادقات (٢) .

• • •

(١) نفس المرجع

(٢) راجع خطابات جرردون ص ٣١٥ وما بعدها الوثائق التاريخية لسياسته. مصر في البحر الأحمر تأليف د . شوق مطا الله (المجلد).

خطط بريطانيا :

بعد أفول نجم البرتغاليين ، تنافست الدول الأوروبية الكبيرة في المنطقة واشتدت بينهم الخلافات والمناوشات . فازداد نشاط الهولنديين في المحيط الهندي والخليج العربي ، وحاول الأسبان الظهور في المنطقة ولكن نجاحهم في الكشف الأمريكي حول جميع جهودهم إلى ذلك الاتجاه ، أما أمر فرنسا فهو معروف منذ حملة نابليون على مصر وخططة المشهورة لقطع طريق الهند وتثبيت أقدامه بالشرق الأوسط ، وكانت الخطط البريطانية أبعدا لخطط نظرا وأكثرها خطورة وتركيزا . لذلك كان النصر في النهاية لبريطانيا . حيث تمكنت من الافراد بالسلطة والسيطرة على جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط .

لذلك لانرضى للقارىء أن يتتبع أختيار منطقة من المناطق أو يدرس حادثة تاريخية في نطاقها الضيق ، بل يتحتم الإلمام بجميع العوامل المحيطة بها والمقدمات التاريخية الطويلة التي تؤدي في النهاية إلى النتائج المدونة ، وفي خطط الدول الكبرى ما يشير دائما إلى سياسة مرسومة لا محل للصادفات فيها . ولكنهم في تنفيذ سياستهم الأساسية البعيدة المدى ، يعالجون كل ما يعترضهم من مشا كل وعقبات حسب ما تقتضيه تلك الظروف ، ونصب أعينهم دائما لتحقيق السياسة الأساسية البعيدة المدى التي لا ينفلون عنها أبدا .

ويعود نشاط بريطانيا في تلك المنطقة إلى القرن السادس عشر عندما بدأ البريطانيون في ارتياد تلك المناطق ، يلتمسون وسائل الانقضاء عليها والتفوق على البرتغاليين . ومرت مجروداتهم في هذا السبيل في عدد من المراحل الهامة التي تميزت بأحداث محددة مسجلة ، واحدة هنا وأخرى هناك شاملة لجميع أنحاء المنطقة . ولو أن الدارس لتاريخ تلك المناطق عنى بمقارنته أحداثها في مختلف أنحاءها ورسم لها صورة واحدة ، لانتضحت له حقيقة

التنظيم الاستعماري والتخطيط) لواسع البعيد المدى ، ولا ترتبط الحوادث ببعضها بما لا يترك أي مجال لافتراض المصادفات .

• • •

لم تتحقق السيادة البريطانية الكاملة على مياه الخليج العربي إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وذلك لأن السياسة البريطانية كانت قد ركزت اهتمامها في النصف الأول من ذلك القرن على قهر نابليون في أوروبا والقضاء على آماله في تكوين علاقات مع إيران وبلاد العرب وأفغانستان وتركيا ، بالإضافة إلى المتاعب التي كانت شركة الهند الشرقية مشغولة بها في الهند . ولذلك بقيت السيادة على ربوع الخليج في يد عرب الخليج ، سواء كانوا عرب مسقط وعمان بزعامة سعيد بن سلطان أو عرب القواسم في ساحل عمان . . وفي سنة ١٨٠٣ كان سلطان بن صقر زعيم القواسم قد اشتهر في جميع أنحاء الخليج بقوته وشجاعته وقسوته في حروبه مع سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية . مما اضطر إنجلترا إلى إرسال قوة بحرية (١٨٠٦ م) بمساعدة إمام مسقط تمكنت من القضاء على أسطول سلطان بن صقر . ولكن الأمور لم تهدأ بينهما واستمرت المناوشات البحرية تتوالى وتمكنت بريطانيا من إجبار القواسم على توقيع معاهدة ١٨٢٠ م ، ولكن الحروب بين القبائل العربية استمرت حتى وقع الشيوخ فيما بينهم ، وتحت رعاية بريطانيا وهدنة بحرية ، عام ١٨٣٩ - وانتهت المناوشات البحرية والبرية - تحت رعاية بريطانيا أيضا - بتوقيع معاهدة السلم في عام ١٨٥٣ التي لازالت نافذة المفعول حتى يومنا هذا (١) .

ويعتبر سعيد بن سلطان من أهم شخصيات الخليج العربي وكان حاكما لمسقط من ١٨٠٤ إلى ١٨٥٦ ، امتاز حكمه خلالها بالفتوحات الواسعة التي قام بها في الخليج العربي وشرق أفريقيا ، فلقد استولى في ١٨٠٥ على مستعمرات عيباسا وزنجبار ، على الساحل الشرقي لافريقيا . . وهذا هو الذي دفعنا إلى

(١) ص ١٩ الخليج العربي والملاقات الدولية . الجزء الأول د . محمود علي الداود

العناية بالكتابة عنه هنا . وكان سعيد بن سلطان على صفاء تام مع السياسة
البريطانية وعاونها في مشروعاتها وخطوطها؛ بناء على المعاهدات المعقودة بينهما
منذ عام ١٨٧٩ .

وعند وفاة الأمير سعيد بن سلطان تنازع ولدها على الحكم ، فنوسط
(لورد كاتنج) نائب الملك في الهند ، وقسم بينهما أملاك السلطنة ، حصل
أحدهما على سلطنة مسقط في الخليج العربي ، بينما كانت زنجبار وعماسا وباقي
ممتلكاتها في شرق أفريقيا من نصيب الثاني (١١) .

ولقد انتهت عملية التقسيم هذه إلى نتيجة المحتومة وهي [ضعاف الجانبين]
وتضاؤل سلطانها إلى الحد الذي أصبح فيه يعتمدان اعتمادا كلياً على بريطانيا
للاحتفاظ بعرشهما ، حتى أن سلطان مسقط وصل إلى حالة من الضعف
بحيث أصبح يعتمد على إعانة مالية بريطانية تدفع له سنوياً من حكومة الهند ،
أما سلطان زنجبار فقد أصبح في الحقيقة تابعا لبريطانيا يعمل بإرشادها ويطيع
أوامرها وإن كان استقلاله قد نصت عليه معاهدة (١٠ مارس ١٨٦٢) المعقودة
بين إنجلترا وفرنسا .



ذكرنا هذا المختصر لتاريخ هذا الجزء الهام من شرقي أفريقيا في ذلك
العصر الذي تتكلم عنه لنبين كيف كانت خطط بريطانيا تنفذ على مجال واسع ،
ويمكننا بذلك أن نكمل رسم الصورة الحقيقية للوقوف في المنطقة :

١ - التنافس بين فرنسا وإنجلترا على مصر وانتصار بريطانيا الذي أدى
إلى انسحاب حملة نابليون من مصر .

٢ - تحالف جميع القوى الأوروبية المتصارعة للقضاء على القوة المصرية
الناشئة (مع القوة التركية) وتحتييم الأسطول المصري التركي في معركة نافارين
البحرية وإجبار محمد علي على الجلاء عن سوريا وبلاد العرب ، وحصره في
مصر وأفريقية .

٣ - عندما عزم محمد علي على فتح الحبشة حذره القنصل العام البريطاني (سولت) من أن اعتدائه على الحبشة سوف يثير عليه الدول الأوروبية للدفاع عن الحبشة على اعتبار أنها المملكة الأفريقية الوحيدة التي لازالت تحتفظ بمسحتها . ولهذا التحذير دلالاته الكبرى على حماية الدول الأوروبية للحبشة بمختلف الوسائل .

٤ - عندما انتعشت الأحوال في مصر ثانية - دخلت الدول الأوروبية من باب جديد وهو باب المزايا والقروض ، وتمكنوا من الانتفاع إلى أقصى حد من اسراف الخديو اسماعيل ونزقه ووصول الدين المصرى إلى ماينوف على ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ ج وأصبحت بريطانيا تتحكم في جميع مقدرات مصر وامبراطوريتها الجديدة التي امتدت على الشاطئ الأفريقى بأجمعه إلى بلاد الصومال ، وتغلقت في داخل القارة الأفريقية حتى وصلت إلى حدود مملكة الحبشة فوق الهضبة ، وعن طريق النيل وصلت إلى قلب افريقيا وبسطت سلطاتها حتى شمل مملكة أوغندة .

٥ - فرضت بريطانيا على مصر مجموعة من الحكام والقواد ، على الأجزاء الهامة من الامبراطورية الذين أخذوا يتصرفون ظاهريا كوظفين في الحكومة المصرية ، وفي حقيقة الأمر ينفذون المخطط الاستعماري الإنجليزي .

٦ - عندما أراد الخديو إكمال الحلقة الأخيرة التي تربط أطراف امبراطوريته وتثبيت أقدامها رفض جوردون تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من الخديو . وتذكر المصادر البريطانية أن سلطان زنجبار قد احتج على نزول القوات المصرية في قسايو قريبا من سلطنته ، ولقد علنا عما سبق شرحه كيف كان سلطان زنجبار عميلا لبريطانيا مرتبطا معها بمعاهدات من الحماية والولاء ، وأن شكوى السلطان قد تأيدت بتدخل الإنجليز ومعارضتهم لبقاء الحملة المصرية ، فكانت معارضة بريطانيا من الطرفين ، من جهة جوردون ومن جهة سلطان زنجبار .

٧- رأينا فيما سبق شرحه كيف عبر جوردون عن عدم رضائه عن اخضاع أوغندة للحكم المصرى ومنذ أن أصبح حاكما للسودان باسم خديو مصر - أخذ يعمل على عزل أوغندا من هذه الامبراطورية المصرية الجديدة .

٨- ورأينا كيف تمكنت بريطانيا من فرض جوردون على الخديو اسماعيل ، وامتداد نفوذه حتى شمل جميع الأقاليم التي فتحها مصر في افريقيا الشرقية والحبشة ، فبادر بفصل القواد المصريين العظام الذين لهم فضل الفتوحات والانتصارات وأصبحت لهم الخبرة والدراية بتلك المناطق وأحوالها . وعين بدلا منهم كثيرا من الأجانب الذين يدينون له بالولاء .

٩- عندما فازت فرنسا بالمشروع العظيم - مشروع قناة السويس - أخذت بريطانيا تترصد حتى تمكنت من التسلل إلى القناة عن طريق شراء نصيب مصر من أسهم الشركة (٤٧٪) بعملية الشراء التاريخي التي قام بها دزرائيل على مسئوليته الخاصة ، وعندما وقف أمام مجلس العموم البريطانى يدافع عن تصرفه قال : بغير القناة سوف لا يسيطر على مصر وإذا لم يسيطر على مصر فسوف تفقد الهند .

١٠- عندما بدأت إنجلترا تفرغ للعمل على بسط نفوذها في هذه الأرجاء كانت الدولة العثمانية والحكومة المصرية تسيطران على أغلب الموانئ والشواطئ على جانبي البحر الأحمر ، فجاهدت إنجلترا للحصول على مركز لها تعتمد عليه وتجعل منه نقطة لانطلاقها ، وتمكنت من التحالف مع بعض شيوخ المناطق النائية وصغار الأمراء ووقعت معهم سلسلة من معاهداتها التقليدية المشهورة بالتنازل عن بعض الأماكن ، وبهذه الطريقة استولت إنجلترا على عدن في سنة ١٨٣٨ م وأصبحت منذ ذلك التاريخ تعتبر (جبل طارق الشرق) ومنها أخذت تراقب حركات البحر الأحمر واستولت في ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ على جزيرة موسى التابعة للسلطان محمد والى تاجوره ، وفي ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠ استولت على جزيرة أوباط التابعة لحاكم زيلع . وحذا الفرنسيون

حذو بريطانيا واشترى في ١٨٦٢ (أوبوك) التي أصبحت تعرف فيما بعد بالصومال
الفرنسي (جيبوتي) وابتاع الطليان ميناء عصب سنة ١٨٧٠ من القبائل
المحلية ، وكان اسماعيل يطعن في صحة البيع ويطالب انجلترا باخلاء الجزر
حتى لا تمنع الدول في الجرى على سنتها ولكن احتجاجات الحثديو اسماعيل
ذهبت أدراج الرياح ، وكانت هذه الأماكن التي يبعث بطريق غير مشروع ،
أساساً لتقسيم الامبراطورية المصرية بين تلك الدول فيما بعد (١٨٨٤) ^(١)

١١ - في الوقت الذي كانت فرنسا تتفاوض للحصول على امتياز قناة
السويس كانت بريطانيا تعمل جاهدة للحصول على امتيازات أخرى لا تقل
أهمية ، وهي مرور الأسلاك البرقية البحرية الشهيرة التي تربط الامبراطورية
البريطانية من استراليا إلى لندن . مارة بسنغافورة والهند (بومباي) وعدن .
ولما كانت باقي الموانئ تحت الحكم العثماني والمصري فقد عمدت بريطانيا
على بذل الجهود للحصول على حق مرور هذه الكابلات البحرية في موانئ
جدة وسواكن وبورسودان ثم السويس ومنها عبر الأراضي المصرية إلى
بور سعيد والإسكندرية ومنهما إلى مالطة إلخ . إلخ . (ليس لهذه المجموعات
مراجع مستقلة بها ، ولكن المؤلف عنى بجمعها ويتولى إصدار كتاب مفصل
عنها بإذن الله) .

١٢ - وذكرنا في عدة مواضع كيف أن جوردون وهو يعمل لحساب
مصر أميناً على مصالحها كان يؤيد الامبراطور يوحنا عدو مصر الأول في
هذه المنطقة . وبما لا جدال فيه أن جوردون وهو يتبوأ أخطر المراكز ،
بسيطرته السكاملة على مصالح مصر في ملحقاتها في أفريقيا ، كان يعمل قلباً
وقالباً لمصلحة بريطانيا - وضد مصلحة مصر التي يعمل باسمها وموظف بها -

١٣ - كل ذلك يحدث وأحوال مصر المالية تسير من سيء إلى أسوأ ،

(١) ص ١٧ مصر في شرق أفريقيا . د . محمد صبرى .

وتحسن معها الظروف أمام المخطط البريطانية من حسن إلى أحسن .
وخصوصاً بعد أن تمكنت من شراء الأسهم المصرية في قناة السويس وبذلك
أصبحت شريكاً لفرنسا فيما حصلت عليه من نصر بحصولها على امتياز القناة .

١٤ - سنحت الفرصة ونضج المحصول وحنان قطافه، فاستولت بريطانيا
على مصر في سنة ١٨٨٢ م وأصبح حكمها لمصر وما يتبعها من السودان وأوغندا
وشرق أفريقيا - حبشة وصومال وأريتريا ، سافراً واضحاً ، لا محل فيه
للغموض ، وما أن تم ذلك حتى قررت بريطانيا أن تنسحب مصر من
السودان . معتمدة على ثورة المهدي .

١٥ - هدية الأسلحة الإنجليزية للإمبراطور يوحنا التي شرحناها في
الفصل السابق ليعزز بها يوحنا حليف بريطانيا مركزه .

١٦ - استولى المهديون على القضاة في ١٨٨٤ ولكن كسلا بقت في
أيدي المصريين . - ولقد حافظوا عليها خوفاً على أن يؤدي التخلي عنها إلى سقوط
أريتريا بأكملها حتى مصوع وكانت جميعها في أيدي المصريين . وهنا تدخلت
بريطانيا لمساعدة الحبشة وكسب صداقتها فدفعت المصريين إلى التخلي عن
منطقة (سنهيت - ييلين) للحبشة وأمرت بإخلاء منطقة القلابات -
وكنتيجة لذلك لم تتمكن حامية كسلا من المحافظة عليها .

• • •

منذ احتلال بريطانيا لمصر في ١٨٨٢ ، بادرت إلى القضاء على الجيش
المصري والبحرية المصرية ، فلم يكن يستقيم الأمر أن تحتل بريطانيا مصر
ويبقى لمصر ذلك الجيش وتلك البحرية عماد الامبراطورية المصرية الناشئة ،
ثم لماذا هذه الامبراطورية ، لا بد من تحقيق المخطط البريطاني والاستيلاء
عليها ، وفي يد بريطانيا مبرر تستعمله كيفما تشاء وهو إفلاس الخزينة
المصرية واضطراب أحوالها المالية، ولو أن احتفاظ مصر بالاريتريا والصومال

والسلطنات المصرية في الحيشة وشرق أفريقيا بعد أن ثبتت أقدامها فيها كان يبشر بالحصول منها على موارد تسد تكاليف الحملات العسكرية التي كلفت حصر الكثير من المال والعتاد والآنفس ، ويشكل ما أنفق عليها جانبا كبيرا من الدين العام الذي استندت عليه الدول الكبرى في فرض الوصاية على حصر وانتهت باحتلال بريطانيا لها .

جميع الأسباب المنطقية كانت تؤيد ضرورة بقاء الحكم المصرى لهذه المناطق ولكن هذا المنطق لا يتفق مع المخطط الانجليزي . فلابدأن تسحب مصر من هذه البقاع . فصدر إليها الأمر بذلك وتم انسحابها في ١٩ فبراير سنة ١٨٨٥ م وكانت بريطانيا قد أمرت بأن يكون على باشا حاكم هرر نحت أوامر الميجر هنتر . الذي كلفته بريطانيا بتنفيذ عملية الانسحاب من هرر ، وقام نوبار باشا بتبليغ هذا الأمر إلى حاكمى زيلع وهرر في أغسطس سنة ١٨٨٤^(١) .

تقامت الدول الكبرى - على عاداتها في تلك الأزمنة- الامبراطورية المصرية - متعلقة كل منها بسبب أو بآخر وكانت النتيجة أن البلاد التي أخضعتها مصر للمرة الأولى في التاريخ ونشرت بيندروعم الاستقرار والمدنية وال عمران ، وأنفقت في سبيل ذلك كل غال من أرواح أبنائها وأموالها - تقسمت بين الدول الاستعمارية بالاتفاق مع بريطانيا التي حصلت منها على نصيب الأسد .

استولت إيطاليا على الاريتريا والصومال الإيطالى ، واستولت فرنسا على الصومال الفرنسى واستولت بريطانيا على الصومال الانجليزي وأوغندا . وعملت على استرداد السودان بحيث يكون لها فيه السلطة العليا (٢) .

• • •

(١) ص ٢٢٢ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر د . شوق عطا الله الجلى ص ١٢٢ التنافس الدولى في بلاد الصومال د . جلال يحيى .
(٢) دخلت ألمانيا في ذلك الوقت في حلبة الصراع الاستنارى - وتمسكت من الحصول على نصيبها في شرق أفريقيا باحتلال المنطقة التالية للصومال الانجليزي .

في هذا التقسيم بقيت هرر بدون صاحب . مما يدعو إلى العجب ، وقد كانت هرر أغنى هذه المناطق وتتمتع بموقع ممتاز وتبشر بمستقبل باهر، الأمر الذي جلب إليها عدداً كبيراً من التجار الأجانب الذين أزعمهم نبأ انسحاب القوات المصرية ، وكأما قد تعمدت بريطانيا بموافقة الدول الكبرى الأخرى على ترك هرر في فراغ حتى تهيم الفرصة لقوات الحبشة باحتلالها - كحل طبيعي لما تنشده من القضاء على الإسلام وتعزيزاً لسلطة المملكة المسيحية في تلك البلاد . ولا يمكن أن يكون عملها هذا من قبيل الصدف - بل يدعونا توافق الحوادث إلى اليقين بأن ترك هرر على هذه الصورة إنما كان عملاً مدروساً مبيتاً ومتفقاً عليه ، يكمل قصة الأسلحة التي تركت هدية لملك الحبشة ، وليس لكل ذلك إلا معنى واحد تهدف إليه بريطانيا وسكنت عنه باقي القوى الكبرى لموافقتها عليه ، وهو تأييد ملوك الحبشة في السيطرة الكاملة على المناطق الإسلامية .

• • •

استغرقت هذه الأحداث جميع عصر اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) وجانباً كبيراً من حكم توفيق الذي تم فيه احتلال مصر وتصفية إمبراطوريتها .

وفي أثناء ذلك أيضاً قامت ثورة المهدي في السودان - ورأت بريطانيا أن تهب مصر على الانسحاب من السودان . ولما اعترض المصريون على ذلك لثقتهم في إمكان السيطرة على الموقف والقضاء على الثورة المهدي . أقالوا الوزارة وعينوا وزارة جديدة تحت رئاسة نوبار باشا الأرمي الشهير الذي أقر الجلاء عن السودان . ثم تلاه عدد آخر من رؤساء الوزارات الخاضعين للنفوذ البريطاني .

حروب الحبشة مع المهديين :

قامت كثير من المناوشات والحروب والغارات بين قوات المهدي والحبشة

ولجأت الحبشة إلى شن هجوم كبير على القلابات وأوقعوا بها هزيمة كبيرة وأحرقوها . وقتلوا حاكمها في المعركة وكان ذلك في أول يناير سنة ١٨٨٨ .

عندئذ اهتم الخليفة عبد الله التعايشي وأرسل لها جيشاً كبيراً معتبراً القلابات باب السودان الشرقي الذي يجب أن يحفظه مسدوداً . منذ ذلك الحين أخذت الحرب بين يوحنا والتعايشي تتخذ طابع العنف . وهناك من يعتقد أنها لم تكن لازمة ، وكان من السهل تلافياها . ويعودون باللائمة على الأحباش لأنهم هم الذين بدأوها . مما دعا الخليفة عبد الله التعايشي إلى الكتابة إلى يوحنا في مارس سنة ١٨٨٧ يحمله مسئولية اعتداءاته المتكررة بالقتل والأسر والنهب والضرر . الذي يوقعه بضعفاء المسلمين الذين بالقرب من بلده ،^(١) .

وفي يناير سنة ١٨٨٨ خرج جيش المهدي لغزو الحبشة ، وتوغل في أرضها واتخذ الأحباش خطة الانسحاب حتى يبعدوا الدراويش عن قواعدهم ويسلم عندئذ القضاء عليهم ، ولكن خطتهم فشلت ، وتمكن الدراويش من دخول جوندار العاصمة في ٢١ يناير سنة ١٨٨٨ وسلبوها وأحرقوها وعادوا بغنائمهم إلى القلابات ثم عادوا مرة أخرى وقاموا بنفس العملية في يونيو ١٨٨٨ .

ولقد انهكت هذه الحروب قوى الأحباش والمهديين على السواء ، وفي ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٨ اتصل يوحنا بالقائد السوداني يعرض عليه الهدنة وكان الدافع ليوحنا إلى هذا العمل هو تعرضه إلى اعتداءات الإيطاليين في الشمال من جهة الاريتريا وأصبح يوحنا يخشى منهم على بلاده . ولكن الخليفة رفض الصلح وطلب من يوحنا إذا شاء الصلح أن يعتنق الاسلام^(٢)

(١) من ٣٨٩ مصر والسودان تأليف د . محمد فؤاد شكرى .

(٢) نفس المرجع السابق .

واستعد الفريقان لمعركة حاسمة وقعت (في المنتعة) كان فيها النصر الحاسم
لقوات السودانية وأصيب الملك يوحنا بجرح مميت وتوفي في المعركة (٢٩
مارس سنة ١٨٨٩) .

* * *

كلمة ختامية عن الحملة المصرية :

لم تكن العمليات العسكرية والمدنية التي اتبعت في انشاء الامبراطورية
المصرية مرهجة أو معتمدة على المصادفات ولكنها كانت مدروسة دراسة
دقيقة ، مجهزة بأحدث التجهيزات ، متبعة أحدث الوسائل وأدقها في شئون
الادارة والحكم .

فلقد أدخلت الخدمات التلغرافية التي كانت تربط أطراف الامبراطورية
بعضها وجعلت منها اللبنة الأولى عماد الاتصال بين المركز في القاهرة وبين
باقي أنحاء الامبراطورية ، وجعلت من الأسطول البحري - الحربي والتجاري -
وسيلة النقل الأساسية التي تسير من ميناء إلى آخر في رحلات منتظمة -
وللبارة الأولى في التاريخ أيضا يجرى نظام دقيق للتعاون الدائم بين القوات
البحرية والقوات البرية .

وأدخلت مصر نظم الادارة الحديثة وعينت المديرين والرؤساء والشرطة
وجرجال الادارة ، فاستتب الامن وانتعشت الزراعة والتجارة وأصبحت البلاد
تتطلع إلى مستقبل مشرق ورخاء لم يكن لها أمل فيه في الماضي .

ولقد قام جماعة من المهندسين المصريين بأجل الاعمال في انشاء خطوط
التلغراف والمواني وأرصفاتها ومستودعاتها وغير ذلك من المنشآت الحكومية
وخططوا المدن وشقوا الشوارع المعبدة وبنوا المساجد ، ووصلوا المياه
العذبة إلى مختلف الأماكن وبنوا المستشفيات والصيدليات والمخابز والمطاحن
وأنشأوا مكاتب البريد ، ولقد برز في هذه الاعمال الجليلة عدد كبير من رجال
عصر العسكريين والمدنيين الذين يضيق المقام هنا عن ذكرهم بالتفصيل ،

وتحليل القارىء إلى المراجع المتخصصة في هذه الأمور للوقوف على المزيد من أعمالهم . مثل تقويم النيل ومؤلفات الرافعى والدكتور صبرى وغيرها .

واعنى المصريون بإنشاء المحطات فى طريق التجارة بين المدن والمراكز الكبرى بحيث تجد القوافل فيها وسائل الراحة ، وكانت فى نفس الوقت مراكز حفظ الأمن وسلامة التجار والمسافرين .

وعنى المصريون بنشر أسس الحضارة فأخذت فى نشر التعليم وتحسين وسائل الزراعة وتشجيع الحرف والصناعات ، مما أثار إعجاب جميع من اطلع على الأمور فى ذلك العهد ، وجميع من كتبوا عن هذه الإمبراطورية ومدنها زيلع وهرر ومصوع وبربرة وغيرها من المناطق ، الأمر الذى لم تقم به على هذه الصورة الانسانية أى دولة من الدول الاستعمارية المعروفة فى ذلك العهد .

وهذه الحقيقة يعترف بها كل كاتب مزه عن الهوى ، وقد فطن إليها الرحالة الألمانى « هلد براند » فى كتاب بحث به فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ إلى الدكتور شفاينفورت رئيس الجمعية الجغرافية المصرية قال بعد أن أظهر أسفه لوقوف إنجلترا فى وجه الحملة المصرية على نهر الجب (الجوبا) (التى سبق ذكرها) « يلوح لى أن مصر لن توفق إلى بسط نفوذها فى أفريقيا الشرقية وهذا أمر يحزن له إذ لا توجد أمة أصلح - فى اعتقادى من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقيا » (١)

* * *

أفتقت مصر فى فتح هذه البلاد ونشر ما ذكرنا من عمران ، المبالغ الطائفة والمجهودات العظيمة ، وزاد بها عبء الدين المصرى ، ثم أمرت بريطانيا بجلاء القوات المصرية واقتسمت مع زميلاتها هذه الغنائم القيمة بطريقة بالغة اليسر والسهولة .

(١) ص ٧٦ مصر فى افريقية د . محمد سبرى ..

تلك الدول التي ورثت هذا الميراث العظيم - هي نفسها الدول التي تدين مصر بدينها الثقيل - وهنالك من التعبير المؤلم عن عجبنا - كيف لم تقدر هذه الضائيم وتخصم تسكاليها من الدين المصرى .

فإذا كان انسحاب جيوش مصر أمرا محتوما - ولم يكن كذلك كما قلنا؛ فلا أقل من أن يرفع عن كاهل مصر جانب من الدين العام يقابل ما حصلت عليه تلك الدول الأوروبية من مستعمرات وغنائم وعلى رأسها بريطانيا التي كانت تحتل مصر آنذاك وتتولى عنها رعاية شئونها .

° ° *

الفصل الخامس عشر

عهد منليك MENELIK

(١٨٦٥ - ١٩١٣)

ولد منليك في عام ١٨٤٤ م وكان والده مسلكا على اقليم شوا ، وعندما ظهر تيودور وأخذ في القضاء على منافسيه من ملوك المقاطعات انتصر على ملك شوا الذي مات في المعركة في عام ١٨٥٥ ، وقبض تيودور على منليك وأخذ رهينة واحتفظ به في قلعة مجدلا . ولكنه رعاه وعامله معاملة طيبة كما سبق أن قدمنا . ثم زوجه من ابنته ، ولكنه مع ذلك ، احتفظ به داخل قلعة مجدلا بمحدد الإقامة .

وفي أواخر عهد تيودور عندما بدأت الامور تضطرب ، ويزداد عدد المقبوض عليهم في قلعة مجدلا ومنهم الأسرى الأوروبيون والمطران (ليونا سلامة) وكانت العلاقات بين الانجليز و تيودور بالغة السوء وتنذر بالخطر ، وبدأ كثير من الملوك والأمراء باظهار عداوتهم لتيودور ، خلال كل ذلك تمكن منليك من الهرب من قلعة مجدلا - وغالبا بمساعدة المطران وذهب إلى مقاطعته شوا وأعلن نفسه مسلكا عليها في عام - ١٨٦٥ فاستقبله الشعب استقبالا حافلا ، وانتمدت حوله الآمال لتخليصهم من مجازر الامبراطور تيودور .

وعندما انسحبت حملة نايير (١٨٦٨ م) وبعد موت تيودور ، احتدم الصراع على الملك بين الأمراء الكبار انتهت باستيلاء الامبراطور يوحنا الذي توج مسلكا للوك في ١٨٧٣ ، ولكن منليك ملك شوا بقي يتمتع باستقلال ذاتي وينافس الامبراطور ، الذي رأى ازام ما يهدد الدولة من

الأخطار الخارجية أن يوحدنا ، فعقد تحالفا مع منليك يجعله وريثا للعرش بعد وفاة يوحنا ، ووطد العلاقات بينهما بأن تزوج نجل يوحنا لإحدى بنات منليك (زاودبتو) التي منحها مقاطعة واللو ، كهدية زواج ، على أن يحمل زوجها (ابن يوحنا) لقب ملك ، وتحمل هي لقب ملكة ، وبذلك وضعت أسس السلم بين العاهلين ، وتركت لمنليك حرية العمل في كثير من الأقاليم .

لذلك تبدأ أهمية منليك في تاريخ الحبشة منذ عام ١٨٦٥ عندما أصبح ملكا على إقليم شوا ، إذ أنه أصبح منذ ذلك الحين خطير الشأن ، وبدأت حروبه وفتوحاته تلتقي نصرا على الأقاليم الجنوبية وأخذت قوته في الازدياد ، وفي تلك الأثناء تقرب الايطاليون من منليك وزودوه بمقادير كبيرة من الأسلحة - كما سيأتي ذكره فيما بعد - ولقد كان لهذه الأسلحة الفائدة الكبرى فيما حققه من انتصارات .

ولقد أتاحت لمنليك خلال تلك الفترة كثير من الفرص التي سارع لاغتنامها وأهمها ذلك القراع الذي نشأ في مقاطعة هرر التي تقع إلى الشرق من مملكته مباشرة ، وذلك بعد أن انسحب منها الجيش المصري وأصبحت لقمة سائغة ، وسرعان ما انتهر الفرصة واستولى عليها في عام ١٨٨٧ م

وكان قبل ذلك قد حاز نصرا كبيرا على ملك جوجام ، وكذلك على مناطق والالو جالا . مما دفع الامبراطور يوحنا إلى التدخل لوضع حد لازدياد نفوذ منليك ، وعقد معه المعاهدة التي سبق أن أشرنا إليها ، وكان أهم أسسها أن يتولى الامبراطور يوحنا السلطة في مقاطعات جوجام والوالو جالا التي استولى عليها منليك ، وأن يستمر ولاء منليك وتعاونه في نظير توليه عرش الامبراطورية بعد وفاة يوحنا .

وعندما انتصر المهديون على يوحنا وقتلوه في معركة المئمة عام ١٨٨٩ ، تولى منليك العرش الامبراطوري وورث معه الجيش الذي كان لئدي سلفه (١٦ - الحبشة)

يوحنا ، والكليات الضخمة من الأسلحة الحديثة والعتاد الذي أهدهته بريطانيا إليه ، وتلك التي حصل عليها يوحنا من روسيا ، وتلك التي حصل عليها من إيطاليا ، وبهذه الكميات المتزايدة من الأسلحة تمكن منليك من تحقيق الانتصارات التي حدثت في عهده ، وتم له إخضاع جميع الأمراء والسلاطين الذين لا يملكون السلاح .

ولقد شملت فتوحات منليك وانتصاراته خلال عهده الأول كملك لشوا وعهده الثاني كامبراطور الحبشة ، جميع أنحاء البلاد . وكانت أهم أهدافه القضاء على قبائل الجالا التي ازداد خطرها وأصبحت تقرب من نصف السكان وبلغت من القوة والسلطة شأناً كبيراً في كثير من المناطق الهامة ، وأصبح منها الأمراء والحكام والقواد .

وتمييز حكم منليك بخواص ثلاثة بالغة الأهمية — الأولى : امتداد امبراطوريته إلى الجنوب والجنوب الغربي مستولياً على الممالك الإسلامية والوثنية — والثانية : احتفاظه باستقلال الحبشة ودفاعه عنها ضد الحملة الإيطالية ١٨٩٦ م . وتثبيت حدود امبراطوريته بالمعاهدات التي عقدها في هذا الشأن ، (في ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ للحدود بين الحبشة والسودان المصري الإنجليزي — ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٧ للحدود الجنوبية مع أفريقيا الشرقية البريطانية) — والثالثة : القضاء على سلطة الملوك والأمراء وجعل الدولة وحدة واحدة وأصبحت الممالك والسلطنات عبارة عن إقاليم يعين لها حكما مؤقتين ينتقلون في وظائفهم من مقاطعة إلى أخرى ، وبذلك قضى على تنافس الأمراء فيما بينهم ، الذي كان سبباً في تمزيق البلاد وإشاعة الفوضى والإضطراب الذي شاهدناه في جميع أدوار التاريخ .

* * *

لقد كان لتعاون الامبراطور يوحنا مع منليك أكبر الأثر في توطيد أركان الامبراطورية الجديدة ، فما أن تولى منليك العرش في ١٨٨٩ حتى كان

يسيطر سيطرة تامة على الممالك المسيحية في شوا وتيجرى وأمره وجوجام وأخضع لسلطانه جميع الممالك والسلطنات الإسلامية المحيطة بالهضبة مثل هرر وسيداما وجيا وغيرها من المناطق ، وأن كانت بعضها قد ظلت تقاوم في بسالة فترة من الوقت مثل (مملكة كافا Kaffa) التي لم تستسلم إلا في . ١٨٩٧

وكان أهم أهداف منليك هو القضاء على قبائل الجالا . ولقد تم انتصاره عليها أثناء واقعه ، مع ماسبق ان قدمنا ذكره من ممالك لان الجالا كانوا منتشرين فيها ، ولكن أهم نصر مركز تم على تلك القبائل هو انتصاره على اللوالو جالا الذين يقيمون في قلب الهضبة وسط الممالك المسيحية (حول مدينة ديسى Desise) القريبة من مجدلا عاصمة تيودور . وانتصر فيها منليك على « السلطان محمد على » رغم مناعة موقعة بفضل ما حصل عليه منليك من أسلحة حديثة ، وخبراء عسكريين من الدول الأوروبية الذين وفدوا إلى البلاد بعناد كثير حديث تحت تشجيع البعثات التبشيرية التي عاونت منليك وقدمت له المساعدات الكبيرة .

* * *

كان انتصار منليك على السلطان (الرأس) محمد على أكبر انتصار احرزه منليك على السلطنات الاسلامية ، وحسب التقليد المتبع ، خير السلطان بين أن يعتنق الدين المسيحي أو يقتل ، فتنصر وتسمى بالرأس ميخائيل . فزوجه منليك من ابنته (اريجاش Aregash) وانجب منها ولد أسماه « لسيح ياسو » (قلب يسوع Lijj Yasso) ولم يكن لمنليك أبناء ذكور — ولذلك أوصى بأن يكون حفيده وليا للعهد . كما سيأتى تفصيله في الفصل التالي .

* * *

أسباب انتصارات منليك :

أول الأسباب التي ساعدت منليك على انتصاراته المتعاقبة وتوحيده

جميع بلاد الحبشة تحت سلطانة ، هي صفاته الشخصية ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ويتمتع بكفاية نادرة في تصريف شئون الدولة الحربية والمدنية ، ولولا تلك الصفات لما تمكن من انتهاز الفرص التي أتاحت له . وبجانب ذلك تجمعت لديه من الكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة التي لم تعدها الحبشة من قبل ، الأمر الذي يسر له القضاء على جميع أعدائه (١) .

أما الأسباب الأخرى التي شادت الظروف بأن تتجمع في وقت واحد ومهدت السبيل أمام منليك ليحصل على ما حصل عليه من نصر في أقصر ما يمكن من الوقت ، ويخضع تلك البلاد المستعصية بسهولة لم يكن يتوقعها أحد ، فإنها كانت أسباباً غاية في الأهمية .

كان الصراع بين الدول الاستعمارية الأوروبية قد بلغ أوج شدته في أفريقيا وعلى الأخص في شرقها . وكانت تلك الدول تتسابق سباقاً محموماً ، لا يمتلك المواقع والموانئ والسواحل ، وعقد المعاهدات مع رؤساء المناطق المحليين ، وكسب الصداقات وتقديم الهدايا والشاوي ، واستعراض العضلات بالأساطيل البحرية التي تجوب البحار في رحلات متتالية لا تكاد ترمو في ميناء حتى تفزع إلى آخر ، تنافس كل دولة غيرها من الدول وتضع العراقيل أمامها ، ولقد تصادمت هذه الدولة مع بعضها وتبادلت من الرسائل ما لا حصر له ، وعقدت بينها الاجتماعات المتوالية بغية تقسيم الشواطئ والموانئ ومناطق النفوذ ، واستغرق ذلك من تلك الدول وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً . وتركزت أدوار هذا الصراع في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا . في الوقت الذي كانت مصر تسيطر على أهم الموانئ ويمتد نفوذها على الشاطئ . امتداداً مستمراً حتى قسايو في جنوب الصومال .

ولم يكن هذا المركز الممتاز الذي تحتله مصر يرضى تلك الدول الاستعمارية

خصوصاً أنها كانت تقاسى من الاضطراب المالى ، وإذا كانت بفتوحها التى حققتها فى ذلك العهد قد فتحت أمامها أبواب القوة وأصبحت قادرة على جى ثمار فتوحاتها وتسيديد ديونها والتغلب على صعايبها ، فليس من مصلحة تلك الدول الاستعمارية أن تصبر عليها حتى يتحقق لها ذلك ، بل يجب أن تلتزم الفرصة وتقضى عليها قبل أن تحاول استعادة قوتها .

ولقد كانت إنجلترا قد جعلت من نفسها فى ذلك الوقت وصيه على مصر ثم بعد ذلك قامت باحتلالها . فسرعان ما أمرت بسحب الجيوش المصرية والأسطول المصرى وخلا الجو لتلك الدول الاستعمارية لى تقاسم الغنيمة ، وإن كانوا قد تنازعوا عليها واتخذ النزاع بينهم مظاهر متعددة ليس هنا مجال شرحه ، إلا أنه انتهى بتقسيم الامبراطورية المصرية فيما بينهم ، وأخذ كل منهم قطعة ثمينة بدون مقابل .

وكان الصراع بين الدول الاستعمارية مركزاً على السواحل قبل الداخل لأن السواحل هى المنافذ ، ولم تكن أية دولة منها تعنى بتبديد جهودها فى الاستيلاء على المناطق الداخلية بل ركزت جهودها على الاستيلاء على أكبر قدر من الساحل ، ومنه يمكنهم التسلل إلى الداخل عندما تستقر أمورهم . وكان الأمر بالنسبة لبريطانيا يمتاز عن غيرها ، بأنها كانت قد توغلت فى داخل القارة الإفريقية كورثة للسلطة المصرية التى كانت قد بلغت فى توسعها داخل القارة إلى أن شملت أوغندا .

لهذه الأمور مجتمعمة كان انسحاب الجيوش المصرية التى كانت تعزز جميع السلطنات الإسلامية ، وتحمل عبء حمايتها ، أكبر كارثة حلت بالمناطق الإسلامية إذ أنها تركتها مقسمة مزووعة السلاح لا نصير لها ولا توجد قوة تربطها مع بعضها ، مما جعلها فريسة سهلة لى يسيطر عليها الامبراطور منليك سلطته فى يسر وسرعة وبدون مقاومة .

وعما لا شك فيه أن الدول الكبرى كانت تبارك هذه الحركة ، وتمدها بالمعونة فقد رأينا كيف تركت حملة نابيير المقادير الهائلة من الأسلحة والعتاد الحديث للإمبراطور يوحنا - الذي استعملها أولاً لتوطيد حكمه - ثم حارب بها المسلمين بعد ذلك - وورثها عنه خلفه منليك . الذي استعان بها في حملاته على المناطق والسلطنات الإسلامية حتى تم استيلاؤه عليها ، بالإضافة إلى الكميات الأخرى من الأسلحة التي منحتها له إيطاليا - وتلك التي حصل عليها الإمبراطور يوحنا من روسيا . وكذلك تلك التي حصل عليها منليك من إيطاليا في عهد الإمبراطور يوحنا .

وتحدثنا الوثائق العديدة التي رافقت إخلاء هرر ، عن إصرار الميجر هنتر ، الذي كلفته بريطانيا بالإشراف على انسحاب الجيوش المصرية - على سرعة إخلائها في لطفة ، بالرغم مما تقدم له وللحكومة البريطانية من التماسات واحتجاجات من أن انسحاب القوات المصرية بهذه الصورة وعدم إحلال قوة أخرى مكانها سيدفع بالبلاد إلى الفوضى والخراب . ويعرض مصالح التجارة والأجانب إلى الخطر .

ولم تكن الدول الأخرى تتعارض مع إنجلترا في هذا الاجراء ، بل كانت تباركه حتى تنجح الفرصة للإمبراطور ليقضى على الاسلام في تلك البلاد ، وكانت تلك الدول شديدة الاهتمام بمستقبل المسيحية بالحبشة ، شديدة القلق من انتشار الاسلام ، وكانت البعثات التبشيرية الفرنسية برئاسة المنسيبور (تورهان كاهان) تقيم في الحبشة منذ أجيال وكذلك البعثات السويدية ، وكان من أبلغها أثراً تلك البعثة التي يرأسها السكاردينال (ماساجا Massaia) الذي كان وثيق الصلة بالإمبراطور منليك ، وهو الذي كتب عن الحبشة وتاريخ هذه الحقبة من الزمن ، مرجعاً من أهم المراجع - ولقد أشرنا إليه في كثير من المواضع في هذا الكتاب ، ومن المعروف أن جميع هذه البعثات التبشيرية كانت مؤيدة من حكوماتها ، لذلك كان الهدف مشتركاً وهو إتاحة

الفرصة للامبراطور منليك لإتمام السيطرة على جميع الأقاليم الإسلامية والعمل على كسر شركة الإسلام . ولقد كان المبشرون ومن جلبوهم من المدوين العسكريين خير المستشارين لمنليك وبفضل خططهم تمكن من تحقيق انتصاراته .

وعندما تمكن منليك من توحيد جميع أنحاء امبراطوريته الجديدة التي شملت جميع المناطق والممالك المسيحية والإسلامية على السواء ، نقل عاصمته إلى قلب البلاد . وفي مملكته القديمة شوا ، وأنشأ مدينة أديس أبابا (الزهرة الجديدة) العاصمة الحالية للامبراطورية .

* * *

حرب منليك مع إيطاليا :

وعندما كان منليك لا يزال ملكا على شوا وينافس الامبراطور يوحنا ، كان الايطاليون قد استقروا في الاريتريا بعد انسحاب الجيش المصري منها ، وكانت آمالمهم معقودة على الانطلاق من مستعمرة الاريتريا الفقيرة إلى الحبشة الغنية ، فشنت بعض الحملات التي تمكن الامبراطور يوحنا من ردها .

في عام ١٨٨٧ وقعت أول معركة بين الايطاليين ومنليك الذي كان في ذلك الوقت ملكا على شوا ، وكانت المعركة في دوجالاء وانتصر فيها منليك مما حفر الايطاليين على تجريد حملة أخرى قوامها ٢٥٠٠٠ مقاتل ، ولجأوا في هذه المرة إلى الاستعانة بالأساليب السياسية ، فعرضوا على منليك أن يعترفوا به ملكا على الحبشة ويتركوا له مقاطعة التيجري ، شريطة أن يعاونهم على القضاء على الامبراطور يوحنا . وترك لهم بلاد البوغوص (الاريتريا) وكيرين عاصمة الخمسين .

وقدم الايطاليون لمنليك المال ومعه كميات ضخمة من الأسلحة الحديثة والذخيرة ، بقصد معاوتهم في محاربة يوحنا ، ولكنه لم يجاربه . وفي نفس

الوقت أبى أن يجارب الإيطاليون عندما طلب يوحنا منه ذلك^(١) وبذلك فضل منليك الاحتفاظ بما حصل عليه من سلاح ، ووقف على الحياد بين الإيطاليين والامبراطور يوحنا .

وعندما أصبح منليك امبراطورا ، فضل أن يتعاقد مع الإيطاليين في سبيل الحصول على مزيد من الأسلحة والمال لكي يتيسر له التغلب على أعدائه وعلى الأخص المقاطعات الاسلامية ، ووافقه الإيطاليون على ذلك بينما اضربوا أن يقدموا له المساعدة والأسلحة حتى إذا تم له النصر انقضوا عليه واستولوا على امبراطوريته الجديدة الموحدة .

معاهدة أوشياللى :

تمكن الإيطاليون من اقناع منليك بتسوية الخلافات بينهما وتوصلوا إلى عقد معاهدة تنظم العلاقات بينهما ، ولقد عقدت تلك المعاهدة (معاهدة أوشياللى Ucciali) في مايو سنة ١٨٨٩ ، وفي أكتوبر أوفد منليك الرأس ماكونون إلى إيطاليا حيث عقد معاهدة إضافية وافق فيها الإيطاليون على أقراض منليك ٤ مليون فرنك بضمانه إردات جمارك هرر ، وفي حالة عدم السداد تصبح كل مقاطعة هرر ملكا لإيطاليا ، وأهدت إيطاليا إلى الامبراطور مزيدا جديدا من الأسلحة مقدارها ٢٨٠٠٠ بندقية ، ٢٨ مدفعا وأعلنت إيطاليا على العالم أن الحبشة أصبحت تحت حماية إيطاليا .

وفي عام ١٨٩٠ عندما بدأ منليك اتصالاته مع بعض الدول الأوروبية الأخرى ، لفت الإيطاليون نظره إلى المعاهدة التي بينهما ، ولكن منليك رفض الاعتراف بأن المعاهدة المعقودة تضطره لأن يكون الإيطاليون وسطاء وبين الدول الأخرى . وظهر عنده أن النص الإيطالى يقول (يجب على الحبشة أن تكون اتصالاتها مع الدول الأخرى عن طريق إيطاليا) بينما يقول النص الحبشى (يمكن للحبشة أن تتصل بالدول الأخرى عن طريق

(١) ص ٥٢٧ سيردج Budge

إيطاليا) . فرض منليك المعاهدة وألغاه ، ورد مبلغ الأربعة ملايين فرنك إلى إيطاليا ولكنه احتفظ بالأسلحة ، وفي ١١ فبراير سنة ١٨٩٣ أبلغ الدول الكبرى أنه لم تعد له ارتباطات مع إيطاليا ، وبدأت علاقته تسوء معها ، بينما أخذت تتوطد مع بريطانيا وفرنسا^(١) .

وكانت كفة فرنسا راجحة في علاقتها مع منليك ، وعقدت معه خطة للاستيلاء على المناطق الاستوائية ، واتفقت معه على الاستيلاء على السودان الجنوبي ، بأن تتقابل القوات الفرنسية القادمة من الغرب عبر أفريقية مع قوات الحبشة القادمة من الشرق عند «فاشودة» وفعلا وصلت جيوش الحبشة (٥٠٠٠ مقاتل) إلى النيل الأبيض تحت قيادة (الرأس تساما Ras Tasamma) ومعه نفر من المستشارين العسكريين (فرنسي وسويسري وروسى) ولكن لم يتم النقاء تماما مع القائد الفرنسي مارشان في الموعد المحدد لتأخر مارشان في الوصول في الوقت المتفق عليه - ولم يطلق الجنود الأبحاش البقاء في تلك البلاد الحارة الرطبة التي لم يتعودوا على جوها - وانتشر بينهم الموت . مما اضطر تماما إلى سرعة العودة إلى الحبشة .

وفي أثناء ذلك وصل كتشنر إلى فاشودة وأعادها إلى حكم مصر ، ولقد أعجب منليك بكتشنر مما كان له أثر كبير على العلاقات بين منليك وبريطانيا فيما بعد .

* * *

كان منليك يتوقع الشر من الإيطاليين ، فاستمر في شراء الأسلحة سرا من جميع الأسواق ، وعزز جيشه حتى بلغ في عام ١٨٩٦ إلى ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ محارب .

وعندما اكتملت عدة جيوشه أرسل أول طلابها تحت قيادة (رأس ماكونن Ras Makonnen) وهو والد الامبراطور هيلاسلاسى . حيث

(١) ص ٥٢٩ عس المرجع السابق .

التحم بهم وانتصر على الإيطاليين في موقعة (أمبا ألاجي Amba Alagi) في ديسمبر ١٨٩٥ ثم سلمت الحامية الإيطالية في (ما كالي Makello) في يناير ١٨٩٦ .

جمع الإيطاليون شمل قواتهم وجددوا هجومهم بالقرب من (عدوه) بجيش يبلغ تعدادة ٢٧٠٠٠ جندي ، على الجيوش الحديثة التي بلغت ٨٠٠٠٠ مقاتل ومن عجايب القدر أن يكون هذا الجيش الحبشي الضخم مسلحا تسليحا قويا مما سبق أن حصل عليه من أسلحة وعتاد من الإيطاليين أنفسهم أيام معاهداتهم السابقة . وبلغت خسائر الإيطاليين ١٠٠٠٠ قتيل وجريح ، ٧٠٠٠ أسير ، ٣٢ مدفع وكميات كبيرة من الذخيرة وجميع معدات المعسكرات .

ولقد احتدمت المعركة في حماس بالغ من الجانبين وتم النصر فيها للحبشة وقضى بذلك على آمال الإيطاليين في الحبشة . على الأقل في الأربعين سنة القادمة .

انتهت هذه المعركة الفاصلة بمعاهدة وقعتها الطرفان في أديس أبابا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م ، ومن الغريب أنه بعد هذا النصر الكبير اعترف منليك بحق الإيطاليين في الارتياح كما كان .

تفرغ منليك بعد ذلك لتسكلة وحدة بلادة والقضاء على جميع عناصر القلاقل ، وعقد اللجان مع الدول الكبرى لتحديد حدود بلاده من جميع جهاتها ، كذلك انصرف إلى ادخال الأساليب الحديثة في الدولة ، والعمل على ترقية البلاد وارتفاعها بما هي فيه من تخلف .

• • •

اتفاق الدول الأوروبية الثلاثة :

كان كل شيء يسير على مايرام بناء على الخطط الذي اتفقت عليه الدول الأوروبية ، طالما يسيطر منليك على امبراطوريته الموحدة - ولكنه وقد

تقدم في السن فقد تحركت أطماع تلك الدول ، كل منها تبغى لها نصيبا من خيرات الحبشة ، لذلك فإن انجلترا وفرنسا وإيطاليا عندما شعروا باعتلال صحة الامبراطور منليك ، وخشية من انحلال المملكة في حالة وفاته ، تقاضت فيما بينها وعقدت اتفاقا في (١٩٠٦) أكدت فيها رغبتها في المحافظة على استقلال الحبشة على ، أن يعترف كل طرف بمنطقة نفوذ خاصة بكل من الشركاء الثلاثة في حالة انهيار الامبراطورية وتفكك أوصالها وكانت مناطق النفوذ كالآتي .

(أ) المنطقة البريطانية : وتشمل إقليم بحيرة تانا - وحوض النيل الأزرق .

(ب) المنطقة الفرنسية : وتشمل الخط الحديدي الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتي .

(ج) المنطقة الإيطالية : وهي عبارة عن شق من الأرض تربط الصومال الإيطالي بالاريتريا .

ولقد أعرب الامبراطور عن شكره للدول لاتفاقها على المحافظة على استقلال بلاده ، ولكنه اعترض على الاتفاق قائلاً أنه لا يوافق بأي حال من الأحوال على تقييد سيادته وسلطانه " " ولقد كان لهذا الأمر شأن كبير فيما بعد أمام عصبة الأمم .



اشتد المرض على منليك في عام ١٩٠٨ ولم يعد قادرا على مباشرة سلطانه ولكن الامبراطورة (طابوتو) وقفت إلى جانبه تعاونه وكان مرض الفالج الذي أصيب به شديدا بالاضافة إلى أن قلقه على مستقبل الامبراطورية كان يستبد به لعدم وجود وريث له يتولى الملك من بعده . مما دعاه إلى اختيار حفيده وليج ياسو ، وليا للعهد في ١٩٠٩ .

(١) ص ٦٢ ، ٦٣ الحبشة د . راشد البرادى .

ومنذ أن مرض منليك ، أخذت عناصر القلق والمنافسة تعمل في البلاد وبدأت سلسلة من المناورات وامتلاً الجو بالذساتس والمؤامرات ، وجاهدت الدول الأجنبية ، كل منها تحاول التأثير على ولي العهد الصغير .

* * *

ومات منليك في ١٩١٣ - وتولى ليج ياسو عشر الامبراطورية وهو لا يزال في السابعة عشر من عمره .

* * *

الفصل السادس عشر

ليج ياسو Lijj Yasso

(الامبراطور المسلم)

عندما زاد خطر قبائل الجالا تمكنت من النفوذ إلى قلب مملكة الحبشة المسيحية فوق الهضبة وتوغلت فيها . لأنه سرعان ما تكونت منها مستعمرات وتجمعات انتشرت فوق جميع جهات الهضبة . ولكن بعض هذه التجمعات قد اتخذ طابعاً خاصاً من الانتشار والسيطرة بحيث أصبح يشمل المنطقة الوسطى من الهضبة بأكملها ، وامتدت به تلك المنطقة الكبيرة التي تمتد من سهل الدناكل إلى بحيرة تانا والنيل الأزرق ومدينة جوندانار العاصمة القديمة للحبشة ، وهذه المنطقة التي تتوسطها مدينة ديسى القريبة من مجدلا الشهيرة بجواردها في عهد تيودور .

ولم يقتصر خطر الجالا على ذلك بل اتخذ شكلاً شاملاً بعد أن أصبحوا يشكلون نصف سكان ممالك الحبشة وسلطناتها ، وبلغوا في بعض المناطق من القوة بحيث أصبح منهم الحكام والأمراء . وازدادت قوتهم الحربية حتى اضطرت الأباطرة لمهادتهم حيناً ومحاربتهم أحياناً ، وهم بين هذا وذاك يستمرون في الانتشار والتوغل في البلاد .

ثم ازدادوا خطراً عند إقبال هذه القبائل على اعتناق الإسلام حتى أصبحت غالبيتهم الكبرى تدين بالدين الإسلامي وتمتعص له ، مما جعلهم كل امبراطور قوى العمل على القضاء عليهم ، فكانوا تحت التهديد والضغط ينتصرون ظاهرياً وهم في واقع الأمر يحافظون على إسلامهم سرّاً ويترقبون الفرص للجر بعقيدتهم الإسلامية .

وكانت أقوى قبائل الجالا شانا وأكثرهم تماسكا ، قبائل الوالوجالا التي امتلأت بها المنطقة الوسطى من الهضبة، لذلك كان من أهم آمال الامبراطور تيودور ثم يوحنا ثم الامبراطور منليك من بعدهما القضاء على هذه السلطنة الإسلامية . ولقد أتاحت لهما الفرصة بفضل ما سبق أن شرحناه في الفصل السابق من تجمع الظروف التي مكنتهم من القضاء عليها وأهمها معاونة الدول الأوروبية المسيحية بزياد الأباطرة الواحد بعد الآخر بالكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة .

وكما سبق أن قدمنا تمكن منليك من التغلب على الرأس محمد على ملك الوالوجالا . وحسب التقاليد المتبعة خيره بين أن يقتله أو يعتنق الدين المسيحي ، ففضل اعتناق المسيحية ، ظاهرياً كما هي العادة - ولكنه بقى في الحقيقة مسلماً وإن كان قد اتخذ اسماً جديداً حتى يحفظ لنفسه سلطانه على قبائله وملكته ، وأصبح يدعى . الرأس ميخائيل - وكان الرأس محمد على يتميز بالمرکز السامى بين أتباعه وكان قويا وشجاعا - مما جعل الامبراطور يوحنا يعتمد عليه في محاربة الإيطاليين والمهديين في السودان ، ولذلك رأى منليك أن يوطد علاقته معه ويكسب ولاء شعب الجالا بأن زوجة من ابنته (أراجاش Aragassh) (١) ورزق منها بولد أطلق عليه اسم (ليج ياسو Lijj Yasso) أي قلب تسوع .

* * *

نشأ ليج ياسو في بيت أبيه المسلم الذى يحكم قبائل الوالوجالا المسلمة وإن كانت الظروف السياسية قد أجبرته على التظاهر باعتناق المسيحية لذلك شب الصبى وترعرع والدين الإسلامى يجرى فى عروقه . ويرفرق على المنزل الذى نشأ فيه .

(١) مما تجدر ملاحظته أيضا أن والدة هذه الاميرة كانت من قبائل الوالوجالا المسلمة أيضا .

وسرعان ما استردّ الرأس ميخائيل (محمد علي) سلطانه وأخذ يعمل على أن يتولى نجله لييج ياسو العرش ، وكان يهدف إلى عودة السلطة إلى قبائل الجالا الإسلامية مرة أخرى . ولذلك بدأ يوطد علاقاته مع باقي القبائل والمقاطعات الإسلامية التي أصبحت في ذلك الوقت تحت حكم الامبراطور منليك .

ولم يكن ينافس الرأس ميخائيل في التطلع إلى السلطان إلا الرأس ماكونين حاكم هرر في ذلك الوقت ، ولكن هذا التنافس زال عندما توفي الرأس ماكونين في عام ١٩٠٦ تاركا ولدين أصغرهما يدعى (تفرى Tafari وهو الذي أصبح فيما بعد الامبراطور هيلاسلاسى ^(١) .

° ° °

وعندما أصيب الامبراطور بالقالج ، ولم يكن له أبناء ذكور ، نادى بحفيده لييج ياسو وليا للعهد ، وعندما توفي في عام ١٩١٣ ، أصبح لييج ياسو امبراطورا للحبشه وهي في السابعة عشرة من عمره ^(٢) . وفي الحال عادت قوة والده الرأس ميخائيل إلى الظهور مرة أخرى على هيئته الإسلامية السابقة ، وكان الامبراطور الجديد قد عينه نجاشيا على ممالك الواللو والتيجرى في ١٩١٤ ، وفي السنة التالية على ييجمدير وجوجام .

كان لييج ياسو قد بدأ يعلن عن حقيقة عقيدته ويأتي من التصرفات ما يعبر بها عن ميله للإسلام وما أن تولى العرش حتى أعلن إسلامه ^(٣) .

وخلافا للتقاليد التي كانت تدفع الأباطرة إلى الادعاء بانحدارهم من نسل سليمان حتى ولو لم يكونوا كذلك — كي يوطدوا ملكهم ويكسبوا تأييد الشعب ، فإن لييج ياسو بادر ونق عن نفسه أي صلة بالأسرة السليمانية ،

(١) ص ١٣٠ الا-الام في اثيوبيا لترمنجهام .

(٢) ص ٩٤ The Ethiopians by Ullendorff

(٣) ص ١٣٠ الا-الام في اثيوبيا لترمنجهام .

وتزوج بيضع فتيات مسلمات ، وأخذ يعمل على إثبات نسبة إلى النبي محمد^(١) .

ولا شك في إسلام ليج ياسو ، فهو ابن ملك مسلم ينتمى إلى قبائل الجالا المسلمة ، وما إعلان والده لاعتناقه المسيحية إلا انصياعاً لما هو مفروض على كل ملك يهزم في الحرب ، وأمر المسلمين الذين تجبرهم السلطات على اعتناق المسيحية معلوم ومشهور في الحبشة ، حيث يستمرون على عقيدتهم سرا ، وينطقون بالشهادتين عند الوفاة .

ولا شك أيضاً في أن إعلان الامبراطور (ليجياسو) إسلامه قد أصاب رجال الكنيسة والقبائل المسيحية بصدمة كبيرة ، وأصابهم القلق البالغ من انهيار قوائم السيطرة التي أقامها يوحنا ومنليك للدولة المسيحية في الحبشة . ولقد كان من أشد أسباب قلقهم تلك السهولة التي يمكن أن تتحول بها البلاد إلى الإسلام ، وغالبية البلاد تدين أصلاً بالإسلام وينطى ثلاثة أرباع مساحة الامبراطورية ، فلن يحتاج الإسلام في عودته إلى السيطرة والنفوذ أى مجهود ، وأما اعتماد المسيحية على القوة والأسلحة ومساعدة الدول الأوروبية فقد أصبح أمامها حاجز كبير وهو الامبراطور الذي اعتنق الإسلام .

* * *

ومن أذهلتهم المفاجأة أيضاً - الدول الأوروبية - التي سبق أن شرحنا كيف أنها عاونت يوحنا ومنليك على القضاء على الإسلام - وبعثاتهم التبشيرية لا زالت في بلاد الحبشة تعمل في صبر وأناة لتحقيق القضاء على هذا الدين .

وهذه الدول الأوروبية هي التي تمسك بزمام القوة في العالم في ذلك

الوقت وتسيطر سيطرة تامة على الشرق الأوسط وأفريقيا على وجه الخصوص .

أما الدول التي يمكنها الدفاع عن الإسلام فكانت قد بلغت إلى حضيض الضعف ، إذ أصبحت الامبراطورية العثمانية في آخر مراحلها وتحمل لقب (الرجل المريض) وتتخلف الدول الأوروبية وتتفاوض فيما بينها لتقسيم ممتلكاتها ، ومصر لا حول لها ولا قوة وقد استبد بها الاستعمار البريطاني منذ ١٨١٢ م وجردها من أملاكها وسيطر على مقدراتها حتى أصبحت عاجزة غير قادرة على الحركة .

* * *

استمر الامبراطور ليج ياسو في طريقه لا يلوى على شيء ، يعزز الإسلام والمسلمين ويبني المساجد (في دير داوا - وجيج جيجا الخ) . واتخذ لنفسه علما جديدا يضافه الهلال إليه وأرسل منه هدايا إلى حكام بلاده المسلمين طالباً منهم الاستعداد للجهاد الذي ينوي القيام به لنصرة الاسلام والمسلمين ، وأرسل علما من هذه الأعلام إلى القنصل التركي في أديس أبابا .

* * *

وفي تلك الأثناء قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وسرعان ما تكاثفت قوى الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا ، مع رجال الكنيسة وأوعزوا إلى بطريرك الأقباط في مصر . والأنبا متاؤس مطران الحبشة ، لكي يعزلوا الامبراطور ليج ياسو ، فأخذوا يحكون الدسائس حوله ويحركون الأمراء المسيحيين ويطلقون الشائعات عن خيل الامبراطور وسوء تصرفاته ، بينما يثرون ثائرة الدول الأوروبية ضده من أنه يتعاون سرا مع الأتراك الذين كانوا يحالفون الألمان في الحرب الكبرى الأولى وبالفعل (١٧ - المجتة)

فإن الحلفاء - إنجلترا وفرنسا وإيطاليا - تعاونت لإقصائه على العرش^(١) ولقد اجتمع قناصل تلك الدول وقدموا له احتجاجات على تصرفاته واتهموه بمالاه الألمان ، وبالم يابهم ، تحفزت ضده القوات العسكرية الفرنسية في جيبوتي والإنجليزية في بربره ، والإيطالية في مصوع وحرصوا أمراء شوا على إعداد جيوشهم ضده^(٢) ،

ولقد كان قلق هؤلاء يزداد كلما طال الوقت ببقاء الامبراطور لييج ياسو على العرش ، لأن في هذا خطر كبير لسهولة تثبيت أركان حكمه ، لذلك سارعوا إلى اتخاذ الوسائل العاجلة للقضاء عليه بالتعاون بين جميع القوى المعارضة له . خصوصاً وأن لييج ياسو كان في الحقيقة ذكياً سريع الفهم نشيطاً يجيد العربية والفرنسية . وكان من الحكمة وبعد النظر رغم صغر منه ، مما كان يدهش له رجال الدولة لدقة استنتاجاته وتضمه للأمور^(٣) الأمر الذي حفز الدول الأفريقية إلى العناية بتدبير وسيلة التخلص منه في أقصر وقت .

وعندما كان الامبراطور في إحدى جولاته في هررو وكان والده في انكوبار أوعر بطريك الأقباط في مصر (بايعاز من بريطانيا التي كانت قد فرضت الحماية على مصر) إلى المطران متاؤوس باعلان عزال الامبراطور لييج ياسو وحرمانه ، وأظهر المطران أن إجراءه هذا بناء على طلب تقدم به رؤساء وحكام مقاطعة شوا يقولون فيه (نلتمس احلالنا من قسمنا بالولام للامبراطور ، لأننا سوف لا نخضع للإسلام ، ولن نسمح بأن يستولى الأجانب على بلادنا عن طريق خيانه لييج ياسو ، الذي يقود مملكتنا إلى الخراب^(٤)) ولن نسمح

The Ethippians by Ullendorff . ٩٥ ص (١)
Inside Africa by John Gunther . ٣٦٣ صفحة
Budge ص ٤٥٥ سيريدج (٢)
Budge ص ٤٣ سيريدج (٣)
(٤) من ١٣١ الاسلام في اثيوبيا نترمنجهم .

ملك ترك ديننا أن يحكمنا . . وأضافوا ، وسوف تصبح زاوديتو ابنه منليك
ملكه علينا — والرأس تقرى ولياً للعهد (٥) .

وتم عزل الامبراطور ليج ياسو في ٢٧ سبتمبر ١٩١٧ وأعلن المطران
تنصيب زاوديتو ابنة منليك الأخرى امبراطورة ، وتعيين الرأس تقرى بن
الرأس مكونين وصيا على العرش وولياً للعهد .

قبض على الامبراطور ليج ياسو بعد بضعة مناوشات وبقي في سجنه
إلى أواخر الحرب الحبشية الإيطالية عام ١٩٣٦ ، وتناقلت أسلاك البرق
نبأ وفاته وقتئذ . ويؤكد من سمعناهم في أديس أبابا أن الامبراطور هيلاسلاسى
أمر بقتله حتى لا يستعمله الايطاليون وينصبونه أمراطورا مرة أخرى ،
ويكسبون بذلك عطف المسلمين وتأييدهم ، ويذهب البعض إلى أن الامبراطور
هيلاسلاسى هو الذى ذهب إلى سجن ليج ياسو بنفسه على حدود كينيا وقتله ،
ونحن نستبعد هذه الرواية لبعده المسافة بين أديس أبابا وموقع سجن ليج ياسو ،
وصعوبة المواصلات ، مما يستغرق الوصول إليه وقتاً طويلاً لا يمكن
للامبراطور هيلاسلاسى تضييعه في تلك اللحظات الأخيرة من
الحرب الحبشية .

وقد يكون كل ما سمعناه من هذه الأمور من قبيل الشائعات ، ولكن
الذى لا شك فيه أن الامبراطور ليج ياسومات في سجنه: قبيل دخول الطليان
إلى العاصمة أديس أبابا في عام ١٩٣٦ ، وأنه من المعتقول لو أن الطليان
أدركوه حياً لنصبوه امبراطورا . وبذلك يكون قد بقي في سجنه
عشرين عاماً .

* * *

(٥) ص ٤٥٣ سيريدج Budge الذى قال أيضاً أن الامبراطور ليج ياسوم عزل لانه
مال للإسلام ولا لانه أخذ يتقرب إلى رجال الدين المسلمين وإلى الألمان في أفريقيا الشرقية -
ولكنه عزل لانه حاول القضاء على الكنيسة الوطنية الحبشية ومن الواضح أن آراء السيريدج
في مجموعها في حاجة إلى الانحجام والتعديل . بالنسبة لهذا الموضوع .

الفصل السابع عشر

العهد الأول للإمبراطور

« هيلاسلامى »

كان جده الأكبر الملك سهلاسامى الذى كان ملسكا على إقليم شواقبل منليك ووالده الرأس ماكونين الذى قاد الجيش الحبشى الذى انتصر على الإيطاليين فى موقعة أمبا الاجى فى ديسمبر ١٨٩٥ . وكان يمى بصلة القرى إلى الامبراطور منليك . وكان والياً على مقاطعة هرر .

ولد نفرى Tafari فى ٢٣ يولية سنة ١٨٩١ فى إحدى قرى مقاطعة هرر حين كان والده والياً عليها . ونشأ بها وتلقى تعليمه الأولى فى مدرسة للإرسالية الفرنسية ولذلك ظلت الفرنسية لغته الأوربية الأولى . وتوسم فيه منليك النجابة فعينه وهو لم يبلغ العشرين بعد ، حاكماً على مقاطعة سيدامو . وعندما توفى والده وأخوه الأكبر ، عينه الامبراطور حاكماً على مقاطعة هرر مسقط رأسه (١٩١٠ م) وفى عام ١٩١١ تزوج من (ويزارومينن Woyzaro Menen) التى جلست معه على عرش أثيوبيا .

ولم يكن تشب نفرى مكوين المباشر يؤهله لأن يطعم فى العرش ، لبعده عن سلسلة التوارث السلطانية المباشرة ووجود من هو أقرب منه إليها ، ولكنه ازداد قريباً إلى العرش بزواجه من من ، ويرجع الفضل الأكبر فى تخطية العقبان وقفزه إلى مكان الصدارة إلى صفاته الشخصية التى حجت جميع منافسيه .

وعندما أزفت الساعة الحاسمة فى عام ١٩١٧ بعزل الامبراطور ليج

ياسو قام بدور حاسم تميز بالدهاء والحزم ، أدى إلى اختياره وصيا على العرش ووليا للعهد بجموار الامبراطوره زاوديتو إحدى بنات منليك^(١) .

وإذا كان منليك قد تمكن من جميع شمل البلاد وتوحيدها تحت حكم واحد ، فإن الفضل يعود إلى هيلاسلامي في تثبيت أركان هذه الامبراطورية الموحدة وتحويل التقسيمات العنصرية إلى أقسام إدارية على هيئة محافظات ، يتناوب عليها المحافظون مثل باقي مناصب الدولة ووظائفها .

ولقد كانت بداية عمله في الحكم المشترك بينه وبين الامبراطور مززاوديتو محفوفاً بالمشاكل والتعقيدات ، فبينما تمسك الامبراطورة بالتقاليد القديمة ولا تعطى تقدم البلاد ما يستحقه من عناية ، كان الرأس تقرى عصرياً يتوق إلى اتخاذ أسرع الاجراءات لدفع البلاد إلى الأمام ، ولم يحدث بينهما أي خلاف في مبدأ الأمر إذ اقتصت زاوديتو بالأمور الداخلية واقتصت تقرى بملاقات الدولة الخارجية . ولقد حالفه التوفيق عندما تمكن من تحقيق الاعتراف الدولي للحبشة وأصبحت عضواً في عصبة الأمم .

وسرعان ما وجد نفسه مضطراً للاهتمام بالشئون الداخلية ، وكان بنوى العمل على القضاء على جميع عوامل التفرقة والانقسام التي حطمت البلاد خلال العصور الماضية . وكذلك كان يهدف إلى تطبيق النظم الحديثة في شئون الحكم والحياة الاجتماعية في البلاد . ولقد كان نشاطه وشبابه وحامسه وشخصيته أقوى من أن تقف أمامها الامبراطورة زاوديتو . وتمكن من أرغام الامبراطورة على منحه لقب نجاشي عام ١٩٢٨ . وفي عام ١٩٣٠ ، تمكن من أخضاع ثورة قام بها الرأس (جوكسا Cogsä) وتوفيت الامبراطورة بعد القضاء على تلك الثورة بيومين . وتولى الرأس تقرى العرش وأصبح ملكاً للملوك وسمى نفسه الامبراطور هيلاسلامي الأول .

موقفه أمام عصبة الأمم :

ولقد لفت الرأس تفرى - قبل أن يصبح امبراطورا - أنظار العالم إليه وإلى دوله عندما وقف أمامها يدافع عن بلاده ضد بريطانيا وإيطاليا في عصبة الأمم .

فقد ذكرنا أنه في أواخر عهد منليك خشيت الدول الأوروبية من تفكك امبراطورية الحبشة بعد وفاة منليك فأرادت أن تنفق على طريقة حماية مصالحها وتقسيم مناطق نفوذها . فاتفقت في ١٩٠٦ على أن يكون لبريطانيا نفوذ على منطقة تشمل بحيرة تانا وحوض النيل الأزرق وتشمل المنطقة الفرنسية الخط الحديدى الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتي بينما تحصل لإيطاليا على شرط من الأرض بعرض ٥٠ كيلومتر تلتشىء فيه طريقا يربط بين الصومال الإيطالى والأريتريا .

ولقد علم منليك بالاتفاق وشكر الدول المذكورة على تفكيرها في المحافظة على استقلال بلاده ولكنه اعترض على الاتفاق حتى لا يقيد بأى حال من الأحوال سيادته وسلطته .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى عاودت الدول الأوروبية نشاطها وعلى الأخص بريطانيا وإيطاليا ، وفي هذه المرة كانت بريطانيا تهدف إلى أن تكون منطقة نفوذها هي غرب الحبشة حيث تقع بحيرة تانا والنيل الأزرق والأقاليم المتاخمة للسودان ، بينما تشمل منطقة النفوذ الإيطالى الجزء الشرقى من الحبشة حيث يقع الطريق البرى المزمع أنشاؤه .

وتبودلت الرسائل والمذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بهذه الخصوص^(١) وما أن وصلت تلك الرسائل إلى عصبة الأمم حتى بادر الرأس تعزى واحتج على تلك الرسائل التى تبادلها الدولتان للتأمر على تقسيم الحبشة بينهما لكل

(١) من '٢٢٥ وما بعدها C.F. Rey by the Country of the Blue Nile

منهما منطقة نفوذ خاصة بها ، واتهمهما بالعمل على الاعتداء على استقلال بلاده . وفضح أساليهما الاستعمارية . مما أدى إلى وضع حد حاسم لتلك المحاولات .

نشاط هيلاسلاسى في عهده الأول :

بعد موقعة المشرف أمام عصابة الأمم ودفاعه عن حق بلاده واستقلالها عقد معاهدة صداقة مع إيطاليا في عام ١٩٢٨ حتى يأمن جانبا . ووافق على أن تقوم شركة أمريكية بدراسة منطقة بحيرة تانا والنيل الأزرق بناء على طلب حكومة السودان (١٩٣٠) ، وعقد اتفاقات مع انجلترا وإيطاليا وفرنسا للحصول على الأسلحة ؛!

ولقد قام في ١٩٣١ بمنح البلاد دستورا . ولم يكن لهذا الدستور أهمية لدى الشعب ، ولكنه كان مظهرأ من المظاهر التي أراد الامبراطور أن يرفع به شأن بلاده أمام الأجانب ويبرر به بقاءه عضوا بعصبة الأمم ، ومن جهة أخرى فإنه كان يهدف منه إلى زيادة الروابط بين مختلف الأقاليم في الامبراطورية . حيث يجتمع النواب الذين عينهم بنفسه ، مرة أو مرتين كل عام في أديس أبابا فيوطد الروابط معهم وبينهم ، ويعلمهم يشعرون بأهمية أديس أبابا عاصمة الامبراطورية ويلتفون حولها . لما عرف عن قبائل الحبشة على مر العصور من عدم اهتمامهم الاهتمام السكاني بالولاء لعاصمة البلاد .

وقام بعد ذلك بتعيين الوزراء وتوزيع الاختصاصات والواجبات وتنظيم قوى الأمن ووضع الأسس للإدارة المالية والجمارك والضرائب ، وكل ما عدا ذلك من مستلزمات الحكومات الحديثة ، ولكنه اصطنع بالعقبة الكبرى وهي فقر البلاد الشديد في أبنائها المتعلمين الذين يمكن أن تسند إليهم وظائف الدولة ، ولذلك وجه همه إلى نشر التعليم وأوفد عددا من البعثات على نفقة الدولة إلى البلاد الأجنبية ، وبلغ من عنايته بهم أنه كان يستقبل أفراد البعثات قبل سفرهم وعند عودتهم .

وبدأ نفس الجهود في نشر العناية الصحية ، وتحسين طرق المواصلات ، وكان في جميع هذه الاعمال يدفع الأمور بنفسه مركزاً السلطات في يديه يتابع جميع الإجراءات صغيرها وكبيرها ، لذلك كان الجهود الذي يبذله هائلاً ، كان حري بأن يصل إلى أحسن النتائج في أقصر وقت ، لولا ما تلبد من غيوم دفعت بالبلاد إلى كارثة الحرب الإيطالية الحبشية في عام ١٩٣٥ (١) .

* * *

حالة المسلمين في عهد هيلاسلامي :

أما بالنسبة للمسلمين فإنه لم يلجأ إلى الأساليب السافرة من الاضطهادات الدينية الاجبارية التي كانت سائدة في عهد تيودور ثم يوحنا . بل تظاهر بأن حرية الدين مكفولة وألغى ما يتعارض مع ذلك من قوانين . ولكنه أتبع نفس الاجراءات السابقة وأقرها بطريقة مستترة بأن سمح لهم بمزاولة النشاط التجاري - على أن يبعدوا عن الوظائف والمناصب العامة ومن جميع ما يتعلق بحياة البلاد السياسية . وجعل بين المسلمين وبين الطبقة الحاكمة فاصلاً واضحاً ، وكان وضعهم على هذه الصورة ما يمكن التعبير عنه (بالتسامح الديني البسيط) . كما يفسره بعض الكتاب الأوروبيين - ولكنه في الواقع ومن الوجهة العملية امعان في التفرقة الدينية على أوسع نطاق - وتميز عن خطط الاضطهاد السابقة انها تطبق الآن في هدوء وسكون .

وتبذل الحكومة الحبشية الجهد لكي توحى إلى العالم بأن حالة المسلمين متحسنة وأنهم يتمتعون بالحرية والعدل في عهد هيلاسلامي ، ولكن موقعهم بقى كما هو في السابق من جميع الوجوه وعلى الأخص بالنسبة للوظائف والمناصب والحكم ، بل أن أساليب التفرقة أخذت طابعاً رسمياً . إذ أن الدستور الجديد ربط بين الجنسية الحبشية والدين ربطاً متيناً قضى على آمال المسلمين في تحسين مستواهم ، وأن كانوا تحت الحكم الحالي أصبح في أمكانهم امتلاك

الأراضي ، وتولى بعض المناصب في البلاد التي تكون غالبيتها من المسلمين^(١) ويقتضى الأمر وجودهم في تلك المناصب مثل الأعمال التي تتعلق بالقضاء الشرعي .

* * *

عبر المستر ترمنجهام بالفقرة السابقة في اختصار ورفق عن حالة المسلمين في العهد الأول من حكم هيلاسلاسى . وهي تعبر عن حالة المسلمين في الحبشة تعبير صحيحا ، وهي أن كانت تشير إلى التفرقة الدينية الصارخة وما يتعرض له المسلمون من ظلم وحرمان ، فانها بالرغم من كل ذلك أقل من الحقيقة بكثير ، ونحن وأن كنا ندخر ماسوف نفضله عن هذا الموضوع إلى ما نعتزم تخصيصه له في فصل مستقل من هذا الكتاب ، إلا أننا نود أن نشير إلى نقطة واحدة وهي الوحيدة التي ذكرها مستر ترمنجهام عن مدى التحسين في معاملة المسلمين في عهد هيلاسلاسى والتي عبر عنها في رفق بكلمة (التسامح الديني البسيط Simple Tolerance تلك الظاهرة الوحيدة التي تغيرت في معاملة المسلمين وهي السماح لهم بامتلاك الأراضي .

فن المعروف أن الحبشى (ساكن الهضبة حيث تتركز المسيحية) لا يميل إلى الزراعة ويعتمد على تربية المواشى ، ولا يزرع حول كوخه إلا ما يكفي لسد رمقه [] : بخلاف المسلمين الذين يملأون السهول والوديان فهم يتميزون بالنشاط والدأب على العمل ، وكما نبغوا في التجارة وسيطروا عليها فانهم كانوا في نفس الوقت العماد الأكبر للزراعة ، لإقبالهم عليها ونشاطهم وكثرة عددهم واتساع الرقعة التي يعيشون فيها بحيث تشمل ثلاثة أرباع مساحة الحبشة كلها .

وعندما لجأت الدولة في أوج عصور الاضطهاد إلى حرمانهم من تملك الأراضي كما سبق أن قلنا ، تحول كثير منهم إلى التجارة ، وتأثرت الزراعة وتضاءل دخل البلاد منها وأصبحت أرضها الخصبة مهملة عاطلة عن الانتاج

(١) ص ١٢٦ الاسلام في ابوتيا لترمنجهام .

لم يكن هناك يد من العودة إلى السماح للمسلمين بتملك الأراضي لتشجيعهم على الزراعة . لما يعود ذلك على الدولة بالخير العميم . ولكن المسلمين وقد عادوا ثانية إلى تملك الأراضي أخذوا يتعرضون لدفع الضرائب الباهظة المفروضة عليهم علاوة على أن تلك الضرائب تجبى منهم عدة مرات في العام الواحد . فلما شاء حاكم المنطقة أن يجمع لنفسه أو لاتباعه بعض المال . كذلك لايسلم المسلمون من سطوة رجال الحكومة ورجال الأمن الذين يتقاضون منهم - مايفرضونه عليهم من أتاوات لاينص عليها القانون .

لذلك يجاهد المسلمون في نشاط وصبر وكد في فلاحه الأرض ، ويعملون بذلك على رخاء البلاد وزيادة دخلها ، ولكن مايتفق لهم يشاركهم فيه الحكام ورجال الأمن . ولنا إلى ذلك عودة .

* * *

الفصل الثامن عشر

الاحتلال الإيطالي

لم تكن إيطاليا لترضى بما حصلت عليه من مستعمرات فقيرة لا تبشر بأى كسب ولا تعود على الخزينة الإيطالية أو الشعب الإيطالي بالفائدة المنشودة ، وإذا كانوا يتحملون جهداً كبيراً في ليبيا الفقيرة وقتئذ ، فإنما كان يراودهم الأمل في أن تكون ذات فائدة كبرى عند الظرف المناسب لتكون نقطة انطلاق إلى غيرها من جاراتها الغنية ، ثم هي على مسيرة يوم واحد من الأرض الإيطالية مما يجعل موقعها مثالياً ، تتضاءل بجانبه المنفعة المادية للعاجلة ، ويكفي منها أن تغطي تكاليف حكمها وإدارتها .

أما أن تسكت إيطاليا على بقائها في شرق أفريقية في مستعمرة فقيرة في الإريتريا ومستعمرة أخرى أفقر منها في الصومال الإيطالي وفيما بينهما بلاد شاسعة مفرطة في الخصب والإمكانات التي لا حدود لها ، معتدلة في الجو طوال السنة ، وليس لهم عليها أى سلطان فإن هذا أمر لا تستسيغه الزعة الاستعمارية الإيطالية .

لذلك أخذوا منذ اللحظة الأولى التي استقروا فيها في الإريتريا والصومال في مناوشة الأحباش ، ووقعت بينهم المواقع الحربية التي انهزمت فيها إيطاليا شرهزيمة ، علمت بعدها أن تحقيق أهدافهم يحتاج إلى اتجاه أساليب أخرى . فآخذوا يساومون بريطانيا وفرنسا وعقدوا فيما بينهم اتفاقيات على تقسيم مناطق النفوذ ، ثم طأطأوا الكرة بعد الحرب الكبرى الأولى ونشطوا في الاتفاق مع بريطانيا على تقسيم الحبشة بينهما ، ولم تجد تقنع بشرط من الأرض لتنشئ فيه طريقاً يصل بين الصومال وأريتريا . ولكن امتدت

أطباعها بأن تصحح جميع المنطقة الشرقية من الحبشة منطقة نفوذ تنفرد فيه بالتجارة والاستغلال بينما تنفرد بريطانيا بالمنطقة الغربية . التي يقع فيها النيل الأزرق وبحيرة تانا .

وعندما فضح الامبراطور هيلاسلامى (الرأس تفرى وقتئذ) هذه المؤامرات الخفية أمام عصبة الأمم عام ١٩٣٦ ، وأوقف العمل بها . لجأت إيطاليا لعقد معاهدة صداقة معه عام ١٩٣٨ ، ولكن هذا لم يكن ليثنى الإيطاليين عما يبيتونه من نيات وآمال . فأخذوا يعدون العدة ، ويتقنونها . في هذه المرة وبمعزونها بأحدث ما وصلت إليه أساليب الحرب ، ويرتبون خطة الحملة بحيث يكون عملها سريعا وفعالاً وخاطفاً ، حتى لا تدع لدول العالم الفرصة لإيقافها أو عرقلة أعمالها وأخذت تتحين الظروف . المناسب .

* * *

موقف الدول الكبرى :

في الوقت الذي كانت فيه الحبشة مهددة بسيطرة المسلمين الكاملة عليها . تعاونت الدول الأوروبية الكبرى في حماية الحبشة المسيحية وتمكينها من الانتصار على المسلمين والأستيلاء على جميع السلطنات الإسلامية وتوحيد جميع هذه المناطق تحت سلطة الامبراطور وتسابقت الدول في تقديم المساعدات - وعندما تحققت النتائج التي تعاونت من أجلها . بدأت كل منها تتصارع مع الأخرى وتتنافس حتى تنال من النفوذ في تلك الدولة الناشئة المتحدة فوق ما يناله غيرها .

وليس هذا بالموقف الأول التي تفقه الدول الأوروبية - ولقد مررت في التاريخ بعدد من الامثلة على ذلك ، وأبرزها وأعظمها شأنًا ما حدث في الحروب الصليبية . ولكن أقربها إلى أذهاننا في عصرنا الحديث ، ذلك التحالف الذي عقده الدول الأوروبية فيما بينها - رغم ما بينها من تنافس

وحروب - تحالفت لكي تقضي نهائيا على القوة الإسلامية في الشرق الأوسط التي تمثلت في قوة المسلمين التي تعززت فجأة وعلى غير انتظار من الدول الأوروبية بتلك القوة الناشئة الفتية لمصر في عهد محمد علي وتلك الامبراطورية الجديدة التي أخذت تمتد أطرافها وتعمزز قوائمها بما يهدد مصالح الدول الأوروبية وآمالها في التوسع والاستعمار . تحالفت تلك الدول حتى تمكنت من القضاء على القوة الإسلامية (معركة نوارين البحرية) وبعد أن تم لها ذلك عادت تلك الدول إلى تنافسها وتصارعها على مناطق النفوذ والاستغلال والاستعمار .

* * *

وبعد أن تمكن منليك من القضاء على السلطنات الإسلامية بفضل ما حصل عليه من مساعدات عسكرية وأسلحة من الدول الغربية - وإستتب أمر البلاد . أخذت نفس تلك الدول الأوروبية تعمل وتتنافس فيما بينها على الاستيلاء على الغنيمة . وظهر ذلك واضحا في عام (١٩٠٦) عندما ضعفت صحة الامبراطور منليك - ثم بعد ذلك في المؤامرات التي حاكتها بريطانيا وإيطاليا بعد الحرب الأولى وافتضح أمرها أمام عصابة الأمم (١٩٢٦) .

ولم يكن الأمر يقتصر على الحبشة في ما يدور بين الدول الكبرى من صراع وتنافس بل كانت أطباعها تتشعب وأظافرها تمتد إلى غيرها من مناطق نفوذ ومستعمرات . لذلك دخلت تلك الدول في ميدان المساومات فأصبحت المسألة الحبشية مرتبطة بغيرها من المشاكل من وراء ظهرها وبغير علم منها .

ولقد احتدمت تلك المساومات وأصبحت الشغل الشاغل للدول الكبرى ، وبلغت ذروتها في الثلاثينيات وعلى الأخص في عام ١٩٣٢ عندما أستقر عزم إيطاليا على غزو الحبشة وهو نفس العام الذي استولى فيه التاويون

على زمام الحكم في ألمانيا . ومنذ ذلك الحين ارتفعت حرارة التنافس إلى درجة الحمى ، وتورطت كثير من الدول في عدد من الارتباطات التي أمثلتها أطرافها ، وازدادت بذلك حدة الصراع حتى انتهى بالعالم إلى كلارثة قيام الحرب العالمية الثانية .

* * *

ولكل من الدول الكبرى وجهة نظر خاصة مرتبطة بمصالحها ويدافع عنها مؤرخوها ولسنا هنا في مقام مناقشة تلك الآراء المختلفة ، خصوصا وأن جميع تلك الدوافع والآراء تعود في رأينا إلى أساس واحد ودافع واحد وهو الجشع والصراع على اقتراس الشعوب الضعيفة - ولا يعنينا بعد ذلك تعدد الوسائل التي تتبعها تلك الدول ، ولا الظروف التي تصادفها في تحقيق أغراضها وكيفية معالجتها والتغلب عليها ، ولا كيف تتقاتل تلك الدول فيما بينها لاقتسام الغنائم .

ولكننا ونحن بصدد المسألة الجبشية ، جدير بنا أن نشير في اختصار إلى بعض العوامل البارزة التي سادت المعسكرات الأوروبية في تلك الفترة ، والتي كانت وثيقة الصلة كبيرة الأثر فيما حل بالجيشة . والتي تمكنت إيطاليا من استغلالها وتلصق الثغرات فيها وانتهاز الفرص خلالها للإقدام على مغامرتها .

* * *

فقد كشفت اعترافات « المارشال إميليو دي بونو » أن موسوليني قرر غزو الجبشة في خريف عام ١٩٣٣ ومنذ ذلك التاريخ أخذت إيطاليا تعمل في همة ونشاط دائمين على تحقيق ذلك في ميعاد أقصاه عام ١٩٣٦ .

وكانت الخطة أن يسبق الغزو العسكري سلسلة من التآمر والشاوي مع زعماء الاحباش مما كان له فيما بعد أثره الفعال في تيسير مهمة الجيش

الإيطالي . حيث تمكنت تلك السياسة من تفتيت الحبشة سياسيا في الداخل .

ولقد كان السنيور موسوليني قد استعرض مختلف المناطق التي يمكنه أن يحقق فيها توسعا لنفوذه ، وميدانا يستوعب نشاط السكان الإيطاليين المتزايدين . فلم يجد أمامه خيراً من أثيوبيا . فهي فضلا عما بها من ثروات كاملة هائلة فإنها تربط بين مستعمرته الفقيرتين - الأريتريا والصومال - ولا يريد أن ينسى معاهدة أوشبالي (١٨٨٩) التي جعلت من الحبشة في يوم من الأيام محمية إيطالية - وأن كان منليك قد بادر وألغاهها (١٨٩٣) وأعقب ذلك بإيقاع هزيمة منكرة بالقوات الإيطالية في موقعة عودة (١٨٩٦) .

وبالرغم من أن منليك رفض الاعتراف بمعاهدة (١٩٠٦) التي تقاسمت فيها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا مناطق النفوذ - إلا أن تلك الدول الكبرى بقيت فيما بينهما تحترم نصوصها - فهي وإن كانت تحفظ للحبشة استقلالها إلا أنها تعترف لكل من تلك الدول بمنطقة نفوذ تزاوُل فيها نشاطها ، وليس في تلك المعاهدة ما يخول لأي دولة من تلك الدول بغزو الحبشة عسكريا .

ولكن أطماع إيطاليا التي سبق ذكرها . واحتدام الحوادث والصراع على المسرح الأوروبي خصوصا بعد ظهور هتلر وصحوة ألمانيا تحت الحكم النازي وإلغائها لمعاهدة فرساي وتناجها . خلق جوا من القلق . دعا فرنسا إلى العناية بمسألة الحبشة ، كذلك لم تكن بريطانيا بأقل اهتماما من فرنسا بهذا الأمر .

وفي ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وقعت إحدى حوادث التحرش الشديدة ، بأن اصطدمت بعض القوات الإيطالية مع قوات الحبشة بالقرب من (ولواله Waiwa) مما أدى إلى مقتل ٣٠ وجرح ١٠٠ من القوات الإيطالية ، بينما

كانت إصابات الأجناس أكثر عدداً ، ومهما قيل عن أسباب ذلك الاشتباك من الطرفين في ذلك الوقت ، فإنه ظهر بما لا يقبل الشك - وخصوصاً بعد الاطلاع على الأسرار التي أذيعت بعد الحرب الثانية . أن إيطاليا هي التي تحرشت بالحبيشة تنفيذاً لحظتها التي رسمتها لتبرير غزوها للحبيشة . ولقد كان ذلك واضحاً حتى في ذلك الوقت ، إذ رفضت إيطاليا أى نوع من أنواع المتوسط والتصالح ، ورفضت الحوض في بحث موقع الاشتباك . وهل هو في داخل الأراضي الحبيشية أو خارجها وأين يقع خط الحدود ؟ . وأصرت إيطاليا على موقفها السلبي حتى بعد إثارة موضوع الحادثة أمام عصبة الأمم . وفي نفس الوقت أخذت امتدادات إيطاليا للحملة الحبيشية تتضح للعيان واشتهر أمرها في أوروبا .

وعما أثار دهشة العالم وقتئذ إقدام وزير خارجية فرنسا مسيو بير لافال على زيارة روما لتسوية ما بين الدولتين من خلافات والتعاون في المجال الدولي . ويعتبر البريطانيون هذا العمل من لافال خيانة صريحة لبلادهم لمصلحة هتلر وموسوليني^(١) ووصفه اللورد فانيسنارت بأنه « أحد القلائل الذين لم يتمكن المسكرو سكوب من أن يكشف فيهم إلا الانحلال ، فلقد هياته الطبيعة لكي يكون نصاباً وخائناً .

ولقد تمكن لافال في خلال ثلاثة أيام من زيارته لروما أن يصل إلى اتفاق مع إيطاليا تتنازل لها فرنسا فيه عن بعض المناطق الأفريقية تضاف إلى الأريتريا وليبيا - ولو أنها قليلة القيمة من الوجهة الاقتصادية إلا أن فائدتها العسكرية كانت ذات قيمة . وكذلك منحها ٢٥٠٠ سهما (٢٠٪) في الخط الحديدى الذى تملكه فرنسا والذى يصل أديس أبابا بالبحر عند جيبيوتى - والذى تعتمد عليه الحبيشة اعتماداً كلياً في تجارتها الخارجية -

وفي نظير ذلك حصلت فرنسا من إيطاليا على تسوية في المسألة التونسية ،
بأن تنازلت إيطاليا عن تمسكها باحتفاظ الإيطاليين الموجودين في تونس
بالجنسية الإيطالية .

والمتتبع لهذه الأمور يجد أن هذين الأمرين اللذين تمخض عنهما الاتفاق
من التفاهة بحيث لا يمكن أن يكون لهما شأن في المسرحية التي تمثل في أوروبا
في ذلك الوقت ، ولكن الأمر الخطير الذي حدث في هذه الزيارة هو تقارب
فرنسا من إيطاليا واتفاقهما على التعاون والتفاهم ومراعاة مصالح الطرفين .
وجاء ذلك اعترافا من فرنسا وتصريحا منها لإيطاليا لكي تكون لها حرية
العمل في الحبشة .

* * *

لم تكن بريطانيا لتقف مكتوفة اليدين على المسرح والحوادث تتوالى
أمام عينها لذلك قام مستر أيدين وزير خارجية بريطانيا وقتئذ بزيارة روما
أيضا في يونيه ١٩٣٥ واقترح على الدوتشي أن تنازل الحبشة لإيطاليا عن
جزء من منطقة الأوجاديين في مقابل منح الحبشة ممرا إلى ميناء زيلع الواقعة
في الصومال البريطاني ، ولقد كان نصيب هذا الاقتراح الرفض من الجانب
الإيطالي .

ولقد كان من ضمن الاقتراحات التي لم تعد مرحلة التلبيح ، أن يكون
لإيطاليا في الحبشة مركزا مشابها لمركز بريطانيا في مصر - أي حماية ونفوذ
تحت ستار استقلال ظاهري للحبشة - وقد كان من المعتقد وقتئذ أن موسوليني
سوف يستجيب لهذا الاقتراح ويكتفي به - ولكن الكتاب الإيطاليين^(١)
ينحون باللائمة على تصرفات بريطانيا بعد ذلك التي جعلت موسوليني يركب
رأسه ويندفع في عملية الغزو والاحتلال الكامل . فان الإيطاليين يتهمون
بريطانيا بأنها شجعت هياسلاسي ضد إيطاليا ودفعته إلى رفض جميع

(١) ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ تاريخ أوروبا الحديث تأليف فيشر ترجمة أحمد نجيب هاشم .
(١٨) - الحبشة)

الحلول - ولولا تلك لكان قد قيل بسهولة أن يصبح مثل خديو مصر تحت سلطة بريطانيا أو بائى تونس تحت سلطة فرنسا .

وخلال كل تلك الأحداث لانسى أن فرنسا ومعها إيطاليا ، كانت تنقم على بريطانيا اتفاقها المنفرد مع ألمانيا فى يونية ١٩٣٥ الذى سمحت فيه لألمانية ببناء أسطول يحتوى على غواصات مما يتعارض مع معاهدة فرساي ويقلب ميزان القوى ويهدد كيان فرنسا .

* * *

تلك كانت الحوادث التى تتعاقب على المسرح الأوروبى - وجميعها مؤامرات ومناورات ومعاهدات تعقد خارج عصبه الأمم مما أدى بالعصبه أن تفقد قيمتها وتمتز هيبتها ، وكان لاخفاقمها فى محاولاتها لتسوية حوادث منشوريا وعجزها عن إيقاف الغزو اليابانى لها . أكبر الأثر فى تشجيع بيترو موسوليني دكتاتور إيطاليا على الأقدام على غزو الحبشة ، وامتناق الحسام فى وجه دولة صغيرة ضعيفة ، وأصبحت إيطاليا على أهبة الاستعداد لهذا الغزو فى عام ١٩٣٣ إلا أنها كانت تترقب الظرف المناسب . وكانت على تمام الثقة بأن الموقف الدولى المتأزم سوف يمنع الدول الكبرى من التعرض لها وأنقاذ الحبشة خشية أن يودى ذلك إلى وقوع ماهر أشد خطرا على العالم أجمع وهو نشوب الحرب العالمية ^(١) وبذلك أصبحت الحبشة ضحية وحيدة لاستد لها .

* * *

الغزو الايطالى :

أرسل موسوليني قواته المعززة بمعدرات حربية هائلة ، ومعها من المعدات المدنية اللدروسة بعناية فائقة ما يلزم للبدء فى الحال فى استثمار البلاد ، وكانت تتكسد تلك المعدات فى أريتريا فى انتظار اليوم المنشود ، وزحفت كتابه

(١) س ٦٤٥ تاريخ أوروبا فى العصر الحديث تأليف فيشر ترجمة د . أحمد نجيب هاشم ..

إيطاليا في أكتوبر سنة ١٩٣٥ على تلك البلاد البدوية الضعيفة . وكانت نتيجة القتال أمرا مفروغا منه ، واستصرخ النجاشي هيلاسلاسي عصابة الأمم والأمم الكبرى لقد له يد الغوث - ولكن صراخه ذهب أدراج الرياح ، بينما كانت بلاده تتعرض لفتك جميع المعدات الحربية الحديثة لدولة أوروبية من الدرجة الأولى في المصفحات والطائرات والغازات السامة.

وكان الجيش الإيطالي تحت قيادة المارشال بادوليو يتكون من ٢٠٠.٠٠٠ جندي و ٤٠٠٠ طائرة ومقادير هائلة من الغازات .

أما عصابة الأمم ، وقد فشلت في تهدئة الأحوال قبل الغزو الإيطالي فانها أعلنت في أكتوبر أن إيطاليا دولة معتدية وقررت في الشهر التالي توقيع «العقوبات الاقتصادية» التي يفرضها عبدالعصبة ، فطلبت من الدول الأعضاء أن تمتنع عن مدها بالسلح والمال ، وقررت فرض الحصار البحري عليها ، بيد أن إيطاليا كانت تملك الأسلحة والمواد . بينما كانت تفتقر إلى البترول - وحدث أن رفضت أغلبية الدول الأعضاء أن يكون من ضمن قائمة المواد المحظورة الحديد والصلب والقصدير وزيت البترول - الأمر الذي جعل من «العقوبات الاقتصادية مهزلة كبرى» ، وأضعف إلى مدى بعيد نفوذ العصبة الأدبي والقانوني .

وما أنى شهر مارس سنة ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون قد قضوا على كل مقاومة حربية جديدة من جانب الحبشة ، ودخلوا أديس أبابا فاتحين في شهر مايو وكان الامبراطور هيلاسلاسي قد أكره على الفرار منها في أوائل مايو وأعلن موسوليني في ٩ مايو ضم الحبشة كلها إلى إيطاليا ونادى بالملك عمانويل الثالث امبراطورا على الحبشة ، وأظهرت إنجلترا وفرنسا أنهما تؤثران سياسة التهذنة المتتوية ، ومالبثت عصابة الأمن أن أقرت بهجزها ، ورفعتالعقوبات الاقتصادية عن إيطاليا في منتصف عام ١٩٣٧ (١) .

• • •

(١) ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ تاريخ أوروبا في العصر الحديث تأليف فيشر ترجمة أحمد نجيب هاشم

تأثير الاحتلال الإيطالي :

لسنا من أنصار الاستعمار ولا يمكن أن نوافق على اعتداء القوى على الضعيف ، ولكن لامناص لنا من الاعتراف بأن الحبشة التي ظلت تميز في دياجير الظلام ، وتدافع عن بلادها بما أوتيت من قوة وبقيت خلال تاريخها الطويل بينما تتقلب في احضان الجهل والمهجنة ، لم تتح لها فرص رؤية النور إلا على يد الغزاة الفاتحين . فلقد نقل إليها العرب عندما دخلوها مسلمين كثيرا من نواحي التقدم والمدنية التي عاصرت القرون الأولى من الاسلام ثم كان لدخول البرتغاليين لجنبتهم ضد المسلمين أثر بالغ في تعريفهم بالعالم الخارجي وما به من وسائل المدينة وأساليب الرقي ، ثم كان الفتح المصري الذي أدخل إلى البلاد حضارة من نوع جديد تعتمد على الاستقرار وحسن الادارة ونشر الوعي والتعليم والتدريب بين طبقات الشعب وتوحيد الجهود في سبيل رفعة البلاد بالقضاء على الخلافات والمشاحنات .

ولا شك أن الاحتلال الإيطالي كان - في العصر الحديث - كبير الأثر في إفاقة الحبشة من نومها - وبقدر ما صاحبه من فظائع الحرب والاستعمار فإنه أدخل أحدث أنواع المدنية التي لم تكن لتدخل تلك البلاد لولا الفتح الإيطالي .

ولم تكن إيطاليا تتصور أنها سوف تخرج وشيكا من الحبشة ، لذلك دخلت إليها ومعها برنامج واسع شامل لجعل هذه البلاد جزءا زاهرا من الامبراطورية الإيطالية ، واتخذت سيااسة تخالف ما جرت عليه بريطانيا وفرنسا في مستعمراتهما ، فقد عزلت على أن تزدهر البلاد ، ويتعاون في ذلك المستعمرون وأهل البلاد بحيث توثق تلك البلاد الشاسعة ثمارها في أسرع وقت ممكن حتى تحقق لنفسها أكبر فائدة في أقصر وقت ، وجعلت هدفها أن تمتلئ جميع نواحي النشاط بالإيطاليين الذين يستوطنون بصفة دائمة ويجعلون منها وطننا دائما لهم تابعا للدولة الأم إيطاليا ، لذلك كان الإيطاليون يشغلون جميع

الدرجات في مختلف مرافق الحياة ، فمنه سائق السيارة والصانع والكاتب والموظف والمهندس والمدير ونائب الملك ، وكان الايطاليون في المراكز الدنيا يشتغلون جنبا إلى جنب مع زملائهم الأجانب الذين أغروهم وجلبوهم إلى حلبة العمل . حتى يستفيدوا من مجهودهم البشري في بداية الاستعمار ، ثم يتحولون فيما بعد إلى طبقة كادحة مستعبدة عندما تستقر الأمور للايطاليين وتزدهر مشروعاتهم .

ومن أجل ذلك كانت سياسة الايطاليين الرئيسية ادخال العمران المستقر في جميع النواحي ، فكانت المباني الفخمة والمكاتب الأنيقة والأثاث المريح والتجهيزات الحديثة في كل مكان ، على صورة لم تعدها افريقيا من قبل في المستعمرات الفرنسية والانجليزية التي سبقت بما يقرب من خمسين عاما .

ولقد وضعت إيطاليا لتعمير الحبشة ثلاثة برامج متعاقبة مدة كل منها خمسة سنوات وكانت تهدف أن تصبح البلاد بعدها جنة تتلألأ في قلب أفريقيا ومصدرا هائلا من مصادر الثروة للامبراطورية الإيطالية - ولم يتم من هذه البرامج الثلاث إلا الجانب الأكبر من البرنامج الأول . فجاء رغم الصعوبات التي داهمتها من جراء قيام الحرب العالمية الثانية في ١٩٥٩ ، تحفة من روائع العمل الهندسي والفني والاداري .

انتشرت في جميع أنحاء البلاد طائفة من المشروعات الصناعية، وقامت الحكومة الجديدة في الحال بإنشاء المزارع الحديثة وزودتها بأحدث وسائل الزراعة وأسسها الميكانيكية، وكانت كل واحدة منها مزودة بالآلاتها وورشها ومصنعاتها وقنواتها وآلاتها ومنازلها وتوابعها وأجهزتها اللاسلكية، وتفاوتت أحجامها بين ٥٠٠ فدان والخمسة آلاف فدان ولقد رأينا أحداها بالقرب من مدينة «ديسي» حيث كانت عبارة عن مجموعة متجاورة من الوحدات بلغت في مجموعها ستين ألف فدان .

ودارت رحى البحوث في كل مكان للبحث عن الثروة المدنية، واستغلال جميع أنواع الموارد .

وكان من أهم الإنجازات التي تمت في تلك الفترة القصيرة تلك الشبكة العظيمة من الطرق وخصوصا ذلك الطريق العظيم بين أسمره وأديس أبابا (١٠٨٠ كيلو متر) الذي ربط بين العاصمتين محترقا هضاب الحبشة وجبالها ووديانها ، وسط طبيعة شديدة الوعورة مما استدعى إنشاء عدد لا حصر له من المعابر والجسور والأنفاق ، ومنها بعض الكبارى التي لم يسبق لها مثل ، مثل ذلك الجسر الذى يصل بين جبلين بالقرب من (دبراسينا Debra Sina) والذى تهدم مرة أثناء إقامته وتسببت عن ذلك بعض الخسائر والضحايا ، وأنه وأن تكن بعض الطرق الأخرى لم تكن قد غطيت بالأسفلت بعد ، إلا أنها كانت قد تم تمهيدها بحيث أصبح الوصول بالسيارات ممكنا ولو بشيء من الصعوبة للمرة الأولى في التاريخ من أديس أبابا إلى جوندار واكسوم وهرر وجيما ولبيكتي وبحيرة تانا ودبراما كوس ثم مقديشو .

وكذلك أنجزت إيطاليا عددا كبيرا من المشروعات الحيوية في البلاد مثل محطات الكهرباء وشبكة المواصلات التليفونية والبرقية واللاسلكية ، وكان لها من المعدات اللاسلكية المنتشرة في جميع البقاع ما يمكن العاصمة من الاتصال بجميع المدن والقرى ، وكذلك تصل أديس أبابا مع روما رأسا بمحطات كبيرة تعمل طوال الليل والنهار .

ومن البديهي أنه عندما استقر الإيطاليون بالحبشة فإنهم طبقوا نظامهم الإدارى الذى قضوا به على سلطة الحكام والرؤوس القدامى ، وانزعوا منهم إقطاعياتهم وأراضيمهم وعلى رأسهم أراضى الكنيسة الحبشية التى كانت تملك أكثر من ثلث أراضى الدولة وبذلك بدأت تفقد سلطانها وقوتها. ولئن تظاهرت إيطاليا بأنها تطارد الإقطاع وتفضى على الإقطاعيين إلا أنها جلت محلمهم جميعا وجعلت من الحبشة كلها إقطاعية واحدة كبيرة ملنكا خاصا لها .

ويقدرون ما أنفقتهم إيطاليا في هذه الأعمال العمرانية بما يتجاوز المائتي مليون من الجنيهات .

سياسة الإيطاليين نحو الكنيسة الحبشية :

اتبع الإيطاليون تجاه الكنيسة الحبشية سياسة راعدها الهدوء والتؤدة ، فكما أنها أخذت تعمل على تحويل الشعور القومي الأثيوبي في هدوء وصبر إلى ولاء نحو إيطاليا ، فإنها اتخذت نفس السياسة تجاه الكنيسة القبطية البيعقوية حتى يتم تحويل ولاء الناس عنها بدون إثارة الاضطرابات أو اللجوء إلى وسائل القهر والاضطهاد ، ولقد حدثت بعض الأخطاء عند أول عهدهم بالبلاد كقتل التي فيها جميع رهبان دير (دير اليبانوس) ولكن هذه الحادثة لم تكرر مرة ثانية (١) .

سياسة الإيطاليين مع المسلمين :

منذ اللحظة الأولى أعلن الإيطاليون أنهم سيجعون الإسلام والمسلمين وسيعاملونهم على قدم المساواة مع المسيحيين . وأعلن موسوليني أنه سيضمن لهم السلام والعدل والرفاهية وسيعمل على احترام القوانين الإسلامية (٢) . ولم يكن مسموحاً للمسلمين في الحبشة أن يقيموا مساجد جديدة البناء . ولكن الإيطاليون صرحوا ببناء مساجد جديدة لهم في كل مكان يوجد به مسلمون ، سواء كانوا فيه أكثرية أو أقلية . وأعادوا الإصلاح وترميم المساجد الموجودة في المدن الإسلامية البيديتية مثل مصوع وتغيرها من المدن الساحلية ، وفي الحبشة نفسها (الهضبة) قاموا ببناء مسجد أديس آبابا

(١) ص ١٣٧ في الإسلام في أثيوبيا لتر منجم .

(٢) نفس الصفحة نفس المرجع .

الكبير^(١) وغير ذلك من المدن مثل سوكونا ، شلجا ، وبارك ، اسلاجي ، دانجيبلا ، بحيرة حيق ، ديسي ، متمة وجوندار ، وكذلك في هرز ، ديرداو و جيج جيجا ، ميسو ، عصب ، جوبا ، وعدداً آخر في مقاطعات الجالا وسيداما . ولقد بنيت هذه المساجد من أموال الأوقاف الإسلامية التي أطلق الإيطاليون لها حرية العمل .

وقامت الحكومة بتعيين القضاة الشرعيين لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأدخلت تدريس اللغة العربية في جميع المدارس التي أنشئت للمسلمين ، واستعملت في المراسلات الرسمية في مقاطعات جيا وهرز ، وفي جيا التي كانت تعتبر مركزاً عظيماً من مراكز المسلمين أنشئت كلية (دار العلوم الإسلامية) للتخصص في الفقه .

ويامعان النظر في تلك الإجراءات نجد أنها لا تعدو كونها تصريحاً للمسلمين بمباشرة شئونهم الدينية على نحو كانوا محرومين منه في السابق ، ومهما وصل من إنشاء فإنه لم يكن ليقارن بما كان لدى المسيحيين من منشآت وكنائس وأديرة .

* * *

ونظراً لما عرف عن المسلمين من نشاط وما تميزوا به في الحبشة من جد ومثابرة ومدنية وخلق قويم ، فإنهم بعد أن أزاحت عنهم الحكومة الإيطالية عوامل الكبت والظلم والعسف على النحو الذي سبق ذكره ، أنطلقوا من عقلمهم كاللارد وملأوا الدنيا عملاً ونشاطاً وفي ملح البصر أصبحت تجارة البلاد وزراعتهم ومختلف نواحي النشاط في أيديهم ، واشترك معهم الإيطاليون ومن رأى أن يخدموهم من المسيحيين ولكنهم كانوا قليل العدد .

* * *

(١) ص ١٢٧ الاسلام في أمبوييا - لتر منجمام .

قدما أننا لا نوافق على الاستعمار ولا نرضى باعتداء القوى على الضعيف، ولكن من الانصاف أن نقرر مدى ما تحده تلك الهزات العنيفة من تأثيرات. تثير الأذهان، وتفتح العيون وتدفع الحكام إلى توخي العدل وتهديمهم إلى سبل الرشاد. ومن بين ما فعله استعمار الإيطالي أن أزاح الظلم عن كاهل المسلمين الذين يشكلون غالبية السكان في الحبشة. ولقد أراد بعض الكتاب أن يصوروا هذا العمل من جانب إيطاليا على أنه تقرب من المسلمين حتى يستعينوا بهم على توطيد أقدامهم وكسر شوكة مواطنيهم المسيحيين. ومن الواضح أن هذا المنطق لا يقبله عقل أي منصف، فلقد كان أجدى بحكام الحبشة المسيحيين أن يحسنوا معاملة مواطنيهم المسلمين فيكسبوا مودتهم ويضمنوا تعاونهم أمام أي عدو مشترك.

كما أن الإيطاليين لم يفعلوا مع المسلمين شيئاً فوق المألوف. بل أن كل ما فعلوه لهم هو أن سمح لهم بأن يرتفعوا إلى نفس المنزلة التي كان عليها المسيحيون وجعلوهم جميعاً على قدم المساواة. فجاء هذا العدل والمساواة لإفراجاً عن المسلمين، وليس أدل على ذلك من حب كثير من طوائف الأقباش المسيحيين للإيطاليين. فإتينا عندما وصلنا إلى الحبشة في أعقاب إنسحاب الإيطاليين منها لمسنا حب أفراد الشعب المسيحي لهم واضحاً، لأنه كان قد خلصهم مما كانوا يلاقونه من ظلم سادتهم، ولم يكونوا يختلفون في ذلك عن المسلمين، ورأينا كيف أخذ سادة البلاد من ذلك درساً مفيداً لتعديل سياستهم تجاه رعاياهم بعد عودتهم إلى حكم البلاد.

• • •

ولقد كتب الأمير شكيب أرسلان في هذا الموضوع^(١) في أبان الاحتلال الإيطالي بتدبيره هؤلاء الذين يتباكون على احتلال الحبشة يقولون: أفلاتنا كرتهم سلطنة هرة الإسلامية التي أغار عليها منليك الثاني النجاشي السابق ونسب

(١) مقدمة كتاب المسلمين في الحبشة لصحفي الاستاذ تيسير طليان الكبلاحي.

استقلالها واستطاعتها وذبح من أهلها خمسة آلاف رجل في شوارع هرر
وضبط أملاك كثير من المسلمين ، وجعل مسجدهم الأعظم كنيسة ، ومنع
استعمال اللغة العربية في هرر التي كانت من أعظم كراسي الاسلام والعروبة ،
خيم في أثناء الحرب العامة عاد تفرى هذا (هيلاسلاجى) لحمل على أهالي
هرر بتهمة ميلهم إلى ليح ياسو امبراطورم المسلم السابق ، وذبح منهم عددا
عظيما ، وهلا تذكرتم أن مسلمي الحبشة هم نصف سكان تلك المملكة بل
يزيدون ، وأنهم مع ذلك محرومون من كل حق في مناصب الدولة ، وأنه
يوجد في الحبشة عشرات ألوف العبيد أكثرهم مسلمون والباقي منهم
وثيون وأن النجاشى تفرى نفسه كان عنده ألى عبد من هؤلاء ،
أفلا تذكرتم كيف أصدر النجاشى يوحنا سنة ١٨٨٢ أمرا حازما بتقصير
جميع مسلمي الحبشة بلا استثناء أو يرحلوا عن البلاد ، فتنصر منهم ألوف
ورخل مئات الألوف ، وخرجت مدن اسلامية بتامها (راجع دائرة المعارف
الاسلامية) ، ولم ترجع الحبشة عن تنفيذ أمرها هذا إلا بد أن أتقم دراويش
السودان لمسلمي الحبشة وزحفوا صوب هذه المملكة وتلاقوا مع النجاشى
يوحنا وقتلوه ، وبعد ذلك رجع المسلمون المنتصرون إلى الاسلام إلا قليلا
منهم لبثوا نصارى حرصا على وظائف كانوا قلدوهم. أياها ، ونجمن وان كنا
على نفس المستوى الحماسى للمسلمين في الحبشة مثل الأمير الجليل شكيب
أرسلان إلا أننا لا نتفق معه في أن يكون حماسنا هذا مبررا للاستعمار . ومبما
أصاب الإسلام والمسلمين أثناء الحكم الابطالى من رواج وبقظة فان عقيدتنا
التي لا جدال فيها ، أن الايطاليين ما كانوا يستمروا على حسن معاملتهم
للمسلمين ، وإنما هي أمور اقتضتها سياستهم في فجر استعمارهم للحبشة ، ومن
المؤكد أنهم عندما تستقر بهم الأمور كانوا سينكلون بجمع الأهالي مسيحين
ومسلمين تحلى السواء ويجعلوا منهم جميعا عبيدا أرقاء .

القضاء على إيطاليا في شرق أفريقيا :

عندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية في يونيو ١٩٤٠ ، كان لديها ٢٠٠.٠٠٠ جندي في امبراطورتها في شرق أفريقيا ، ولم يكن للحلفاء في هذه المنطقة إلا ٨٥.٠٠٠ جندي فقط موزعين على مساحات واسعة في شمال أفريقيا على وجه الخصوص ، وكان تسليحها في ذلك الوقت في أسوأ حالاته وكانت قوات الحلفاء في السودان على سبيل المثال لا تملك دبابات أو مدافع بينما كان مالديها من طائرات قليل العدد عتيق الطراز لا يصلح للحرب . ولقد زادت حالة الحلفاء دقة عندما دخلت إيطاليا الحرب حيث أصبح أسطولها في البحر الأبيض يجعل تعزيز قوات الحلفاء في أفريقيا صعبا للغاية وكذلك كان الأسطول البحري والجوى الايطاليين الموجودين في البحر الأحمر ومركزها الاريتريا ، يهددان أية محاولة يمكن أن تفكر فيها الحلفاء باستعمال طريق رأس الرجاء الصالح . لذلك كان أمام الحلفاء طريقا واحدا وهو الوصول إلى مناطق الشرق الأوسط عن طريق البصرة - بغداد حيفا ثم الوصول إلى شرق أفريقيا عن طريق ممبسا ، وكذلك طريق وادي النيل .

وكانت الجيوش الإيطالية المعسكرة في الاريتريا احسنه الاعداد والتدريب بما في ذلك وحدات الجنود الوطنيين الذين تعاقبوا على الخدمة العسكرية قرابة نصف قرن من الحكم الايطالي للاريتريا ، أما نظراؤهم من الجنود الوطنيين في الحبشة فلم يكن في الامكان الاعتماد عليهم . ولكن بالرغم من أذى مركز ممتاز يمكن أن يتحسنا به ، فقد كانوا معرضين بدورهم للحصار البحري الذي تفرضه البحرية البريطانية ، وبذلك تمكنت بريطانيا من حرمانهم من الامدادات الهامة التي لا يمكنهم الاستغناء عنها واهمها وسائل النقل والبتروول وأطارات السيارات .

وبالرغم مما كان يداعب أحلام الايطاليين من نصر ، وامتداد امبراطوريتهم بحيث تشمل مصر والسودان وعدن والصومال البريطاني والصومال الفرنسي

واحتلال بعض المراكز العسكرية في سوريا ولبنان وشرق الأردن ، فإن
المستولين لايطالين كانوا في قلق من الدخول مع بريطانيا في حرب استعمارية
ولقد جاء في سجلات الحرب أن الكونت شيانو قال لهتلر في ١٢ أغسطس
سنة ١٩٣٩ مايلي :

« بالرغم من هدوء الحال في أنبوييا واستسلامها للحكم الايطالي ، ماعدا
بعض مناطق الحدود التي تثير بريطانيا فيها بعض القلائل بوسائل الدعاية
وتوزيع النقود ، فإن هذا الهدوء يبدو ظاهريا . ويكفي لبريطانيا عندما تبدأ
معها المعارك - أن تقوم بعض الطائرات البريطانية بإلقاء المنشورات على
الحبشة ، تقول فيما أن العالم قد قام يناهض إيطاليا وأن الامبراطور سوف
يعود ، حتى تشتعل الثورة بين الأحياش ، ثم لايجوز أن ننسى أنه عندابتداء
المعارك سوف تنزل الحبشة عن إيطاليا ويصبح مصر ٣٠٠.٠٠٠ جندى
إطالي في الحبشة مهدداً . »

لذلك لم يكن هناك بد من أن تبادر إيطاليا بانتهاز فرصة ضعف القوات
البريطانية وافنقارها إلى المعدات وتستولى على أقصى مايمكنها الاستيلاء
عليه من المواقع ، فبدأت زحف في سرعة صوب مصر ، فانها سارعت
واحتلت كسلا والقلبات وبعض المناطق في كينيا في شهر يولية من عام
١٩٤٠ .

* * *

لم تكن بريطانيا غافلة طوال تلك المدة ، فبرغم أنها كانت تمر بفترة
الضعف الشديدة في بداية الحرب فانها لم تغفل تمرير صلاتها بأصدقائها وعملاتها
داخل أراضي أعدائها ، كذلك كان دور الامبراطور هاما في هذا المجال ،
وقد بدأ ينشط ، ويتنزه الفرصة التي واثته بعد بقائه أربعة سنوات في المنفى ،
وكانت مجهودات بريطانيا والامبراطور تدور في سرية تامة واقتصرت على
الاتصالات التي تهيم الجو للساعة الفاصلة . ولقد لعب (لورنزو تايزاز

Lorenzo Taezaz) (١) دورا هاماً في هذا الاتصال حيث تمكن من دخول الحبشة والاتصال بأعوانهم وتبليغهم تعليمات الامبراطور . كذلك انتقل إلى القاهرة ليكون على مقربة من مركز الأحداث « الكولونيل ساندفورد » الذي كان صديقاً للامبراطور وعاش بالحبشة خمسة عشر عاماً ، وأخذ يجمع حوله اللاجئيين الأحباش بالقاهرة والقدس والخرطوم وبدأت الحركة يانشاء أول جماعة انجلو أثيوبية في الخرطوم وبدأت عملية التدريب العسكري . وعندما أعلنت إيطاليا الحرب . بدأت في الحال الاتصالات مع زعماء الأحباش وغادر الامبراطور هيللا سلامي ورفاقه انجلترا في طريقهم إلى السودان . وفي ١٢ أغسطس تمكن ساندفورد وفرقة من دخول الحبشة . وفي ٢٥ أكتوبر كان قد أتم اتصاله بزعماء الثوار في مقاطعة جوجام .

وأثناء التطورات الحربية الأولى ، اضطرت القوات الإيطالية إلى الانسحاب من الأراضي المصرية متكبدة خسائر لم تكن في الحسبان ، كذلك اضطرت القوات الإيطالية إلى الانسحاب من كسلا ومن باقي الحدود السودانية ، وحصنت مواقعها عند حافة الهضبة الحبشية في الخط بين اجوردات - عدوقه جوندادار . وعندئذ تشجعت القيادة البريطانية ، وشعرت بأن القضاء على الإيطاليين أيسر مما كانت تتوقع وأتفقت جميع الآراء على سرعة توجيه الحملات . فصدرت التعليمات للجنرال (بلات Platt) لكي يتعقب الإيطاليين حتى اسمره عاصمة الاريترية ، وإلى الجنرال (كاننجهام Cunningham) الذي يقود القوات البريطانية الموجودة في كينيا بالزحف على الامبراطورية الإيطالية مبتدئاً بالاستيلاء على قسامبو ليجعل منها المناء الذي ترتكز فيه البحرية البريطانية لثمون الحملات ، وأن تعمل عقب ذلك

(١) أصبح فيما بعد وزيراً لهبريد والبرق والتليفون - واشتغل معه المؤلف فترة من الوقت ولقد أنعم على لورتزو بلقب رفيع (بلاتنجتا Blatingeta) أي الوزير الأول . ولكنه لم يسنر في حظوته لدى الامبراطور ، لأنه من أصل نيجري وليس أمهريا . ولقد كان من الغلات الحاصلين على مؤهلات علمية عالية - حيث قد تلقى تعليمه على يد البعثات التبشيرية التي أوفدته بعد ذلك إلى فرنسا لإتمام تعليمه في السربون .

مباشرة على قطع الطريق بين مقديشو وأديس أبابا فنقطع بذلك خط التكوين الرئيسي للقوات الإيطالية في الحبشة ، وفي نفس الوقت دخل الامبراطور حدود الحبشة في ٣٠ يناير سنة ١٩٤١ ومعه عدد كبير من أعوانه المهاجرين الأحباش والفرقة السودانية التي شقت معه طريقة إلى قلب البلاد .

تتابعت الأحداث في سرعة فائقة ، وسرعان ما سقطت أجوردات وهرب الإيطاليين من قسمايو في الجنوب وتمكن البريطانيون من عبور نهر الجب ، وتيسر لهم الاستيلاء على مقديشو ومنها إلى هررهم إلى ديرداوا حيث استولوا على الخط الحديدى الوحيد في بلاد الحبشة ، وبلغ عدد القتلى والجرحى والأسرى من الإيطاليين ٥٠٠٠٠ جندي . مما حطم الروح المعنوية لدى الإيطاليين .

وكما تقدمت قوات كانتنجهام من الجنوب ، كانت قوات الجنرال بلات في الشمال تذلل الصعاب التي أمامها فوصلت إلى الساحل وأستولت على مصوع ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خالصا للحلفاء .

ولجأ الإيطاليون إلى آخر أمل في أيديهم وهو تعيين حاكم لمقاطعة جوجام منافس قديم للامبراطور هيلاسلاسى وهو الرأس هايلو (Ras Haylo Tekla Haimanot) ولكن القوات السودانية والأثيوبية تحت قيادة الكولونيل (ونجت Col.O.C. Wingate)^(١) اضطرت القائد الإيطالى إلى الانسحاب إلى دراماركوس . وبالرغم من التفوق الهائل للإيطاليين في العدد والعدة ، فإن الفرقة السودانية قد أظهرت من البسالة والتفوق في حرب العصابات بما تمكنت به من التغلب على الجيش الإيطالى ، ولعل موقفهم البطولى في المعارك بعد مالاقوه من شدة بالغة في سيرهم من الخرطوم إلى أواسط الحبشة محترقين أفسى مآثرته الطبيعية من عقبات وبعد أن ماتت أغلب جمال الحملة ،

(١) هذا الضابط هو نجل ونجت التدوب السامى البريطانى على مصر سابقا وهو نفسه الضابط الذى قام بتدريب الفرقة اليهودية في فلسطين وحارب العرب عام ١٩٤٨ .

لعل هذا الموقف هو أبرز مواقف البطولة في الحملة الحبشية في جبهاتها
الثلاث .

وسرعان ما سقطت أديس أبابا واستسلمت جميع القوات الإيطالية في
شرق أفريقيا وتمت جميع العمليات الحربية في آخر نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما
سقطت آخر معاقلهم في جوندار^(١)
وعاد الامبراطور هيلاسلاسى إلى عرشه في أديس أبابا للمرة الثانية
ودخلها في ٥ مايو سنة ١٩٤١ .

* * *

الفصل التاسع عشر

العهد الثاني

للإمبراطور هيلاسلاسى

قبل قيام الحملات البريطانية لطرد الإيطاليين من شرق أفريقيا ، وإعادة عرش إثيوبيا إلى الإمبراطور هيلاسلاسى ؛ حاول الإمبراطور أن يعقد اتفاقاً مع بريطانيا يحدد فيه العلاقات بينهما بعد النصر ، ولكن الحكومة البريطانية رأت أن هذا أمر سابق لأوانه ، ورأت أنه يمكن الاكتفاء بالتصريحات التي أعلنتها مستر أيدن وزير خارجية بريطانيا في ٤ فبراير سنة ١٩٤١ ، والتي قال فيها : أن بريطانيا ترحب بعودة الدولة الأثيوبية المستقلة والاعتراف بحقوق الإمبراطور هيلاسلاسى في العرش ، وأن الحكومة البريطانية تقدر ما أبداه الإمبراطور من حاجة بلاده إلى المعونة الخارجية ، وترى أن مثل هذه المعونة والتوجيه في الميادين الاقتصادية والسياسية يجب أن تشملها الاتفاقات الدولية عند عقد الهدنة ، وتؤكد بريطانيا أنه ليس لها أية أطماع إقليمية في الحبشة ، وأن العمليات العسكرية التي تقوم بها القوات البريطانية سوف تتم بالتفاهم مع الإمبراطور ، وينتهي عملها عندما يسمح الموقف بذلك .

وفور عودة الإمبراطور إلى عرشه أصبحت الحاجة ماسة إلى مرعة الاتفاق على نظام العمل والعلاقات بين حكومة الحبشة وبين الحكومة البريطانية التي لازالت جنودها منتشرة في جميع أنحاء البلاد . وبدأت سلسلة من المفاوضات . تقدمت فيها بريطانيا باقتراحات رفضها الإمبراطور على إصرار لما كانت تحتويه من مواد تجعل بريطانيا ، وصية على الحبشة

وتسلب سلطة الامبراطور وتجعل الحكومة الحبشية تحت السلطة المباشرة لفريق من المستشارين الانجليز الذين يستمدون توجيهاتهم من المقيم البريطاني في أديس أبابا ، وتعطى بريطانيا حق الإشراف على شئون الحبشة المالية ، وبذلك تتحكم أيضا في الطريقة التي تنفق بها المنحة المالية التي ستقدمها بريطانيا .

وبعد إصرار الامبراطور على موقفه تم الاتفاق بينهما في معاهدة أبرمت في ٣١ يناير سنة ١٩٤٣ ، على أن تظل سارية المفعول حتى يطلب أحد الطرفين إلغاءها في أى وقت بعد عامين من أبرامها ، شريطة أحطال الطرف الآخر قبل ذلك بثلاثة شهور .

تعهد الامبراطور في تلك المعاهدة بأن يسمح للقائد العام للقوات البريطانية في إفريقيا الشرقية باتخاذ ما يراه لازما من الإجراءات العسكرية ضد العدو المشترك . وأن تبقى منطقة (الأوجادين Ogaden) والتي أعلنت الحبشة ضمها إليها في ١٨٩١ ولكنها لم تتدخل في حكمها إلى الآن والتي لا يسكنها إلا الصوماليون وصارت منذ ١٩٣٦ جزءا من الصومال الإيطالي ، تحت الإدارة البريطانية في الصومال خلال فترة المعاهدة .

وكذلك للقائد البريطاني - متى رأى ضرورة ذلك - أن يستولى على السكة الحديدية التي تربط أديس أبابا بحدود الصومال الفرنسي ، وأن تحتل شريطا من الأرض قريبا من الحدود الفرنسية بعرض مقدار ٢٥ ميلا تربط بين الأريتريا والصومال (١) .

وتعهدت بريطانيا بأن تقدم للحبشة بعثة عسكرية لإعادة تكوين وتدريب الجيش الحبشى وتقوم بتسليحه بما يمكن جمعه من مخالفات الجيش

(١) أن هذا الشرط بعيد إلى الأذهان ما سبق أن طالبت به إيطاليا قبل ذلك ورفضته الحبشة في إصرار وكان من أسباب توتر العلاقات بينهما - التي انتهت بالحرب الحبشية الإيطالية .

الإيطالى ، وتقدم بريطانيا كذلك مستشارين وموظفين للإدارة الإثيوبية والبوليس والقضاء شرطة الأليقوم الامبراطور بتعيين مزيد من المستشارين الأجانب لإبموافقة الحكومة البريطانية .

وتعمدت بريطانيا بأن تقدم معونة مالية سنوية تتناقص بالتدرج ، من مليون جنيه فى السنة الأولى إلى ٢٥٠.٠٠٠ جنيه فى السنة الرابعة . إذا كانت المعاهدة لا تزال سارية المفعول ، أما الأملاك الخاصة للأعداء فى الحبشة فيعابق عليها القانون الدولى وتبذل الحكومة البريطانية جهودها فى أن تعود إلى الحبشة تلك الأملاك العامة التى تكون قد أخذتها إيطاليا^(١).

العلاقات مع إنجلترا :

لم يكن من الممكن أن تستمر العلاقات طيبة بين بريطانيا والحبشة . فسرطان مائشأ الخلاف بينهما وبلغ مبلغاً كبيراً من التعقيد . فقد اصطدمت الأطماع الاستعمارية التقليدية لبريطانيا ، مع الحساسية الشديدة لدى الأباش وكرامتهم المعروفة للأجانب وجهم للحرية والاستقلال .

• ولم يكن الأباش على استعداد للاعتراف بأى فضل لأحد عليهم ، فليس هذا من دينهم ، وكان الدور الذى لعبته بريطانيا فى تحريرهم لا يعود فى نظرهم إلا أنه عمل اقتضته مصلحة بريطانيا فى الحرب ومصلحة امبراطوريتها ومستلزماتها الاستراتيجية ، وأن إثيوبيا فى هذا الشأن ليست أول دولة ولا آخر دولة تتعرض لمثل هذه الأمور . وهى عند النصر تركز أكبر جانب من الفضل إلى كفاح المواطنين السرى ضد المستعمر . وتقلل من قيمة المساعدات العسكرية التى تحقق النصر الحقيقى بسببها ، ثم إن الأباش بدأوا يعتمدون أن! يبدوا إلى الأذهان تاريخ الحسة والعشرين علما الأولى

(١) ص ٥٧ - ٥٤ The Middle East in the War by George

Kirk (1939 - 1946)

من القرن الحالى . عندما كانت بريطانيا توجه المشاكل الدبلوماسية ضد الحبشة وتشترك في معاهدات سرية تمس استقلالها ، وينحون باللائمة على إنجلترا أنها لم تنقف موقفاً حازماً في جانب الحبشة عندما تعرضت للغزو الإيطالى ، بل كان موقفاً فى عصبية الأمم وخارج عصبية الأمم مانعاً ، وبالرغم من أن إنجلترا قد عاونت الامبراطور بعد ذلك فى خروجه من الحبشة ويسرت له سبيل المعيشة فى منفاه ، فإن كل ذلك لا يبنى أن بريطانيا لم تقدم له ما يكفى لمساعدته فى تلك الأوقات العصيبة التى تعرض فيها للكوارث التى لم يكن لها ما يبررها^(١) .

• • •

ولقد أقدم الانجليز على تنفيذ (المادة ١٣) من المعاهدة بصورة عجيبة أثارت كوامن النفوس الأثيوبية ، خصوصاً وأنهم نفذوها فى سرعة خاطفة قبل أن ينتبه الاحباش لها وقبل أن يتمكنوا من إثارة احتجاجهم وإيقاف الإنجليز عند حدهم ، فلقد نصت هذه المادة على « أن يقوم الامبراطور - وبناء على طلب القائد العام - بتسليم القوات البريطانية الأملاك الخاصة للأعداء - التى يمكن أن تحتاج إليها هذه القوات ، تلك الأملاك التى تقيض عن الحاجة المعقولة لاثيوبيا » .

واعتماداً على هذه المادة أسرف الانجليز فى ما استولوا عليه واعتبروه غنيمة حرب وسارعوا بنقل الكميات الهائلة من آلات الورش والمصانع والمولدات الكهربائية وآلات إنشاء الطرق والآلات الزراعية وغير ذلك مما لا حصر له ولا تقتضيه ضرورة الحرب ، وبما كانت تعود على الحبشة بالفوائد الكبرى لو أنها بقيت فى أماكنها واستخدمت فى خدمة البلاد .

بل لقد تعدت ذلك إلى ما هو أذى للنقد ، إذ أن جميع وسائل النقل

العظيمة التي خلفتها لبريطانيا ، استولى البريطانيون على جميع الكميات الصالحة منها وحملت عليها غير ما ذكرناه آنفاً - كميات هائلة من أثاث المنازل على اختلاف أنواعه وعمدوا إلى نزع أحواض الغسيل وأحواض الاستحمام ودورات المياه والمصابيح الكهربائية من أما كتبها وتحميلها لسيارات الشحن الإيطالية الكبيرة وهي في رحلتها إلى المستعمرات البريطانية القديمة وعلى الأخص إلى كينيا .

ولقد شاهد كاتب هذه السطور أما كن الأجهزة التليفونية والمعدات البرقية التي نزعها البريطانيون من أما كتبها على طول الطرق في أثيوبيا ، وبذلك أصبح الاتصال بين أديس أبابا وباقي المدن مستحيلاً . كذلك عندما كلفت الحكومة الأثيوبية كاتب هذه السطور للذهاب إلى هرر مع أمين عام الوزارة لاستلام الشبكة التليفونية من السلطات البريطانية . وجدنا أن هذه السلطات قد نزع كل شيء من أما كتبها ولم تترك لنا للاستلام إلا خط تافه لا يساوي شيئاً يربط بين هرر وجيج جيجا (Jijiga) في منطقة الأوجادين ، وعند مناقشتنا لأحد الضباط البريطانيين في هذا الموضوع قال : « أن هذه غنيمة حرب . أضف إلى ذلك أننا نستعمر أواسط أفريقيا ما يقارب نصف قرن ولا زلنا نعيش (خارج العاصمة) في أكواخ ، معيشة بدائية ، وحان الوقت لأن تتمتع بالمعدات الحديثة والأثاث الفاخر ومظاهر المدنية التي جلبها الإيطاليون الأغنياء . »

وبالرغم من التصريحات والمعاهدات فإنه قد بدأ للحكومة الحبشية أن الانجليز يعملون بشتى الوسائل على تثبيت مراكزهم والحصول على الامتيازات بنفس الروح الاستعمارية المألوفة ، فإنه وأن كانت بريطانيا قد عمدت ، بناء على دواعي الحرب ، إلى السيطرة الكاملة على اقتصاديات الحبشة . بالحكم في صادراتها عن طريق الشركة التجارية للمملكة المتحدة (U.K.C.C.) فإنها كانت تتحمل ذلك على مضض في نظير أن ظروف الحرب نفسها جعلت حصول الحبشة على كثير من مستلزماتها من الخارج متوقفاً أيضاً

على ما يمكن أن تسمح لهم بريطانيا به ، وأهم تلك الواردات البترول
ومشتقاته ، ولكن سكوتهم هذا كان يفرس في نفوسهم القلق على مستقبل
البلاد .

وبما زاد في توتر العلاقات ، ازدياد مظاهر النفوذ التي بدت من الإنجليز
في المناطق الشرقية من الحبشة ، خصوصا وأن موقف الحرب العالمي وقتئذ
لم يكن يبررها ، بل على العكس فإنه كان يبرر تخفيف قبضة الإنجليز ، وتساهلهم
في تطبيق بنود المعاهدة ، ولقد ظهر آنذاك أن الإنجليز يزعمون خلق الظروف
التي تمسكهم من البقاء في شرق الحبشة بحيث يجعلونه مكلا وموصلا بين
الأرتريا والصومال ، وينشئون عبرة ذلك الطريق المشهور الذي كان
الإيطاليون يحاولون إنشائه فيما مضى . وكانت تقتضى سياسة الإنجليز
هذه ، استمرار سيطرتها على منطقة الأوجادين ومنطقة هرر ومنطقة
الدناكل والحط الحديدى الذى يمر خلالها بين جيبوتى وأديس أبابا ، وجعلوا
من محطة دير داوا مركزاً هاماً من المراكز البريطانية .

ويبدو أن الإنجليز قد بدأوا يمهدون لذلك بخلق القلاقل والاضطرابات
في تلك المناطق وعلى الأخص منطقة الأوجادين مما يجعل لهم مبرراً للبقاء
وأحكام السيطرة . ولجأت في هذا السبيل إلى إثارة القلاقل بين الصوماليين
والأحباش ووزعت كثيراً من الأسلحة في منطقة الأوجادين ، وافتضحت
هذه اللعبة عندما أصيب أحد الضباط البريطانيين في تلك المنطقة إصابة
استدعت نقله إلى أديس أبابا للعلاج السريع ، ولم يكن من الواضح سبب
وجود هذا الضابط هناك .

ولقد قامت الكاتبة البريطانية (سيلفيا بانكهرست Sylvia Pankhurst)
صديقة الامبراطور التي أصدرت صحيفة في بريطانيا للدفاع عن حقوق الحبشة
اسمها (New Times and Ethiopian News) قامت بنشر تفاصيل ماسبق
ذكره من مؤامرات وأحداث في عدد ٤ مارس سنة ١٩٤٤ . وأضافت إلى

ما سبق شرحه أن بريطانيا كانت تحضر لعملية استفتاء مزيفة في تلك المناطق .

ولقد كان لاذاعة هذه الأسرار على تلك الصورة أثرا كبيرا في بريطانيا مما دعا وزير الاستعلامات البريطاني أن يصرح أمام مجلس العموم في ١٣ مارس سنة ١٩٤٤ « بأن هذه الجريدة عبارة عن (خرقة مسممة) وبالرغم مما تحافظ عليه بريطانيا من حرية الصحافة فإن الحكومة مضطرة إلى مصادرة الجريدة . لأنهما لا تسمح بأن يقوم أى إنجليزى بالتشهير على القوات البريطانية التى تخوض ميادين القتال »

ولقد كشفت سليفيا بانكهرست علاوة على ماتقدم . خطة بريطانية تهدف إلى تقسيم السودان وتفصل شماله عن جنوبه ، وإلى ضم الإريتريا إلى شمال السودان في دولة واحدة متجانسة . وطبعاً تحت سيطرة بريطانيا وكان مما قالته مس بانكهرست في مقالها ، « أن الإريتريا بعد أن غادرها الطالبان لا يمكن أن تتصرف فيها بريطانيا على هذه الصورة بدون موافقة جهات عديدة ومنها حكومة مصر التى لها الفضل الأول هناك منذ عهد الحكومة الحديوية » .

وعبرت مس بانكهرست عن أعمال بريطانيا تلك ، في هذين الموضوعين بأنه (خيانة للأمانة (Breach of Faith)) .

* * *

لكل ماتقدم - ولكثير غيره - توترت العلاقات بين الامبراطور وبين الحكومة البريطانية أدت إلى قيام الامبراطور في ٢٥ مايو سنة ١٩٤٤ بأرسال الاخطار الكتابى بالغاء المعاهدة بعد ثلاثة شهور . معبرا عن أمله أن تستبدل بمعاهدة جديدة ، وبدأت مرحلة جديدة من الاتصالات بقيت فيها مسألة أوجادين عقبة كآداء ، فلم يكن الإنجليز على استعداد لتلبية رغبة الامبراطور في الجلاء عن أوجادين لمسؤوليتهم عن سلامة نصف مليون صومالى يعيشون بها ولا يمكن الاطمئنان عليهم تحت حكم الحبشة الذى لم يكن قد استقر بعد .

وبالرغم من كل ذلك فقد توصل الطرفان إلى معاهدة جديدة . ثم توقيعها في ١٩ ديسمبر ١٩٤٤ ، تنازلت فيها بريطانيا عن كثير من امتيازاتها في معاهدة ١٩٤٤ فلم يعد الوزير المفوض البريطاني يتقدم باقي الممثلين السياسيين للدول الأخرى ، ولم يعد الامبراطور مضطرا لاستخدام الخبراء البريطانيين أو الرجوع إلى بريطانيا عند حاجته للخبراء ، وأصبح على القوات البريطانية أن تنسحب من الحظ الحديدى خلال ثلاثة شهور من قيام الحكومة باتخاذ الاعدادات التى تضمن حسن تشغيل الحظ . . . ولكن القيادة البريطانية احتفظت بكامل سلطتها على المناطق بين السكة الحديد وجيج جيجا Jigiga وكذلك منطقة الأوجادين ، على أن ذلك لا يمس الاعتراف بسيادة الحبشة على تلك المناطق ، وللتعبير عن ذلك يرفع العلم الحيشى دائما بجوار العلم البريطانى على مباني الحكومة فى تلك المناطق (١) .

* * *

أعباء الدولة الجديدة :

عندما عاد الامبراطور إلى عاصمة ملكه أعلن أنه سيوجه قصارى جهده إلى إعادة بناء الدولة ونشر التعليم وتدعيم الزراعة والتجارة . ولكن تحقيق هذه الأمور الهامة لم يكن بالأمر الهين فى دولة تعرضت لحروب مدة ست سنوات ، ونشطت فيها حرب العصابات وسيطر قطاع الطرق (الشيقاتا Shifata) على كثير من أرجاء البلاد ، وعاون على زيادة خطورة الحالة وجود كثير من الأسلحة بأيدي المواطنين الذين حصلوا عليها من الجيش الايطالى المنهزم .

(١) الصفحات من ٣٣١ إلى ٣٧٦ by *The Middle East in the War*

George Kirk (1939-1746).

ملاحظة هامة : بما تقدم يتضح أن مصير الأوجادين كان موضوع مساومة بين بريطانيا والحديثة - لبيت فيه إغراضها الخاصة شوطا كبيرا - ولم يكن الصوماليون طرفا فى المباحث ولم تكن لديهم الوسيلة للعبادة بمقوقهم أو التبرير عن آرائهم ، بأن الأوجادين مناطق صومالية يحتمل من جهه الوجوه .

وكانت الإدارة في حالة من الاضطراب والغوضى ، لاختفاء التنظيمات القديمة التي كانت تدبر لها القبائل بالولاء ، وكذلك لاضطراب المواصلات وصعوبة الحصول على وسائل النقل ، وتعطل جميع النشاط التجاري . مما أدى إلى نقص كبير في الأغذية والملابس ،

ولقد عانت البلاد خلال محنتها من فقدتها لعدد كبير من نخبة أبنائها المتعلمين الذين بذلت الدولة في سابق عهدها الكثير في تعليمهم وتدريبهم ، وكانت في عهدها الجديد أشد ما تكون حاجة إليهم .

وكانت واجبات الدولة الجديدة تحتم عليها مكافأة جنود حرب العصابات ، وكذلك كان عليها أن ترضى (الرؤوس) ورؤساء القبائل وتحدد مكافئهم بالنسبة للنظام الجديد .

ولم تكن هذه الصعوبات بالأمور الهينة التي يمكن التغلب عليها بين يوم وليلة ، ولذلك يجدر بالمنصف الذي يكتب عن هذا العهد من عهود الحبشة ، أن يقدر ما يمكن أن يتم من أعمال في مثل هذه الظروف . وقد يكون أقرب إلى العدل أن نقارن بين ما كانت عليه البلاد في تلك الأوقات وبين ما هي عليه الآن ، أي بعد عشرين سنة في العهد الثاني للإمبراطور هيلاسلاسي .

ومما لا شك فيه أن الإمبراطور قد استفاد فائدة كبرى من تلك الدفعة القوية التي دفعها الاحتلال الإيطالي للبلاد ، ولقد ترك لها عند انسحابه كثيرًا من الأعمال العمرانية التي لم تكن للبلاد عهد بها في السابق ولم تكن تحلم بها وأهمها شبكة الطرق والمباني العامة والتخطيطات الجديدة للمدن ، وما كان على الدولة الجديدة إلا أن تعمل على إعادة ملء الفراغ الذي تركه الإيطاليون ، والمضى قدما في تنفيذ المشروعات التي كانت قد تركها الطليان جاهزة للتنفيذ كاملة الدراسة في مختلف نواحي الحياة والنشاط الزراعي والصناعي والعمراني .

ولم تقصر حكومة الامبراطور في هذا السبيل ، فأخذت تنشر التعليم وعلى الأخص في المدن الكبرى ، ثم استعانت بكل ما أتيج لها من مساعدات دولية ومساعدات من الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا . في المضي في تنفيذ خططها ومشروعاتها ، فأعدت إلى البلاد رخاء لم يكن لها به عهد في السابق وغيرت وجه البلاد . وأصبح المستقبل أمامها واضحا يدرش بالخير إذا تيسر لهذه البلاد المزيد من الاستقرار .

° ° °

وبالرغم من أن الحوادث السابقة قد فتحت أبواب الحبشة على مصراعها ، وانقضى بذلك عهد العزلة ، وبدأت الحبشة في الأخذ بأسباب المدنية الحديثة ، فإن جميع أمور البلاد بقيت مرهونة بسلطة واحدة وهي سلطة الامبراطور الذي يهيمن بنفسه . على جميع مرافق الدولة . حقيقة أن نخبه من الوزراء يعاونونه ولكن في حدود معلومه ويرجع إليه دائما في إقرار جميع الأمور .

ولقد عمد الامبراطور مرة ثانية إلى وضع دستور للبلاد . ولكن يبدو أن ذلك الدستور لا يهدف إلا إلى إبراز مظهر خاص يرضى الحكومات الأجنبية ، ويسد ثغرة أمام الهيئات الدولية التي أصبحت الحبشة عضوا عاملا فيها .

فالدستور الذي أعلنه في ١٩٥٥ لم يغير في نظام الحكم ، ولم يدخل أي تعديل على نمط الحياة العامة ، وهو بذلك لا يرضى المتعلمين ، أما عامة الشعب فلا تسكاد تحس به ولا تعرف له معنى . وبين هؤلاء وهؤلاء فراغ كبير ، لم يحن الوقت بعد المثلثة ، ولكنه يشكل خطرا كبيرا على سلامة البلاد واستقرار الأمور فيها . ولعل هذا هو السبب الرئيسي لقيام الثورة الأخيرة التي كانت تهدف إلى الإطاحة بحكم الامبراطور هيلاسلاسي .

° ° °

ومن أهم مواد الدستور (١٩٥٥) ، وأن تظل السلطة الامبراطورية متصلة في سلالة هيلاسلاسى الأول ، حفيد الملك سهلاسلاسى الذى ينحدر بدون انقطاع من أسرة منليك الأول بن ملكة أثيوبيا - ملكة سبأ - والملك سليمان ملك القدس . وفضل دعائه الامبراطورية وما أسبغ الله عليه من بركات فإن شخص الإمبراطور مقدس لا منافس لسلطته ولا نزاع في حكمه وتقع على الامبراطور مسؤولية حماية المذهب الارثوذكسى المتوسس على تعاليم القديس مرقس الاسكندرى .

وباقى مواد الدستور تؤكد سلطة الامبراطور في حكمة المطلق ، ولو أن مجلس البرلمان قد رسمت لهما الاختصاصات العصرية إلا أن اجتماعهما القصير مرتين في السنة لا يمكنهما من الاشتراك الفعلى في نظام الدولة ويجعل الدولة كلها من اللمة العملية في يد الوزراء ورجال الدولة الذين يعملون مباشرة تحت أوامر الامبراطور ، وبما يجعل من البرلمان صورة رمزية ، وأن الانتخابات المفروضة لمجلس النواب تم بصعوبة لعدم إقبال الناس على التصويت لعدد من الأسباب أهمها التخلف . وأما مجلس الشيوخ فجميع أعضائه يعينهم الامبراطور .

* * *

حالة المسلمين في العهد الثانى للإمبراطور هيلاسلاسى :

سبق أن تكلمنا عن حالة المسلمين في عهد هيلاسلاسى في الفصل السابع عشر عند الكلام عن عهده الأول ، أما ونحن نتكلم عن عهده الثانى . فإن أشياء كثيرة قد تغيرت بين العهدين وكان منها امتعاش المسلمين بفضل سياسة المساواة التى اتبعها الظليان فلقد وجد المسلمون في هذه المساواة فرصة نادرة للانطلاق حتى أصبح عماد البلاد متوقف عليهم ، لكثرة عددهم ونشاطهم وإقبالهم على الزراعة والتجارة والصناعة الناشئة .

ولكن ما أن عاد الامبراطور إلى الحكم مرة أخرى . حتى أخذ يعمل
هدوء وبراعة لكي يعيد المسلمين إلى ما كانوا عليه في السابق من حرمان
إهمال وظلم . ويرخي عليهم ستارا كشيئا من النسيان ، يحجبهم عن العالم
بحجب العالم عنهم .

أن كاتب هذه السطور تشرف بمعرفة الامبراطور وقابله عدة مرات
راقبه وراقب أعماله عن كثب واستمر يتبعها في عناية مدة عشرين عاما ،
لا يتمالك من أن يعبر عن إعجابه بشخصية الامبراطور وقدرته العجيبة
على معالجة الأمور وصبره وجلده وتفانيه في خدمة بلاده الأمر الذي يثير
عجاب العالم . خصوصا وقد أوشك حكمه أن يصل إلى نصف قرن من
زمان ، الأمر الذي لم يتأت في تاريخ العالم إلا للقلائم النادرين . وخلال
هذا العهد الطويل تعرض للعديد من المشاكل العاتية ، كان تصرفه خلالها
ثار الإعجاب لعمله الدائب في خدمة بلاده .

ومهما وجهت إليه من انتقادات - خصوصا من شباب أثيوبيا المثقف -
عن دكتاتوريته ووسائله العتيقة في الحكم - فإنه بما لا شك فيه قد قفز
بالبلاد إلى الإمام خطوات واسعة واستفاد بجميع الفرص التي صادفته
أحسن فائدة .

وبما يؤسف له أن الامبراطور استعمل هذا الدهاء النادر والخبرة التي
لا تجارى في محاربة المسلمين والإسلام . واستعمل نفس الخبرة في حجب
أخبار المسلمين في بلاده عن العالم الخارجي في الوقت الذي يعمل فيه على
إظهار نفسه بمظهر الحاكم المتسامح - بل المفرط في تسامحه ، وعاقبته على
ذلك أجهزة الإعلام الغربية التي تسيطر على إعلام للعالم . حتى أصبح من
المستحيل على من ليست له دراية بتلك البلاد معرفة الحقيقة ، ولا يمكنه
الاعتماد على القراءة أو الاطلاع التي تسيطر عليها وسائل الإعلام الزائفة .
ولم يعد هناك سبيل للاطلاع على الأمور ومعرفة الأوضاع الصحيحة إلا

زيارة تلك البلاد والمرور خلالها والبقاء بها باحثاً منقبا ، وهذا هو الذى أتاحت الظروف للؤلؤف فأصبح عليه ديناً لا بد من أدائه وهو تأليف هذا الكتاب .

* * *

سلاح رهيب يتقنه الأبحاش ويتفوق فيه الامبراطور هيلاسلاسى ، وهو سلاح الإهمال والصبر والسيان - مسددوه إلى المسلمين - فسرعان ما فقدوا جميع ما كسبوه فى عهد المساواة الذى ساد فى عهد الطليان . وعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وأصبح محرماً على المسلم مرة أخرى - تولى الوظائف أو الالتحاق بالجيش أو الخدمة بالشرطة أو التمتع بوسائل التعليم الحديثة ، التى تعنى الدولة بها غاية العناية وتنفق عليها جانب هاماً من أموال الدولة - الذى تحصل على أغلبه من الضرائب التى يدفعها المسلمون ، وأنتك لا تجد مسلماً موفداً فى بعته من تلك البعثات التى تعلق الدولة عليها آمالها للمستقبل . وإذا أراد المسلمون أن يعلموا أبناءهم فعليهم أن يكتبوا فيما بينهم ويفتحوا المدارس الأولية وربما الابتدائية التى تفتقر إلى جميع مقومات التعليم الحديث ، ثم هم بعد التخرج منها ليسوا أمامهم الفرص للاستمرار فى العلم ، اللهم إلا ما تسمح به الحكومة لبعض الطلبة القلائل الذين يلتحقون بالأزهر الشريف فى القاهرة ، لكى يتقلدوا بعد عودتهم الوظائف الوحيدة المفتوحة فى الدولة للمسلمين وهى التى تتعلق بشئون الدين والشريعة الإسلامية وهى فى أضيق الحدود .

* * *

ليست هناك جدوى من ذكر المزيد من التفاصيل فهذا أمر بطوله شرحه ، وكل ما يمكن أن نضيفه هو أن ما يمكن أن يتصوره القارىء من وسائل الظلم والإهمال وسوء المعاملة يجده مطبقاً على أسوأ حالاته - ولكن فى هدوء وبرود وبرامة ، والوضع السائد فى الحبشة هو طبقة متميزة

حاكمة تتألف من المسيحيين ، فنها الحكام والموظفون في جميع الدرجات ، ومنها الجيش والشرطة ورجال الأمن . وقليل منهم يعملون في الزراعة والباقيون لازالوا يعيشون في حالة مذهلة من التخلف والبداءة ، تبذل الحكومة أقصى جهدها لرفع شأنهم وتخصم بعنايتنا حتى تغير من أحوالهم من أقصر وقت حتى تزداد قوة المسيحيين تمكنا وثباتنا . هذا بالإضافة إلى رجال الكنيسة الذين يبلغ عددهم حوالي ١٠٠ عدد المسيحيين ويعيشون على حوارد ثلث أراضي الحبشة الموقوفة عليهم .

أما الطبقة الأخرى فهي من المسلمين الذين هم غالبية أهل البلاد وتتكون منهم الطبقة المحكومة ، تطبق عليهم أساليب التفرقة التي سادت منذ أقصى عصور التاريخ وكذلك في العصور الوسطى من تقسيم الشعب إلى سادة وعبيد ، فالمسيحيون هم السادة والمسلمون هم العبيد . عليهم حراسة الأرض ومزاولة الحرف والتجارة ودفع عجلة الحياة في البلاد ، تسوقهم الطبقة الحاكمة إلى ذلك سوقا ، ونجى منهم الضرائب والعشور وتفرض عليهم أدائها عدة مرات كلما شام الحكم المناطق ورجال الأمن الحصول على المزيد من هؤلاء المسلمين ويجوداتهم ، تمتلئ منهم خزائن الدولة وتمتلئ جيوب الحكام . ثم بعد ذلك كله يحرم المسلمون من التمتع بحقوقهم كواطنين . بل تطبق عليهم قوانين مستورة تكسر من شوكتهم وتحيطهم بسياج لا يمكن تخطيه ، وتضغط عليهم للبقاء في أوضاعهم بحيث لا يتمكنون من أن تقوم لهم قائمة .

ومن أهم الأسباب التي تدفع الحكام المسيحيين إلى الامعان في الضغط والظلم وتضييق الخناق على المسلمين معرفتهم التامة بالحقيقة الخافية عن العالم . وهي ان المسلمين أصبحوا غالبية بين أهل البلاد ويتميزون بصفات لا تتوفر لدى المسيحيين ، ولقد أجمع جميع الكتاب والمؤرخون والرحالة الأجانب ، على أن المسلمين يتميزون بالانشاط والذكاء والدأب على العمل ، ويعرفون

بنظافتهم وتفوقهم في مجال المدنية وتفتح الذهن والاستعداد الطبيعي لسرعة التقدم إذا أتاحت لهم سبل العلم والمعرفة ، لذلك انفتحت كلمة الحكم الأجلش على الأمان في إصرار وعناد على ما يفرضونه على المسلمين من حرمان وإهمال .

ويعلم الحكم أيضا - من حوادث تاريخهم القريب إلى الأذهان - أن المسلمين إذ تجمعت كلمتهم أصبحوا خطرا لا قبل لهم بمواجهته - لذلك يعتمد الحكم في استمرار الوضع الراهن بتقطيع أوصال المسلمين والمقاطعات الإسلامية ومحاربة كل بادرة من بوادر الاتصال بينهم ، بل يعمد المسئولون على إثارة الخلافات القبلية والطاقفية والعنصرية بين المسلمين ويعملون على توسيع أسباب الشقاق والخلاف بينهم . والحكم في هذا السبيل لا يعدمون الوسائل المتعددة فهم يضاربون فريقا بفريق ويشترون ذمم بعض ضعاف النفوس ويختصون بوظائف الأئمة وقضاة الشريعة من يدين لهم بالطاعة والولاء ، وإذا لمسوا من أى مسلم نزعة إلى التحرر أو الاحتجاج نزلت به أقسى أنواع المعاملة ، من تشريد وحرمان وسجن ، ثم اغتيال إذا استدعى الأمر ذلك ، وهذا هو الواجب الأول على الحكم الذين يعينهم الامبراطور على مختلف مقاطعات الدولة .

* * *

الحالة الداخلية :

لاشك في أن عهد الامبراطور هيلاسلامى هو أعظم العهود التي مرت بالحبيشة ، ولعله قد تفوق على الأباطرة العظام الذين سبقوه وهم زره يعقوب - ويوحنا - ومنليك - والإمام أحمد الأشول ، ولاشك أيضا في أن العوامل التي جعلت عهده أعظم تلك العهود لم تيسر لمن سبقه ، فليس أمرا هينا أن يبقى ملك على عرشه خمسين عاما . جاءت كلها في عصر تفقز فيه المدنية في قوة إلى آفاق بعيدة ، ولقد لقي من معونة الدول الأوروبية ما كان

له الفضل الكبير الذي لا يمكن أنكاره ، أما ما تعرض له من محنة باحتلال الإيطاليين للحبشة مدة خمسة سنوات خلال عهده الطويل فإنه انتهى بنعمة الاستقلال مرة أخرى بعد أن هز البلاد هزة كبرى أفقتها من نوه الطويل ، وفتحت عيونها على مدنية وحضارة لم تعدها ، وأدخلت من وسائل التقدم والعمران ما لم تكن الحبشة بقادرة عليه في عشرات السنين .

ولكن الجوانب المظلمة في تاريخ الامبراطور هيلاسلامي لا يمكن إغفالها . ولقد ذكرنا آنفاً أشد أعماله ظلاماً وظلماً بمعاملة المسلمين .

وليس من الممكن لأى حاكم أن يقترف مثل تلك المظالم إلا إذا تمسك بالحكم المطلق والسيطرة الفردية الكاملة واتباع الأساليب الدكتاتورية إلى أبعد مدى . وهذا هو ما يفعله الامبراطور رغم ما يظلمه أمام العالم من دساتير وبرلمانات ووزراء وهيئات قضائية ودستورية فجميعها عبارة عن واجهات برافة يعنى الامبراطور بأبرازها في تمثيلية رائعة تتكرر في كل مناسبة ، لذلك لا نجد في تلك البلاد أى شأن للصحافة أو التنظيمات السياسية أو الشعبية على أن صورة من الصور ، ولا الجمعيات أو النقابات أو النشاط التعاوني .

وكشأن أى نظام من الحكم يقوم على هذا النمط ، فإن الغلبة فيه دائماً للقادر - والغنى ، أما أفراد الشعب الفقراء فغلوب على أمرهم دائماً لا يكاد يعرفون لهم حقوقاً لذلك برزت النظم الإقطاعية وازدادت قوتها وسيطرتها ، وترتكز أهم مظاهر الإقطاع في الكنيسة التي عادت إلى سابق عهدها بعد رحيل الطليان ، وعادت لتلك تلك أراضى التربة . ولتدعيم قوتها المادية التي تمكنها من تأييد النفوذ الروحي والتعاون في تنفيذ السياسة المرسومة لاستمرار سيطرة المسيحيين وتثبيت نفوذهم .

* * *

وبالرغم من جهودات يوحنا ومنليك التي اختتمت بعهد هيلاسلامي الطويل ، في السيطرة التامة على البلاد فإن الجميع قد عجزوا تماماً على توحيد

البلاد الحقيقي . فالدولة وحدة واحدة تحت الضغط والسيطرة والحكم المطلق ، ولكنها في الواقع لازالت مقسمة تقسيماً عريضاً بين مختلف العناصر التي تتألف منها الحشة منذ أقدم العصور . يتعصب كل فريق منهم لجنسه ولغته ودينه ومنطقته . ويحرص لاقتران الفرض التي تميد إليه استقلاله وتحرره من سلطة العنصر الأهمري الذي لا يمثل غالبية المسيحيين بل أن قبائل التيجري تفوقه عدداً ، وكثيراً ما رفعت لواء الثورة . وليست ثورتهم في ١٩٤٤ بعيدة . تلك الثورة التي كاد أن يكتب لها النجاح ، وكادت تمزق البلاد مرة أخرى على النمط التقليدي للتاريخ الحبشي .

ثم أن قبائل الجالالا الكبيرة التي تشكل نصف السكان وغالبيتها من المسلمين لا يمكن أن تبقى ساكنة إلى الأبد . كل ما هناك أنها موزعة على عدد كبير من المناطق ولا توجد بينها روابط تجمع كلتهم ، وتعمل الحكومة على منع إيجاد تلك الروابط كما قدمنا .

ولا ننسى في هذا الاستعراض للعوامل الداخلية - ذكر القبائل الصومالية التي لا يمكن أن يكون لها رابط مع الدولة الحاكمة ، وكذلك قبائل البيجا ، و الاريتريا التي أضيفت إلى الاتحاد وهي أيضاً أبعد ما تكون صلة بالحكام الحاليين عنصراً ولغة وثقافة وديناً . وسوف نفردها باباً خاصاً بها لأهميتها .

ومن الواضح أن عناصر الفرقة والانقسام باقية كما هي ولكنها كامنة . تتربق الفرصة المواتية للانطلاق .

وبالرغم من الوسائل الحديثة التي أتيجت للحكومة في العصر الحديث . فإنها لم تتمكن إلى الآن من التغلب على التخلف العجيب الذي يسيطر على مناطق شاسعة من أقاليم الحشة والحياة البدائية التي تسيطر عليها شريعة الغاب . ولا تسكاد تجد فيها أثراً للقانون والنظام . فإن الخواص المعلومة عن بلاد الحشة اختفاء سلطة الحكومة وإدارتها المنظمة كلما ابتعدت عن العاصمة .

أومراكر المقاطعات ، لذلك كان حفظ الأمن والسيطرة على البلاد قائما على الحملات التي يقوم بها الأمباطور والحكام في فترات منتظمة كل عام ، يزورون فيها مختلف المناطق يؤديون فيها العصاة ويشنقون بعض المشايخين ويوزعون العطايا ويقيمون المآدب . عملية مستمرة تستكرر كل عام تذكرنا بما كان يتبعه الاباطرة السابقون من اضطرابهم للتجول مع قواتهم خلال البلاد حتى تستقر لهم الأمور . مما يثبت أن حالة البلاد لا زالت على ما هي عليه من قديم الأزمان من فرقة وانقسام ، والاستعداد الدائم لتبذ سلطة الدولة والتخلص منها متى تهيأت الظروف .

* * *

ولعل من أدق ما كتب من وصف لحقيقة الحبشة في الوقت الحاضر هو ما كتبه (أرنسبت لوثر Ethiopia Today P 1 الصادر في ١٩٥٨) حيث يقول « أن إثيوبيا بلاد متناهية في التباين والتنافر ، في طبيعتها ، وجوها ، وطوائف شعبيها ، ولغتها ، وعاداتها ، فهي تتألف من كتل تبلغ الخلافات بينها حد العداوة بين قبائلها وأجناسها . ولم تحتوها حدود واحدة إلا في بداية القرن العشرين ، ولقد كتب عنها أحد الكتاب . أنها بلاد يسيطر عليها ماضيها البعيد ويتحكم فيها بقوة يصعب تفسيرها ، وتعيش هذه الدولة خلف قناع كثيف يحيط بماضيها أديس أبابا ، فإن هذه المدينة - نصف المتمدنة - لا تمثل إثيوبيا . فإن خارج العاصمة وكذلك خارج بعض المدن الأخرى ، تسير حياة الشعب على نفس النمط الذي كانت عليه خلال القرون الطويلة الماضية - في بطء وتناقل - لا يسكاد بشعر الشعب بكيانه أو بعلاقته مع الدولة . »

* * *

لهذا الاختلاف بين الأقاليم والمقاطعات في الدين واللغة والأصل والعادات تجعد البلاد في حقيقة أمرها ممزقة متنافرة يترصد كل فريق منها بالآخر ، لا تجمعهم آمال واحدة أو أصل واحد ، لذلك كان أصرارنا على (٢٠ - الحبشة)

استعمال اسم الحبشة في جميع أنحاء الكتاب ، فهو الإسم القديم الصادق . وبالرغم من الاسم الذي اختارته الدولة نفسها وهو (لاثيوبيا) في عهدها الأخير . فإن الاسم الأول الذي عرفت به في أغلب عصورها هو الذي يعبر أحسن تعبير وأصدق على حالة البلاد وطبيعتها ، ولا نعتقد أنه سوف يتغير حالهم أو يتحسن عن ذلك لأجيال طويلة مقبلة .

* * *

مرة أخرى بالرغم من وجود الامبراطور على العرش خمسين سنة فإن البلاد لازالت تترسخ تحت الجهل والتخلف فلم تتجاوز نسبة التعليم في البلاد عن ٥ ٪ . ولا زالت الأنظمة والتقاليد العتيقة والخرافات تتحكم في البلاد وكذلك لازالت تسيطر على البلاد التكتلات القبلية والزرعات التي تبرز الانزوال والانطواء على النفس .

ومن أشنع المظاهر التي تعمل على تأخر الشعب (المسيحي) سيطرة الجهل الذي يتحكم به رجال الكنيسة في الشعب . فالكنيسة وهي تملك ثلث أراضي البلاد تضم إليها من رجال الدين ما يعادل ٢٠ ٪ من الذكور (أي ما يزيد عن ثلث السكان المسيحيين) وغنى عن البيان أن هذا العدد الهائل من رجال الدين يعملون في مدارك الجهل والخرافات ، لحرمانهم من التعليم ، وهم يستزقون من مهنتهم تلك على حساب الشعب البسيط ، ويشكلون بذلك نسبة هائلة من المتعطلين الذين لا يقتصر ضررهم على بطالتهم ، بل يتعداها إلى ما يفرضونه من سلطان روحي متخلف على باقي أفراد الشعب .

* * *

جانب آخر شديد الخطورة في الحبشة . وهو الحالة الصحية المنهارة التي يصطدم بها كل من زار الحبشة . فانتشار الأمراض الفتاكة يعصف بالأهالي عسفاً ، وخصوصاً الأمراض التماسلية التي تجد ضحاياها بالآلاف يموتون .

الشوارع ويتجمعون حول الكنائس وعلى الأرصفة يستعرضون مظاهر أمراض الخبيثة لأعين المارة ويستنجدون ببركات القديسين لشفايتهم من تلك الأمراض وخلصهم من الآلام .

وبالرغم مما تشتهه الحكومة من مستشفيات وعيادات فلها لانتكافاً مع ما يتسابق معها من انتشار في الأمراض ، ثم أن ما تشتهه الدولة من وسائل الرعاية الصحية قاصر على المدن الكبيرة ، بينما ترقى جميع المناطق الأخرى خالية من العلاج والوقاية ، تتحكم فيها أساليب الشعوذة والحرافات .

• • •

أما عن الحالة الاجتماعية ، فإن الحكومة لازالت عاجزة عن محاربة القوضى الضاربة في كيان العائلة . فإن الزواج الحقيقي غير معروف لدى السكان المسيحيين ، وأخف ما يمكن أن يقال عنهم هو تقضى تعدد الزوجات بينهم ، بينما يحرم عليهم الدين المسيحي ذلك ، ولكن الأهم من ذلك هو عدم وجود الروابط الزوجية على النمط المعروف عند باقي شعوب العالم ، وانقسام عرى الزوجية بأيسر الوسائل وكذلك إتمام الزواج بأيسر منها . بحيث يمكن أن يقال بشيء كبير من الصدق والدقة أن الزواج السائد في البلاد هو زواج المتعة . ولذلك تنتقل الزوجة من كنف زوج إلى آخر في يسر وبدون شكليات فيختلط الأمر بين الأبناء . ويضطر الناس إلى نسبة الأولاد إلى أمهاتهم في حالات كثيرة .

• • •

ولم يكن للكنيسة أثر في تحسين هذه الحالة التي تزيد في تمزيق الروابط في البلاد . مع أن ذلك أهم ما يمكن أن يكون للكنيسة من عمل وواجب وبالرغم مما بذلته من مجهودات فإنها لم توفق في أغراء الشعب على عقد الزواج أمامها ، واقتصر عملها في هذا السبيل على زواج أبناء وأعضاء

الطبقة الراقية والعائلات الكبيرة التي تعتبر الزواج أمام الكنيسة من مظاهر أهميتها وسلطانها .

• • •

« وأزه عما يدعو إلى الأسف الشديد أن يكون الخلق السائد في البلاد هو الرباء ومداهنة الامبراطور - حيث تقوم نظم الادارة وتسلسل السلطات على أساس هذا الرباء - والمداهنات في جميع المستويات ، ولا يمكن لأحد أن يأمل في تقدم أو ترقى إلا عن طريق الحظوه لدى الامبراطور ، لذلك تسود جميع الموظفين - من الوزير إلى الموظف الصغير - روح الحرص والحفاظة على المركز والقلق على النفس ، بما أشاع بين الجميع خصال الكيد والتفنن في تدبير المؤامرات ، كل منهم ضد الآخرين ، وبعم جميع الموظفين شعور دائم من الخوف من بطش الرؤساء ونزواتهم . »

« وطالما استمرت سلطة الامبراطور على هذه الصورة ، فإن الأمل قليل في قيام حكومة ديمقراطية ، وعلى ذلك سبق الدستور عبارة عن سطور مينة ، وبظل استقلال القضاء خيالاً لا حقيقة فيه ولا أمل في تحقيقه ، وكذلك بالنسبة للحريات ، والتعبير عن الآراء السياسية ، فإن كل ذلك سوف يبقى أملاً بعيد المنال ، أقرب إلى الخيال والأحلام .(١) »

• • •

محاولة انقلاب :

كل ذلك يحدث في البلاد أمام أعين طبقة جديدة من أبنائها . أتاحت لهم ظروف التعليم والسفر في بعثات ومهام رسمية ، وكذلك أبناء البلاد الذين هاجروا خلال الحكم الأبطالى وعاشوا في المنفى في دول تتمتع بمختلف أساليب الحكم الحديث ، وأطلعوا على العلاقات الاجتماعية والانسانية ،

(١) ص ١٥٠ - (أنيويا في الوقت الحاضر) تأليف ارنست لوتر (١٩٥٨)

والحريات التي تتمتع بها الشعوب ، ومساهمتها الفعلية مع الحكام في إدارة شؤون الدولة . وغير ذلك من مظاهر المدنية التي تفتقر إليها بلادهم .

ولهذا كان من المتوقع أن يتحرك هؤلاء المثقفون محاولين القيام بتغيير جذري في البلاد وتطبيق النظم الثورية العاجلة ، لبناء المجتمع على الأسس العصرية ، شأنها شأن جيرانها من دول افريقية التي نالت استقلالها أخيراً ، وكيف يتأق ذلك وعلى رأس الدولة امبراطور يعاونه فريق من الوزراء والحكام الذين يحكمون البلاد بعقلية القرون الوسطى . فلا بد اذن من تدبير انقلاب ، وكذلك فوجيء العالم بأنتقلاب ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

* * *

كان الإمبراطور في زيارة رسمية إلى البرازيل فانتهر المتآمرين الفرصة وقاموا بانقلابهم . وكان من بينهم عدد من رجال الحكم الذين حازوا ثقة الامبراطور ، ووضعوا على رأسهم ولي العهد الامير (أصفاوصن) الذي ألتي بيانا على الشعب يقول فيه ... « أن القوانين والانظمة التي وضعت لم تحقق للشعب آماله بل استغلت لحرمان الشعب من حرياته في سبيل حصول الأقلية الحاكمة المستغلة على الثروة والسلطة وأن انتظار الشعب الطويل لم يحقق له شيئا غير الاضطهاد والفقر والجهل ، ولم تعد تخفى على الناس حقيقة الوعود الجوفاء ، وأصبح الشعب يتطلع إلى إجراءات إيجابية تحقق له أرتفاع مستوى معيشته ، وأصبح ينظر إلى ما يحدث في الشعوب الأفريقية المجاورة متمنيا أن ينال ما نالته تلك الشعوب من عناية ، وأن يسير في نفس الطريق الذي يحقق لها التقدم المضطرد... » وأعلن رجال الانقلاب عزمهم على القضاء على نظام الحكم المطلق الذي يعتمد على الظلم والاضطهاد وحرمان الشعب من حرياته وحقوقه ، وكذلك عزمهم على القضاء على النظام الاقطاعي ، والقضاء على تلك الأقلية من ذوى السلطان الذين ينفردون بالثروة القومية وينحكون فيها ، وكذلك العمل السريع الجدي لرفع مستوى

المعيشة ومخاربة الجمل والمرضى ، وبذل الجهد في سرعة تنفيذ المشروعات الحيوية في البلاد .

وسرعان ما تبين أن الانقلاب لقي تأييداً من فريق من القوات المسلحة والشباب المثقف وجانب من رجال الأمن . وكان قيام الانقلاب منار اللدهشة لدى جميع من يعلمون حقائق الأمور بالحبشة . لأنه لا يمكن أن يتبها اجماع أو تأييد حقيقى يعتمد عليه في بلاد تسود فيها العوامل التي سبق أن شرحتها في أسهاب ، وسرعان ما اكتشفت الحقائق وعلم العالم أجمع للمرة الأولى كيف تتكون عناصر الدولة الحبشية وكيف تتنافر بعضها مع بعض . وكيف يمكن للعناصر الرجعية أن تستغل عوامل الفرقة والانقسام في البلاد ، وكيف يمكن استغلال السلبية التي تعم جميع المناطق ، وبدا كل ذلك واضحا للعالم أجمع عندما رجع الامبراطور إلى اسمره بالطائرة واستقبله صهرة حاكم الأقليم ومن هناك سافر بالطائرة إلى أديس أبابا وذهب إلى قصره كما لم يكن هناك أى انقلاب ، فقد قضت القوات الموالية للامبراطور على القوات التقدمية التي قامت بالانقلاب والتي ما فتئت أن اكتشفت أن المؤيدين الحقيقيين للثورة قليلون ، أما باقى عناصر الدولة ، فانها وأن كانت متحمسة ، إلا أنها اقتصرت على مراقبة الحوادث كأنما تشاهد تمثيلية تمثل أمامها . وسرعان ما قدم الثائرون ولاهم لامبراطورهم وقبلوا الأرض بين أقدامه ، وعلى رأسهم ولى العهد - الذى أعلن أنه برىء من الانقلاب ، وأن الثوار سيطروا عليه واضطروه للوقوف هذا الموقف ضد والده تحت التهديد .



لقد كان اخفاق هذا الانقلاب دليلا على كثير من الأمور ، فإن الذين قاموا به هم فئة من المتعلمين المثقفين المتحمسين - وغالبيتهم الكبرى من القبائل الامبرية التي تتحكم البلاد ، فلا ينتظر أن تلقى حركتهم تأييداً من قبائل النيجرى التي تفوقها في العدد ، وتحمل الضغينة وترقب الفرصة التي يعود إليها حكم البلاد .

ونصف البلاد من المسلمين ويزيدون . وهم في نفس الوقت يعلمون جد العلم أن تلك الطبقة الجديدة من المثقفين لا تقل عن الطبقة القديمة تعصبا ضد المسلمين ، فإن الطبقة الجديدة هي التي أعدها الامبراطور وأتفق عليها لكي تتعلم وتتشف وتشتغل وظائف الدولة ، ويتركز في أيديها مستقبل البلاد ليقطع بهم الطريق على المسلمين ، ويستعملهم للامعان في كتبهم وإذلالهم ، ويعلم أفراد هذه الطبقة الجديدة أن بقاءهم في سيطرتهم على البلاد مرهون بتنفيذ هذه السياسة واستعمال معلوماتهم الجديدة وثقافتهم الحديثة في التفتن فيها ، بقدر ما يستعملونها للاسراع في الأخذ بيد أبناء عنصرهم المتخلفين ، ليزدادوا بهم قوة على قوة ، وترسخ أقدامهم في حكم البلاد . لذلك رأى المسلمون أن الطبقة الجديدة بالنسبة لهم امتداد للحكم القديم ، وبذلك لم نسمع اسما واحدا من أسماء المسلمين في الحركة الانقلابية أو في الحركة المضادة التي قضت على الانقلاب ، وأخيرا وليس آخرا فعدد المتعلمين في جميع أنحاء البلاد لا يتجاوز الخمسة في المائة والباقي وهم ٩٥ ٪ . تسيطر عليهم الأمية والتخلف وتتحكم فيهم النزعات البدائية والخرافات ، ولا شأن لهم بالحركات التقدمية .

* * *

كل ذلك يدل على أن الانقلاب جاء سابقا لأوانه ، ولم تجهز له عوامل النجاح الكافية بمحاولة ضم بعض الصفوف الأخرى إليه ، ولكن من الوجهة السياسية فإن الانقلاب قد نجح في إظهار الصورة الحقيقية للبلاد . وبدأ الناس يعلمون في خارج الحبشة عن تعدد العناصر التي تتكون منها الدولة ووجود التنافر والفرقة بينها والروابط التي تشد أركان الدولة إلى بعضها ، ونجح الانقلاب أيضا في إظهار مدى ما يتغلغل في البلاد من تخلف وجهل ، ومدى ما يروج فيه عامة الشعب من فقر ، وما تستمتع به بعض العناصر المقربية من ثروة وتفوز - وهي أوضاع لا يمكن أن تبقى على هذه الصورة في عالم

يتغير بسرعة فائقة في ظل مبادئ العدل والمساواة ، والتقدم الاجتماعي والعلمي والثقافي والتكنولوجي .

* * *

ولكن تكتمل الصورة لدى القارىء . لا بد لنا من الكلام قليلا عن ولى العهد الأمير (أصفا و ص ن Asfa Wassen) الذى وضعه الثوار على رأس الحركة فان هذا الأمير الذى ولد فى عام ١٩١٦ وتلقى جانبا لا بأس به من العلم فى الحشنة ثم فى جامعة ليفريول ، على جانب كبير من الطيبة والهدوء والسماحة . وهى صفات يعتقد بعض الأجاش وعلى رأسهم الامبراطور أنها لا تبشر بإمكان احتفاظه بالأوضاع الراهنة وبسيطرة الطبقات الحاكمة الحالية على البلاد عندما يصبح امبراطورا . علما بأن صفاته تلك قد تكون هى الأمل الوحيد فى نقل البلاد إلى عهد جديد من الديمقراطية تتمتع فيها جميع الطوائف بما تستحقه من حريات .

بل أن الامبراطور هيلاسلاسى يؤمن إيمانا قاطعا بأن ولى عهده غير كفاء للاستمرار فى تنفيذ سياسته . وتأصلت فكرة الامبراطور عن ولى العهد عندما بدأ يشب وتظهر عليه تلك الصفات التى اكتسبها عن والدته ، وتعلمه بها ، وتقليده لها فى حبه لرعاياه من العناصر الأخرى سواء كانوا من قبائل التيجرى أو من المسلمين . لذلك بدأ الامبراطور يشعر بالخطر على الوضع العام بعد وفاته فعمل كثيرا على التخلص من ولى العهد ، حتى لقد شاع أنه أرسله على رأس القوة الحشيشية عام ١٩٤٤ لاجباط ثورة التيجرى لكن يقضى عليه فى المعارك .

وفى نفس الوقت كان الامبراطور يتوسم فى نجله الثانى الأمير ماكون تلك الصفات التى يتوخاها الامبراطور فى من يتولى الحكم من بعده ، لذلك ظهرت محبة للأمير ماكون واعزاز له وبفضه لولى العهد فى نفس الوقت وأصبح أمر ذلك شائعا بين الناس ، وكانوا يتوقعون بين لحظة وأخرى أن

يقوم الامبراطور باجراء تغيير في هذا الشأن ، ينحى به ولى العهد ويعين ماكونن بدلا منه ، ولكن لم يكن هذا التبدل ممكنا في حياة الامبراطورة التي تتمتع عالمها بنفوذ كبير في مناطقها في شمال الحبشة وغربها ، وأصبح شائعا أن القصر الامبراطورى تتصارع فيه قواتان في الحفماء . قوة مع الامبراطور وأخرى مع الامبراطورة . ويدور الصراع حول تثبيت ولى العهد فقط ولم يكن يبدو أنه يمتد إلى أمور أخرى من أمور الدولة .

ولكن الأقدار كانت فاصلة في حكمها عندما لقي الأمير ماكونن (دوق هرر) مصرعه في حادث سيارة ، وبذلك زالت عوامل النزاع ، ثم توفيت الامبراطورة بعد ذلك ، وأصبح ولى العهد بدون منازع . اللهم إلا إذا فتق ذهن الامبراطور عن وسيلة لتنجية الأمير واستبداله بالأمير الأصغر سهلا سلاسى ، خصوصا بعد انغماس ولى العهد مع زعماء الانقلاب الفاشل

* * *

خلاصة القول . أن امبراطورية الحبشة لازالت كما هي منذ قديم العصور مزقة متنافرة ، لا تجمع شعوبها كلمة أو هدف . وتسيطر على مشاعرهم خلافاتهم القبلية وتعصب كل فريق إما لدينه أو للفته أو لقبيلته وعنصره ، وما اخذت هذه الخلافات إلا تحت ضغط السلطة والسيطرة التي أتقن الامبراطور هيلاسلاسى استعمالها إلى الآن ، ولكن كل هذه الخلافات كما نمت متخفزة للظهور ، ولا يمكن التمكن بالصورة التي ستنتقل عليها في المستقبل وبالرغم مما يتمتع به الامبراطور من صحة وقوة فإن الأعمار البشرية لها نهاية ، ولا ندرى ما سوف تكون عليه حالة البلاد عندما تحين الساعة .

ولكن بالرغم مما قد تتطور إليه الأمور فإن الامبراطور هيلاسلاسى سيبقى في تاريخ الحبشة علما كبيرا ، ومن أبرز من جلس على عرشها من ملوك ، وعهده من أحفل العهود بالأحداث الكبيرة التي أثمرت تأثيرا بالغا في مستقبل البلاد .

وعما لاشك فيه أيضا ، أن الدول الكبرى (الغربية) سنبذل قصارى جهدها ، وتعاون مع بعضها تعاوننا صادقا على إبقاء الوضع الراهن على ما هو عليه ، وقد ترى إدخال بعض التعديلات التي تزيد الطمأنينة والاستقرار للحكم ، ولكننا لن نكون بأى حال من الأحوال منصفة للمسلمين ، ولن يكون في الإجراءات الجديدة المرتقبة ما يسمح بزوال الضغط والظلم عن المسلمين ، او السماح لهم ولو بقدر قليل من الحرية والمساواة ، اللهم إلا إذا حدثت أمور ليست في الحسبان .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الدول الغربية تعتبر الحبشة بوضعها الراهن حليفاً مخلصاً أميناً ، ومركزاً هاماً من مراكزها الاستراتيجية ، الذي يمكن أن يكون قاعدة للاحتفاظ بنفوذها في مختلف مناطق أفريقيا ، تنطلق منه متى دعت الظروف للقضاء على أية حركة معادية في أفريقيا .

الفصل العِشْرُونَ

الأريتريا

انتشار الاسلام بالاريتريا :

مر بنا ذكر الاريتريا في مواضع متعددة من الكتاب . فهي بحكم موقعها متصلة اتصالا وثيقا بالأحداث الهامة التي مرت بالمنطقة ، ولقد كان شاطئها أول مكان نزل فيه العرب بعد الاسلام - فه جزر الدهلك - ومنها انتقلوا إلى مصوع ، وأخذوا يمتدون من هناك جنوبا حتى شمل نفوذهم جميع الشاطئء الشرقى للبحر الأحمر وقرن افريقية والمحيط الهندي .

وتغلغل العرب ومعهم الاسلام إلى داخل البلاد من مختلف المواقع الهامة التي أنشأوها أو سيطروا عليها ، واستمرت مصوع فترة طويلة من الزمن باب التجارة الأساسى إلى الحبشة وهذا أصبح تغلغل العرب - وهم سادة التجارة فى المنطقة - إلى داخل البلاد متواليا لا ينقطع ، وكما سبق أن قدمنا فانهم أيها حلوا نشروا الاسلام ووطدوا دعائمه .

ثم زحفت قبائل البيجا من وادى النيل - من مملكة مروى (النوبة) ودخلت إلى الاريتريا من وادى بركة وملات السهول والوديان والجبال إلى أن وصلت إلى البحر الأحمر ، وأصبحت عنصرا هاما أساسيا فى هذه المنطقة ، وجاء الوقت الذى أصبح نفوذ هذه القبائل سائدا على جميع الاريتريا والجزء الشمالى من مملكة الحبشة مهددا عاصمتها القديمة أكسوم .

بدأ الاسلام ينتشر بين قبائل البيجا ، وما أن أسلم شمال السودان حتى امتد الاسلام أيضا من الغرب ، ونشط دعاة الاسلام والوافدون من السودان وجزيرة العرب حتى أصبحت الاريتريا معقلا من معاقل الاسلام فى المنطقة

ولم يبق في حدودها الحالية من يعتنق المسيحية إلا قبيلة النجى التى تعيش على مرتفعات الهضبة امتدادا للهضبة الجبسية ، وامتدادا أيضا لنفس القبائل النجىة التى تسكن الجبسة .

لم يقتصر نشاط الإسلام فى الأريترىا على هداية الوثنيين كما حدث فى باقى المناطق ولكنه نصح فى تحويل كثير من القبائل المسيحية إلى الإسلام . خلال القرن التاسع عشر ، حتى أصبحت - بمختلف الطرق - قبائل قوية عديدة تعتنق الإسلام مثل قبائل (يدت معلل) فى شمال الأريترىا التى اعتنقت الإسلام فى القرن الخامس عشر ، وكذلك قبائل بنى عامر مع باقى قبائل البيجا ، بينما سبقتهم إلى الإسلام قبائل ساو وعفر التى تقع على الساحل امتدادا للدناكل .

ولقد كان للحكم المصرى فى القرن التاسع عشر أثر كبير - بالرغم من قصر مدته - حيث بدأ الإسلام يتغلغل بقوة من كسلا فى الغرب ومصوع فى الشرق .

ويعود فضل كبير فى زيادة تغلغل الإسلام فى الإريترىا إلى العائلات الدينية الشهيرة ، أسرة الشيخ وأسرة السيد الميرغنى ، وكان الأول هو الشيخ الأمين بن حامد القرشى الذى جلب إليه كثيرا من الأتباع ، وتعلق به كثير من قبائل النجىة الذين هجروا ديارهم . ولقد ازداد انتشار أتباع الشيخ وأتباع السادة الميرغنية بشكل جعل منهم فى الأريترىا قوة لا يستهان بها ، وأصبحوا يملكون نواحي القوة والثروة فى البلاد ومركز الأشماع الإسلامى ووصل نفوذهم إلى الساحل ، والتقى بالجموع الإسلامىة التى وصلت أيضا من الشاطىء الشرقى من سواكن ووصلت إلى وادى بركة^(١)

ومن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قبائل تاكلىة Takles (أى بنات يسوع) وهبتة Haptes (عطية يسوع) وتباريام Temaryam

(١) ص ١٤١ الإسلام فى أنبوىا ترومنجيام

(عطية مريم) وكانت قبيلة منساع Massa مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر مم دان السواد الأعظم منها بالإسلام في مستهل القرن العشرين^(١) .

وبذلك يبدو واضحا مدى تغلغل الاسلام في الاريتريا حتى أصبح دين غالبية السكان كما سنعود إلى مناقشته فيما بعد .

• • •

أهمية الاريتريا :

وفي أدوار التاريخ التي مرت بها كانت للاريتريا أهميتها الخاصة ، ولكننا نود أن نشير بصفة خاصة إلى ذلك العهد الذي تركزت فيه قوة الدولة العثمانية بها ثم تنازلت عنها وحلت محلها القوات المصرية ، وكانت في هذا العهد وقبله تدعى بلاد (البوغوص) . التي كانت لها على مر العصور طابعها الخاص بالرغم من متاخمتها للحبشة ، ولم تقع تحت سلطة الحبشة إلا في لحاح قصيره مرعان ماتتقضى وتعود شخصيتها المستقلة إلى البروز .

ولقد أولتها الحكومة المصرية عناية خاصة ، فنشرت بها وسائل المدنية وال عمران ، فشيدت المنشآت الهامة في مصوع ومينائها ومهدت الطرق المعبدة إلى داخل البلاد وأدخلت السكة الحديدية بها والمواصلات التلغرافية ، وشملت بمشروعاتها العمرانية جميع أنحاء البلاد ، وكانت الحكومة المصرية تهدف من ذلك وصل الاريتريا بالسودان وجعلها اقليماً واحداً يسهل الوصول إلى جميع أطرافه عن طريق النيل وعن طريق البحر الأحمر .

وشامت الظروف التي سبق أن أوضحناها أن تنهار المديرية المصرية في شرق أفريقيا تحت ضغط الدول الأوروبية ، التي استغلت اضطرابها المالي للقضاء على الامبراطورية المصرية ، وتقسيمها بين الدول الأوروبية المتنافسة على النفوذ في البحر الأحمر ، وبذلك صدر الأمر للقوات المصرية بالانسحاب من جميع مناطق شرق أفريقية ، وكان أن ارتبطت الاريتريا منذ

(١) ص ١٤٢-١٤٣ الدعوة إلى الاسلام لسير توماس أرنولد ترجمة د حسن إبراهيم

ذلك التاريخ بإيطاليا ، وبدأت مرحلة جديدة يجدر الكلام عنها في شيء من التفصيل .

• • •

الحكم الإيطالي :

أثناء التنافس والصراع في سبيل الاستعمار بين الدول الأوروبية الكبرى ، عازمت إيطاليا على أن تحصل على نصيبها في هذا المضمار ، فتمكنت (شركة روباطينو الإيطالية للبلاحة . Rubattino Shipping Co من ابتياع منطقة صغيرة على الساحل بالقرب من مدينة عصب ، من أحد الشيوخ المحليين وذلك في نوفمبر عام ١٨٦٩ ثم استمرت في مجهوداتها حتى تمكنت من ابتياع بعض الأراضي المجاورة لعصب في ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ولقد احتجت الحكومة المصرية على هذه الصفقات وأعلنت عدم اعترافها بها ، لأنها تتعارض مع حقوق السيادة المصرية على هذه الجهات ، وعندما كانت جيوش مصر تتعرض للغزو البريطاني في عام ١٨٨٢ سارعت إيطاليا ونقلت ملكية عصب من الشركة إلى الحكومة الإيطالية .

وعندما صدر الأمر للقوات المصرية بالانسحاب من شرق أفريقيا ، أرسلت الحكومة الإيطالية قواتها العسكرية واحتلت عصب في يناير ١٨٨٥ ومنذ ذلك الوقت والحكومة الإيطالية تراقب مجريات الأمور في اهتمام زائد ، فكانت تتابع تطورات الثورة المهدية وكذلك الأحوال التي تجري داخل الحبشة ، فما أن لمست ما تتعرض له مصر ومعها إنجلترا من جراء الثورة المهدية في السودان ، حتى اتصلت ببريطانيا تستفسر منها عن موقفها لو أن إيطاليا قامت باحتلال مصوع ، وكان رد حكومة بريطانيا أن الحكومة البريطانية لا يثير اهتمامها احتلال زولا أو يلول أو مصوع لأن هذه الموانئ . وقد تخلت عنها مصر إنما تعود إلى تركيا ، وللطليان أن يتفقوا بشأنها مع الباب العالي . . ، فلم يتوان الإيطاليون في احتلال مصوع ودخلوها في ٥ فبراير ١٨٨٥ .

منذ ذلك التاريخ أخذت القوات الإيطالية تتوغل داخل المستعمرة المصرية فاصطدمت مع الأحباش الذين كانوا يطعمون في ضم جزء كبير منها إلى مملكتهم ، واستمرت المناوشات والمفاوضات حتى اضطر الملك يوحنا ملك الحبشة إلى الانسحاب نتيجة لما بدأ يتعرض له في الداخل من قلاقل ، ولصد الخطر الذي يهدد بلاده من الغرب - من جيوش المهدي في السودان ، وفي أثناء ذلك كان الطليان قد تمكنوا من عقد معاهدة تحالف بينهم وبين منليك ملك شوا ليهادتهم إذا قامت الحرب بين الطليان والامبراطور يوحنا ، في نظير أن يمدد الطليان بالأسلحة - كما سبق أن ذكرنا في فصل سابق من هذا الكتاب .

وعندما اعتلى منليك عرش الحبشة ثارت الخلافات بينه وبين الطليان وقامت بينهم المواقع الحربية التي انتهت بهزيمة الطليان الساحقة ، ولكنها انتهت بمعاهدة اعترف فيها الأحباش بالأملاك الإيطالية في البحر الأحمر ، والتي تمتد إلى الداخل إلى نهر المأرب (أوخور الجاش) وهي حدود الأريتريا الحالية ، وتمكنت كذلك بعد حروب ومناوشات مع قوات المهدي من تحديد حدود مستعمرة الأريتريا الغربية بينها وبين السودان ^(١) .

وبلاد الأريتريا فقيرة قليلة الموارد ، وما كان الايطاليون ليقنعوا بها ، لذلك كان مهمهم أن يجعلوا منها قاعدة لانطلاقهم على الحبشة ، واستمروا بها يتحينون الفرص لغزو الحبشة قرابة نصف قرن من الزمان حتى تم لهم فتح الحبشة في ١٩٣٦ ، كما جاء بالتفصيل فيما سبق .

* * *

كذلك عندما تم إجلاء الايطاليين عن شرق أفريقيا عند قيام الحرب العالمية وعاد الامبراطور إلى عاصمته ملكة في الحبشة ، أما الأريتريان فوضعت تحت الإدارة البريطانية حتى يتقرر مصيرها بعد انتهاء الحرب .

(١) ص ٤١٨ - ٤٢٥ مصر والسودان د . محمد فؤاد شكرى .

ملحوظة هامه : نود ذكرها قبل أن ننتقل ، وهى أن الاريتريا وقد مر عليها الحكم المصرى ونشر فيها أسس المدينة الحديثة وأقام فيها المنشآت الهامة ، ثم حل بها الطليان وقضوا فيها ما يزيد عن نصف قرن أضافوا الكثير إلى مابدأه المصريون ، حتى جعلوا من الأريتريا نموذجا ينبض بالحياة فى أفريقيا ، وارتفع بمستوى الشعب وخصوصاً المسلمين منهم ، رغم فقر البلاد ، إلى مستوى عال يفوق مستوى الأحباش بكثير ، وكانوا يتمتعون بأرأع من الحريات لاعهد للأحباش بها ، فكانت بالاريترياصحافة وجمعيات ومدارس ، وكان اتصالها بالعالم الخارجى مستمراً وعلى الأخص ببلادالعرب والبنين ومصر وإيطاليا .

* * *

تقرير مصير الاريتريا :

احتلت القوات البريطانية جميع أراضى اريتريا خلال عام ١٩٤١ فى طريقها إلى تخليص الحبشة من الايطاليين ، وكان على بريطانيا أن تتولى إدارة الاريتريا إلى أن يتقرر مصيرها بعد انتهاء الحرب ، ووجدت بريطانيا نفسها أمام صعوبة تغلبت عليها بحل طرف .

لم يكن لدى بريطانيا من رجال الإدارة العسكرية والمدينة العدد الكافى الذى يمكن الاستغناء عنه لإدارة الأريتريا ، بينما وقع فى يديها عدد كبير من الأمري الإيطاليين ، الذين كانوا يشككون عبثاً ثقيلاً على بريطانيا لإيوائهم وتغذيتهم ، لذلك قررت بريطانيا استخدام جانب كبير من هؤلاء الايطاليين فى تسيير دفة البلاد فى جميع المرافق والأعمال ماعدا تلك التى تتعلق بالأمن العام والشئون الخارجية وما يتعلق بالجمهور والحربى ، واعتمدت فى حفظ الأمن على قوة من الشرطة أنشأتها بريطانيا من أهالى البلاد ومن بعض السودانيين المدربين تحت إدارة ضباط من الإنجليز ، واستعانوا أيضاً ببعض الضباط الطليان الذين اختاروهم للعمل معهم بعد تحريات ودراسات دقيقة عنهم .

ولقد وجدت بريطانيا في الأريتريا أثناء الحرب قاعدة حربية مثالية ركزت فيها كثيراً من قواتها ومستودعاتها، ولقد استفادت فائدة كبرى من ميناء مصوع الطبيعي السكامل الأعداد والذي يربطه بأسمرة خط حديدي وطريق برى ممتاز وجبل هوائى (تليفريك Aerial Ropeway) أنشأه الإيطاليون لنقل البضائع من مصوع إلى أسمرة مباشرة (طوله حوالى ٨٠ كيلو مترا) ، كذلك استفادت القوات البريطانية فائدة كبرى مما أنشأه الإيطاليين من مستودعات وورش ، واستخدموا فيها نفس الفنيين الإيطاليين المدربين الذين كانوا يعملون بها ، وأقامت أمريكا فيها مصنعا لتجميع الطائرات ، وأصبحت أسمرة مركزا لإصلاح الطائرات الحربية والمدنية ، واستغل الأسطول البريطانى والبحرية البريطانية ميناء مصوع للإصلاح والتزوين بالأغذية والمياه والمواد البترولية . وأدى هذا النشاط الكبير إلى رواج عظيم في الأريتريا ، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وقف هذا الرواج وعادت البلاد إلى سابق عهدها .

* * *

تقرر في معاهدة الصلح التي عقدت في ١٩٤٧ ، زوال الحكم الإيطالى من مستعمراتها السابقة . وتألف لجنة من (فرنسا ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا والولايات المتحدة) لتقرير مصير تلك المستعمرات ، وإذا عجزت عن الوصول إلى حل بشأنها ، فإن الموضوع يحال إلى الأمم المتحدة ، ولم تتمكن هذه الدول الأربع الكبرى من الوصول إلى حل . وأخيل الموضوع إلى الأمم المتحدة ، ولقد تسبب ذلك في صراع سياسى عنيف واستغرق وقتاً طويلاً من أعمال الجمعية العامة مما أجهد مندوبى الدول وعلى الأخص فيما يتعلق بليبيا والأريتريا .

ولقد تعرض موضوع الأريتريا لكثير من التيارات العميقة المتصارفة ، وتشابكت فيها الخلافات الداخلية مع الاتجاهات الدولية بين الدول الكبرى وتعددت الحلول المعروضة عليها ، وظهرت في الأريتريا (العصبة الإسلامية) (٢١ - الميثة)

وطالبت باستقلال البلاد وعاونتها في ذلك الحزب التقدمي الحر ، ووافقا على أن يسبق هذا الاستقلال فترة وصاية لمدة محددة كما يقتضيه الرأي السائد في مثل هذه الأمور في أروقة الأمم المتحدة .

ومنذ جلاء الطليان ، وأثناء عهد الإدارة البريطانية شعر المسيحيون في الأريتريا بما يتعرضون له من خطر لو أن الأريتريا نالت استقلالها فإنهم بذلك سيصبحون محصورين في منطقتهم الجبلية محاطين بالمسلمين من كل جانب مما يهدد مستقبلهم ، لذلك دفعتهم الحبشة وبعض الدول الأوروبية كي ينشئوا حزبا يتنادى بانضمام الأريتريا إلى الحبشة ، وبذلك بدأت تظهر في الجو خطورة منح الأريتريا استقلالها إذ أنها ستصبح مهددة من جارتها الكبيرة الحبشة وبين سكانها عدد يدين بالمسيحية ويتنادى بالاتحاد مع الحبشة ، مما يدعو إلى توقع أثاره القلاقل التي يحسن تحاشيها .

وفي وسط هذه الخلافات تقدمت إيطاليا بطلب عودتها كوصية على الأريتريا ولكن كان مصير هذا الاقتراح الرفض من الحبشة ومن ممثلي الأريتريا معا .

ونشطت الحبشة في المطالبة بضم الأريتريا إليها واستندت في طلبها إلى حرمان الحبشة من الموانئ على البحر الأحمر ، وحاجة الحبشة في عهدها آنذاك بالتقدم الصناعي الموجود بالأريتريا لتعاون في إعادة عمران البلاد الحبشية بعد الحرب . واستندت أيضاً إلى أن الأريتريا في الأصل بلاد فقيرة وبانضمامها إلى الحبشة سوف تتمتع بما في الحبشة من خيرات ويتحسن الوضع الاقتصادي بها . وكما قدمنا . كانت الهيئة المسيحية في الأريتريا تؤيد طلب الحبشة .

ولم تنس الحبشة في طلبها أن تعدد الروابط القديمة التي تربط الدولتين وادعت أن لها من الحقوق التاريخية ما يبرر طلبها ، وضربت على ذلك أمثلة ببعض تلك الفترات القصيرة الأمد التي قضتها بعض الجيوش الحبشية فوق

هضبة الأريتريا أثناء الحملات والمناوشات الحربية التي مرت في تاريخ البلاد .

ولم تنس أيضاً أن تقيم الدليل على ضرورة ضم الأريتريا إليها ، من أن كلا منهما يعتمد على الآخر اعتماداً كاملاً بدليل أن الإيطاليين ربطوا بينهما رباطاً وثيقاً وجعلوا من ميناء مصوع ميناء طبيعياً للحبشة . تمر به جميع صادرات البلاد و وارداتها وتتركز فيه مستودعات التموين .

وأضافت الحبشة إلى أدلتها . أن جميع الحملات العسكرية التي هدفت استقلالها وفدت إليها عن طريق ميناء مصوع والأريتريا لذلك فإن وجود حكومة أو إدارة في أريتريا معادية للأجباش تنطوي على خطر يهدد استقلالهم^(١) .

* * *

وفي دوامة هذه الخلافات ظهر أيضاً اقتراح بالتقسيم بحيث تدمج الهضبة (المسححة) فقط مع الحبشة ، وهنا ظهرت النوايا التي كانت تبينها بريطانيا وسبق أن أشرنا إليها عند الكلام على ما أذاعته (مس بانكهرست) عن خطط بريطانيا السرية أثناء الحرب . وذلك أن بريطانيا صرحت بأن الحل السليم وهو التقسيم على أساس أن يضم القسم الغربي من الأريتريا إلى السودان ويبقى القسم الشرقي الذي يحتوي على الهضبة ومعها ميناء مصوع مع الحبشة .

* * *

وتتابعت الاقتراحات من جميع الدول ، من وصاية دولية إلى وصاية جماعية إلى منح أثيوبيا عمراً خاصاً بها عن طريق ميناء عصب . وبعد عشرة سنوات يحصل الإقليم على الاستقلال وأخيراً قررت الدول الكبرى الأربع لإنقاذ لجنة إلى المستعمرات الإيطالية للبحث والدراسة وبقيت اللجنة في

(١) ص ٧٩ ، ٨٠ من كتاب الحبشة . لداكتور راهد البراوى .

الأريتريا من ١٣ / ١١ / ١٩٤٧ إلى ٣ / ١ / ١٩٤٨ ورجعت بنتيجة إحصائية لا تخرج عما سبق معرفته عن تأييد سكان الهضبة فقط للاتحاد مع أثيوبيا أما باقي البلاد فتطلب الاستقلال ، وكانت النسبة العددية ، وفي رأى اللجنة ، متعادلة بين الفريقين .

عادت الاقتراحات وبدأت مرحلة أخذ الأصوات التي فشلت جميعها في إيجاد حل لهذه المشكلة . فتألفت لجنة من الجمعية العامة من ممثلين لدول النرويج وجواتيمالا وجنوب أفريقيا وباكستان وبورما ، وفي أثناء ذلك بدأت في البلاد حركة غربية تعتمد على العنف والإرهاب والتهديد ، لأحداث الشقاق ، لعبت فيها الإدارة البريطانية والأموال الأثيوبية دوراً هاماً .

أدى هذا الموقف الجديد إلى اختلاف أعضاء اللجنة فيما بينهم . فقال ممثلو النرويج وجنوب أفريقيا وبورما أن قلة من السكان تطلب الاستقلال ، أما مندوبو باكستان وجواتيمالا فقالوا إن الإرهاب وسوء استخدام الكنيسة لسلطاتها حال دون التعبير الحر عن الرأى ، وفي رأيهما أن الأغلبية تريد الاستقلال^(١) .

وثار الخلافات ثانية - وكما عبر بعض المشتركين في تلك الاجتماعات أن الخلافات حول وضع ليبيا والأريتريا سبب صداعاً لجميع الأعضاء - وتحت تأثير هذا الصداع وافقت الجمعية العامة في ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ على أن تكون أريتريا وحدة ذات استقلال ذاتي في اتحاد فيدرالى مع أثيوبيا تحت التاج الأثيوبى ، وأن يكون للأريتريا ، سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في ميدان الشؤون الداخلية ، وأن يمتد اختصاص الحكومة الفيدرالية إلى الدفاع والشؤون الخارجية والمالية والتجارية الخارجية والتجارة بين الأقليمين والمواصلات الخارجية والمواصلات بين الإقليمين بما في ذلك

الموائى . . . أما اختصاص حكومة الأريتريا فيعتمد إلى جميع المسائل غير الداخلة في اختصاص الحكومة الاتحادية بما في ذلك سلطة الاحتفاظ ببوليس بحلى وجمع الضرائب لمواجهة نفقات الوظائف والخدمات المحلية واتخاذ ميزانية خاصة بها) . . . (ويقام مجلس اتحادى امبراطورى من عدد متساو من الاعضاء عن كل من اثيوبيا وأريتريا - وتكون هناك جنسية واحدة في الاتحاد كله) .

وتحددت فترة انتقالية يتم خلالها تنظيم حكومة أريتريا وإعداد دستور لها ووضع موضع التنفيذ ، تحت إشراف مندوب من هيئة الأمم المتحدة .

وفى ١٠ يولية سنة ١٩٥٢ وافقت الجمعية العمومية على الدستور الأريتري وفيما يلي أهم ما اشتمل عليه : (١) .

(١) حدد الدستور السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لحكومة الأريتريا بأنها المسائل التي ليست من اختصاص الحكومة الفيدرالية - ومن هذه السلطات الاحتفاظ بقوات الأمن الداخلى وجباية الضرائب وأن تكون للإقليم ميزانيته الخاصة به .

(٢) يتكون المجلس الفيدرالى من عدد متساو من الاثيوبيين والأريتريين على أن يقوم رئيس السلطة التنفيذية بتعيين الاعضاء الأريتريين .

(٣) للامبراطور ممثل فى أريتريا يحاط علما بانتخاب رئيس السلطة التنفيذية ، والاخير مسئول أمام البرلمان الأريتري (اختار الامبراطور أول ممثل له زوج ابنته ماشاى) .

(٤) عندما يصدر المجلس قانونا يقدم إلى ممثل الامبراطور الذى له أن

(٢) نفس المرجع من ٨٧ وكذلك من ٤٣٠ ، ٤٣٢ السياسة والحكم فى أفريقيا

د . عبد الملك عودة .

يطلب خلال عشرين يوماً إعادة النظر فيه إذا تعدى الاختصاصات
الفيدرالية .

(٥) يتكون البرلمان من عدد لا يقل من ٥٠ عضواً ولا يتجاوز ٧٠
عضواً .

(٦) السلطة التنفيذية تتكون من رئيس يعاونه وزراء مستولون أمامه
وله حق إقالتهم .

* * *

في داخل أريتريا . رحب أنصار الحيشة بالاتحاد بطبيعة الحال وعارضه
الأخرون قائلين أن هذا الاتحاد الفيدرالي ما هو إلا لعب بالألفاظ ، فإن
الحقيقة أن الأريتريا قد منحت هدية للحيشة . وأصبح بذلك أهل الأريتريا
المتقدمين المتعلمين الذين يتمتعون بمدنية وحرية لم تهدها الحيشة ، أصبحوا
تابعين لمن هم أقل شأنًا ، ولا يستسيغ أهل أريتريا أن يوضعوا في هذا
الوضع المهين لكرامتهم ، وفي نفس الوقت يحرمون من حق الاتصال
الرسمي بالعالم الخارجي إلا عن طريق حكومة أديس أبابا الرجعية
الإقطاعية (١) .

* * *

ولقد كانت الأريتريا بهذا القرار أتعس المستعمرات الإيطالية مصيراً ،
فبينما استقلت الحيشة فور جلاء الإيطاليين . فإن الصومال الإيطالي ومعه
الصومال البريطاني نالا استقلالهما بعد فترة وصاية محدودة ، وكذلك نالت
ليبيا استقلالها ، مع أن ظروفهما كانت أشد وأقسى ، وتعرضت في هيئة
الأمم المتحدة لنفس المناورات العنيفة ، ومع ذلك فإن الأريتريا هي الوحيدة
التي كان مصيرها إلى زوال شخصيتها وإلحاقها بأثيوبيا .

والتبعية لتفاصيل المناورات المرهقة التي مرت بها مسألة الأريتريا بلبس في وضوح ظاهر ، مدى انحراف الدول الأوروبية وتوجيهها ، ورغبتها في تعزيز الحبشة وتوطيد أركانها ، وأثبت البريطانيون أثناء توليهم إدارة البلاد كيف كانوا يبيتون لهذا الأمر ، حتى أنهم لجأوا آخر الأمر إلى تشجيع استعمال وسائل العنف ، ونهينة الجولاعوان الحبشة ورجال الكنيسة لاستعمال آخر ما في جعبتهم من أساليب التهديد والشددة والرشوة لمقاومة أنصار الاستقلال ، حتى تصبغ الأريتريا هدية يقدمونها للإمبراطور الذي يسلم السياسة الغربية ويستند عليها في بقائه على عرشه ، ويعتمد على تأييدهم الخفي لإجراءاته التي يكتم بها أنفاس المسلمين - وهم غالبية السكان في الأريتريا والحبشة على السواء .

* * *

الموقف بعد الاتحاد :

بالرغم مما حصلت عليه الحبشة من نصر فإنها ليست سعيدة به . إذ أن نظام الحكم الذي وضع للأريتريا والديستور والبرلمان المنصوص عليهما مع ما بهما من قصور ولججاف يمتنع عليها شعب أريتريا - فإنها تفوق ما يسود الحبشة تحت نظام الحكم الديكتاتوري ، لذلك يخشى الإمبراطور ورجالها أن يؤدي هذا الاتحاد إلى أن تطالب الأقاليم الحبشية الأخرى بتطبيق نفس الأنظمة عليها . وفي هذا انتقاص كبير من سلطة الإمبراطور الحالية .

ولكن المشاهد أن الحكومة الحبشية تنوى القضاء على الاتحاد وتعمل على تحويله في أناة وصبر ، إلى ضم نهائي لا شروط فيه ، وتصبغ الأريتريا بعد ذلك إقليمًا مثل باقي الأقاليم ، ضاربة عرض الحائط بقرارات هيئة الأمم المتحدة ، ولا بأس من أن نهد لهذا باتهاج سياسة خاصة في حكم الأريتريا تؤدي إلى ما تهدف إليه من نتائج ، وإن يقتضى منها ذلك جهداً

وقد أصبحت الأريترية تحت سيطرتهم الفعلية . ويفحص مواد الدستور الأريترية الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، تبدو للوهلة الأولى نقط الضعف ، ونظهر بجلاء المنافذ التى يتمكن من خلالها الأباطور من القضاء على كيان الأريترية تماماً — وفرض سلطانه عليها بالصورة التى تترامى له .

ولقد ظهرت بوادر ذلك عندما أصدر الأباطور الدستور الأثيوبى الجديد (١٩٥٥) حيث لم يشر فيه إلى الاتحاد الفيدرالى ، الذى يمثل الوضع القانونى المقرر فى هيئة الأمم المتحدة ، ولكنه يعبر عن الأريترية « بالإقليم » ويتكلم عن الدولة التى لا تقبل التجزئة Sovereignty & territory are indivisible وبذلك يصبح الوضع فى نظر حكومة الحبشة ودستورها « دولة موحدة ، وليست فيدرالية .

* * *

ومن المعروف أن مسلمى أريترية كانوا من المعارضين للاتحاد مع أثيوبيا ولقد تحققت مخاوفهم حيث بدأت التفرقة فى شغل المناصب وتمييز الرعايا المسيحيين ، وكانه الأريترية يتوقعون أن يبدى الأباطور مظهراً من حسن النية بأن يعين نائب الأباطور بين أبناء الأريترية بدلاً من تعيين صبر .

وليس من المعقول أن ترضى حكومة الحبشة ذات السيطرة العليا — على ما تنفرد به الأريترية من حريات ، ولذلك اتخذت الإجراءات الشديدة ضد الأحزاب الأريترية ، حيث أن الأحزاب ممنوعة فى الحبشة ، ثم أنها قررت تطبيق قوانين الانتخابات الحبشية وحاربت النقابات العمالية والجمعيات ، وضيق الخناق على الصحافة وقيدت الكثير من الحريات التى كفلها الدستور .

* * *

وباتخاذ الإجراءات العنيفة التي ذكرناها شاهد عناية حكومة الأمبراطور بالقضاء على وسائل التعبير عن الرأي ووسائل الاجتماع ، حتى لا يكون هناك مجال لظهور أي تدمر في البلاد ، وبذلك تمضى الحكومة في تنفيذ برامجها ، ضاربة ستاراً كثيفاً حول أهل البلاد ولقد بدأت طوائف عديدة في أريتريا تعاني الكثير من وسائل الظلم والعدوان وخصوصاً طوائف المسلمين .

والموقف الآن ، هو كيف يمكن إثارة الموضوع أمام الأمم المتحدة ، لمطالبة الحبشة بتطبيق القرارات السابقة على أساسها تقرر قيام الاتحاد الفيدرالي ، وإعادة الحريات إلى الأريتريا بمختلف طوائفها وخصوصاً المسلمين منهم ، وتطبيق الدستور الموضوع للأريتريا نصاً وروحاً ، واتخاذ الوسائل التي تكفل استمرار تطبيق تلك القرارات وحماية شعب الأريتريا من طغيان الحكم الحبشي بأى صورة من الصور ، وعلى الأخص حماية المسلمين الذين وإن كانوا أكثرية في البلاد فإنهم كانوا الضحايا لهذا الاتحاد الفيدرالي ، وأسدل عليهم ستار النسيان وحرموا من وسائل التعبير عن شكواهم ، وأصبحوا بعد سيطرة الحكومة الحبشية الكاملة عليهم بدون نصير .

* * *

قبل ختام كلامنا عن الموقف في الأريتريا بعد الاتحاد ، نود أن نوضح ملاحظة هامة خافية على الكثيرين ، عن وقت الصراع على تقرير المصير . ولكنها ظهرت في قوة بعد الاتحاد .

ذكرنا أنه في أواخر عهد دراسة تقرير المصير ، بدأت في البلاد حركة غربية تعتمد على العنف والإرهاب والتهديد لإحداث الشقاق ، لعبت فيها الإدارة البريطانية والأموال الأثيوبية دوراً هاماً .

وذكرنا أيضاً أن مندوبي باكستان وجواتيمالا في لجنة تقصى الحقائق

كتبنا في تقريرهما ، أن الإرهاب وسوء استخدام الكنيسة لسلطانها حال دون التعبير الحر عن الرأي وفي رأيهما أن الأغلبية تريد الاستقلال .

ولئن تلجأ بريطانيا إلى مثل هذه الأعمال فهذا أمر أقتنته وليس بغريب عليها وليس هنا محل محاسبتها عليها - ولئن تلجأ الحبشة إلى استعمال أموالها لشراء الأعوان لتأييد الاتحاد فهذا أمر ليس بغريب أيضاً وهي تسعى لتحقيق أهدافها ، أما موقف الكنيسة التي أساءت استخدام سلطانها فهو ما يجب علينا مناقشته هنا .

علينا عما سبق أن المسيحية تتركز في الأرتريا في المرتفعات الجبلية التي هي امتداد طبيعي لهضبة الحبشة حيث تتركز المسيحية أيضاً ، ويسكن الهضبة الأرتيرية مسيحيو قبيلة التيجري الذين هم امتداد لنفس القبيلة التي تعيش غالبيتها بالحبشة . وتشرف كنيسة الحبشة على هؤلاء وهؤلاء . ومن المفروض أن يستجيب المسيحيون في الأرتريا لنداء الكنيسة الحبشية . ولكن من المعلوم أيضاً أنه بقدر ما يحمل المسيحيون للسلمين من عدا ، فإن قبائل التيجري في عدا مستحكداتهم مع قبائل الأمرة التي تحكم الحبشة . وكان نصب عين الكنيسة وقتئذ - وتنفيذاً لرغبة الأمبراطور - أن تعمل على استعمال نفوذها لتوحيد كلمة المسيحيين على تأييد الاتحاد ، وأن تبذل مافي وسعها للتغلب على ما يساور نفوس المسيحيين الأرتيريين من قلق نتيجة للخلافات القبلية المتمكنة في النفوس .

وبالرغم مما بذلته الكنيسة من مجهودات رغم معرفتها النامة بحقيقة الأمور ، فإن كثيراً من المسيحيين كانوا أبعد نظراً وعلبوا ماسوف يصيبهم لو أنهم اتبعوا التوجيهات المضللة التي تبثها كنيستهم تحت ضغط من كنيسة الحبشة . لذلك انحاز فريق كبير منهم إلى المسلمين في تأييد الاستقلال . ولقد تعرض هؤلاء للكثير إلى ألوان التهديد والاعتداء بأساليب لا زالت تتناقلها الألسن إلى الآن ، وبذكرون دائماً قصة بطل من أبطال الاستقلال وهو مسيحي يدعى (ولديب ولد مريام Woldeab Woldmariam)

ورويون عنه أنه لا يد وقد ضرب الرقم القياسي في النجاة من محاولات الاغتيال السياسي ، فلقد أطلقت عليه النيران ، وألقيت عليه القنابل ودس السم له في الطعام وتعرض للاعتداء والقتل سبع مرات (١) .

ولقد تحقق ظن ذلك الفريق من المسيحيين ، وثبت بعد نظرهم ، فانهم بعد الاتحاد تعرضوا لما كانوا يخشون منه ، بسيطرة الحسكام الذي جاءوا من الحبشة ، من قبائل الأمهرة التي تبادلهم الكراهية والبغضاء ، وبالإضافة إلى ذلك لمسوا كيف أصبحت بلادهم تابعة لاحول لها ولاقوة ، وكيف ازدادوا فقراً على فقر ، إضافة إلى ما فقدوه من حريات .
لذلك تجد جانباً كبيراً من المسيحيين تن من وطأة الحكم الحبشي شأنه في ذلك شأن نبي وطنهم من المسلمين .

* * *

كفاح شعب الأريتريا - للاستقلال :

سرعان ما شعر شعب الأريتريا بالكارثة التي حلت بهم بعد أن أصبحوا خجبة ذلك الاتحاد وفريسة للحكم الحبشي ، فتجمعت جميع طوائف الشعب تطالب أولاً بالحريات وعندما عز عليهم ذلك أيقنوا بأنهم في الحقيقة يتوقون إلى ما هو أهم وهو الاستقلال ، وقام من بين الشعب نفر من المجاهدين يرفعون لواء الاستقلال ، وما بلغت النظر ويدعو إلى كثير من الغظة أن نجد هؤلاء المجاهدين خليطاً من أتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية يعملون جنباً إلى جنب في الجهاد لنيل حقوق بلادهم وتحقيق أمنيتهم .

من الطبيعي أن يكون جزاء هؤلاء المجاهدين السجن والنفي والتشريد ، وتمكن كثير منهم إلى الهرب خارج البلاد وكونوا الجمعيات ونظموا الصفوف للظالبة باستقلال بلادهم وأصبح لهم نشاط ملحوظ فطبعوا العديد من

(١) Inside Africa by John Gunther ٢٧٤ ص

وبيش هذا البطل في الوقت الحاضر بالقاهرة

النشرات والمذكرات ، وقاموا بتوزيعها في هيئة الأمم المتحدة وغيرها من المجمعات الدولية والاقليمية ، وانتهزوا كل فرصة تسمح لهم لمقابلة رجال السياسة البارزين في مختلف الدول لشرح وجهة نظرهم وفضح أساليب الحكومة الحبشية التعسفية .

جاء في إحدى هذه النشرات مايلي ، « لا يمكن الاستمرار في النظر إلى الخلافات بين اثيوبيا والأريتريا على أنها من الأمور الداخلية بعد أن أقدم الامبراطور على القضاء على الأسس التي تقررت للاتحاد بواسطة هيئة الأمم المتحدة ، ولقد تأيد ذلك في التقرير الختامي لمندوب هيئة الأمم - صفحة ٢٠١ من الفصل الثاني - ذلك التقرير الذي أقرته هيئة الأمم ، ولقد قرر الخبراء فيه بأنه بالرغم من الفكرة السائدة بأن مستقبل الأريتريا قد تحدد بعد صدور الدستور ، فإن ذلك لا يعني أن مهمة الأمم المتحدة قد انتهت ولم يعد لها مبرر للاهتمام بهذه القضية ، بل أن قرار هيئة الأمم الخاص بالأريتريا يجب أن يبقى نصب عين هيئة الأمم كوضع دولي هام بحيث يتعين على الهيئة أن تتدخل إذا حدث أي نقض لقراراتها السابقة » .

« كما نص دستور الأريتريا الذي وضعته هيئة الأمم (المادة ٩١) أن مجلس الاتحاد ليس من حقه إجراء أي تعديل في الدستور أو إدخال أية إضافة عليه تتنافى مع القانون الذي وضع للاتحاد » .

« والأمر الواقع أن قرارات هيئة الأمم المتحدة ودستور الأريتريالم يجر عليها تعديل أو إضافة تخسب بل ألغيت نهائياً من طرف واحد حين قضى عليها الامبراطور قضاء لارجعة فيه .

* * *

وجاء في إحدى هذه النشرات ، أنه عندما أعلنت حكومة اثيوبيا في أكاذيبها ونشر البيانات الخاطئة عن مدى معونتها لشعب الأريتريا ، وقف السيد / عمر أكيثو أحد النواب البارزين في برلمان أريتريا عام ١٩٥٦ والتي خطابا ضافيا مفتدا المزاعم الاثيوبية ، جاء فيه « أن اثيوبيا طالمنا عنفت

الأريتريا لقصورها الاقتصادي وادعت أن اقتصادياتها إنما كانت تعتمد على معونتها المالية لها - وفيما يختص بهذا الاتهام الخاطيء الظالم أود أن أبين هذه الحقيقة وهي أن جملة المبالغ التي دفعتها أثيوبيا لحكومة الأريتريا كصديها في الضرائب الجركية عن الأربع سنوات الماضية كانت خمسة ملايين ونصف مليون ريال أثيوبي فقط ، ومعنى ذلك أنه يقل عن النصيب الفعلي لأريتريا بمبلغ مائة مليون ريال أثيوبي - ولا يشمل هذا بالطبع باقي موارد أريتريا المالية التي اغتصبتها حكومة أثيوبيا بدون وجه حق .

ولقد لاقى السيد / عمر أكيتو من جراء موقفه هذا مالا حصر له من المتاعب والاضطهاد في حياته الخاصة والعامة .

* * *

ذكرت إحدى النشرات بعض العبارات الطريفة التي جاءت على لسان أحد أفراد الشعب الأريتري « كان الإيطاليون يقولون لنا كلوا ولا تتكلموا ، وجاء الإنجليز فقالوا لنا تكلّموا ولا تأكلوا وأخيراً جاء هيلاسلامي ليقول لنا لا تأكلوا ولا تتكلموا .

ولم تنفل تلك النشرات حقيقة هامة تؤيد ماسبق أن أوضحناه في هذا الكتاب وهو تأييد الدول الكبرى الغربية لهيلاسلامي وأثيوبيا وإغداق المساعدات وجميع أنواع الحماية له والحكومتها وتأييد الوضع الراهن والتسكين لبقائه ، بحيث تظل أثيوبيا على الدوام معقلا حصينا لهم ونقطة انطلاق في أفريقيا يسول السيطرة منها على باقي الدول الأفريقية .

فبالإضافة إلى انتشار الغريين في أغلب نواحي النشاط في أثيوبيا وتكفلهم بتأجير أهم المشروعات فيها فإن الحكومة الاثيوبية قد منحت أمريكا مطارات أسرا لتجعل منها قاعدة ذرية وقاعدة لإطلاق الصواريخ الموجهة ، وتشكل هذه المطارات مع محطة راديو مارينا بامرته حلقة هامة في سلسلة القواعد العسكرية التي تطوق أمريكا بها مختلف دول العالم شرقا وغربا ، وازداد

أخيرا حجم القاعدة العسكرية الامريكية في اسمرأ وازدادت معداتها الضخمة بما يجعلها عند اللزوم بالغة الأثر في السيطرة على افريقيا وجنوب الجزيرة العربية ، ثم ما بعد ذلك من دول . ولقد تردد كثيرا أن الامبراطور وعد أمريكا بأن تكون ميناء مصوع قاعدة بحرية لهم عند اللزوم .

وما يزيد الطين بله أن أمريكا قد أطلقت يد إسرائيل في الاريتريا إلى المدى الذي انشأت به بعض القواعد العسكرية جنوب أسمرة - وأصبحت على وشك الاستيلاء التام على اقتصاديات الاريتريا .

* * *

ولا يمكن أن نسترسل أكثر من ذلك في الكلام عن موضوع الاريتريا وتفصيل ادواره فهذا أمر يطول شرحه ويحتاج إلى كتاب قائم بذاته . ولكننا نكتفي بما أوردناه ونختتمه بتلك الفقرة التي جاءت في المذكرة التي بعث بها شعب الاريتريا إلى الأمم المتحدة في نوفمبر عام ١٩٥٧ وطار بها السيد محمد عمر القاضى إلى نيويورك حيث جاء فيها : لقد قاسى الشعب الاريتري في الخمس سنوات الاخيرة على يد الحكومة الاثيوبية أكثر مما قاساه في السبعين سنة من الحكم الاستعماري .

* * *

إضافة أخيره : نشاء الظروف أثناء تصحيح المسودات المطبوعة لهذا الكتاب - وتلك التي تتعلق بالاريتريا بالذات - أن تنقل إلينا الصحف والإذاعات أنباء الإضطهاد والتنكيل الذي تصبه حكومة الحبشة على أهالي الاريتريا في عنف وقسوة - الأمر الذي أدى بالكثيرين إلى الفرار ولجوءهم إلى السودان حتى بلغ عدد من هربوا من الإرتيريا ما يزيد عن العشرين ألف

الفصل الحادى والعشرون

(السكان)

تسود الحبشة ظروف عاتية من التخلف والبداءة والانقسامات العنصرية والدينية والقبلية على نحو قد لا نجد له مثيلا فى باقى دول العالم . وترتب على ذلك أن يبقى تعداد السكان إلى الآن مجهولا ، وبالتالى نسبة العناصر والأجناس والقبائل والأديان إلى مجموع السكان ، وليس من اليسور فى مثل تلك الظروف التى تعم هذه البلاد أن تجرى عملية تعداد يعتمد عليها . لذلك جاءت جميع التقديرات لعدد سكان الحبشة منذ بداية القرن العشرين إلى وقتنا هذا متضاربة ، تفاوتت فيما بينها تفاوتنا كبيرا .

وبين أيدينا الآن مجموعة من هذه التقديرات المختلفة ، سنحاول هنا أن نوقف فيما بينها ونلائم بين أقربها إلى المنطق وبين مشاهداتنا خلال المناطق المختلفة التى زرناها أو أفقنا بها . ولكن يكون عند الفارىء صورة واضحة عن مختلف التقديرات سنورد لها بياناً كاملاً مفصلاً فى أحد الملاحق فى نهاية الكتاب ، على أن نبين فى سياق حديثنا التالى ملخصاً لتلك التقديرات فى جدول مستقل .

* * *

تقدير السكان :

وقبل أن نستطرد فى البحث نشير هنا إلى بعض الأسس الهامة التى تعتبر من أهم عناصر التقدير .

وأول تلك العناصر هى مساحة الحبشة ، فإن مساحتها أيضاً لازالت محللاً للتناقض بين مختلف المراجع ، ونلخصها فيما يلى :

(١) تقدير World Atlas, Hammond & Co. (1953)

الحبشة	٣٥٠ ٠٠٠	ميل مربع
الأريتريا	١٦ ٠٠٠	ميل مربع
المجموع	<u>٣٦٦ ٠٠٠</u>	ميل مربع

(٢) تقدير أولندورف The Ethiopians by Ullendorff p. 23

مساحة الحبشة بما فيها الأريتريا ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع .

(٣) تقدير لوثر Ethiopia Today by Luther p. 1

مساحة الحبشة بما فيها الأريتريا ٤٥٠.٠٠٠ ميل مربع .

(٤) تقدير جون جنتر Inside Africa by John Gunther

مساحة الحبشة	٤٠٩٣٦٦	ميل مربع
مساحة الأريتريا	<u>٤٧٨٧٥</u>	ميل مربع
المجموع	<u>٤٥٧١٤١</u>	ميل مربع

(٥) تقدير الجمعية الجغرافية National Geographic "April 65, p. 555

مساحة الحبشة تقريبا ٤٦٠.٠٠٠ ميل مربع بما فيها الأريتريا
ويجرى العمل حاليا في عمل مساحة دقيقة للبلاد .

(٦) تقدير دائرة المعارف البريطانية (١٩٦٤) :

مساحة الحبشة	٤٥٧١٤٢	ميل مربع
مساحة الأريتريا	<u>٤٧٨٧٥</u>	ميل مربع
المجموع	<u>٥٠٥٠١٨</u>	ميل مربع

ويبدو من كل ما تقدم من تقديرات أن أقربها إلى الحقيقة هو ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع للحبشة .

أما بالنسبة للأريتريا فإن التقدير ٤٧٨٧٥ ميل مربع كان بناء على قياسات دقيقة تمت أثناء الحكم الإيطالي والإدارة البريطانية .

لذلك يمكن تقدير المساحة للحبشة كلها بما فيها الأريتريا بين ٤٥٠.٠٠٠ ميل مربع ، ٥٠٠.٠٠٠ ميل مربع .

* * *

ولقد قامت هيئة التغذية والزراعة بتقدير لأنواع الأراضي في الحبشة - (صفحات ٨ ، ٧٢ Ethiopis Today by Luther) : فلو أننا أخذناها رائداً في تقديراتنا ، وأضفنا أمامها تقديرات كثافة السكان لسكن نوع من أنواع هذه الأراضي متخذين مساحة الحبشة حوالى ٥٠٠.٠٠٠ ميل مربع أى ١٣٥٠.٠٠٠ كيلو متر مربع - لأصبح تعداد السكان على هذا الأساس كالآتي :

تقديرات هيئة التغذية والزراعة	المساحة كيلو متر مربع	كثافة السكان كيلو متر مربع	مجموع السكان
٣٠٪ مراعى جيدة	٣٧٥.٠٠٠	١٥	٥.٠٦٢.٥٠٠
١٩٪ أراضى زراعية جيدة	١١٢.٠٠٠	٣٠	٣.٣٧٥.٠٠٠
٢٢٪ أحراش و غابات	٢٧٥.٠٠٠	٥	١.٣٧٥.٠٠٠
٣٩٪ أراضى غير منتجة	٤٨٧.٠٠٠	٥	٢.٤٣٧.٠٠٠
المجموع الكلى للسكان			١٢.٨١٢.٠٠٠

وفي رأينا أن تقدير هيئة التغذية والزراعة يفترق إلى الدقة في تصنيف المناطق وتقدير نسبتها (وقد يعود الخلاف في التقدير راجعاً إلى صعوبة التفرقة بين الأراضي الزراعية وبين المراعى وبين الأحرش وتحديد الحد الفاصل بين كل من هذه الأنواع المختلفة) ونميل إلى الإعتقاد بأن التقدير التالي أقرب إلى الواقع

التقديرات	المساحة كيلومتر مربع	كثافة السكان في كيلومتر مربع	بمجموع السكان
٣٠٪ / مراعى جيدة	٣٧٥٠٠٠	١٥	٥٠٠٠-٥٠٠٠٠
١٥٪ / أراضي زراعية جيدة	١٨٧٥٠٠	٣٠	٥٠٠٠٠-٥٠٠٠٠
٢٠٪ / أحرش و غابات	٢٥٠٠٠٠	٥	١٠٠٠٠-١٢٥٠٠٠
٣٥٪ / أراضي غير منتجة	٤٣٧٥٠٠	٥	٢٠٠٠٠-١٨٧٠٠٠
بمجموع السكان			١٤٠٥٦٢٠٠٠

* * *

وقبل أن تقدم الجدول الذى يحتوى على ملخص لجميع التقديرات التى عملت لمجموع سكان الحبشة ، نود أن نشير إلى العوامل الأخرى التى تتحكم في معدل زيادة السكان .

وأهم تلك العوامل هى نسبة المواليد ونسبة الوفيات سواء بين الأطفال أو بين الكبار ، وكذلك متوسط عمر الفرد . ولجميع هذه النسب علاقة وثيقة بالحالة الإجتماعية والرابطة بين أفراد الأسرة ، والمستوى الثقافى ، ومتوسط دخل الفرد (والدخل القومى) ، وأخيراً وليس آخراً مدى تقدم الوسائل الصحية الوقائية والعلاجية .

ولقد أصبح لمجموع هذه العوامل قواعد مبنية على دراسات واسعة

جميع مناطق العالم تتحدد بناء عليها نسبة الزيادة السنوية تبعاً لما يتجمع لكل منطقة من مختلف العوامل . ولعل أوفى وأحدث المراجع التي تفصل مختلف النماذج في العالم هو كتاب (التخلف والنمو الإقتصادي تأليف هارف. ليبينشتين) (١) .

وأقرب النماذج انطباقاً على حالة الجبشة هو النموذج « b 1 » ، صفحة ٢٣١ المبني على « متوسط ثابت لعمر الفرد ، ونسبة ثابتة لنسبة الوفيات ، ومعدل مرتفع لنسبة المواليد . واستمرار الوضع الراهن فترة طويلة من الزمن لعدم توفر وسائل التحسين في الخدمات الصحية أو الإقتصادية بشكل محسوس ، وهذا المعدل هو ١.٦٩٪ في السنة أي ١.٧٪ تقريباً (٢) .

وحتى تسهل عملية الحساب على القارئ نبين فيما يلي ما سوف يكون عليه تعداد السكان على أساس معدل الزيادة السنوية السابق الذكر ، كل خمسة سنوات ، لشعب تعدادة الأصلي مليون نسمة :

بعد ٥ سنوات ١.١٠٥٨١٩	بعد ٣٠ سنة ١.٦٨٨
بعد ١٠ سنوات ١.٢١٩٨٨٥	بعد ٣٥ سنة ١.٨٣١٥٤٥
بعد ١٥ سنوات ١.٢٢٣١٩٧	بعد ٤٠ سنة ١.٩٨٦٣٤٤
بعد ٢٠ سنة ١.٤٢٧٥٢٩	بعد ٤٥ سنة ٢.١٥٢٠٤٢
بعد ٢٥ سنة ١.٥٧٥٤٠٧	بعد ٥٠ سنة ٢.٣٢٨٥٧١

وفيما يلي جدول يبين تقديرات سكان الجبشة في مختلف المراجع ، مع بيان ما سوف يكون عليه تقدير كل مرجع في عام ١٩٦٥ ، بتطبيق المعدل السنوي للزيادة (١.٧٪) .

(١) Economic Backwardness & Economic Growth ص ٢٣١
by Harvey Leibenstein

(٢) حسب بيانات الأمم المتحدة معدل الزيادة السنوية للجبشة ١.٧٪ .
Demographic Year Book U. N. (1962)

التقدير عام ١٩٦٥ بمعدل زيادة سوية ١.٧%	التقدير	عام	حسور التقدير
٢٧٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٠٣	(١) موربي (بدج ص ١٢٩)
٧٦٠٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٢٨	(٢) بدج (ص ١٢٩)
١١٠١٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٣٠	(٣) تقدير حبشي (كيرك ص ٣٧٧)
١١٠١٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٣٠	(٤) تقدير ايطالي (كيرك ص ٣٧٧)
١١٠٨٣٣٠٠٠٠٠٠	٧٦٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٣٩	(٥) ايطالي (دليل افرقيا الايطالية ص ٨٢)
١٣٠٢٣٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٤٩	(٦) تقدير وزارة التجارة الحبشية .
١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٧٧٣٧٠٠٠٠٠٠٠	١٩٥٢	(٧) تقدير بريطاني (ترمنجهم ص ١٥)
١٩٠٠٦٢٠٠٠٠٠٠٠	١٦٠٨٥٠٠٠٠٠٠٠	١٩٥٤	(٨) تقدير بريطاني (أولندورف ص ٣١)
١٥٠٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣٠١٠٣٠٠٠٠٠٠٠	١٩٥٥	(٩) تقدير أمريكي (جون جنتر ص ٩١٠)
١٤٠٤٦٢٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢٠٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٥٨	(١٠) تقدير بريطاني (لوثر ص ٢٥)
٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩٦٥	(١١) تقدير الحكومة الحبشية الجمعية الجغرافية مجلة ٤ / ١٩٦٥)

ملحوظة :

تقديرات الحكومة الايطالية والادارة البريطانية بالنسبة للاريتريا على جانب كبير من الدقة وتشير إلى أن تعدادها (١٩٥٢) هو ١٠٠٣١٠٠٠٠٠٠٠ أي حوالي ١٠٣٠٠٠٠٠٠ في ١٩٦٥ .

ولو أننا أخذنا متوسطاً لما سبق أن قدرناه على أساس كثافة السكان في مختلف المناطق وكذلك للتقديرات التي عملت (منذ عام ١٩٣١) إلى الآن من الجدول السابق يبلغ تعداد الحبشة بناء على ذلك حوالى ١٥٠٠٠٠٠٠ ر ١٥٠٠٠٠٠٠ ، بما في ذلك الأريتريا .

ولا يجوز أن يغيب عن الذهن أننا مهما اتخذنا من الدقة والحيطه في افتراضاتنا فإن التقديرات المترتبة على ذلك لا يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كلياً ، والعبرة بالتعداد الحقيقي الذي يجب أن تقوم به الدولة وفق القواعد المعهودة ، وما عتدنا بالبحث في تقدير السكان بالطرق السالفة الذكر ، إلا لأن التعداد الحقيقي غير ميسور إلى الآن .

وأخيراً أشارت بعض الجهات بأن يجرى التعداد على أساس تصوير الحبشة من الجو وإحصاء المنازل من واقع الصور الجوية ، على أن يصحب ذلك دراسة موضعية لعدد كبير من النماذج لمعرفة متوسط السكان لكل كوخ ومنزل في كل منطقة ، ويرى أصحاب الاقتراح إلى الحصول على نتائج مبنية على دراسات ملبوسة وأن كانت تستند أيضاً إلى كثير من الافتراضات .

وبالرغم مما أوردناه من دراسة فانه لا يمكن الجزم بحقيقة الأرقام ، إلا أننا يمكن أن نطمئن إلى أن نقدر سكان الحبشة في حدود ضيقة تتراوح بين ١٤ مليون ، ١٥ مليون نفس بما في ذلك الأريتريا .

* * *

نسبه المسلمين :

لكي نصل إلى تقدير عادل لنسبة عدد المسلمين في الحبشة الحالية ، لابد أن نجمع شتات الموضوعات ، ونركز ما أمر بنا من معلومات خلال هذا الكتاب ونناقش ما جاء في مختلف المراجع وعلى الأخص الحديثة منها ، إذ أنه لم يعد من المستساغ أن يترك هذا الموضوع الهام نهياً للافتراضات

البعيدة عن الحقيقة والواقع ، تبعن وسائل الأعلام في ترديد المعلومات الخاطئة عنه لكي تستمر سيطرة على الأذهان كاتمامي حقيقة مسلم بها لا محل لناقشتها أو إبقائها حقها من التحرى والتحقيق .

فند أن خرجت الحبشة من عزلتها ، ودخلت مضمار النشاط العالمى ، كعضو فى هيئة الأمم المتحدة ، وبعد أن أظهر الاحتلال الإيطالى لها كثيراً من الحقائق التى كانت مغالطة مجبولة من الكتاب والباحثين ، بعد كل ذلك لم يعد فى إمكان الحبشة أن تستمر فى أحكام الستار السكتيف التى تسد له على الإسلام والمسلمين فى بلادها ، ولا بد وأن تتسرب أنبأؤهم إلى الخارج رويداً رويداً ، ومهما أمعنت الدول الأوربية الكبرى فى تركيز وسائل دعائيتها لخنعة الحبشة المسيحية فإنها وإن كانت قد نجحت فى ذلك إلى حد كبير فى الماضى ، إلا أنه لم يعد فى إمكانها أن تتهدى فى ذلك ، وأصبح لزاماً محتماً أن يقوم بعض الكتاب الغربيين ، فى استحياء لا يخلو من شجاعة مشكورة ، إلى تقرير بعض الحقائق .

* * *

كتب جون (جنتر *Inside Africa by John Gunther*) فى ص ٢٤٩ عام ١٩٥٥ - « أن الفكرة السائدة بأن الحبشة دولة مسيحية ، فى حاجة إلى تعديل وتصحيح إذ أن نصف بجموع السكان يعتقدون الإسلام أو الوثنية ، ثم يعود فى ص ١٥٠ ويقرر بأن المسلمين فى أنيوبيا قوة كبيرة ، فقاطعة هرر التى نشأ فيها الامبراطور مقاطعة إسلامية وقبائل الجلالا العظيمة التى تملأ جنوب الحبشة وغربها نصفها من المسلمين - بينما تنتشر فى جميع أنحاء الحبشة جنوب المجمعات الزراعية التى يملكها المسلمون . . . » .

وفى الكتاب الهام الذى أنه سبنسر ترمنجهام عن الإسلام فى أنيوبيا والذى جاء ذكره فى كثير من مواضع هذا الكتاب ، أورد جدولاً فى صفحة ١٥ يبين فيه (بدون الصومال أن) :

<u>المجموع</u>	<u>الوثنيين</u>	<u>المسلمين</u>	<u>المسيحيين</u>
٧٧٢٧٧٨٣٣	١٧٢٨١٦٣	٢١٠٤٣٠٠٠	٣٨٤٦٣٠٠٠
	(٠.٢٠)	(٠.٣٠)	(٠.٥٠)

بيتا إذا تأملنا يامعان الجدول الكبير^{١١} الذي أوردته في صفحة ١٦ مع أبحاثه التفصيلية التي ملأت صفحات كتابه القيم تنضح الحقيقة وهي أن النسبة الحقيقية على العكس من ذلك تماما، وأن المسلمين هم الأغلبية، مما سوف نبينه فيما يلي ونحن نجمع أطراف الموضوع .

. . .

ولقد أعفانا مستر أرنست لوثر *Ethiopia Today* by Ernest Luthr (سنة ١٩٥٨) في ص ٢٥ من كثير من العناء عندما قال «أن الأحباش الحقيقيين هم نسل ملكة أكسوم القديمة وهم لا يشكلون أكثر من ثلث السكان، إذ أن قبائل الجالا قد فاقتم عدداً، وأما نسبة المسيحيين فأنها أكثر من الثلث قليلاً لأن بعض الجالا والوثنيين قد اعتنقوا المسيحية، ولكن الأرقام الحقيقية بالرغم من ذلك غير مبسورة، وهذا تقدير على جانب كبير من الأهمية ويتفق مع ماسوف نبينه من المراجع الأخرى .

ثم يعود مستر لوثر ويقول في صفحة ٢٥ «ولو أن المسلمين في الحبشة يبلغون ثلث السكان، فإن نفوذهم في شئون الحبشة المعاصرة يطغى عليه تماماً نفوذ قبائل الأمهرة المسيحية التي تسيطر على البلاد» . ثم يعود فيقرر «لقد كان من الممكن أن تصبح الحبشة كلها مسلمة لولا تدخل البرتغاليين في ١٥٤١ م، وكذلك في عهد الامبراطور ليج ياسو لولا تكتل أمراء شوامع القوات الأوروبية لمنع وقوع ذلك» .

. . .

(١) بالملاحق المرفقة بهذا الكتاب ترجمة كاملة لهذا الجدول .

أما « أولندورف The Ethiopians » ، فلم يشأ أن يتعرض لموضوع المسلمين وأكتفى بأن أحال القارىء إلى كتاب سبنسر ترمنجهام ، ولكنه فى ص ٤٢ قرر حقيقة هامة وهى أن « الإسلام هو دين الغالبية الكبرى لقبائل الجبال بالرغم من أن كثيراً منهم الذين يسكنون الهضبة قد اعتنقوا المسيحية - والمحتمل أن تستمر أفراد الجبال فى اعتناقهم لدين الدولة الرسمى . . . ولا تزال بينهم بعض الجيوب الوثنية ، والذى يريد أن تلفت النظر إليه هنا هو اقراره بأن غالبية الجبال من المسلمين ، وماتى منهم موزع بين المسيحية والوثنية - وهذا تصحيح لما جاء فى بعض المراجع وتأييد لما جاء فى البعض الآخر ، كما سيأتى ذكره .

وقبائل الجبال هذه - التى تعتنق غالبيتها الكبرى الدين الإسلامى ، بلغ تعدادها ثلث سكان الحبشة فى القرن السادس عشر (راجع الفصل العاشر من هذا الكتاب وكذلك ص ٩٣ ، ٩٤ من كتاب ترمنجهام) وما أن جاء القرن الثامن عشر حتى كانت تلك القبائل تعتنق أغلبها الإسلام ووصلت فى تعدادها إلى نصف سكان الحبشة (راجع ص ١٠٧ من كتاب ترمنجهام - والفصل الحادى عشر من هذا الكتاب) .

* * *

كذلك القبائل الصومالية والدناكل الذين يملأون الجانب الشرقى من الحبشة فى مناطق الوجودين وهرر والدناكل والعروسى . فجميعها من المسلمين كما جاء تفصيله فى جميع المراحل التاريخية التى مرت بنا فى هذا الكتاب .

أما قبائل البيجا التى زحفت منذ القرون الاولى من وادى النيل وملأت الارثريا وشمال الحبشة . فقد سبق أن شرحنا كيف اعتنقت الاسلام تدريجياً حتى أصبحت فى القرون الاخيرة جميعها من المسلمين .

* * *

ولقد مر بنا أيضا كيف أن المسلمين في القرن التاسع قد استولوا على مقاطعة شوا ونشروا الاسلام بها وبعد أن إنسجروا منها في القرن الثالث عشر ظل الاسلام منتشرا بين سكان الجانب الشرقي منها الى الآن ، وعلى الاخص في مدينة أديس أبابا الحالية حيث يشكل المسلمون ثلث سكان العاصمة ومقاطعة شوا من أهم معاقل المسيحية في الحبشة .

وكذلك في وسط الحبشة حيث تتركز قبائل الامهرة والتي جرى مر بنا كيف تغلغل الاسلام فيها ونفذت إليها قبائل الواللوجالا ، وامتد سلطانهم إلى أن هددوا العرش وأصبحوا قوة لا يستهان بها في العاصمة جوندرا . ومعنى ذلك أيضا انتشار المسلمين في قلب الهضبة أهم معاقل المسيحية في الحبشة .

* * *

وقلنا في الفصل الحادى عشر أن (مانويل دالميدا) الذى عاش في الحبشة من (١٦٢١ - ١٦٣٣) كتب يقول أن في فترة وجوده بالحبشة كان المسلمون منتشرين منشورين في جميع أنحاء الامبراطورية وكانوا يشكلون ثلث السكان (ص ١٠١ ترجمتهام) ومن المعلوم أن الوثنيين كانوا لا يزالون إلى ذلك العهد يشكلون ما يقرب من نصف السكان - ولم تكن الجالا قد أتمت اسلامها بعد . ومع ذلك فقد كان المسلمون منذ ذلك العهد يشكلون ثلث السكان ، أى أنهم منذ ذلك التاريخ أصبح عددهم يتجاوز عدد السكان المسيحيين وازدادوا بعد ذلك كثرة وتأييدا باعتناق غالبية قبائل الجالا للاسلام وقبائل الجالا وحدها نصف سكان الحبشة كما قدمنا .

وقد أيدت كتابات الكاردينال ماساجا Massaja جميع هذه المعلومات كما جاء ذكره في مواضع متعددة من الكتاب .

* * *

ولدينا أيضا على لسان جميع الكتاب الغربيين أن المسيحية كانت تتركز في مقاطعات الهضبة الشهيرة ، وهى أمهرة - تيجرى - جوجام - وشوا .

وبين يدينا تقرير هام جاء على لسان حكومة الحبشة عندما بدأت بتنادى باستقلال كنيسة الحبشة عن الكنيسة المصرية ، ومن أهم الاسباب التي أوردتها واعتمدت عليها (عام ١٩٣٠) أن أقباط مصر أقلية بها ولا يتجاوز عددهم عن ١٠١ مليون ، بينما يبلغ مسيحو الحبشة ٢٠٦ مليون من مجموع سكان الحبشة الذي يبلغ ٦ مليون (ص ٢٧٧ Kirk George Middle East in War by) أي أن الحكومة الحبشية - وهي بلاشك تنزع إلى المبالغة حتى تؤيد لفضيتها وتعزز من موقفها في المطالبة باستقلال كنيستها - قدرت المسيحيين بالحبشة بنسبة ٤٠٪ من مجموع السكان .

* * *

وبناء على هذه المعلومات يمكننا أن نعيد كتابة الجدول الشهير الذي جاء في صفحة ١٦ من كتاب ترمنجهام بعد تصحيحه وإيجازه للقارىء - وإضافة عدد السكان التقريبي إليه ، على ضوء ماسبق من معلومات .

الوثنيين	المسيحيين	المسلمين	عدد السكان	المنطقة
٠٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	٧٠٠ر٠٠٠	١ر٣٠٠ر٠٠٠	الأريتريا
	تيجرى - أمهرة - شوا	الجبرت - واللوجالا	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	وسط الحبشة
	جوجام - أجاو	وبعض القاطنين في شوا		
٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠		
جوراجى - بعض	جوراجى - بعض	جوراجى - وغالبية	١ر٠٠٠ر٠٠٠	جنوب الحبشة
السيداما	السيداما	سيداما		
١٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠		
بعض القبائل في	بعض القاطنين في	منطقة قبائل الجالا -	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	الجالا
ليجا وعروسى وبوران	مقاطعة شوا	(لا تشمل اللوجالا		
		لسابق ذكرها ، ضمن		
		المناطق الأخرى		
		ولا تشمل الموجودين		
		في هرر)		
٢٠٠ر٠٠٠	٩٠٠ر٠٠٠	٣ر٤٠٠ر٠٠٠		
٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	عفر ساهو
مقاطعة هرر وتوابعا	مقاطعة هرر وتوابعا	مقاطعة هرر وتوابعا	١ر٥٠٠ر٠٠٠	الصوماليين
٢٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠		
٩٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٠٠٠	١ر٥٠٠ر٠٠٠	الزنج
١ر٤٠٠ر٠٠٠	٥ر٨٠٠ر٠٠٠	٧ر٤٠٠ر٠٠٠	١ر٤٦٠٠ر٠٠٠	

أى أن نسبة السكان كالاتى :

مسلمين / ٥٠
مسيحيين / ٤٠
وثنيين / ١٠

ولقد كان تقسيم السكان الوارد في كتاب (دليل افريقية الشرقية ص ٨٢
(Guida dell Africa Orientale) ذا دلالة هامة ، ولقد اهتمت به
كثير من المراجع ، وقال عنه أولندورف (ص ٣٢) « ولو أن هذا التقدير
يبدو أقل من الحقيقة ، ولكنه دلالة مفيدة على نسبة التوزيع العنصري ،
وعلى الأخص فإن النسب التقديرية بين العناصر الواردة به تمثل الحقيقة
إلى حد كبير .

ولذلك فقد رأينا أن نورده فيما يلي - بعد أن أضفنا الزيادة في السكان
من عام ١٩٣٩ - ١٩٦٥ بنسبة ١.٧٧٪ التي التزمنا بها في البحث . محافظين
على نسبة توزيع عناصر السكان التي اعتبرها أولندورف أقرب إلى الدقة ،
وقمنا بتوزيع كل عنصر منها بين الاسلام والمسيحية والوثنية بحسب المعلومات
التي تجمعت لدينا خلال مراحل هذا الكتاب ومن حسن الحظ أن التقسيم
الوارد في التقدير الايطالى المذكور لا بدع مجال الخطأ الكبير ، إذ أن العناصر
الثلاثة الكبرى فيه - واضحة معلومة .

العنصر الأول : الأقباط الأصليون بما فيهم الأجاو والبيجا . فن
للعلم أن غالبيتهم العظمى مسيحيين ، وجانب منهم مسلمون (وهم من
قبائل البيجا) أما بعض قبائل الأجاو فلا زالت وثنية .

العنصر الثانى : الجالا - وهم يشكلون نصف سكان الحبشة وغالبيتهم
العظمى من المسلمين ، وبهم عدد من المسيحيين ، أما الوثنيون فعددهم قليل
بعد أن فضل أغلب من تبقى من الوثنيين اعتناق الدين المسيحى ، الدين
الرسمى للحكومة .

العنصر الثالث : الصوماليون - وجميعهم مسلمون .

أما العناصر الأخرى فن الميسور تقدير نسبة توزيعهم بالاسترشاد بما
جاء في تاريخ المناطق التي يسكنونها .

وعلى ذلك فيكون الجدول المبني على التقديرات الإيطالية على الوجه التالي

وثنيين	مسيحيين	مسلمين	تقدير ١٩٦٥ - بمعدل ١,٧٪ سنويا	تقدير ١٩٣٩	أحياء أصليين بما فيهم الأجاو والبيجسا الجمالا العومالين سيداها عقرساهو الزئوج
٣٠٠.٠٠٠	٣.٣٢٠.٠٠٠	٢٤٠.٠٠٠	٣.٥٨٤.٠٠٠	٢.٤٠٠.٠٠٠	
١٤٠.٠٠٠	٨٠٠.٠٠٠	٢.٧٥٠.٠٠٠	٣.٣٦٠.٠٠٠	٢.٣٥٠.٠٠٠	
٥٠٠.٠٠٠	٥٠٠.٠٠٠	٣.٣٤٠.٠٠٠	٣.٥٤٠.٠٠٠	١.٤٠٠.٠٠٠	
٨٠.٠٠٠	٨٠٠.٠٠٠	١٦٠.٠٠٠	٣٣٠.٠٠٠	٢٠٠.٠٠٠	
٥٠٠.٠٠٠	٨٠.٠٠٠	١٣٠.٠٠٠	٢٤٠.٠٠٠	١٥٠.٠٠٠	
٩٠٠.٠٠٠	٢٠٠.٠٠٠	٥٠٠.٠٠٠	١.٦٠.٠٠٠	١.٠٠٠.٠٠٠	
١.٢٤٠.٠٠٠	٤.٤٤١.٠٠٠	٦.٠٠٠.٠٠٠	١١.١٩٠.٠٠٠	٧.٥٠٠.٠٠٠	الجموع

- أى أن المسلمين ٥٠٪ من مجموع سكان الحبشة .
- والمسيحيين ٣٨٪ من مجموع سكان الحبشة .
- والوثنيين ١٢٪ من مجموع سكان الحبشة .

هذا ونود أن نعيد إلى ذاكرة القارئ ما سبق أن ذكرناه أن الأبحاث أنفسهم قدروا نسبة المسيحيين بالحبشة عام ١٩٣١ بأربعين في المائة (٤٠٪) عندما بدأوا ينادون باستقلال كنيستهم عن الكنيسة المصرية (ص ٢٣٠ - جورج كيرك) وكذلك قدرهم - ارنست لوثر - كما سبق أن قلنا - بأكثر قليلا من الثلث (ص ٢٥ - لوثر) .

• • •

وفي ختام استعراضنا للتقديرات التي مرت بنا لافوتنا أن نذكر مرجعا هاما صدر في عام ١٩٦١ عبارة عن سجل لقارة افريقيا .
ولقد أصدره «كوكاين ليجوم» بالاشتراك مع هيئة تحرير مكونة من ٤٠ اخصائيا في شئون افريقيا - وأورد هذا المرجع معلومات محددة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بما نحن فيه من بحث نوردها فيما يلي .

قال عن أثيوبيا في ص ٧٩ ، وعندما تفكر في أثيوبيا يتجه بنا الفكر إلى تلك المناطق المسيحية التي تقع على أعالي الهضبة - وقد يكون السبب في هذا هو أن حكام هذه الدولة ينتمون إلى قبيلة الأمهرة الذين يسكنون تلك المرتفعات علما بأن تلك المرتفعات تشكل ثلث مساحة البلاد فقط . كما أنه الأكثر احتمالا أن يكون المسلمون بالحبشة وكذلك الوثنيين أكثر عددا من المسيحيين .

ولقد حدد الكتاب في الخريطة الموجودة في ص ٤٦٤ بصورة واضحة أن المسيحيين في أثيوبيا يبلغون ٢١٪ من السكان .
ثم عاد في صفحة ٤٦٨ وحدد عدد الأقباط في القارة الافريقية بنمسة

ملايين في مصر وأثيوبيا - فإذا استبعدنا الاقباط المصريين وعددهم ١٨٠٠.٠٠٠ (٧٥٠٪ من تعداد ١٩٥٧ ومجموع السكان في مصر عندئذ ٢٣ مليون) لبقى عدد المسيحيين في الحبشة ٣٢٠٠.٠٠٠ وهذا التقدير يعود للتأكيد بأن نسبة المسيحيين في الحبشة حوالي ٢١٪ السابق تقديره .

وعندما تعرض الكتاب للمسلمين ذكر في ص ٦٨؛ أن المناطق التي تغلب فيها الديانة الاسلامية هي - نيجيريا ومصر - شمال افريقيا - افريقيا الغربية الفرنسية - أثيوبيا - السودان .

• • •

وفي جميع تقديراتنا السابقة أغفلنا ذكر اليهود ، وأن كانت جميع المصادر الأوروبية تعنى بذكرهم في مزيد من الاهتمام لا يتناسب مع عددهم الذي لا يتجاوز ٦٠.٠٠٠ يهودى (الفلاشة) كما جاء تقديرهم في جميع تلك المصادر وعددهم على هذه الصورة ضئيل لا يقدم ولا يؤخر في الدراسة .

ملاحظة أخيرة هامة على التعداد ونسبة المسلمين إلى سكان الحبشة بما فيها الأريتريا أن دراستنا الحقيقية ومشاهداتنا على الطبيعة وتحرياتنا عن مناطق الحبشة وتبعنا لمراحل التاريخ المختلفة التي أوردناها في هذا الكتاب تعطينا من الأدلة القوية ما يشير إلى أن نسبة المسلمين في الحبشة تزيد عن النصف - بل هي بنتيجة بحثنا ومشاهداتنا تصل إلى ٦٠٪ من السكان .

ولكننا فضلنا أن نكتفي بما أوردناه في تواضع ، مقتصرين على ما استخرجناه من تقديرات غيرنا ، بعد تجميع شتات ماجاء متناثرا في مراجعهم ، ولقد كنا على ثقة من أرقامنا طوال السنوات الماضية ولكننا أشفقنا على أنفسنا من التعرض لهذا الموضوع ، إلى أن أناح الله لنا بعض الكتاب الاوربيين الذين بدأوا يكشفون الحجاب عن الحقائق المستورة وراء الستار الحديدى المضروب حول المسلمين في الحبشة ، مما فتح لنا الباب ومهد لنا السبيل لكي نتدلى بما عندنا من بيان ، مكثفين في نفس الوقت بالمعلومات والارقام التي وردت في مراجع هؤلاء الكتاب .

وإماما للفائدة ترفق مع الكتاب خريطة لدولة الحبشة الحالية ، مينا عليها توزيع السكان مسلمين ومسيحيين ووثنيين - ومنها يتضح أن الاسلام ينتشر في منطقة تقرب من ثلاثة أرباع البلاد .

• • •

كيف سيطرت الحكومة المسيحية (الأقلية) على البلاد :

قد يعجب بعض القراء من هذا الوضع الشاذ ، وقد يتساءل بعضهم كيف تمكنت الأقلية من السيطرة على الأكثرية . ونعتقد أننا استوفينا هذا الموضوع بحثا بما عرضناه في هذا الكتاب ومع ذلك فإنا نوجز هنا تلك الأسباب والعوامل التي جعلت الأقلية تتحكم في الأكثرية ، ودفعت بالمسلمين وهم غالبية بلاد الحبشة وأكثر عناصرها نشاطا وانتاجا إلى مايتقبلون فيه من ضغط وظلم وحرمان ونسيان واضطهاد .

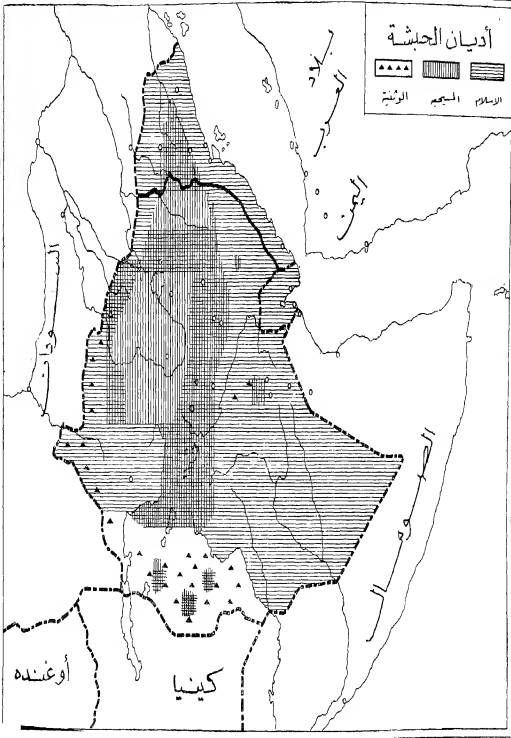
• • •

في عنوان الحركة الصليبية وفي أعقابها ، دفعت العصبية الدينية دول أوروبا وأشعلت حاميا للعمل على حماية الدولة المسيحية الموجودة في أعلى هضاب الحبشة من التغلغل الاسلامي الذي أوشك رحفه أن يقضى عليها ، وكانت الدول الأوروبية في ذلك الوقت في بداية عصر النهضة . الذي أخذت فيه دول أوروبا تبحث فيه عن مستعمرات ومناطق نفوذ ، وتسعى إلى السيطرة على مسالك التجارة ومصادر الثروة .

وكانت الامبراطوريات الاسلامية الكبرى قد انهكتها حروبها ضد الصليبيين وضد التتار ومع أنها انتصرت عليهما إلا أن قواها قد تضعفت ، وبذلك ورثت الامبراطورية العثمانية سلطان الدول الاسلامية . وسرعان ماوقفت وجها لوجه مع جميع الدول الأوروبية الناشئة التي كانت تتجمع وتتحذ تحت راية الكنيسة الرومانية ، وأخذت قواتها البحرية في الظهور مبتدئة بذلك عهود الاستعمار الاولى .

أديان الحبشة

▲▲▲▲	▨▨▨▨	▨▨▨▨
الوثنية	المسيحية	الإسلام



ولو أن الدول الأوروبية وعلى الأخص مملكة البرتغال ، كانت على صلة مع ملك الحبشة إلا أن صلتهم هذه أخذت صورتها العملية الحاسمة عندما قام الامام أحمد ابراهيم الأشول بالاستيلاء على جميع أرجاء الحبشة وأقام من نفسه حاكما مطلقا على الدولة ، عندئذ استجاب البرتغاليون لاستغاثة ملك الحبشة وهبوا لنجدته .

وكان البرتغاليون قد نجحوا في ذلك الوقت في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصلت أساطيلهم البحرية إلى الشرق ، حيث أسسوا لهم قواعدهم الحربية في شواطئ الهند - وتمكنوا من هزيمة الأساطيل المصرية وبعدها الأساطيل العثمانية في المحيط الهندي والمناطق الجنوبية من البحر الأحمر ، وسيطروا على تلك المناطق .

ولقد كانت المساعدة الوحيدة التي تلقاها الامام أحمد بن ابراهيم الأشول هي نجدة عسكرية من العثمانيين وشريف مكة قوتها ٩٠٠ جندي وبعض الاسلحة الحديثة ، فانتصر في موقعته الأولى مع البرتغاليين ، وعادت النجدة العثمانية إلى بلاد العرب . وعندئذ عاد البرتغاليون بأسلحتهم الحديثة وتمكنوا مع جيوش ملك الحبشة من القضاء على الامام أحمد الأشول .

ومنذ ذلك الحين ، وجمع الدول الأوروبية تعمل على تعزيز قوات المملكة المسيحية بمخلف الوسائل وتحت مختلف الظروف . في الوقت الذي زالت فيه سيطرة الامبراطورية العثمانية ونفوذها في البحر الأحمر ، ولم تقم للقوات الاسلامية قائمة بعد ذلك ، اللهم إلا تلك الفترة الحاطفة التي فحلت فيها القوات المصرية الشاطئ الاريقي الشرق وأسسوا امبراطوريتهم التي لم تدم إلا لحظة قصيرة ، وعندما انهارت ماليتها انقضت عليها تلك الدول الأوروبية الكبرى ، واستولت على الامبراطورية المصرية بدون مقابل ، وتخلصت مملكة الحبشة المسيحية مرة أخرى مما تعرضت له من خطر . بل وتمكنت عندئذ من القضاء على جميع السلطنات الاسلامية التي في داخل البلاد بفضل ماتلقته من كيات ضخمة من الاسلحة والذخائر - بينما كانت (٢٢ - الحبشة)

السلطنات الاسلامية محصورة لاحول لها ولا قوة ولا معين عز لا . من السلاح .
ويكنى هنا أن نعيد إلى الأذهان بيان دفعات الأسلحة التي أخذت تنهال
في تلك الفترة على أبوابة الحبشة ، والتي مكنت لهم من النصر والسيطرة :

١ - هدية الأسلحة والعتاد الحربي - التي تركتها حملة نابيير للإمبراطور
يوحنا الرابع وكانت عبارة عن مجموعة كبيرة من مدافع الميدان الحديثة ومدافع
المورتار ، وبنادق حديثة الطراز تكفي لتسليح فرقة كاملة (١٨٦٨) ^(١) .

٢ - حصل الملك يوحنا الرابع على مزيد من الأسلحة - من روسيا -
وكانت تتألف من ٥٠.٠٠٠ بندقية طويلة و ٥٠.٠٠٠ بندقية فرسان ، ٥٠٠٠
مسدس ، ٤٠ مدفع ٥٠٠٠ سيف وكمية وافرة من الذخيرة (١٨٨٥) ^(٢)

٣ - في عام (١٨٨٨) تلقى الملك منليك من الايطاليين المال والأسلحة
والذخيرة ثم عادت في ١٨٨٩ وأهدته مزيدا من الأسلحة مقداره ٣٨٠٠٠
بندقية و ٣٨ مدفعا ^(٣)

٤ - عندما شعرت الدول الأوروبية - إنجلترا وفرنسا وإيطاليا - بميل
الإمبراطور ليج ياسو (الإمبراطور المسلم) إلى تعزيز الاسلام والمسلمين
تحفرت ضده القوات الانجليزية في بربره ، والفرنسية في جيبوتي والايطالية
في مصوع وتحالفت مع امراء مقاطعة شوا ، وعزلوه عن الحكم (١٩١٦) ^(٤)

تلك هي الأسباب - أقلية تملك السلاح الحديث - وتؤديها الدول
الأوروبية الكبرى التي تحيط بالبلاد من جميع النواحي وتسيطر على جميع
للنافذ البحرية المحيطة بالمنطقة بينما الأغلبية لا سبيل لها إلى السلاح ولا تجد
لها من الدول الخارجية أى نصير .

وبذلك أصبحت الأقلية المسيحية - وعلى الأخص من القبائل الامهرية

(١) ص ٥٢٠ سيريدج Budge

(٢) ص ٥٢٥ نفس المرجع

(٣) ص ٥٢٧ ، ٥٢٩ نفس المرجع

(٤) ص ٥٤٥ نفس المرجع

يتألف منها الجيش والشرطة ورجال الامن والحكام والموظفون على الاطلاق وكل ما يترتب على ذلك معروف لا يحتاج إلى شرح .

° ° °

ولقد عودتنا الدول الاستعمارية الكبرى على تنوع سياساتها وأساليبها في مستعمراتها ومناطق نفوذها في العالم . تنتهج من السبل ما يتلاءم مع ظروف كل حالة وكل منطقة . ولكنها مع تعدد تلك الاساليب لها نتيجة واحدة متكررة وهي سيطرة أقلية مسلحة على أغلبية عزلاء . في الهند وأندونيسيا والهند الصينية وجنوب أفريقيا والكونغو والمستعمرات البرتغالية وروديسيا .. الخ مما لاحصر له .

وفي رأينا أن الوضع في الحبشة هو نفس الوضع الذي ارتضاه الاستعمار، وأتخذ نفس الشكل وأتبع فيه نفس الاساليب ، ولو أنها تختلف في الصورة إلا أنها بالنسبة للدول الأوروبية الاستعمارية تستخدم في نفس الهدف ، مادامت تضع في مركز القوة والنفوذ حكومة موالية لها معتمدة عليها ترتبط مصالحها بمصيرهم لها . ويمكن تعزيزها وتقويتها للاعتماد عليها لكي تكون معقلا دائما لها في القارة الافريقية ، تنطلق منه لتحقيق ما يعين لها من أهداف .

الفصل الثاني والعشرون

عدل

أما بعد ، فنحن نطلب للسليين في الحبشة العدل والانصاف ولا نطلب لهم الرحمة أو الإحسان .

° ° °

لقد انقضت عهود الاستعمار والسيطرة والاذلال والاضطهاد واجتمع العالم بمختلف دولة وشعوبه حول هيئة الامم المتحدة التي تمثل الرأي العام العالمي ، وتسهر على اشاعة العدل بين الناس وبين الشعوب وبين الدول ، وتأخذ بيد الضعيف وتقدم له يد المساعدة ، وتنزع له حقه من القوى . ولا تأل جهدا في تحقيق ذلك بالوسائل السلبية والاساليب الانسانية التي تملبها القيم المثالية للحرية والمساواة .

° ° °

حقوق الانسان :

من الاهداف الاساسية للأمم المتحدة أن تعمل على تحقيق المبادئ السامية لحقوق الانسان ، ولم يكن هذا الهدف حديث الابتكار ، ولكنه كان على مرور التاريخ أملا ينادى به الكتاب والمصلحون . وما أن بلغت الحرب العالمية الثانية قمة شدتها حتى شعر قادة العالم بالحاجة إلى وضع أسس الحريات على صورة أفضل مما كانت عليه في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لذلك عمدوا إلى تخصيصها بعناية متميزة ، وطالب الرئيس الامريكى روزفلت بالنص على تحقيق « الحريات الاربعة » - وهي :

حرية الرأي - حرية العبادة والاديان - الخلاص من الخوف
الخلاص من الفقر .

ولقد صدر ميثاق الأمم المتحدة في ١٩٤١ ونصت المادة ٥٦ على أن تلتزم الدول الاعضاء في الأمم المتحدة بالتعاون مع الهيئة للسمو باحترام العالم للحقوق الإنسان والحريات والمحافظة عليها .

وترك الميثاق لهيئة الأمم المتحدة مهمة العناية بهذه الحقوق وتفصيلها ووضع الأسس والأنظمة التي تتكفل بتحقيقها . وعلى أساس ذلك، تألفت لجنة حقوق الإنسان التي عهد إليها باعداد مشروع إعلان المبادئ التي يتختم على الأمم والحكومات أن تلتزم بها - بحيث تتكفل حقوقا معينة للمواطن - وأن يكون تصديق كل حكومة على هذا الميثاق بمثابة تعهد منها بالامتناع عن اتخاذ أى وسيلة من وسائل الظلم والأضطهاد ضد أية طائفة من طوائف شعبيها .

وعندما صدر « إعلان حقوق الإنسان » في ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، نادى بحق جميع الناس كافة في الحياة والحرية وفي سلامة أشخاصهم ، والتحرر من القبض التعسفي ، وفي حرية التنقل والسكن ، والكلام والصحافة ، والاجتماع والعبادة ، والحقوق القانونية الأخرى التي تُحميها عادة الدساتير الديمقراطية

وفي عام ١٩٥١ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة تحديدا جديدا لتوضيح أنواع حقوق الإنسان على شكل ميثاقين : الأول - يتضمن الحقوق الإنسانية والسياسية - والآخر : يتضمن الحقوق الإقتصادية والاجتماعية والثقافية

وعلى الدول التي تصدق على الميثاق الأول أن تلتزم بوضع القوانين الحامية لشعبيها من الظلم والاستبداد . والدول التي تصدق على الميثاق الثاني تعترف بواجبها ومسئولياتها في بذل كل ما تستطيع لتوفير أحوال معيشة أفضل وتعترف بحقوق قانونية معينة بالنسبة للضمان الإقتصادي والاجتماعي .

ولقد نص الإعلان في (مادة ٢١) على حق كل فرد من مشاركته في حكومة بلاده بطريقة مباشرة أو عن طريق نواب ينتخبهم في حرية تامة ، وكذلك لكل فرد الحق وتكافؤ الفرص في تقلده لمناصب الدولة .

ولقد نصت المادة الثانية من ميثاق الحقوق المدنية والسياسية ، على كل دولة تصدق على الميثاق - أن تتعهد بأن توفر لجميع الأفراد الموجودين داخل حدودها ويخضعون لقوانينها - جميع الحريات المحددة في الميثاق - دون تفرقة أو تمييز من أى نوع ، كالفرقة العنصرية على العناصر أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الآراء السياسية أو المنشأ أو المستوى الإجتماعى أو أى نوع من أنواع الفروق .

وكذلك نصت المادة ١٨ من أن لكل فرد مطلق الحرية فى الرأى والدين وأن يقوم بأداء شعائر دينية ويباشر ما يقتضيه ذلك من تدريب وتعليم . ولا يجوز أن يتعرض أى فرد لأى ضغط أو اضطهاد يحد من حريته الدينية أو يجبره على تغيير دينه أو معتقداته .

وكذلك نصت المادة الثانية من ميثاق الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية على نفس المبادئ السابقة الذكر .

* * *

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة وبإجماع الأصوات على الإعلان الخاص بالقضاء على جميع أشكال التفرقة العنصرية وقد عمدت فى هذا العدد إلى تأكيد المبادئ التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وكذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وجاء فى نص القرار « أن ميثاق الأمم المتحدة يقوم على مبادئ الكرامة والمساواة بين الناس جميعاً وأنه يستهدف ضمن أهدافه الأساسية تحقيق التعاون الدولى وتعزيز وتشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ، » وأن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان إنما يرفق ذلك مبدأ المساواة بين الجميع فى نظر القانون وأن لهم الحق ، بلا تمييز ، فيما يكلفه للقانون من حماية ، وأن للجميع الحق فى أن يستظلوا بحمايته ضد أية تفرقة أو أى تحريض على التفرقة ، .

وتؤكد هيئة الأمم على نحو له صفة القداسة ضرورة القضاء بأسرع ما يمكن على كل أشكال ومظاهر التفرقة العنصرية ، وتنص في مختلف المواد وعلى الأخص في المادة الثالثة بضرورة بذل الجهد لمنع أى تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو العنصر ، ولا سيما فيما يخص بالحقوق المدنية أو التمتع بحق المواطن أو التربية أو الدين أو الوظيفة أو المهنة أو السكن .

وتناشد الهيئة في المادة الثامنة - أن تتخذ الدول كل الوسائل الفعالة في مجالات التعليم والتربية والاعلام للقضاء على التمييز العنصرى وما يستتبعه من حيف ، والحث على أن تسود الأمم والطوائف العنصرية روح التفاهم والتسامح والصداقة .

* * *

ولسنا، في حاجة إلى الاطالة في ذكر هذه الحقوق ، فلا محل لمناقشتها أو إنكارها وفضلا عن أن جميع المبادئ الإنسانية والكتب السماوية تؤيدها وتحض عليها فان القارىء ولاشك يحيط بها في غير ما حاجة منا إلى زيادة الإيضاح .

ولكننا قصدنا تسجيل ملخص واضح للمبادئ التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة ، والتي لم تعد كونها عبارة عن آمال ونصائح وأهداف مثالية تملأ كتب الفلسفة والأخلاق والاجتماع ، ولكنها اتخذت شكلا عمليا محمدا بقواعد أقرتها هيئة الأمم وصدقت عليها الدول التي تستظل تحت راية الهيئة وعلى كل منها أن تعمل في إخلاص وصدق على تنفيذ هذه المبادئ ، وألا تلجأ إلى التوبة والتهرب والتعلل بمختلف الأسباب ، أو التستر وراء - المادة العنيدة في ميثاق الأمم المتحدة التي تمكن أى دولة من الاعتراض على التدخل في شئونها الداخلية .

* * *

ونحن وقد أثبتنا هنا حقيقة كبيرة تعلمها حكومة الحبشة حق العلم منذ

زمن بعيد وهي أن غالبية شعبا من المسلمين ، نأمل أن يحصلوا في عصر الحريات على أبسط المطالب التي تتمتع بها الأقليات في البلاد المتقدمة أو البلاد التي تعمل على اللحاق بركب التقدم ، ولا نظن أن الحبشة يزيد أن تتخلف عن هذا المضمار .

ولا يزيد أن نستمع إلى أي نعمة تبرر تمييز عنصر عن آخر في مثل بلاد الحبشة ، حيث لا يتكر أحد على المسلمين فيها نشاطهم وذكاهم واستعدادهم الكبير للثقافة والعلم والتقدم .

لذلك نأمل أن تعمل حكومة الحبشة على تحقيق مبادئ العدل والمساواة بين رعاياها ، في أسرع وقت ممكن - بأن :

١ - تشمل رعاياها المسلمين برعايتها على قدم المساواة مع المسيحيين .
٢ - تتيح لهم نفس الفرص في إقامة شعائرهم الدينية ، وأن تعاونهم على فتح المدارس التي يتعلم فيها المسلمون أصول دينهم . على نفس المستوى والعناية المتيسرة للمسيحيين .

٣ - وأن تولى الدولة نفس العناية للمسلمين في شؤون التعليم ، بأن ترى نصف طلبة المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها من المسلمين . وأن تتيح لهم نفس الفرص لإتمام التعليم العالي في داخل الحبشة وخارجها . وأن ترى نصف عدد البعثات من المسلمين - وألا تكون تلك البعثات مقصورة على القدر الذي يسمح به للتخصص في الدين في الأزهر الشريف . بل يكون شاملا لمختلف أنواع التخصص والمعرفة والعلوم الحديثة .

٤ - نأمل أن ترى في القريب العاجل وظائف الدولة على اختلاف درجاتها وأنواعها حقا مشاعا للمسلم بجانب أخيه المسيحي . وأن تكون نسبتهم في تلك الوظائف ودرجاتها بما يتعادل مع نسبتهم في عدد السكان .

٥ - وكذلك نأمل أن ترى نصف أعضاء مجلس النواب والشيوخ وكذلك نصف الوزراء من المسلمين .

٦ - وأن ينال المسلم شرف الجندية بالخدمة في القوات المسلحة الحبيبة على مختلف المستويات وبفلس النسبة السابقة حتى يشارك في شرف الدفاع عن بلده .

٧ - وأن تحظى المؤسسات الاجتماعية والخيرية الإسلامية بنفس الرعاية التي تحظى بها المؤسسات المسيحية .

٨ - وأن ينفق من إيرادات الدولة الجانب العادل في المقاطعات والمدن الإسلامية بحيث تنمو وتتقدم بمقدار ما تستحقه وبمقدار ما تقدمه للدولة مع موارد ، مثل ما تحظى به المقاطعات والمدن المسيحية .

٩ - وأن تعمل الدولة في اخلاص وحرز على اختلاط طلبة المدارس منذ الصغر حتى تزول التفرقة العنصرية والدينية ، وتتألف القلوب وتتكون منهم جميعا نواة الحبشة الجديدة المتحدة ، وينتهي عهد الحبشة القديمة التي مزقتها الخلافات والعصبيات والحروب .

• • •

ولانبغي مما أوردناه من آمال أي تحديد أو حصر ، ولكننا ذكرناها على سبيل المثال ، ونهدف منها تحقيق العدالة والمساواة التي لا يمكن أن يقوم لأي دولة كيان بدونها ، وبمعز علينا أن نتخلف إحدى الدول الأفريقية المرموقة عن ركب التقدم والحرية في الوقت الذي تتسابق فيه جميعها حتى نلحق بركب الحضارة والمدنية التي تخلفت عنه طويلا ، وأصبح لزاما عليها جميعا أن نستحث الخطى ونشجذ الهمة ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا إذا تكاتف جميع عناصر كل دولة مع بعضها في أخاء ومساواة واتحاد .

• • •

الملاحق

صحيفة

- ٣٦٣ ملحق رقم (١) التقويم التاريخي
- ٢٧٤ ملحق رقم (٢) جدول عناصر سكان الحبشة وأديانها (مترجم عن ج ١٦ من كتاب الإسلام في أثيوبيا لترمنجهم)
- ٢٧٥ ملحق رقم (٣) التقديرات المختلفة لتعداد سكان الحبشة .
- ٢٧٩ ملحق رقم (٤) مراجع عربيه
- ٢٨١ ملحق رقم (٥) مراجع أجنبيه
- ٢٨٢ ملحق رقم (٦) فهرست الأعلام والأماكن
- ملحق رقم (٧) تصويب

ملحق رقم (١) التفويض التاريخي

القرن البلادي	تاريخ الجبهة	التاريخ الإسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والغربي
الرابع البلادي	دخول المسيحية إلى الجبهة - عهد الملك ايرانا (٣٥٠) الجبهة تحت اليمين وحمية لفترة من الوقت (٣٥٠).	بلوغ الفرس قبة مجهم في عهد شاپور الثاني (٣٠٩-٣٧٩).	قسطنطين يوحّد الامبراطورية الرومانية الشرقية (٣٢٤-٣١٧) ويعيد مدينة القسطنطينية (٣٢٠).
السادس	حملة الجبهة على اليمين لحماية المسيحيين من اضطهاد ذي نوراس (٥٢٤).	إرهاب الأشرم القائد الجبشي في اليمين يحاول غزو مكة ويشعل الفرس يطاردون الأجناس من جنوب الجزيرة العربية ويحلون علمهم بها ابتداء من (٥٧٦).	الامبراطورية الرومانية الشرقية تطالب من الجبهة حماية المسيحيين في اليمين (٥٢٤) - ويمتد هذا أول اتصال دولي بين الجبهة والدول المسيحية الأخرى.
السابع	أول هجوم قلة المسلمين إلى الجبهة (٦١٥).	بداية الدعوة الإسلامية (٦١٠-٦١٣). انسحاب الفرس من اليمين. ودخول الدين الإسلامي إليها (٦٣٠) فتح العراق (٦٣٣) فتح دمشق (٦٣٥) فتح مصر (٦٤٠) فتح فارس (٦٤٠) فتح طرابلس (٦٤٧) فتح قبرص (٦٤٩). حملة عمر وبن العاص على عمالة الكوفة وعقد مهادنة لبيط (٦١) أول ظهور الاسطول الإسلامي في البحر الأبيض (٦٤٢)	هزيمة أسطول الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام الاسكندرية الامام الاسطول الإسلامي (٦٥٢)

القرن الميلادي	تاريخ الطبيعة	التاريخ الإسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والغربي	
الثامن	احتل المسلمون جزر الهندك (مصبح - ٧٠٢) - أول دخول الإسلام إلى شرق إفريقيا . بداية عورة الطبيعة .	حماية شواطئ العرب من قرصنة الطبيعة استولى المسلمون على جزر الهندك (٧٠٢) . حروب المسلمين مع البيزنطيين في آسيا - الصغرى (٧٤١) . إخلاءه العباسية (٧٥٠) .	طارق بن زياد يمزوا أسبانيا (٧١١) (الآنديس) وتهدد فرنسا وأوروبا الآنديس تنفصل عن خلافة الشرق تبدأ خلافات مستقلة في قوطية (٧٥١)	استيلاء العرب على صقلية وجزر إيطاليا واضطراب البابا الدفح الجزرية (٨٢٧) .
التاسع	خطوط جديدة تفيد بوجود مملكة إسلامية في مقاطعة شراف قلب الهندية (٨١٦) . انتشار الإسلام على طول الشاطئ الأخرى (الطراز) .	استولى المسلمون على صقلية (٨٢٧) ونزلوا في نابولي وجزر إيطاليا واضطروا البابا إلى دفع الجزية (٨٢٧) بدأ الصغارى والمسلمون المولدون في اثار القلاقل في الآنديس (٨١٧، ٨٥١)	استيلاء العرب على صقلية وجزر إيطاليا واضطراب البابا الدفح الجزرية (٨٢٧) .	
العاشر	اصطرب الأحوال الداخليّة - استعمار الامبراطور بالبطريرك الصغرى لابناء معمران لمساعدته في توحيد القبائل المسيحية . . وصل للطران دانيال في أواخر القرن العاشر . أنشأ عرب الطابع الصغرى من مستط وحصان مدينة مقديشيو . انتشار الإسلام بين قبائل السيبا في الأريتريا وشمال الهندية وتأثير ذلك في زيادة العمرة الجينية .	استمرار الإسلام في الانتشار على الساحل الأخرى للشرق - والانتقال إلى داخل الهندية .	الامبراطور أوتو يهنض بالامبراطورية الرومانية في النرب (٩١٢) .	

العراق المسيحي والفرنجي	العراق الإسلامي والشرقي	تاريخ الطبيعة	القرن البلادي
<p>النور مندوبون ينتهرون الخلفاء بين المسلمين في صقلية ويستولون عليها (١٠٧١) الجملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) الاستيلاء على بيت المقدس وأعمال القتل والنهب وحرق المسلمين في انار (١٠٩٩) اضطر باب السوحال في الأندلس وبداية النهاية القوية الإسلامية (١٠٨٣) واستجدام ببربر مراكش .</p>	<p>اصطفا الحاكم بأمر الله - جميع رعاياه - مسلمين ومسيحيين - هدمه الكنائس في القدس ثم إعادة بنائها - التجاه كثير من المسيحيين إلى الجبهة . الحاكم بأمر الله بأمر بحرق القاهرة (٩٩٦ - ١٠٢١) ضعف القاطنين - وفتح المسلمين لصفية (١٠٧١) ثم ما ظلة (١٠٩٨) ثم طرابلس الغرب (١١٤٦) استيلاء الأتراك السلاجوقيين على الشام بيت المقدس وآسيا الضغرى وإسامة معاملة الحجاج النصارى (١٠٧١) استولى الصليبيون على الشام وبيت المقدس (١٠٩٩)</p>	<p>استمرار الانتشار النازي نحو الاسلام - واستمرار وجود ملكة شوا الإسلامية في قلب جبهة الجبهة . السيطرة الإسلامية الكاملة على جميع الشواطئ الأفريقية الشرقية (الطرز) .</p>	<p>القرن السادس عشر</p>
<p>استمرار الحرب الصليبية في أوج حملاتها تحت قيادة ريموند قلب الأسد - وفرديك بارباروسا - وفيليب الثاني</p>	<p>استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبي للقدس (١١٨٧) - وتحت سلطانه على اليمن والحجاز وسوريا والسودان - ويرتد الصليبيين من أغلب معاقلهم في الأراضي المقدسة . حياة صلاح الدين الأجاكش في القدس . واصلاح دير السلطان (الجوفى) :</p>	<p>استيلاء الأسرة (الأجورية) على المشرق (١١٣٧) اخذانها مع السكينة . مع السكينة (١١٩٠-١٢٢٥) عهد الملك لايلاد الأجمري وانقائه استمرار الاسلام في العراق .</p>	<p>الثاني عشر</p>

المرن البلادى	تاريخ الجبهة	التاريخ الإسلامى والترقى	التاريخ المسيحى والغربى
الثالث عشر	<p>ابتداء عهد الأسرة السلجانية (١٢٧٠) ، بالامبراطور بيكونو أملاك. الروثية الفرنجية المكثفة حديثا تعيد بأن ملكه ثورا الإسلامية تعرض للمعاب - وسقوط ملوكها - وزحف قوات ملكة أيفات الإسلامية الناشئة عليها (١٢٣١ - ١٢٨٩) .</p> <p>اتصال دوك الجبهة بالهلبينيين للقيام بعمله مشاركة ضد مصر والمأمم الإسلامى .</p>	<p>ابتداء تفكك مملكة النوبة المسيحية على أثر حروبها مع سلاطين مصر - وتفتح النوبة لمجاهدات البيط (١٢٨٩) . فهاء غزواته وحصانا مزدهرة داخل أسبانيا (١٢٣٢ - ١٤٩٢) زحف التتار على البلاد الإسلامية (١٢٥٠) انتصار الممربة عليهم في موقعة عين جالوت (١٢٦٠) في عهد الظاهر بيبرس انتصار جديد للمسلمين على الصليبيين واسترجاعهم طرابلس الشام وصكا وزوال الخطر الصليبي (١٢٩٠)</p>	<p>استمرار الحروب الصليبية . الحملة الرابعة على مصر (١٢٠١) الحملة الخامسة على مصر (١٢١٨) الحملة السادسة (١٢٤٨) الحملة السابعة (١٢٤٩ - ٥٤١) هزينة الحملة الثامنة (١٢٧٠) .</p> <p>عجالة الصليبيين الاستمارة بالجبهة للقيام بحرب مشتركة ضد مصر والمسلمين . ابتداء عصر النهضة في أوروبا</p>
الرابع عشر	<p>اتصال البابا بملك الجبهة اتصاف عند الدول الإسلامية عند عهد سيون (١٢١٤ - ١٢٤٤) واضطاده للدين وعارضهم والاتصاف عليهم . استنجاد سلكي الجبهة بسلطان مصر وأثناء عهده الرئيس (١٢٣٧ - ١٢٣٨) . عهد الامبراطور سيف آرعد واتصافه على المسلمين وانتهاء سلطنة أيفات الإسلامية ، وحول سلطنة عدل عليها .</p>	<p>انحياز المسيحيين في الدول الإسلامية إلى الصليبيين - وتأييدهم للتتار عانف الناصر قلاوود الثالث اصطفايا للمسيحيين (١٢٠٩ - ١٢٤٠) وكان الأتيا اصطفايا الامبراطور صعابوسون لمسلمي الجبهة اثره في ذلك ابتداء الامبراطورية الشهابية واستناد فوقاتهم إلى داخل أوروبا</p>	<p>اتصال البابا بملك الجبهة اتصاف عند الدول الإسلامية عند عهد سيون (١٢١٤ - ١٢٤٤) واضطاده للدين وعارضهم والاتصاف عليهم . استنجاد سلكي الجبهة بسلطان مصر وأثناء عهده الرئيس (١٢٣٧ - ١٢٣٨) . عهد الامبراطور سيف آرعد واتصافه على المسلمين وانتهاء سلطنة أيفات الإسلامية ، وحول سلطنة عدل عليها .</p>

التاريخ المسيحي والعربي	التاريخ الاسلامي والشرق	تاريخ الجليظة	القرن البلادي
<p>اتحاد دول أوروبا وناسي الخلافات لوجه الخطر الاسلامي الختافي . وقدمو تموز لفرسة (1439) (1441) وحضره وفد من الجليظة . استيلاء المسيحيين على جميع أسبانيا وطرد المسلمون بداية التتعاظم الابر تنال بارثولوميو دياز ككتشف رأس الرجاء الصالح (1487-1488) حمله فاسكو دى جاما إلى الشرق (1497 - 1491) ملك الابر تنال جوناثان برفندال سئل إلى ملكة الجليظة اكتشاف أمريكا (1492)</p>	<p>انتهاء المسلم بين من قبرص واستيلائهم عليها (1429) فتح القسطنطينية (1453) . سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في أسبانيا (1492) وابتداء دول أسبانيا الوحدة تحت حكم فرديناند وإيزابيلا . بداية صعود الاضطهاد الكبير للمسلمين في أسبانيا وهرولهم من البلاد . وانقضاء على ثلاثة ملايين مسلم .</p>	<p>استيلاء ملك الجليظة إلى مندوب ملك الجليظة إلى ملك القريجة يعرض عليه تزويجه (1425) في عهد الملك اسحق (1414-1429) عهد الملك زرد . يعقوب - بانفت الاسرة الساسانية أوج بعدها (1434 - 1478) انتصر على المسلمين ووجد عددا كئبه للمرأة الأولى . في عهد زرد . يعقوب زادت الاتصالات الرسمية مع الدول المسيحية في أوروبا وخصوصا مع الملك الفرنسي ملك أراجون</p>	<p>السادس عشر</p>
<p>معركة بحرية بين أسطول الابر تنال والاسطول المرسي أمامهم بينا . ديوا الهندى واتصار الابر تنالين (1009) . كنيسة روما توجه عناية خاصة بالجليظة وتخصص مركزا خاصا لها في روما (1029)</p>	<p>استيلاء المغوليين على الدول الإسلامية برابوهم (1009) البرابز (1018) تونس (1034) صيدا (1042) مسقط وطرابلس المغرب (1051) اليمن (1078) امتداد سيطرة المغوليين إلى قلب أوروبا ووقوعها أمامهم (1029) واستيلائهم على الجزر .</p>	<p>هزمت ملكة الجليظة تمرد الاسبان على حروب المسلمين بعد ان اذدادا تقارهم (1020) وصرأ أول حملة عسكرية برتغالية وزرطفا في مصوع وسحرت المسجدة إلى كنييسة (1020)</p>	<p>عشر</p>

التاريخ المسيحي والشرق	التاريخ الإسلامي والشرق	تاريخ الجيعة	العدد الجاهلي
<p>البرتغاليون يرسلون الحملة العسكرية لمساعدة الجيعة (١٥٤٢) .</p>	<p>المغناطيون وشريف مكة يرسلون حملة عسكرية لمساعدة الإمام أحمد - دعوة الحملة مباشرة بعد الانتصار الأول على البرتغاليين .</p>	<p>ظهور الامام أحمد ابن ابراهيم الامبول وأول نصر كبير له على الاحباش (١٥٢٩) استيلائه على دوارو وشوا (سنة ١٥٣١) ، استيلائه على أمره الخ (١٥٣٢) إتمام سيطرته على جميع أنحاء الجيعة (١٥٣٧) - وانتشار الإسلام في جميع أنحاء الدولة .</p> <p>وصور لنا الحملة البرتغالية التي استحدثها امير اطورالجيعة (١٥٤٢) المغناطيون وشريف مكة بما دون الإمام فختصر على البرتغاليين - وتعود القوات الإسلامية إلى بلاد العرب فيجو دالبرتغاليون ومهم الامير اطور وينتصرون على الإمام وقتلوه (١٥٤٢) ،</p> <p>نهاية النزو والكبير وعودة الممكة المسيحية فوق هضبة الجيعة إلى سابق عهدهما - وبقاء البرتغاليين بها للمساعدة في تمزيقها .</p>	<p>تابع السادس عشر</p>

القرن العاشر	تاريخ الجيعة	التاريخ الإسلامي والعرفق	التاريخ المسيحي والعرفق
عشر	أصبح ذلك سكان الجيعة من الجبال وقد دالهما عدد المسلمين بنات السكان (١٢٢٤ - ١٢٢٣). يقرر يوحنا ملك الجيعة قواعد التفرقة الدينية ويبدأ سلسلة الانضواء فيحرم المسلمين من تملك الأراضي ويفرض على جميع السكان اعتناق المذهب الأرثوذكسي (١٢٨٢).	المغناطيون يتهزمون أمام البندنية (١٦٥١) الأسطول الفرنسي يضرب الجزائر وتونس (١٦٦٥). ينسحب المغناطيون من كيبف (١٦٨١) ومن الحجر (١٦٨٣) ومن بلفراد (١٦٨٨). وتستمر الحروب بين المغناطيين والدول الأوروبية، استعمار حروب المغناطيين مع الدول الأوروبية - وبداية تفكك الامبراطورية العثمانية. الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨)	إتمام القضاء على جميع المسلمين من أسبانيا (١٦١٠) ازدياد قوة الدول المسيحية برابجرا. واتصالهم على المغناطيين. أفواج المهاجرين إلى أمريكا (١٦٢٠). الثورة الفرنسية (١٧٨٩).
الثامن عشر	ازدياد تعداد الجبال وبلوغهم نصف السكان - تهديم لخصيتهم باعتناقهم الإسلام. الانقسامات الإقليمية في المملكة - وهزيمتهم أمام قوات ملكه الفونج السودانية (١٧٤٤). ضباب حية اللارك عما اضطرم إلى التفرق من الجبال ومصاهرتهم لتوطيد ملكهم. ازداد نفوذ الجبال وتجدت الفرص أمام الإسلام للربح من الانتشار وخصوصا في قلب الغصنة.		

التاريخ المسيحي والغربي	التاريخ الإسلامي والعرف	تاريخ المدينة
<p>تأسس الدور الال ورومية على المستعمرات ومناطق النفوذ في أفريقيا - وكان لبريطانيا نصيب الأسد .</p> <p>حمله نابيير (١٨٦٧) لانقاذ الاسرى الأوردو بين في الطبيعة ، وبعد انتصاره على تيودور في معركة جدلا - واتصار الأبراطور (١٨٦٨) تركت هدية لخليفتنا الملك يوحنا صارفة من كيات هائلة من الأسلحة والأخيرة الجديدة .</p> <p>بريطانيا تفتقر فرصة صارتا الثانية على مصر وتبين أنها ما في أهم المناصب ومناحكم اللجان المصرية في أفريقيا وأشرهم جوردون الذي تمكن من إبعاد جميع القوات المصرية والعمل على تخفيفه الإمبراطورية المصرية - وفوز بريطانيا بصليبها .</p> <p>الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢) وقتنا هذا إنما هي على القوة والمسكة في مصر بقوة وتفسيه الجيش والبحرية المصرية واستيلائها على أرضها والصومال البريطاني .</p>	<p>محمد علي بيك حكم مصر (١٨٠٥) وبيته بابا بك (١٨١١ - ١٨١٨)</p> <p>ويصبح السودان (١٨٢٢) .</p> <p>محمد علي يتصر على الشاين مرة في (١٨٢٢) مرة أخرى في (١٨٢٣) .</p> <p>عند ما وصلت قوات محمد علي إلى حدود المدينة (١٨٢٢) هدهه فغاص الدور الأوردوية .</p> <p>عبد اسمايل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) امتداد الأبراطورية المصرية فشملت السودان وأرضها وجميع العاطل في الأفريقي (١٨٦٦) حتى جنوب الصومال وهرر (٨٧٥) .</p> <p>لكافة الإمبراطورية المصرية حارب اسمايل عاربة الميضا فكان نصيبه المزية ثلاثة مرات .</p> <p>انهارت المانية المصرية - ووقع الخديوي فريية للاجباب وصل الاخص البريطانيين .</p> <p>عبد توفيق (١٨٧٩) ثم ثورة حرابي واستيلاء بريطانيا على مصر (١٨٨٢) أو اجاز الجيوش المصرية على الاسطاب من شرق أفريقيا (١٨٨٥) .</p>	<p>استمرار انتشار الإسلام بين قبائل الجبال والبا ترو وبين بعض قبائل النيجري في الأريتريا .</p> <p>عبد الأبراطور تيودور الذي أخضع جميع البلاد وأصبح إمبراطورا (١٨٥٥) وأغلب حكمه إلى سلسلته من التغييرات والظلم والطغيان - وقام باقتال عدد من الأوردوين .</p> <p>اخضع المسلمين والجبال بالزيد من الاصطاد القاسي .</p> <p>أرسلت بريطانيا حملة نابيير التي هزمت قوات تيودور وانتصر (١٨٦٨) .</p> <p>قول يوحنا الرابع المرش واعتمد على الاسلامة الكثرة التي تركها له امله البريطانية كهدية للقتناء على منافسه وتثبيت ملكه .</p> <p>قام يوحنا بحملة هائلة من التصعب الدين والاصطاد المسلمين وفرض عليهم أقسى القيود مستملا مالهه من اسلحة حديثة .</p> <p>حصله على زيب من الاسلامة من روسيا ابتناك في مشاركت مع الإيطاليين - ومع قوات المهدي انتهت هزيبته وقتله في موقعة التنة (١٨٨٩) .</p>

القرن
الخلافي
الفاصح
مصر

العقود التيلاوي	تاريخ الحجة	التاريخ الإسلامي والتشريف	التاريخ المسيحي والتشريف
تابع التاسع عشر	لم يتخلق قسوة يروحنا واضطهاده في تحويل المسلمين عن دينهم . بل أراد ان يقتلنا . ملك ملكا على تشوا (١٨٢٥) حصل على أسلحة من الإيطاليين وبدأ في إخضاع السلطنات الإسلامية استولى على مرس التي تركتها لاهال والأوروپية بدون حامية ١٧٨٧ منارك أصبح أمير اطورا (١٨١٩) وورث القادير الخالفة من الأسلحة التي كانت لدى ساقفة . فأسرع في القضاء على باقي السلطنات الإسلامية وأنضج جميع أنحاء الحجة تحت سلطانه مما عده أو شيلاي مع إيطاليا وحصوله على المزيد من الأسلحة	تتفاسم الدول الكبرى الامبراطورية المصرية وتترك مرس ليستول عليها ملك (١٨٢٥) . امتداد ثورة المهدي في السودان وقتل جوردون عميل بريطانيا الذي مهد لزووال الامبراطورية المصرية (١٨٨٥) افتتاح قنال السويس (١٨٦٩) وفتح الباب لسبولة تنفيذ الخطط الاستعمارية السابقة الذكر . ككتفتر يتصر على المهديين في السودان (١٨٦٩) وتم مؤامرة بريطانيا في الاشتراك مع مصر في حكم السودان وصور بابوا لكتها تنفرد بالحكم الفعلي وتستولى على أوغندا . عدان تصيح واستعمار بريطانيا ١٨٢٩	تعرض الإيطاليين بجنايك وانتصاره عليهم في موقعة صدوه (١٨١٦) . بالرغم من معاوية الدول الأوروپية لملك . فانه بعد انتهاء مهمته في القضاء على السلطنات الإسلامية وأخضاعه لقبائل الجبال بدأت الدول الأوروپية في التنافس والتآمر وصدق المهامات السرية لتقسيم الحجة إلى مناطق نفوذهم - عندما إعطيت صحة ملك وتقدم في السن .

التاريخ المسيحي والغربي	التاريخ الإسلامي والغربي	التاريخ الحديثة
<p>قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) .</p> <p>عندما أعلن ليج باسو اسلامه - اهمه الصلحاء (انجلترا - فرنسا - ايطاليا) بأنه يملك: الألمان .</p> <p>وتخزنت جيوشهم ضده في بربره وجيوش في ومموج حتى تم عوله (١٩١٦)</p> <p>الدول الأوروبية تنفق على تقسيم الحبشة إلى مناطق تفرز - ويقف منها الراس تفرى في وصية الأمم موثقا حاسما (١٩٢٦) .</p> <p>استعداد الايطاليين لغزو الحبشة وتراكم المعدات الحربية والمدنية في الاريتريا .</p> <p>ايطاليا تنزو الحبشة (١٩٣٦) ووصية الأمم تمنح عن تقديم أي مساعدة .</p> <p>عجالة ايطاليا تحويل الكنيسة الحبشية إلى المذهب الكاثوليكي تدريجيا ولكن انطلقت في ذلك .</p> <p>قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩)</p> <p>بريطانيا تجرد حملة من ثلاثة جهات وتقتضي على الاجلال الايطالي في الحبشة (١٩٤١) :</p>	<p>انجلترا تمنح الحماية على مصر (١٩١٤)</p> <p>اتباع الايطاليون سياسة المساواة في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة ووجد المسلمون في هذه المساواة منفسا لهم وتحسنت أحوالهم تحسنا موقفا .</p>	<p>الامبراطور المسلم (ليج باسو) يتولى العرش (١٩١٣) ويعلن اسلامه .</p> <p>تأثر الدول الأوروبية مع أمراء شوا ومطران الكنيسة على عوله وتم ذلك في (١٩١٦)</p> <p>تعيين زاودتو امبراطوره ، والرأس تفرى ولي العهد ووصيا على العرش .</p> <p>تفرى يقف في عصية الأمم ويندد بالدول الأوروبية التي تنفق للمساعدات السرية لتقسيم بلاده إلى مناطق تفرز لم (١٩٢٦) .</p> <p>عندما أصبح تفرى امبراطورا (جلاسلاسي) منح البلاد دستوراً صوريا (١٩٣١) .</p> <p>عمل في حكمه ودهاء على حرمان المسلمين من الوظائف والخدمة في الجيش والشرطة في اعطاهم بالغ مع تظاهره بالسماح الديني الاجلال الايطالي (١٩٣٦) أو بمناقرة هيلاسلاسي للبلاد مع طائفة من رجال البلاد .</p> <p>الاطاليون يعملون في صحة ونشاط في تنفيذ المبرورات الكنيسة ، لتكبر الكنيسة وتشتا انما انما لهم يدوم عت الايطاليين ضد الامبراطور امبراطور (١٩٤١) :</p>

التاريخ المسيحي والغزوي	التاريخ العلماني والفرق	تاريخ الجيعة	الفرق العلماني
<p>محاولة بريطانيا للحصول على امتيازات إقليمية في الجيعة ولكن الامبراطور رفض وبمسند استمرار للخلاف مدة من الوقت عقدت معاهدة (١٩١٩/١٢/١٩٤٤).</p> <p>الدول الأوروبية وأمريكا تتسابق في تقديم المعونات المختلفة للجيعة سواء داخل البلاد أو خارجها . وتعمل جاهدة على تأييد الجيعة في حصوها على المركز الثالث بين الدول أوزريقيا الناتجة . وتعتمد عليها في الحصول على حليف قوي يحفظ لها مساهماتها غير المباشر على شتون إفريقيا</p> <p>جميع الظواهر تدل على أن الدول الأوروبية وأمريكا سوف تعمل على بقاء الإرمضاع في الجيعة على الصوزة الرامنة تحت أي ظرف من ظروف المستقبل .</p>		<p>عودة الامبراطور الى اضطهاد المسلمين مع النظام بالسلمح- وعاد إلى حرماتهم من التعليم والوظائف والجيش .</p> <p>في تقرير مصير المستعمرات الإيطالية ، تقرر بدمصر اعجيبف وبعد تأييد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا أن تختم الاريقيبا إلى الجيعة في اتحاد فيدرال (١٩٥٠/١٢/٣) وأن يكون غلادستون وهاردينا المستقل . ولكن الامبراطور تمكن من القضا . على حريتها وأصبح دستورها جبراعلى ورق . الحالة الداخلية في البلاد لا زالت على ماكانت عليه من أقدم المصور . في أقصى درجات التخالف .</p> <p>الاتقسامات لازالت مستيطره على أشدها - أجناس وطوائف ولفات وأديان ومناطق - كلها متنازرة .</p> <p>التعبات المتكثف غيرراض عن حكم الامبراطور وحاول القيام بانقلاب (١٩٢٠/٣٠/١٩٢٦) ولكن فشل وصادالامبراطورلك عرشه</p>	<p>تأنيح المسلمين</p>

(ملحق رقم ٢)

جدول عناصر سكان الحبشة وأديانها

(مترجم عن ص ١٢ - من الاسلام في اثيوبيا لمرنجمام)

اليهودية	الرتبة	الاسلام	المسيحية	شمال
		القبائل التي تشكل التجري بنى عامريت أسجد - منساع بيت جوك. بيلين (بوغوس) جبرى	الحبشة (الحمايين ، اكيه ، جوازي شيزانا (وسراى) منساع - ييلين - بوغوس	قبائل كوش العليا
فلاشة (كايلا)	قامانت	جبرى	الاحباش (تجرى - امهرا جوجام وشوا - اجاو	
	جوارمى سيداما الغربية (اومينو وبعض القبائل الشرقية والشمالية)	جوارمى سيداما الشرقية (تامبارو هدية ، جارو وألابا	جوارمى سيداما (كائشو ، كامبانا شايو ، والامو ، ياما)	وسط
	قبائل ليقا قبائل عروس قبائل بوران	١ - والفو الشمالية - ييجو - رايا ٢ - الجالا (بين الجوارمى والنيل الازرق) ليو - جيرا جوما - نونو - بونو - جيا ٣ - مقاطعة هرر آلا سفوى ياسو - ايتو - ايليا ٤ - العروسي	والفو - قبائل شوا (اهيشو جوميشو - جالان - تولانا هورو صحراء جيا - سييو - شيللا - لبيان - ميشا - ميتا يشيشيو - كيككو - هيللو - سودو - سايو - اامبا)	جنوب
		عفر (الدنا كل) آسا - مارا - آرومارا ساهاو - آساورتا - هازو مبق فير - تيرو الخ	ساهاو - ليروب - لآب هال (رمبريلا)	الجالا (آروما)
	جويراميجا - كارا اسرار - جورى	صومال - دارود - هاوية رها نوبن		قبائل كوش الدنيا
	كونامار جوتزا - جوبا - سورى - كومو - جيرا نوير - ماو - ماجانومبو - مكان - داما توكاكا - كونسو - جاردولا - مخوطات البانتو	كوناما - باريا - وايتو بنى شقول - برتا - وطلاويط جاموشا - باننو - شيدلا شاييلى الخ	كوناها	شرق ساهاو
				صومال
				زنج

ملحق رقم (٣)

تقديرات تعداد سكان الحبشة

١ - تقديرات الادارة البريطانية لسكان الأريتريا (١٩٥٢)

الجملة	وثنيون	مسلمون	مسيحيون	
٥٢٤٠٠٠	٠٠	٣٧٠٠٠	٤٨٧٠٠٠	Tigrinyans تيجرينا
٣٢٩٠٠٠	٠٠	٣٢٢٠٠٠	٧٠٠٠	Tigray تيجري
٤١٠٠٠	٧٠٠٠	٣١٠٠٠	٣٠٠٠	Baria & كوناما Kunama
٢٣٠٠٠	٠٠	٢٣٠٠٠	٠٠	Danakil دناكل
٦٦٠٠٠	٠٠	٦٤٠٠٠	٢٠٠٠	Saho ساهو
٢٨٠٠٠	٠٠	٢٧٠٠٠	١١٠٠٠	Belata بيلين
١٠٣١٠٠٠	٧٠٠٠	٥١٤٠٠٠	٥١٠٠٠٠	

٢ - تقدير الايطاليين سنة ١٩٢٠ :

وثليون	مسيحيون	مسلمون		
	٢,١٠٠,٠٠٠		٢,٠٠٠,٠٠٠	الاجباش
١٠٠,٠٠٠	٢,٢٥٠,٠٠٠	١,٩٠٠,٠٠٠	٢,٢٥٠,٠٠٠	جالا
٦٥٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٢,٨٥٠,٠٠٠	الزنوج
		٢,٤٥٠,٠٠٠	٢,٤٥٠,٠٠٠	الصوماليون
٥٥٠,٠٠٠	٢,٠٥٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٢,٢٠٠,٠٠٠	سيدامو
		٢,٠٤٠,٠٠٠	٢,٠٤٠,٠٠٠	عفر (الدناكل)
٨٠٠,٠٠٠	٢,٦٠٠,٠٠٠	٢,٥٩٠,٠٠٠	٥,٩٩٠,٠٠٠	

٣- دليل أفريقيا الإيطالية الشرقية Guida dell' Africa Orientale Italiana
عام ١٩٤٠ :

٢٤٠٠٠٠٠	الأجاش الأصليون (بما في ذلك الأجاو والبجه)
٢٣٥٠٠٠٠	الجالا
١٤٠٠٠٠٠	صوماليون
٠٢٠٠٠٠٠	سيداما
٠١٥٠٠٠٠	غفر ساهو
١٠٠٠٠٠٠	زنوج
<u>٠١٠٠٠٠٠</u>	اسويون وأوروبيين (مقيمين بصفة دائمة)
٧١٠٠٠٠٠	

٤ - تقدير وزارة التجارة الأثيوبية (١٩٥٤) :

١٠٠٠٠٠٠	مقاطعة أروسي
١٨٠٠٠٠٠	بيجمدير
٠٩٠٠٠٠٠	جيموجوفا
١٦٠٠٠٠٠	جوجام
١٦٠٠٠٠٠	هرر
١٣٠٠٠٠٠	ايلوبابور
١٢٠٠٠٠٠	كاما
٢٠٠٠٠٠٠	شوا
١٢٥٠٠٠٠	سيدامو
١٠٠٠٠٠٠	تيجري
١٠٠٠٠٠٠	ولاجا
١٠٠٠٠٠٠	واللو
<u>١٠٠٠٠٠٠</u>	ارتريا
١٦٨٥٠٠٠٠	

٥ - تقدير ترمنجهام (١٩٥٢) - (ص ١٥) :

المجموع	وثنيين	مسلمين	مسيحيين	
٧٦٥٠٠٠٠	١٦٥٠٠٠	٢٥٩٠٠٠٠	٠٢٩٠٠٠٠	الأريتريا
٢٢٦٠٠٠٠٠		٣٠٠٠٠٠٠	٠٩٠٠٠٠٠	الحبشة
١٥٠٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	٠٢٠٠٠٠٠	الجالا سيداما
١٥١٧٨٣٢	٤٣١٦٦٣	٧٨٠٠٠٠٠	٠٢٠٦٠٠٠٠	هرر
٥٠٠٠٠٠		٥٠٠٠٠٠		ودنا كل
١٥٥٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	٧٥٥٠٠٠		جبور شمال غربي
٤٩٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	حدود جنوب عربي
٧٧٣٧٨٣٣	١٧٨١٦٦٣	٢١٠٤٠٠٠٠	٢٨٤٦٠٠٠٠	

٦ - تقدير كيرك Middle East in War by George Kiok (ص ٢٧٧) :

تقدير (١٩٣٠) {
 أقباط مصر ١١ مليون
 مسيحي الحبشة ٢٦ مليون
 مجموع سكان الحبشة ٦٠ مليون

ملحق رقم (٤)

مراجع عربية

- ١ - السودان الشمالى - للدكتور محمد عوض محمد .
- ٢ - تهذيب سيرة ابن هشام - للدكتور عبد السلام هارون .
- ٣ - تاريخ الاسلام - للدكتور حسن ابراهيم حسن .
- ٤ - السيرة الحلبية .
- ٥ - ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين .
- ٦ - نهاية الأرب - الجزء السادس والثامن عشر .
- ٧ - بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين .
- ٨ - تاريخ الطبرى .
- ٩ - صبح الأعشى للقشلقندى الخامس والسادس والثامن .
- ١٠ - النجوم الزاهرة - الجزء الرابع .
- ١١ - طائفة الدروز - للدكتور محمد كامل حسين .
- ١٢ - الدعوة للاسلام للسير توماس ارنولد ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن .
- ١٣ - العصر الممالكي - للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
- ١٤ - حضارة العرب لغوستاف لوبون - ترجمة الاستاذ عادل زعبيتر .
- ١٥ - مختصر دراسة التاريخ لارنولد تونبي - ترجمة الاستاذ فؤاد شبل .
- ١٦ - مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية لاستاذ محمد صبيح .
- ١٧ - بوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين .
- ١٨ - الاسلام في القرن العشرين للاستاذ عباس محمود العقاد .
- ١٩ - الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
- ٢٠ - تاريخ العرب لفيليب حتى .
- ٢١ - تاريخ تمدن الاسلامى لجورجى زيدان .
- ٢٢ - الاسلام فى اثيوبيا لزاھر رباح .
- ٢٣ - تاريخ العالم - الجزء السادس .
- ٢٤ - عصر اسماعيل للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

- ٢٥- تقويم النيل لامين سائى باشا .
٢٦- مصر والسودان - للدكتور محمد فؤاد شكرى .
٢٧- الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر - الدكتور شوقى
عطا الله الجمل .
٢٨- الخليج العربى والعلاقات الدولية للدكتور محمود على الداود .
٢٩- مصر فى افريقيا - للدكتور محمد صبرى .
٣٠- الحبشة للدكتور راشد البراوى .
٣١- تاريخ أوروبا الحديث تأليف فيشر وترجمة أحمد نجيب هاشم .
٣٢- كتاب المسلمين فى الحبشة للاستاذ تيسير غلبان الكيلانى .

ملحق رقم (٥)

مراجع اجنبية

- (1) A History of Ethiopia, Sir E.A. Wallis Budge (1928).
- (2) Ethiopia Today : By Ernest Luther (1964)
- (3) The Ethiopians : By Ullendorff, Edward (1960)
- (4) Islam in Ethiopia : by J. Spencer Trimmingham (1952)
- (5) Le Terre Del Lago Tane . by Raffaele Di Lauro.
- (6) Encyclopedia Britannica.
- (7) Storia D'Efhlopiia . by Conti Rossini .
- (8) Islam and the Arabs . by Rom Landaw (1958).
- (9) Preaching of Islam . by Sir Thomas Arnold.
- (10) A History of The Crusades . by Sjr Steven Runciman.
- (11) Portugal in Africa . by James Duffly.
- (12) The Blue Nile . by Alan Moorehead.
- (13) Inside Africa . by John Gunther.
- (14) In the Country of the Blue Nile . by C. F. Rey.
- (15) The ETHIOPIAN CRISIS . by Ludwig Schaefer.
- (16) The Middle East In the War . by George Kirk.
- (17) Government of Eththopia . by Perbam.
- (18) Economic Backwardness & Economic Growth
by Harvey Leibensteln.
- (19) Demographic Year Book U.N. (1962)
- (20) Gnida dell Africa Orientale,

فهرست الاعلام و الأماكن

		(١)
اسحق - ملك الحبشة ١٠٤-١١٩		أباى - النيل الأزرق ١٢
اسماعيل - الخديو ٢٠١-٢١٦-٢٢٢		أبا باغيو ١٦٥
أصحمة ٥١-٥٤		أبرهه ٤١-٤٣-٤٤
أصفاوصن - الأمير ٣٠٩-٣١٢		أبو بكر محمد سلطان هرر ١٤٩
أكسوم ٨-٣١-٤٨		أبو بكر باشا ٢٢٤
ألفونسو دالبوركك ١٠٥-١٤٤		ايتنا سيوس ٤٠
ألفونس - ملك أراجون ٩٠٥		أجام ديدلى ٢٩
أميرا ٨-٦١-١٧٨		أجاو ٢٢-٦٠-٦٦-١٨٧
أمانويل - ملك البرتغال ١٤٣		أحد الأشول الإمام ١٥٠-١٥١
أمبا الأاجى ٢٥٠		١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧
إميليو دى بونو - المارشال ٢٧٠		١٥٩ - ١٦٦ - ١٦٨ - ١٧١
أوجادين ٢٧٣-٢٨٩-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥		١٨٦-٢٠٦
أوريان الثانى - البابا ٩٥		أديس أبابا ٢٤٧-٢٧٥
أوغندة ٢٠٠-٢٢٠		أرايينى ٨٧
أولندورف ٧-٢٩-٣٤		أراجاش ٢٤٣
١٦٣-٣٤٤		أرحه ٥٤
أوشياللى - معاهدة ٢٤٨-٢٧١		أرنولد - سيرتوماس ٦٩-٩٢
إيدن ٢٧٣-٢٧٨		٩٤ - ١٠٢ - ١٦٣
إيديسوس ٢٩		إريتريا ٧-١٨-١٨٤-٣١٥
إيزابللا - ملكة قشتاله ١٣٤		إرياط ٤٠-٤٣
إيفات ٨٤-١٠٨		إزانا ٣٨
أيللا أصحه ٤٠		

۱۳۸-۹۵	بطرس الناسك	(ب)	
۱۱۹-۱۰۴	بطرس لوزنجان	۸۸-۱۸	بالی
۲۸۵	بلات - الجنرال	۷۷	بازین
۳۳	بلقیس	۱۸۳-۱۷۸-۱۳۶-۱۸	باجدیر ۱۸
۱۹۱-۱۸۸-۱۸۴	بلاودن	۲۷۵	بادولیو - المارشال
۲۱۳-۲۰۶		۱۴۳	بارتولوميو دياز
۱۳۵	بليدا - الراهب	۱۴۱	بايزيد الاول - السلطان
۲۱۳	بندیقی (الفنصل)	۶۰-۲۳-۲۰	بچه - بیجا
۷۹	بیرس (السلطان الظاهر)	۲۱۰-۱۸۴-۸۱-۷۱	
۱۳۹-۱۲۲-۱۱۴-۹۸		۱۵۵-۵۳	بجر نجش
۱۱۴	بیلان	۱۳	بجر دار
۱۹۱	بیل	۹-۶	بدج - سیر والس
۱۰۴	بورکییر	۱۱۹-۸۶	
۲۹	بیبی الاول	۱۱۱	بدر الجمالی - الوزير
۱۴۱-۹۵-۴۵-۴۰	بیزنطه	۱۷۲	بدر و بايز
	(ت)	۳۱	بردی الیفاتین
۱۲۰	تبریزی - نور الدین	۱۲۰-۱۱۸	برسبای (السلطان)
۱۶۳-۸۴-۸۰-۱۱	ترمنجهام	۸۱-۷۷-۱۴	برکة
۳۴۲-۲۶۵-۱۶۶		۵۵-۳۵-۸	بروس
۱۵۶-۱۵۴-۱۲	تسانا	۱۵۸-۱۴۵	برسترجون
۲۴۹	تساما - الرأس	۷۷	بقط
		۷۷	بقلین

۱۲۷	جمال الدين (السلطان)	۲۳۶	التمايش
۹۴	جوينو	۲۶۲-۲۶۱-۲۵۹	تفری - الرأس
۲۰۱-۱۰۰	جوردون - الجفرال	۱۳	تسکازی
۲۳۰-۲۱۹		۱۰۶	تسکاهیا نوت
۲۲۲-۱۳	جوبا	۲۴۶	تورهان کاهان - المنسبور
۶۱-۸-۹	جوجام	۸۰-۶۱-۱۸-۸	تيجری
۱۷۸-۱۲۶		۱۸۸-۱۸۴-۱۵۶	
۲۲۱	جوکما - الرأس	۳۰۴	
۱۷۸-۹	جونفار	۱۴۰-۱۳۹	تيمور لنگ
۲۸۷-۲۵۳		۱۸۲-۱۷۰	تيدودر - الامبراطور
۱۴۵	جون الثاني - ملك البرتغال	۲۴۰-۲۱۲-۱۸۹-۱۸۷	
۳۴۲	جون جنتر	(ج)	
۲۷۲-۲۳۲-۱۰	جيوتی	۱۳	جاش
۲۹۵-۲۵۷	جيج جيغا	۱۶۰ ۱۵۲ ۲۵	جاللا
۱۸۲-۱۶	جيجا	۱۷۹ ۱۷۸ ۱۶۲	
(ح)		۱۸۵ ۱۸۱ ۱۸۰	
۲۰	الحامين	۲۲۲ ۲۷ ۱۸۸	
۹۳-۶۴	الحاکم بأمر الله	۲۵۳	
۲۹	حتشيسوت	۱۰۹	جبره - جبرتی
۸۱	حدارب - حدرات	۱۴۶-۶۱	جعز
۱۲۷	حق الدين (سلطان)	۴۹	جعفر بن أبي طالب
۱۰۴	حنا جيرمان	۱۶۰-۱۵۶-۱۵۳	جلادويوس

۱۸۵	روبل	(خ)	
۱۰۶	روسینی - الکونت	۸۳ - ۷۱	خالد بن الولید
۱۴۵	رودریجو دی لیا	۱۵۴	خاله الوردی
۳۱۸	روباطینو - شرکت	(د)	
۳۹	رفینوس	۸۸	داره
۲۲۴ - ۲۲۲	رؤوف باشا	۳۴۵ - ۱۷۵	دالمیدا - مانویل
	(ز)	۶۳	دانیل - المطران
۲۲	زاجوی	۲۷۹ - ۱۰۸	دبرا لیانوس
	زاودیتو (الإمبراطورة) ۲۴۱ -	۶۵	درزی
۳۶۱ - ۲۵۹		۱۵۶ - ۶۳ - ۱۴	دناکل
۱۴۸ - ۱۲۹	زره یعقوب	۸۹ - ۶۸ - ۶۳	دهلك
۷۴	زنجبار	۴۳ - ۴۲	دوس - ثعلبان
۱۹۷	زولا	۲۶	دیپسا
۷۴	زید - الزیدین	۲۹۳ - ۲۵۸	دیر - داوا
۱۲۸ - ۸۸	الزلیعی - عبد الله	۲۷۸ - ۲۵۳ - ۲۴۳	دیسی
۱۱۰ ۱۰۹ ۸۹	زیلع	۱۴۶ - ۱۴۴	دیو
۲۷۳ ۲۲۱ ۱۱۵			
	(س)	(ر)	
۲۱	سامین	۱۱۸	رانسیجان
۲۸۵	مانفورد - الکلونیل	۲۲۴	رضوان باشا
	(۲۵ - الحبشة)		

(جـ)	٢١٠ - ٢١٣ - ٢١٢	سعيد باشا
صبر الدين (سلطان) ١٢٧٠	١٤٢	سليم الاول
صلاح الدين الايوبي ١٠٩٧	٣٢٠	سليمان الحكيم
صوميل بيكر ٢٠١٢ - ٢١٩	٢٤٤	سلامة (المطران)
صوبال ٢٥ - ٧ - ٢٢٢	٩٣	السمعاني
(ع) ٧٠ - ١٠٠ - ١٠٠	٢٢٥	سهيبت
العباد - السلطان ١٠١٠ - ١٠٢٣	٥٥ - ٣٥ - ٩٠	سولت - القنصل
عباس - الوزير ١٢٥٠	٣٣٠ - ٢١١	
عبدوه ٢٥٠ - ٢٧١	١٦٨ - ١٨	سيدامو
عدل ١٠٩ ١١٥ ١٤٩	١٢٨	سيفا أرعد
عروسي ١٨ ١٦٣ ١٨٣	٣٢٣ - ٢٩٣	سيفيا بانكهرست
عقر ساهو ٢٧ - ١٦٠	(ش)	
علي - الرأس ١٨٨	٢٢٠ - ٢١٩	شاليه لونغ
عمداسيون ٨٦ - ٩٠ - ١١٠	١٩٢ - ١٨٤	شثيرن
١٦٤	٢٣٨	شفايفورث
عمر كيتو ٢٣٣	٢٨١	شكيب ارشلان
عمر القاضي - محمد ٢٣٤	٨٣ - ٦١ - ١٨ - ٩	شوا
(ف)	٢٤٠ - ١٦٧ - ١٥٦	
فاسكودي جاما ١٠٥ - ١٤٣	٢٨٤	شيانو - الكونت
القاسي - أحمد بن ادريس ١٨٤	٨٣	شيرولي
	١٨٧ - ١٩٠ - ٢٩٥	شيفيا

	(ك)	۱۷۳	ظانیلاداس - الامبراطور
۲۴۳	۱۶	۱۷۸	۱۷۴
۴۰		۱۴۴	فرانسيسكو دالميدا
۲۰۲	۱۹۹	۱۳۴	فرديناند - ملك أرجونه
۱۹۱	۱۹۰	۳۹	فرمنتیوس
۵۴	۳۴	۶۵	فهد بن ابراهيم
۱۵۶	۱۴۶	۳۷	فلاشه
۲۳۳-۲۲۴-۱۹۲-۱۵۳-۱۳		۶۹	فون كرم
۷۴		۱۰۵	فيليب دى ميزير
۲۱	۵		(ق)
۳۵۰		۱۴۱	قايقباي - السلطان
۲۸۵		۱۲۹	قطر - السلطان
۱۴۵		۲۲۳ ۲۱۷	قسايو
۱۹۲		۷۹	قلاوون (السلطان)
۲۲۵		۱۲۷ ۱۱۵ ۹۸	
	(ل)	۴۴ ۴۱	القليس
۶۷ ۲۹		۱۴۸ ۱۴۱	اقتضوه الغوري
۲۵۳-۲۵۱-۲۴۳		۲۲۵	قورع
۳۴۳	۳۴ ۷		لوتر

			(م)		
١٦٩	١٦٨	٦٣	مصوع		
٢١١	١٩٧	١٧٩		١٣	مارب
	٢١٨	٢١٣		٢٤٩	مارشان
٧٩			المغتصم	١٩٨	مارى تيريزا ريبال
١٣٩			المثول	١٨٣	١٦٥ ماساجا-كاردينال
٩٢			المقتدر	٣٠٦	٢٤٥ ١٨٦
١١٠	٧٤		مقديشو		٣٤٦ ٢٠٧
١٠٩	٨١		المقرزى	٢٥٠	ماكال
٩٣			المهدى (السلطان)	٢٤٩	٢٤٨ (راس) ماكونن
٢٣٥-٢٠٦			المهدى - محمد أحمد	٣٣	ما كيدا
١١١			المنتصر	٧٨	مأمون (الخليفة)
٩٢			المنصور	٢٣٧	المنه
٣٣	٣١		منليك الأول	٩٢	٧٩ المتوكل
١٩٦-١٩٥-١٦٦			منليك الثانى	٢٧٥	متاوس (المطران)
٢٤٠	٢٢٥			٢١٢-٢١١-٢١٠	محمد على باشا
٢٠٢	١٩٧		مورهيد - ألان	١١٥	مركو بولو
٢٧٤	٢٧٣	٢٧١	موسولنى	٧	مروى
٢٧٩				١٩٨	١٩٥ ١٩٠ مجدلا
١٦٤			موتسنجر		٢٤٠
٢٦٠			منن (الامبراطورة)	٨٣	٧٦ الخرووى
١٨٤			الميرغنية (السادة)		
٣١٦	٢٠٣	٢٠٢	ميروينر		

٢٦١-٢٥٥-١٩٩	هياسلاسى	(ن)	
٢٨٨	٢٨٧	١٩٧	١٩٣
	(و)	٣١٥	٨٠ ٦
١٨٠	١٦٦ ١٨	١٦٠	نور الدين بن مجاهد
٣٤٥	٢٥٤	٣٣٥	٢٣٤
١٦٨	١٨	٣٤	نيبورا إد يشاق
١٠٩	ولاشما	(هـ)	
٢٧١	والوال	١٩٥	١٨١
٢٣٠	ولديب ولد مريم	٥٤	هارتمان
١ ٢	وليم آدم	٢٨٦	هايلو (الراس)
٢٨٦	ونجت (السكرولونيل)	١٠٨	٨٧
٢٦	١٣	١٦٠	١٠٩ ١٨
	(ى)	١٨٣	١٦٩ ١٦٨
١١٥	يجاسيون	٢٣٤	٢٢٢ ٢٢١
٦٧	٣٥ ٩		٢٤٨ ٢٣٥
١١٤	١٠٦	١٤٤	٧٤
١٧٦	يوحنا الأول	٢٣٤	(الميجر)
٢٠٣-١٩٩-١٩٦	يوحنا الرابع	١٣	هوايت
٢٠٥		١٣٩	هولاكو
٤٤	٣٦ ٣١	٢١٣	هوبر (القنصل)
	الين	١٥٣	١٤٨
			هيلينا (الملكة)

تصويب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
طوائفها	طوائف	٦	٨
طوائف	طوائفها	٧	٨
Arusi	Hrsai	٥	١٨
Kebra Hegest	Hebra Kogest	٤	٣٤
يسمع	يسمح	١٦	٤٠
الثامر	السامر	٧	٤٢
أسواقاً	أسوقا	١١	٤٨
أساقفته	اساقفته	١٦	٤٩
القرية	القرية	٦	٥٢
الصليب	الصلب	٨	٦٥
تفصيل	تفضل	١٦	٧٤
الأهالى	الأوالى	١٤	٩٧
الأمر الذى	ما	١٣	١٢٠
على	لك		
تغلبت	تغلب	٢٦	١٩٢
أم للارتباط الوثيق بين الحبشة المسيحية مع الكنيسة المصرية ، أم للرابطة الدينية التي تربطها مع مسلمى الحبشة	إضافة جملة كالآتى	٧	٢١٠
ويعنون	ويعنون	٩	٢١٥
أبد	أبر	١٣	٢٢٠

الصواب	الخطأ	الصفحة	السطر
وتعزيز	وتعزيزاً	٦	٢٣٥
المنتمه	المنتمه	١	٢٣٧
البلاد	البلاء	٢٠	٢٤٢
شوكه	شركة	٢	٢٤٧
الإيطاليين	الإيطاليون	١	٢٤٨
الأوروبية	الأفريقية	١٢	٢٥٨
تفرى	تفرى	١٢	٢٦٠
التوسط	المتوسط	٦	٢٧٢
إعدادات	إمتدادات	٩	
كنالك	كناللق	٩	٢٧٩
مجلسى	مجلس	٩	٢٩٨
إبقائها	إبقائها	٣	٢٤٢

شركة الطياع - الفنية المتحدة
١٥ شارع المتعام، إ.د. - الرياض

محتويات الكتاب

- الإسلام في الحبشة أغلبيته
- عرض شامل لتاريخ الحبشة
- كيف إنتشر الاسلام خلال القرون .
- سيطرة الأقلية على الأغلبية وأسبابها .
- الأرتريا - مصرها - نضالها

الناشر

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



0231184

١٢٧

النن ٧٥ قرش